آفاق الترجمة والتعريب

نجاة عبدالعزيز المطوع
أستاذ مساعد كلية التربية

التمهيد

تزايدت في العقود القليلة الماضية الجهود العربية لتحقيق التطوير الشامل لمواكبة الدول المتقدمة . وتستند أغلب الجهود الى الأفكار والنظريات العلمية لهذه الدول . وقد نتج عن ذلك شيوع استخدام المؤلفات والمصطلحات الأجنبية ، الأمر الذي يتطلب العمل على الحد من تفشي هذه الظاهرة في مختلف مراحل ومستويات النظام التعليمي في الوطن العربي .

وقد حظي التعريب في مجال العلوم والتكنولوجيا باهتمامات كثيرة منذ بداية النهضة العربية الحديثة ، وأصبح محوراً هاماً في المؤتمرات والملتقيات العلمية على مختلف المستويات .

وتمثل اللغة العربية أحد العوامل الرئيسية والدعامات الهامة التي يرتكز عليها الشعور بوحدة الأمة العربية ، بالاضافة الى الرابطة الدين الاسلامي . ومن هنا فان استخدام اللغات الأجنبية بدلاً من العربية يؤدي الى إضعاف الكيان الثقافي والفكري في العالم العربي .

ولم ينحصر دور اللغة العربية كأداة للتعبير والتفكير على العرب وحدهم ، بل امتد نفوذها من المحيط الى الخليج ، حتى أصبحت لغة دولية للعلم والحضارة . وقد استفادت أوروبا عبر التاريخ من المصطلحات العربية العلمية وخاصة في مجالات الفلسفة والهندسة والرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية . كما تركت اللغة العربية آثاراً على اللغة الأسبانية والتركية ، وكانت تدرس في الجامعات الأوروبية[1] .

---

(١) الخطيب محمود محمد (١٩٧٦) عملية التعريب - الأساليب - المشاكل والحلول ، مجلة العلوم الاجتماعية ، ع٦ س٣ ص ١٣٦ - ١٦٢ .

واستطاع العرب عبر العصور أيضاً الاتصال بالحضارات المختلفة ونقل ما لديها من تراث وعلوم وآداب وفنون ، كالتراث الإغريقي والفارسي والهندي ، وترجمة المفيد منها الى اللغة العربية ، ثم إعادة صياغتها بقالب عربي .

وهذا يقودنا الى التمييز بين الترجمة والتعريب . فالترجمة هي نقل من لغة أجنبية الى ما يقابل النص أو المصطلح العلمي باللغة العربية ، ونجاحها يعتمد على مدى استيعاب المترجم للغتين وإجادته لفن الترجمة . وقد أصبحت الترجمة أحد فروع اللغة التطبيقية والعلوم المتصلة بها مثل علم اللغة النفسي والاجتماعي . ولذلك فان إعداد المترجم لا يقتصر على تمكينه لغوياً بل إعداده أيضاً في ميادين المعرفة المختلفة .

وقد سادت حركة ترجمة هائلة في المشرق العربي منذ القرن الماضي بين المثقفين العرب تناولت نقل الروايات والمسرحيات والقصائد الأوروبية من الفرنسية والانجليزية الى اللغة العربية ، مما ساهم في إحداث الفهم الحضاري والاجتماعي للتعريب ، الا ان هذه الجهود اصطبغت بصبغة فردية وفقاً للظروف المحيطة بالأفراد .

أما التعريب فانه محاولة نقل الكلمات أو المصطلحات العلمية من لغة أجنبية الى اللغة العربية ، مع تحويرها لفظاً لتلائم النطق العربي ، ولغتنا تزخر منذ زمن طويل بالمصطلح المعرّب . ويمكن القول إن الترجمة والتعريب أمران متلازمان ويتطلبان نمو اللغة العربية بشكل متطور لتواكب ركب الحضارة ، وبناء نهضة عربية جديدة ، وتحقيق البعد الوطني والقومي والانساني للثقافة العربية . وهنا يؤكد أن حركة التعريب لا تلغي أهمية دراسة اللغات الأجنبية في الوطن العربي ، خاصة وان دراستها تعتبر مطلباً أساسياً لإعداد المترجم الجيد .

وقد استطاعت اللغة العربية عبر التاريخ أن تؤدي مهامها القومية كاملة كأداة أساسية للاستيعاب والتطبيع والابداع ، وكلغة للحياة والفكر والعمل ، الا أنها واجهت صراعات كثيرة مع لغات أخرى ، نتيجة لهجمات أجنبية حاول أصحابها احلالها محل اللغة العربية من ناحية ، وعزلها تماماً عن مجالات التعليم والبحث والادارة والاعلام من ناحية أخرى . ولم تستطع أن تحافظ على مكانتها كلغة رئيسية للتعليم الا في مؤسسات تربوية تقليدية مثل الجامع الأزهر في مصر وجامع الزيتونة في تونس وجامعة القرويين في المغرب .

وهكذا تعطلت اللغة العربية خلال عهود السيطرة الأجنبية عن تأدية جوانب هامة من دورها الطبيعي كلغة قومية أو لغة أم ، مما ترتب عليه عزل اللغة عن مسار التطور التاريخي للمجتمع العربي ، وساد استخدام اللغة الأجنبية في التعبير عن الاحتياجات المتصلة بحياة المجتمع العربي . ومع مرور الزمن اتسعت الهوة الفاصلة بين لغتنا والتطور الاجتماعي ، واقتصر استخدامها في بعض الأقطار العربية على نطاق محدود ، حتى أصبح ينظر اليها على أنها لغة متخلفة .

وقد بذلت جهود كبيرة لمواجهة هذا الوضع ، وتمكنت بعض الدول العربية من الحفاظ على اللغة ، بحيث تقوم بدور رئيسي في بعض المجالات كالآداب والسياسة والاعلام والدين . وظل الاعتماد على اللغة الأجنبية والترجمة في التعبير

عن احتياجاتها الأخرى مستمراً حتى أصبحت اللغة العربية تابعة للتطور بدلاً من أن تكون مواكبة له . وخير دليل على ذلك الصعوبات التي تواجهها المجامع اللغوية العربية ، « ففي حين ينكب المجمع اللغوي في بلد تعيش فيه اللغة القومية وضعاً طبيعياً ، على دراسة ما يحدث من تعابير ومضامين جديدة في نطاق اللغة الأم لتحويرها أو تكريسها ، أو اكسابها الشرعية ضمن اللغة المكتوبة والمنطوقة ، تنكب المجامع العربية على البحث عما يقابل تعابير أجنبية قد استعملت بالفعل ، وأشيعت في لغة الاستعمال ، ثم تجهد نفسها باستعمال المقابل العربي عوض التعبير الأجنبي بدوافع وطنية قومية لا دافع الحاجة الفعلية المتأكدة للتعبير[2] » وهكذا لم تعد اللغة معبرة عن الهوية الثقافية العربية .

إطـــار التعريب العام ومفاهيمه :

ظهر العديد من المفاهيم حول التعريب نتيجة للظروف السياسية والاجتماعية التي يعيشها كل بلد . ويمكننا القول بصورة عامة إن الهدف من التعريب هو أن تكون اللغة العربية أداة تثقيف ومعرفة وتنظيم اجتماعي واقتصادي وتوجيه سياسي .

وفي هذا الصدد يبرز في الوطن العربي من خلال الخبرة التاريخية نموذجان للتعريب : النموذج المشرقي والنموذج المغربي . وكلا النموذجين يتفاعلان مع بعضهما في مجالات إسهام العرب ومشاركتهم في الحضارة العالمية الحديثة من خلال ادارة لغوية ممثلة باللغة العربية . ويشمل النموذج المشرقي كلا من مصر والسودان والبلدان العربية الأربعة (في القاهرة ودمشق وبغداد وعمان) . وقد اتسم هذا النموذج بالسمة اللفظية والصبغة الفنية التخصصية الدقيقة . وهو يتكون من جانبين أساسيين هما : المشتق الترجمة العربية واستخدامها للفظ الفني والثقافي والعلمي الأجنبي من ناحية ، وإدخال اللفظ الأجنبي بذاته وبعادته الى اللغة العربية ، حيث يصطلح على تعميم استعماله ضمن مفردات اللغة العربية من ناحية أخرى .

وأما المفهوم المغربي للتعريب فانه يعنى بشمول عملية التعريب وعموميتها لجميع الأنشطة داخل المجتمع .

ويمكن التمييز بين مفهومين للتعريب من حيث مجالات العمل والتفكير باللغة العربية ، فهناك المفهوم الديني الاسلامي والمفهوم التعليمي أو المفهوم الاجتماعي الحضاري والمفهوم الأدبي العلمي . ويربط المفهوم الأول للتعريب بين العربية والاسلام ، وقد افتتح العرب البلاد الأخرى بدافع ديني دعمه عامل اللغة . وبهذا اعتمدت الأمة العربية في قيادة العالم الاسلامي على أصالتها الحضارية والثقافية وعلى لسانها الناطق بلغة القرآن الكريم[3] .

ويعني المفهوم التعليمي للتعريب اعتماد النظام التعليمي في البلاد على اللغة العربية كوسيلة للتدريس والتحصيل . وهو يستند إلى التعريب في التعليم بجميع مراحله وذلك لأنه الميدان العريض للاختبار والتجريب وسرعة

---

(٢) الدوري ، عبد العزيز (١٩٨١) اللغة العربية والهوية الثقافية وتجارب التعريب ، المستقبل العربي ، ص ٦-٢٣ .

(٣) نازلي معوض أحمد (١٩٨٦) التعريب والقومية العربية في المغرب العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ص ٣٦ .

ظهور النتائج وتعميم الفائدة من أجل التخطيط للمستقبل . وقد تحقق هذا المجال من التعريب في البلدان العربية ، الا أنه لا يزال بحاجة الى مزيد من العناية في الصومال والجزائر والمغرب[٤] .

ويندرج في إطار هذا المفهوم كل من المفهوم الفوري الأفقي والمفهوم التدريجي العمودي من حيث الأساليب الفنية المستخدمة لتطبيق التعريب . ويعنى المفهوم الفوري الأفقي بنشر اللغة العربية في تعليم المواد الدراسية في مرحلة كاملة من مراحل التعليم كما هو متبع في المغرب العربي . وهذا يتطلب جهوداً ضخمة وتكاليف هائلة من أجل التدريس باللغة العربية وإعداد المعلم القادر على استخدام اللغة استخداماً سليماً بالاضافة الى توفير الكتاب الدرسي الشامل .

وقد ظهر المفهوم التاريخي العمودي للتخفيف من المطالب السابقة الذكر وهو يهدف الى تعليم مواد محدودة باللغة العربية في مرحلة دراسية متكاملة أو تدريس جميع المواد التدريسية المقررة باللغة العربية في سنة دراسية معينة ، الى تعميم اللغة تدريجياً في سنوات التعليم ، سنة بعد أخرى كما يجري في الكليات العلمية في العراق .

وهناك أيضاً المفهوم القطاعي في التعريب ، أي سيادة اللغة العربية في قطاع معين من قطاعات المعرفة كعلوم الطبيعة والرياضة ، أي نقلها فنياً ولفظياً من اللغة الأجنبية الى اللغة العربية ، أو الاقتصار على تعريب لغة التعليم الجامعي أو العالي ، أو تغليب اللغة العربية على مراكز البحوث العلمية في الدول المعنية أو قصر المعاملات داخل وزارات الخدمات والمرافق العامة على استخدام اللغة العربية دون غيرها من اللغات .

وفيما يتعلق بالتعريب الاجتماعي فانه يتطلب استخدام اللغة العربية في جميع نواحي ومستويات الحياة الفردية اليومية ، كما يستلزم استبعاد دور اللغات الأجنبية كوسيلة للارتقاء الاجتماعي أو كمؤشر للتمييز بين طبقة اجتماعية وأخرى . ويتلازم هذا المفهوم الاجتماعي للتعريب مع التعريب الحضاري ، والذي بدوره يستهدف التفتح العربي الفكري على مقومات الحضارة العالمية الحديثة من ناحية ، وتحرير الارادة العربية من التخلف التكنولوجي والتبعية الثقافية والاقتصادية الأجنبية من ناحية أخرى . ولعله من المفيد الاشارة هنا الى التجربة اليابانية ، حيث استطاعت اليابان أن تصبح دولة عظمى من النواحي التكنولوجية والفنية والحضارية في فترة زمنية قياسية وأصبحت تنافس دول أوروبا وأمريكا من حيث أحداث التفاعل والانصهار بين حضارتها الوطنية الأصلية وبين مختلف المعارف العالمية الحديثة التي تمكن الشعب الياباني من استيعابها وجعلها جزءاً من مقومات الحضارة اليابانية ، وفي الوقت نفسه ظل هذا الشعب حريصاً على تراثه الاجتماعي المتميز وتمسك بهويته اليابانية .

والتعريب يعني باختصار إعطاء اللغة العربية في البلاد العربية منزلتها الطبيعية كلغة قومية تضطلع بمهمة التعبير ، بصفة رئيسة أساسية ، عن كافة المضامين والمفاهيم المتداولة في المجتمع ، كما تعتمد لغة رئيسة في البحث والتعليم بجميع مراحله واختصاصاته ، وتتخذ لغة عمل الادارة والاقتصاد والاعلام وكافة مرافق المجتمع ومؤسساتها .

---

(٤) لجنة تنسيق التعريب (١٩٨٦) المدخل في اللغة العربية للخطاب العام ، دولة الكويت مركز بحوث المناهج وزارة التربية ، دولة الكويت ص ١ .

فالتعريب بهذا المعنى ، يهدف الى تحقيق وضع لغوي طبيعي في الأقطار العربية ، تعتمد فيه اللغة الأم لغة أساسية تماماً ، كما تعتمد اللغة الأم في مختلف البلدان التي لا تخضع لتبعية لغوية ثقافية . والتعريب بهذا المعنى أيضاً ، يمثل وجهاً من وجوه العمل الوطني والقومي ، لمواصلة حركة التحرر ومقاومة الاستعمار ، باستئصال رواسبه في مستوى الثقافة والاستعمال اللغوي ، والتعريب في هذا السياق يدخل في إطار السياسات الحكومية الخاصة باللغات ، وعلاقة اللغات بعضها ببعض والمشكلات الناجمة عن ذلك .

واقــع الترجمــة :

تتلخص أهداف الترجمة في الوطن العربي في التأكيد على وحدة اللغة العربية وقدرتها على التعبير عن حاجات العصر ، والابتكار في اللغة العربية وإغنائها وتطويرها والحفاظ على بقائها ، وإدخال اللغة العربية في قائمة اللغات العالمية من أجل استعادة هويتنا الحضارية والاسهام في الحضارة العالمية .

الا أن الملاحظ أن الترجمة الى العربية لا تزال تفتقر الى البرامج على المستويين القطري والقومي ، كما أنها لم تبن على دراسة الواقع الراهن بلغة التطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، والآفاق المستقبلية في الوطن العربي ، ولم تسع لتلبية متطلبات العصر ، ودرجة النضج عند القارىء . ونتيجة لذلك فان الترجمة ما تزال تعاني من قصور أنظمة التعليم عن تدريب المترجم المتخصص في فرع عدد من العلوم . ويكتسب هذا الموضوع أهميته من محاولته التغلب على الواقع العشوائي والمزاجي الذي تعاني منه الترجمة في الوطن العربي .

وترتبط قضيتا الترجمة والتعريب ارتباطاً وثيقاً بالواقع الحضاري للأمة العربية فالترجمة هي مرحلة هامة وضرورية من مراحل التعريب ويمكن أن تسبقه .

وهناك فجوة علمية وتكنولوجية تفرض وجودها على قضية الترجمة والتعريب ، وتتضح هذه الفجوة بين الدول المتقدمة التي تخطو الى الأمام بسرعة مذهلة مقارنة ببلداننا العربية . فالعلوم المختلفة تتجدد في الدول المتقدمة بمعدلات متزايدة في حين تتسم بالركود في الدول النامية ، مما يعني ركود اللغة معها .

وقد أصبحت عملية نقل العلوم والمعارف الى اللغة العربية ضرورية ، وتعتبر الترجمة الأداة الهامة لعملية النقل تلك ، الا أنها مرحلية وليست غاية في حد ذاتها ، اذ لا يكفي نقل المعارف بمعانيها المباشرة دون معانيها الفعّالة . فلا بدّ من تطوير عملية الترجمة لكي تقترب أكثر الى التعريب ، فالوقوف عند حد الترجمة لا يكفي .

وقد برزت اتجاهات جديدة في عمليات تنظيم حركة الترجمة في العالم العربي ، فتشكلتْ عدة لجان للتأليف والترجمة والنشر ، وعقدت حلقة علمية عام ١٩٧٣ لبحث قضية الترجمة والتعرف على معالمها الرئيسة بالاضافة الى جهود مكتب تنسيق التعريب في هذا الحقل(*) .

(*) سفر ، محمود محمد (١٩٨٤) « منظور حضاري لقضايا الترجمة والتعريب » تعريب التعليم العالي ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ص ١٤٥ – ١٦٠ .

وبهذا فان أولى دعائم النهضة العلمية العربية الاسراع بخطوات الترجمة باعتبارها الركيزة الأساسية في حقل علوم الشعوب المتقدمة والحضارات المتطورة علمياً الى المثقفين والباحثين والمهتمين بأمور البحث العلمي بحيث تسهل لهم الدراسة والاطلاع باللغة التي يفهمونها - اللغة الأم - فيستوعبون مقررات العلوم ويهضمون عناصرها ويقتنعون بنتائجها[٦] .

المصطلح العلمي والتعريب :

ان التعريب لا يتنافى مع استخدام بعض المصطلحات في البداية باللغة الأجنبية لأن اللفظ المفرد شيء وأسلوب التفكير ولغة التدريس والكتابة شيء آخر .

فاستخدام المصطلحات الأجنبية لا يعيق تطور العلم ، ولكن التعليم باللغة الأجنبية تدريساً وتأليفاً يحد من قدرة المتعلمين الفكرية والابداعية . فهو يستنفد قدراً كبيراً من مجهودهم الفكري الذي يصرفونه في تعلم اللغة الأجنبية ومحاولة التفكير بها . واستجابة المتعلمين للغة الأم لا يمكن أن تكون كاستجابتهم للغة أجنبية مهما أتقنوها ، كما أن استجابتهم للغة أخرى غير مألوفة لهم يظل محدوداً ، وقد تظل ظاهرة النبوغ والابداع أكثر وضوحاً بين أصحاب اللغة بالمقارنة بمن يفكرون بلغة أجنبية[٧] ، والعمل على ايجاد المصطلح العلمي العربي وخاصة في مجال العلوم التطبيقية يبقى ضروريا من أجل اغناء اللغة العربية وتطويرها الا ان هذا لا يعني ان التعريب لن يتحقق دون تعريب المصطلح[٨] ، لأن التعريب في المجال العلمي يسبق تعريب المصطلحات . اذ ان تعريب العلوم يستدعي تعريب المصطلحات وايجادها ، واستخدامها حتى يتم الاستقرار على المصطلح الملائم ، كما ان استعمالها المستمر هو الذي يرسخها .

وقد اثبتت اللغة العربية أنها قادرة على التعبير في شتى فنون العلم ، وأنها استوعبت كل ما نقل اليها من علوم الأمم الأخرى في الفلسفة وفي المنطق وفي الطب والصيدلة والكيمياء والرياضيات .

وهكذا فان الزعم بأن اللغة العربية لغة تصلح للفقه والأدب والشعر ولا تصلح للعلوم الطبيعية والطبية زعم غريب ، لأن كل لغة صالحة للانتاج الفكري لغة قادرة على التعبير والاستيعاب[٩] ، خاصة وأن لتعريب العلوم جانباً اجتماعياً خطيراً يجب الا نهمله ولا نغفل عنه لأن عزل اللغة العربية عن تلك العلوم يعني إبقاء المجتمع العربي نفسه بعيداً عنها .

إن إحياء التراث العلمي العربي أمر له أهمية كبيرة ، ففي كتب الأقدمين آلاف الألفاظ التي نحتاج اليها كما دلت على ذلك الكتب العلمية التي تم نشرها . ومن الواجب أيضاً إشراك أكبر عدد من المختصين والهيئات والاتحادات العلمية العربية المعنية بالاضافة الى إنشاء مؤسسة عربية تتولى إصدار مجلات ونشرات علمية باللغة العربية .

---

(٦) السبع ، محمد مروان (١٩٨٢) «الترجمة والنهضة العلمية العربي» ، ع ٢٨٣ ، ص ٩٦ - ٩٧ .

(٧) القسم ، رياض (١٩٨٢) اتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي : مجلد (٢) مؤسسة نوفل ، بيروت ، ص ١٩٤ .

(٨) الخلالة ، جميل (١٩٨١) «المسوغات القصة على درب التعريب» مجلة مجمع اللغة العربي الأردني ، ع ٣٠ ، س ١٠ ، ص ٣٢ - ٣٨ .

(٩) الخوري ، شحادة (١٩٨٢) تعريب التعليم الطبي والصيدلي في الوطن العربي ، ص ٤١ - ٤٣ دار الرائد العربي ، بيروت ، ص ١٩ .

بعض معوقـات التعريب :

تتعرض عملية التعريب الى عقبات لا يستهان بها ، فالأمر لا يتوقف على توفير بضعة مصطلحات في هذا التخصص أو ذاك ، أو الاكتفاء بترجمة كتب علمية فقط ، وانما التعريب قضية مستمرة ومعطلة الجوانب نتيجة للتوسع المعرفي والتقني في العالم .

ويتفق المهتمون بالتعريب على أن النظام التربوي لا يزال يعاني من قصور في طرائق تدريس اللغة العربية ، فعلى الرغم من تدريسها في جميع المراحل التعليمية ، غير أن الطلبة لا يحسنون التحدث أو الكتابة بها بصورة سليمة بسبب تركيز مدرسي اللغة على حفظ الطالب للقواعد وليس على تمكينه من التعبير الشفوي والكتابي[١٠] .

كما أن انتشار اللهجات المحلية يحول دون استخدام اللغة العربية الفصحى بصورة مرضية ، رغم أنها القاسم المشترك بين أبناء الوطن العربي . ويستند بعض المناهضين للتعريب الى المسافة الفاصلة بين العربية الفصحى وهذه اللهجات ، على الرغم من ان الفجوة بينها تتضاءل تدريجياً منذ أوائل القرن الحالي نتيجة لتوسع التعليم[١١] .

ولا شك أن التخلف الحضاري والعلمي الذي تعاني في معظم الأقطار العربية والتبعية الثقافية الغربية ، يلعبان دوراً رئيسياً في عرقلة قضية التعريب ، خاصة في المؤسسات العلمية أو الجامعية أو الثقافية .

وتبذل مجامع اللغة العربية جهوداً كبيرة لتحقيق التعريب ، الا أن الانفصال بين النظرية والتطبيق في أعمالها لا يزال واضحاً ، اذ أن الكثيرين يشكون من عدم توفر القواميس العلمية العربية الحديثة في العلوم المختلفة ، ومن عدم سرعة المجامع اللغوية في إيصال ما تنتجه من جهود الى المؤلفين والطلاب ، ومن قلة الدعم المالي لها[١٢] .

ومع ان اللغة العربية صالحة لتدريس العلوم الانسانية والعلوم التطبيقية الحديثة الا أنها تعاني من قلة المراجع العلمية والتقنية والكتب الدراسية في حقل الطب والصيدلة والبيطرة والهندسة والكيمياء والفيزياء والعلوم الحياتية ، كما يعاني المتخصصون من نقص واضح في المصطلحات العلمية العربية ، وهذا يضطرهم الى الاستعانة باللغات الأجنبية ومصطلحاتها ، خاصة وان المصطلح العلمي العربي لم يستكمل توحيده بعد في الوطن العربي ، مما يؤدي الى فوضى التعريب على الساحة العربية .

ويؤدي ذلك الى تفاوت القدرة اللغوية بين المعربين ، اذ من النادر أن نجد عالماً ضليعاً بأسرار العربية يتقن التخصص الذي يعرب له ، ومن ناحية أخرى فان اختلاف التأثير الثقافي الأجنبي في البلاد العربية ينتج عنه اختلافات في المفاهيم والنقل والترجمة والتعبير ، أضف الى ذلك اختلاف المناهج في التعبير والتعريب بين الجامعات والمجامع والاتحادات والمنظمات العلمية ، فالبعض يترجم معنى المصطلح في ضوء المعاجم اللغوية العربية ، ويميل البعض الى التوليد ، ويبقي آخرون الكلمة كما ينطق بها ، ولا يقبلون بها بديلاً حتى أصبح لبعض المصطلحات الأجنبية عدد من

---

(١٠) عطار ، أحمد عبد الغفور (١٩٨٢) : قضايا ومشكلات لغوية ، الكتاب العربي السعودي ، جدة ، ص ١١٦ ـ ١١٩ .
(١١) المسدي ، عبد السلام (١٩٨٤) : « الازدواجية والثنائية وأثرها في الواقع العملي » ملتقى ابن منظور : دور التعريب في تطوير اللغة العربية : ترقية العربية في تونس ، الدار التونسية للنشر ، ص ٩٥ ـ ١٠٦ .
(١٢) الفرحان ، اسحاق (١٩٨٤) : دور المجامع اللغوية في الحياة العلمية العربية المعاصرة ، الموسم الثقافي الثاني ، مجمع اللغة العربية الأردني ، ص ١٤٤ ـ ١٥٥ .

المصطلحات المعربة تختلف باختلاف الأقطار العربية ، بل تختلف أحياناً باختلاف المعربين في القطر الواحد(١٣) . وهكذا فان عدم الالتزام بالمصطلحات العربية المتفق عليها وعدم توحيد المصطلح قد فوت فرصة تنمية ويدد الجهود المبذولة .

وقد تؤدي الاستعانة المستمرة بالخبرات الأجنبية ، وبخاصة في مجال العلوم الرياضية والطبيعية ، إلى عدم قدرة الأجنبي على تكييف المادة الدراسية بما يناسب الثقافة العربية والاسلامية ، مما قد يؤدي الى هيمنة الثقافات الأجنبية على حساب التراث العربي الاسلامي .

الجهود العربية في التعريب :

اختلفت تجربة التعريب في الوطن العربي باختلاف الظروف الخاصة بكل قطر منها الا ان العامل المشترك بينها ظل التعريب الجزئي المحلي الذي تبدأ به كل دولة على حدة ، والذي غالباً ما يصطبغ بالصبغة الأدبية قبل العلمية ، حيث تسابق المهتمون الى نقل الأدب الأجنبي الى اللغة العربية . وهذا الأمر مفيد لأن التعريب لن يكتسب معناه الحضاري الشامل الا بترجمة الأعمال الأدبية والفنية . كما بذلت الجهود بهدف تعريب التعليم العالي في محاولة لنقل الدراسات العلمية من اللغة الأجنبية الى اللغة العربية من أجل رفع المستوى التحصيلي للطلبة .

ومن المفيد استعراض بعض التجارب في هذا المجال ففي الأردن أصبح تعريب التعليم الجامعي أحد مسئوليات مجمع اللغة العربية منذ تأسيسه في عام ١٩٧٦ . فقد قام المجمع بترجمة عدة كتب علمية في مواضيع الفيزياء والجيولوجيا والأحياء والرياضيات والكيمياء للسنوات الجامعية الأولى مستعيناً بمشاركة أساتذة الجامعات(١٤) .

وقد واجهت هذه التجربة بعض المشكلات من أهمها ندرة الكفاءات العلمية العالية التي وصلت الى درجة رفيعة في تخصصها وفي اللغتين العربية والأجنبية ، وكذلك عدم منح المترجمين إجازة تفرغ من مؤسساتهم . وبالاضافة الى ذلك فإن افتقار المطابع العربية الى التقنيات الحديثة يجعلها تعاني من البطء في الانجاز وعدم الدقة في العمل خاصة فيما يتعلق بالجوانب اللغوية والفنية . وعلى الرغم من الصعوبات الآنفة الذكر ، فقد تمخضت عن هذه التجربة نتائج مرضية تصلح لأن تكون أساساً متيناً لاستمرارها وتعميمها(١٥) .

وفي العراق تمثل تعريب التعليم الجامعي في مجموعة القوانين والقرارات التي دفعت بالتعريب الى حيز التنفيذ . وليس التعريب في العراق حديث العهد ، ففي عام ١٩٧٠ أقدمت كلية العلوم بجامعة بغداد على اتخاذ خطوة كبيرة في مجال تعريب العلوم ، وعمد بعض الأساتذة الى تدريس بعض المواد العلمية باللغة العربية ، كما ساهم آخرون بتأليف كتب باللغة العربية ، مما دفع بحركة التعريب الى الأمام(١٦) .

---

(١٣) الفهري ، عبد القادر الفاسي (١٩٨٥) «تعريب اللغة وتعريب الثقافة نحو نظرية ملائمة كافية» ، المجلة العربية للدراسات اللغوية ، م ٤ ، ع ١ ، ص ٧٣ - ١١١ .

(١٤) أبو حطب ، يعقوب وعطية ، لطفي (١٩٨٤) «تقييم المرحلة الأولى في تعريب التعليم العلمي الجامعي التي تبناها مجمع اللغة العربية الأردني» ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، ع ١٤ ، ص ٦٣ - ٩١ .

(١٥) الخليلي ، خالد (١٩٨١) «أضواء على تعريب التعليم الجامعي» ، الفيصل ، العدد ١٠٢ ، السنة التاسعة ، ص ٧٥ - ٧٧ .

(١٦) عطيق ، ياسين (١٩٨٣) «تعريب التعليم الجامعي في القطر العراقي» ، آفاق عربية ، ٨ ، ع ٥ ، ص ٣١ - ٣٧ .

وفي أواسط السبعينات تم البدء بتعريب التعليم العالي في الصفوف الأولى اعتباراً من العام الجامعي ٧٨/٧٧ ومواصلة تطبيق التعريب على الصفوف الثانية في العام الذي يليه . وهكذا حتى يستكمل التعريب في جميع المراحل ، ورافق هذا القرار إعادة النظر بخطط التعليم والمناهج الدراسية الجامعية ، كما أفسح للمجال لتأليف الكتاب الجامعي في العلوم باللغة العربية . ورافق ذلك إنشاء المجمع العلمي العراقي الذي يهدف الى النهوض بالدراسات والبحوث العلمية والمحافظة على سلامة اللغة وتشجيع الترجمة والتأليف . وتلاه تطبيق التعريب الالزامي على الصفوف الأولى من كليات الطب وطب الأسنان اعتباراً من العام الجامعي ٨١/٨٠ .

وتعتبر الجهات المسئولة عن التعليم العالي في سوريا سباقة في اتخاذ قرارها الذي يقضي بان تكون لغة التدريس في جميع كليات العلوم الانسانية والكليات العلمية هي اللغة العربية فقط ، فيما عدا بعض الحالات النادرة في الكليات العلمية .

وباعتراف بعض الهيئات الدولية فإن الطلبة الذين تلقوا علومهم الطبية باللغة العربية لا يقلون مكانة عن خريجي الجامعات الأجنبية ، مما يؤكد أن اللغة العربية لا تقل شأناً عن اللغة الانجليزية في قدرتها على التعبير عما هو مطلوب ، كما يؤكد المسئولون أن القائمين على التدريس استطاعوا بكفاءاتهم العلمية ومقدرتهم على عمليات الترجمة أن ينقلوا الى طلابهم كل ما هو جيد وحديث ، وخير دليل على ذلك هي الكتب الطبية العربية المتوافرة في متناول الطلبة ، والتي ساهم في تأليفها أو ترجمتها أعضاء هيئة التدريس[١٧] .

ومن الدراسات المهمة في مجال التعريب ، تلك التي أجريت في المملكة العربية السعودية وشملت سبع جامعات والتي هدفت للتعرف على أثر استخدام اللغة الانجليزية كوسيلة اتصال تعليمية على استيعاب الطلبة وتحصيلهم العلمي . وتدل الدراسة ان استخدام هذه اللغة في التدريس يسبب لهم صعوبات كبيرة خاصة في فهم الموضوعات العلمية بصورة مرضية ، كما توصلت الدراسة الى أن استخدام اللغة العربية في التدريس تبرز بعض المشكلات التي من أهمها ندرة المواد التعليمية الحديثة باللغة العربية وعدم وجود مركز ترجمة فعال ، وغياب العمليات الببليوغرافية المنظمة باللغة العربية ، بالاضافة الى صعوبة ملاحقة أو ترجمة المؤلفات والبحوث التي تصدر سنوياً والتي تقدر بعشرات الآلاف . وترى الدراسة أن حل هذه المشكلة يمكن أن يتم عن طريق استخدام الحاسوب الآلي طالما أن الهدف الأساسي هو تحقيق تحصيل أفضل للطلبة بغض النظر عن اللغة المستخدمة في التدريس . وتناشد الدراسة أعضاء هيئة التدريس نشر بحوثهم وإنتاجهم العلمي باللغة العربية بدلاً من اللغة الأجنبية للتقليل من هيمنة اللغة الأخيرة بالشكل الذي يصعب التخلي عنها مستقبلاً .

أما في المغرب العربي فقد استطاعت تجربة التعريب في تونس أن تقطع شوطاً في المرحلتين الأساسية والثانوية رغم الصعوبات التي واجهتها . وهي لا تزال تعاني من عدم تحقيق التعريب الشامل في المرحلة الجامعية ، فلا تزال الفرنسية اللغة الرئيسية للتدريس والبحث العلمي[١٨] .

---

(١٧) خليفة ، عبد الكريم (١٩٨٤) « دور المجامع اللغوية في الحياة العلمية العربية المعاصرة » ندوة ، الموسم الثقافي الثاني ، مجمع اللغة العربية الأردني ٥ - ٢٦ أيار ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(١٨) العاشوري ، عبد العزيز (١٩٨٦) « محاولة تقويم تجربة التعريب في تونس » مركز دراسات الوحدة العربية : التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية ، بيروت ، ص ٢٢٩ - ٢٥١ .

كما قطعت الجزائر مرحلة طويلة من التعريب تناولت مختلف جوانب الحياة العلمية والرسمية ، فبالاضافة الى تعريب التعليم العام ، فقد استحدثت أقساماً معربة في الكليات العلمية ، كما عربت جهاز القضاء والجهاز العسكري وأجهزة الجيش الوطني والاعلام . الا أنها لم تستطع بعد تحقيق الانتصار الشامل في حركة التعريب بسبب تغلغل الثقافة الفرنسية في الكيان الجزائري ونقص الكفاءات العلمية وخاصة في الحقل الجامعي .

آفـاق مستقبليـة :

لقد أصبح توفير الظروف الملائمة لتحقيق الترجمة والتعريب أمراً ضرورياً في عصرنا الحالي وكذلك التصدي لفئة المثقفين العرب الذين لا يرحبون بفكرة التعريب خاصة وأن تمسكهم بسيطرة اللغة الأجنبية في الوطن العربي قد يدفعهم الى استغلال تفوقهم في المواقع الادارية الهامة للتشكيك في هذه التجربة ، وهم بذلك يدافعون عن امتيازات ثقافية أدركوها في ظروف معينة ، ونشأت عنها بالضرورة امتيازات اجتماعية واقتصادية .

كما أن الأمة العربية لن تتمكن من تشكيل كيان متميز يسهم في إحياء فكرها الثقافي والحضاري بدون اللغة العربية ، بحيث تصبح لغة التعليم في جميع المراحل وخاصة التعليم الجامعي الذي لا يزال يعاني من قصور في استخدام اللغات الأجنبية ، والذي بدوره ينعكس سلباً على أي إبداع أو إنتاج يمكن أن نفخر به على المستوى المحلي والعالمي .

إن التعريب لن يتم بصورة متكاملة الا بإنشاء دور الترجمة والتعريب بصورة موسعة وقد يساعد ذلك على استقطاب الكفاءات العربية المهاجرة أو التقليل منها . كما أن الترجمة ليست عملاً فورياً وآلياً بقدر ما هي عمل ابداعي ، ولتحقيق هذا الجانب يتطلب إنشاء دور للنشر الى جانب تلك الدور لكي تقوم بطبع ونشر ما ينتجه المترجمون والمعربون .

وعلى الرغم من أهمية الترجمة والتعريب ، الا أن هذا لا يكفي ، فالعلوم بأنواعها في تطور مستمر ، وقد يصعب على المترجم والمعرب اللحاق بهذا التطور والاستمرار فيه ، لذا فالانتاج والتأليف الأصيل باللغة العربية يجب أن يصحب الترجمة ، عندها نكون قد أنجزنا شيئاً لا يمكن إنكاره .

وعلى الرغم مما توصلنا اليه في نطاق المصطلحات ، فإنها دون المستوى المطلوب فلا تزال المصطلحات الأجنبية تتوالد بدرجة عالية . وهذا الوضع يتطلب الرجوع الى التراث العربي لمعرفة كل ما فيه من مصطلحات ، بالاضافة الى ملاحقة المصطلحات الحديثة لادخالها في اللغة العربية .

إلا أن تحقيق التعريب لا يتوقف على اعتبارات فنية فحسب ولكنه يتطلب قراراً سياسياً ، حيث تتضافر فيه الجهود العربية لمواجهة الصعوبات من أجل فرض وضع لغوي تضطلع فيه اللغة القومية بدورها الطبيعي . وهكذا فلن يكتسب القرار السياسي مغزاه الحقيقي الا اذا تحقق توحيد الوطن العربي . فليس المهم أن نعرب فقط ، وانما أن نعرّب جميعاً .

ترجمة النص الأدبي

سامية أسعد

تعرف الترجمة عادة بأنها نقل نص مكتوب بلغة ما الى لغة أخرى ، وان كان هذا النقل لا يخلو من قدر من الخيانة قد يكثر أو يقل . كما تطرح الترجمة عددا من القضايا والأسئلة لم يجد بعضها حلا أو ردا نهائيا حتى اليوم .

والترجمة نشاط مواكب لوجود الانسان فهي ، في المقام الأول ، عملية أداتها اللغة ، شفوية كانت أم مكتوبة ، وهي تنقل « رسالة » ما بين طرفين ، هما « الراسل » و « المتلقى » . ومارس البشر هذا النشاط على مر العصور ، وبفضله تبادلوا فيما بينهم ، وتعرف بعضهم على البعض الآخر ، وأقاموا حوارا بين حضاراتهم وثقافاتهم . وشمل هذا النشاط العلوم والآداب بكافة أشكالها ، لكن ، الى عهد قريب ، لم يفكر فيه من يمارسونه الا نادرا . وشهد قرننا العشرون ، بصفة خاصة ، اتجاها الى « تنظير » عملية الترجمة ، وإرساءها على أسس وقواعد علمية قد تعين المترجم على القيام بمهمته . من ثم ، وجد ما يسمى « بنظرية الترجمة » ، ومناهج الترجمة ، الخ . . . بل أصبحت الترجمة مادة تدرس في المعاهد والجامعات ويتخذ منها الباحثون مادة لدراساتهم وأبحاثهم التي ينالون عنها الدرجات العلمية . وهكذا تحول « فن » الترجمة إلى « علم الترجمة » ، وطرحت الاسئلة حول علاقة هذا الأخير بالعلوم الأخرى عامة ، واللسانيات خاصة .

وشهد قرننا العشرون أيضا تقدما علميا وتكنولوجيا هائلا ، يضيف الى اللغة كل يوم مفردات ومصطلحات جديدة ، مما أدى الى تقسيم النصوص إلى مجموعتين كبيرتين : النصوص الأدبية ، والنصوص العلمية والفنية ، وإلى التفرقة ، على المستويين النظري والعملي ، بين الترجمة الأدبية والترجمة العلمية .

● ● ●

تنعي « عالم الفكر » لقرائها الأستاذة الدكتورة سامية أسعد التي وافتها المنية قبل صدور هذا العدد .

نلاحظ ، أولا ، أن النص يتميز بسمات خاصة ،(١) نذكر من بينها :

(أ) الوظيفة التعبيرية ، كما يقول د . جاكبسون R. Jackebson : فالكاتب يقدم لنا رؤيته الخاصة للعالم ، وإدراكه الخاص للواقع الذي يريد أن يصوره أو يبثه في كتاباته . فضلا عن أنه يتحدث بلسانه هو ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، ويعبر عن مشاعره هو ، وردود أفعاله وانفعالاته . هذا وتتوقف قوة العمل الأدبي الذي يقدمه ، كما تتوقف وحدته ، على تماسك انطباعاته الذاتية : ومن ثم ، يمكن أن نقول إن الوظيفة التعبيرية للغة تحتل المكان الأول في العمل الأدبي .

(ب) القدرة الإيحائية : فالعمل الأدبي لا يعبر صراحة عن مضمون « الرسالة كله بل يوحي بجزء من معناه أو معانيه فقط . كما يحمل تتابع الأصوات والكلمات ، وإيقاع الجمل ، شحنة إيحائية يتحتم على المترجم نقلها ، لأنها جزء من « رسالة » النص . ولا نبالغ إذا قلنا إنها « رسالة » النص ذاته . وينسحب هذا بصفة خاصة على النص الشعري ، حيث يلعب الشكل دورا واضحا ، ويكمل الإيحاء بالمعنى كل من الأصوات ، والإيقاع والموسيقى .

(ج) إبراز قيمة الشكل : فلغة النص الأدبي ليست مجرد وسيلة لتوصيل مضمون ما ، فهي غاية في حد ذاتها والشكل في العمل الأدبي جزء لا يتجزأ من المضمون ، لأن الشعر والنثر اللذين يهدفان إلى إثارة انفعال المتلقي أكثر مما يهدفان إلى تعليمه : علاوة على أن الكاتب يستخدم اللغة استخداما خاصا ، وعلى أن أسلوبه ليس سوى انعكاس لشخصيته . فهو الذي يخلق الاستعارات ، ويبدع الصور الجديدة المبتكرة ، ويجمع بين الكلمات التي لا تستعمل بكثرة ، الخ . . . والكاتب يبرز قيمة الشكل لأنه يريد منا أن نرى صورة مختلفة للعالم . ونذكر في هذا السياق قول ر . فيلبيه : « لا نناقض أنفسنا إذا قلنا إن نقل المترجم للشكل أصعب من صياغة القناع المبدع له . »(٢)

وتضاف إلى هذه السمات الثلاث ثلاث سمات أخرى ثانوية :

(أ) تعدد المعاني في النص الأدبي فكلما كان العمل الأدبي غنيا تعددت معانيه وتفسيراته واختلف باختلاف قرائه ، على عكس النص العلمي أو الفني ، الذي لا يحتمل إلا معنى واحدا وتفسيرا واحدا ، لأن لكل كلمة فيه معنى محددا .

(ب) عدم ارتباط النص الأدبي بزمن معين : فالأعمال الأدبية الكبرى تتخطى حاجز الزمان والمكان . وإذا كانت تترجم بصفة دورية أحيانا فمن أجل الحفاظ على معانيها بتجديد شكلها . ومن الناحية الثقافية ، ترتبط الترجمة دائما بزمن وبيئة بعينها .

(١) نعتمد ، في تناولنا لهذه النقطة ، على كتاب : جان دليل

Jean Delisle

"L" analyse du discours comme methode de traduction, Editions de l'universitQe d'Ottawa, 1984, p. 21 et ss.

وعلى كتاب : جاك فلامون

Jacques Flamond

"Ecrire et traduire. Sur la voie de la creation," Ottawa, Canada, Editions du Vermillon, 1983, p. 115 et ss.

(٢) انظر :

"Problemes litteraires de la traduction," Louvain, Belgique, 1975 p. 61

(ج) نقل النص الأدبي لقيم عالمية ، شأنه في ذلك شأن أي عمل فني . وهذه الميزة هي التي تجعله يقاوم الزمن فنحن لا نقرأ الأعمال الأدبية المترجمة لأنها تشتمل على قيم جمالية فحسب ، وإنما نقرأها أيضا لأنها تعالج قيما عامة لا تبلى كالحب ، والموت ، والدين ، وشقاء الانسان وقلقه الخ . . . .

وهذه السمات الثانوية أقل أهمية من سابقاتها ، من وجهة نظر الترجمة وإذا اعتبرنا هذه الأخيرة عملية تعتمد على المادة اللغوية أساسا .

لقد أبرزنا السمات المميزة للنص الأدبي ، ويمكن أن نعتمد عليها في تعريفنا للترجمة الأدبية إلى جانب التفرقة بين النصوص الأدبية والنصوص العلمية والفنية ، أو النصوص « البرجماتية » ، على حد قول ج . دليل J. Delisle فكلما ابتعدنا عن الأدب ، واقتربنا من النصوص البرجماتية ، قرب نصيب الذاتية ، وسعت الترجمة الى نقل المعلومات المفيدة . والمترجم الذي ينقل نصا أدبيا إلى لغة أخرى يسعى إلى هدف جمالي أساسا ، من خلال أشكال متجددة للتعبير ، في حين لا يسعى مترجم النصوص البرجماتية إلا إلى توصيل رسالة بعينها ، بأكبر قدر ممكن من الأمانة والفاعلية . هذا وتقاس درجة توصيل النص الأدبي بالتوافق بين شكله ومضمونه وردود فعل قرائه ، بينما نرى ، في النصوص البرجماتية ، أن الاعتبارات الجمالية تتراجع أمام الرغبة في مزيد من الوضوح ، والدقة في التعبير ، ومراعاة قواعد بعينها عند الصياغة .

ونادرا ما يضع الكاتبُ القارىءَ نصب عينيه ، عند صياغته للعمل الأدبي ، فهو لا يتساءل عما إذا كان ذلك القارىء سيفهم هذه الكلمة أو يتذوق تلك الصورة مستقبلا ، وانما يكتب فقط ، تاركا للقارىء والمترجم مهمة اكتشاف أعماله . ويختلف الأمر بالنسبة لمترجم النصوص البرجماتية الذي يكيف ما يريد قوله مع طبيعة الرسالة التي يريد توصيلها والذين سيتلقونها ، وذلك لأن النص البرجماتي تعليمي في المقام الأول . ولا يعني هذا أنه خال تماما من القيم الجمالية وجمال الأسلوب . وكل ما هنالك أن هذه الأخيرة لا تكفي لكي تجعل منه نصا أدبيا .

والتفرقة بين الترجمة الأدبية والترجمة البرجماتية تمكننا أيضا من تحديد موقف المترجم من كل منها فمترجم النص البرجماتي لا بد أن يكون موضوعيا ، ولا ينبغي أن تظهر شخصيته في ترجمته ، في حين يتسم موقف مترجم النص الأدبي بالذاتية ، وينبغي أن يترك بصماته الخاصة على النص ، شأنه في ذلك شأن الفنان المبدع تماماً . وعلى المترجم الأول أن يلتزم الدقة ، وأن ينقل النص الذي يترجمه بأكبر قدر ممكن من الأمانة ، مع مراعاة ترتيب عناصر الجملة بنفس الطريقة التي رتبت بها في النص الأصلي ، حتى لو تنافى ذلك مع جمال الأسلوب ومنطق اللغة التي يترجم إليها . وتجدر الاشارة هنا إلى مهمة المراجع في المنظمات الدولية ، على سبيل المثال التي تتمثل في توحيد لغة المترجين ، وطمس كل ما يمكننا من التعرف على شخصية المترجم . وغني عن البيان أن مثل هذا الطلب يقيد حرية المترجم أمام النص إلى حد كبير . فالدقة والأمانة شرطان أساسيان في ترجمة النصوص البرجماتية . يكفي أن نذكر الآثار التي قد تترتب على الترجمة الخاطئة لطريقة استعمال دواء ما ، أو تشغيل جهاز كهربائي . على عكس ذلك ، يتمتع مترجم النص الأدبي بقدر من الحرية أمام النص الذي يترجمه . وحتى إذا راعى الدقة في ترجمته ، باستطاعته « التصرف » في النص بطريقة ما ، وحذف شيء هنا ، وإضافة شيء هناك ، بل باستطاعته أيضا إعادة كتابة النص في صياغة جديدة ، بدون أن تترتب على موقفه هذا

أية آثار سلبية . فما الذي يمكن أن يحدث لو أن كلمة nuages الفرنسية ترجمت بكلمة غيوم بدلا من كلمة سحب ؟ لا شيء طبعا !! وحرية التصرف هذه هي التي مكنت المترجمين من الاقتباس ، والتعريب ، والتمصير ، وكلها عمليات قريبة من الترجمة بمعنى الكلمة . ونسوق هنا ، على سبيل المثال ، تعريب المنفلوطي لرواية الكاتب دي سان بيير de Saint-Pierrs « بول وفيرجيني » التي حول عنوانها إلى « الفضيلة » وترجمة حافظ ابراهيم لرواية فكتور . هيجو V. Hugo «البؤساء» وجدير بالذكر أن حافظ ابراهيم لم يكن يعرف الفرنسية ، وبالتالي كان لا يستطيع أن يقرأ الرواية في نصها الأصلي . فكانت أحداثها تروى له ، وكان يصوغها هو بطريقته الخاصة ، بعد احتفاظه بالأحداث فقط وتحرره تماما من النص الأصلي . ومن أبرز المترجمين الذين وقعوا ترجماتهم بإمضائهم ابراهيم ناجي ، مترجم ديوان بودلير Beaudelaire « زهور الشر » ، ود . طه حسين ، مترجم مسرحية راسين Racine« اندروماك » ، الخ . . . وإزاء التقدم العلمي الهائل الذي يثري اللغة كل يوم بمفردات ومصطلحات جديدة ، تزداد مهمة النصوص العلمية صعوبة ، بالقياس إلى مهمة مترجم النصوص الأدبية . ولنذكر بأن قضية ترجمة المصطلح إلى العربية مثلا ، أصبحت قضية ملحة تفرض نفسها فرضا ، وتتطلب حلا سريعا . فمترجم النصوص البرجمانية في حاجة إلى إن يكتسب يوميا كماً هائلا من المصطلحات الجديدة : مكوك الفضاء حرب الكواكب ، علم الحاسبات الالكترونية ، الخ . . . وإلى ايجاد مقابل لها في اللغة التي يترجم اليها ، وإلى خلقها أحيانا . والفنان يتحرك في مجال أضيق بكثير من مجال العلوم ، مهما كانت لغته ومهما كان خياله ، لأن تطوره أقل سرعة بكثير من تطور العلوم . ورغم كل هذا يحسد مترجم النصوص البرجمانية مترجم النصوص الأدبية لأنه لا يقابل أية صعوبة في مفردات اللغة ، في حين يحسد مترجم النصوص الأدبية مترجم النصوص البرجمانية لأنه لا يقابل الا صعوبات بمفردات اللغة .

وقبل أن نتحدث بالتفصيل عن النص الأدبي وترجمته ، نورد بعض الأفكار الخاصة بها ونبدأ بقولنا إن النص الأدبي يحمل شحنة جمالية تضاف إلى مضمونه ، كما أنه يكتب أحيانا بلغة معقدة يصعب على المترجم التعامل معها . وعادة ما يكتب النص الأدبي بلغة بعيدة عن مستوى اللغة العادي وأشكال الصياغة المألوفة ومن ثم ، تتطلب ترجمته كفاءة حقة وحسا أدبيا وفنيا . ومعايشة المترجم للأعمال الأدبية شكل من أشكال الانسجام الذي يمكنه من نقل الأصوات والكلمات ، والجمل ، والصور ، وباختصار ، كل ما في النص من عناصر جمالية ، بأكبر قدر ممكن من الأمانة . والانسجام بين صاحب العمل الأدبي ومترجمه أمر لا بد منه . وإذا كان الكاتب حياً ، يفضل أن يقابله المترجم ، وأن يعملا معا ، بطريقة ما . ويقول م . كوانترو M.A.Cointreau في هذا الصدد إن « الترجمة الأدبية عملية تعاون عاطفي » ولا يكفي أن يكون المترجم مترجما ممتازا لكي يوفق في نقله للأعمال الأدبية إلى لغة أخرى ، لأنه في حاجة إلى شيء آخر ، هو موهبة الفنان المبدع ذاته . ويرى البعض ، في هذا الشأن ، أن الترجمة فن أصعب من الكتابة ذاتها ، وأن الترجمة الأدبية إبداع حقيقي ، تعجز الآلة ، مهما كانت ، عن أن تحل محله . فمترجم النص الأدبي في حاجة إلى معرفة اللغة التي يترجم إليها معرفة عميقة ، وفي حاجة أيضا إلى خيال خصب يمكنه من تصور النتائج التي يستطيع أن يستخلصها من تلك اللغة . والابداع يعني إلى حد كبير القدرة على التخيل ، بل وعلى الحلم . ويقول ا . اتكند E.Etkind إن « الترجمة الأدبية » « إبداع من الدرجة الثانية » ، لأن المبدع الأول هو الشاعر ، أو الكاتب الروائي أو الكاتب المسرحي . وإنصافا لمترجم النص الأدبي ، نقول إنه يجب أن يحدد اللون الأدبي الذي يتخصص فيه ، بقدر

الامكان . فترجمة الشعر تختلف عن ترجمة الرواية . أما ترجمة النص المسرحي فتمثل مجالا قائما بذاته . قال أحد المترجمين في هذه الصدد إنه يكتب الحوار المسرحي ، ثم يقرأه بصوت عال لكي يصل إلى نوع من الايقاع يساعد الممثل على النطق بكلمات دوره . ومترجم النص المسرحي فنان أيضا ، بل كاتب مسرحي بطريقة ما : « ومما لا شك فيه أن المترجم ـ المقتبس يتوحد مع الشخصيات لدرجة أن نصه يصبح صورة من النّص الأصلي ، كتبت بلغة مختلفة . وهكذا ، يصبح نصه هذا تفسيرا جديدا لا يخون النص الأصلي ، ويحمل بصمات المترجم الخاصة ، بصمات إحساسه وموهبته . »[٣]

● ● ●

ولنسأل الآن : ما هي الترجمة الأدبية ؟ إذا رجعنا إلى المعجم الفرنسي Le Robert وجدنا تعريفا للترجمة عامة ، يقول إنها « نقل ما يقال بلغة ما إلى لغة أخرى ، مع الميل إلى معادلة معنى هذا القول وذلك » . ويقول نفس المعجم إن المعادلة تعني « ماله نفس القيمة أو نفس الوظيفة » . كذلك ترى أغلب المعاجم ، كما يرى أغلب القراء ، أن ترجمة النص الأدبي يجب أن تبدو كصورة أمينة للنص الأصلي ، أي أن تكون نصا يشبهه بقدر الإمكان . وعندما يقول القارىء إنه يقرأ نصا مترجما ولا يشعر أنه مترجم يعبر عن هذا المطلب أصدق وأبلغ تعبير . فهو بقوله هذا يعبر عن رغبته في أن تكون الترجمة صورة يتوهم أمامها أنه أمام النص الأصلي ، لا ترجمته ، وعن رغبته في ألا تشوه الترجمة صورة الثقافة التي يعكسها النص .

وتطرح ترجمة النصوص الأدبية عددا من الموضوعات التي لا تنفصل عنها ، والتي نذكر من بينها أولا ، علاقة مؤلف النص بمترجمه . ولن نعرّف المترجم هنا ، ونكتفي بما تقوله سيلين زنس Zins « يقف المترجم بين ضفتين . وتتمثل مهمتــه في نقل النص كاملا من ضفة إلى أخرى فهو يتمسك بكائن حي على إحدى الضفتين ، وعليه أن يقوده حيا ، لا عاجزا أو مبتورا ، إلى الضفة الأخرى . كما أنه معرض لإغراء القارىء له فالقارىء لا يطلب منه أن يقدم له شيئا مشابها للنص الأصلي فحسب بل يطلب منه أن يكون هذا الشيء مقروءاً أيضا » .[٤] هكذا « يمثل » ـ بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة المترجم النص الذي كتبه المؤلف بل يعتبر الممثل الوحيد للنص ، في نظر من لا يستطيع قراءة النص الأصلي . ومن يقرأ النص المترجم مضطر أن يصدق المترجم وما يقوله ، أو بعبارة أدق ، ما يكتبه ومع ذلك ، يغفل الناشر أحيانا ذكر إسم المترجم على الغلاف ، كما حدث للشاعر الفرنسي بودلير عندما ترجم « قصص » ادجار بو E.Poe إلى الفرنسية .

ويرى البعض أن المترجم الجدير بهذا الاسم يضع أمام عينيه هدفا واحدا : أن يكون قردا ، على حد قول م كوانترو ، أي يحاكي المؤلف ، ويتقمص شخصيته ، ويكون مرآة يرى فيها المؤلف نفسه . ويرى البعض الآخر أن التفرقة بين الكاتب المبدع والمترجم أمر مسلم به ، وأنها أصبحت اليوم من القوة ، ايديولوجيا ، بحيث يتعذر تصحيح هذا الخطأ إذا اعتبرناه خطأ ولنلاحظ أيضا أن هناك فرقاً بين الفنان المبدع والناقد ، والفنان المبدع والقارىء ، وأن هذا

---

(٣) جاك فلامون ، "Ecrire et traduire. sur la voie de la Creation" ص ١٣٣

(٤) Actes des Premieres assises de la traduction litteraire" Arles, 1984, p. 54

الفرق يرتبط بتقديس الأدب . ويتمثل دور المترجم في خلق نص أدبي انطلاقا من نص أدبي آخر ، وهو مسئول أمام النص الأصلي وأمام مؤلفه ، حتى لو كان ميتا ، نظرا لأن النص يمثل المؤلف . والمترجم مؤلف أيضا ، مؤلف له صوت خاص به . لذا ، يرى البعض أنه من الأفضل أن يكون للمؤلف الواحد مترجم واحد ، يتكلم دائما بنفس الصوت ، بينما يرى البعض الآخر أن المترجم يجب أن يكون « كالحرباء » وأن يتلون كلما تغير لون النص الذي يترجمه . قالت ا . و . منكوفسكي A.W.Minkowski ، في ندوة عن الترجمة الأدبية : « قرأت مؤخرا مختارات من القصص القصيرة العربية مترجمة الى الانجليزية كانت الترجمة جيدة ، وبالغة الدقة ، كما كانت اللغة الانجليزية التي كتب بها النص سليمة سلسة . لكن ، كان يعيب هذه المختارات شيء واحد ، خطأ في نظري ، هو قيام مترجم واحد بترجمة قصص قصيرة لخمسة عشر مؤلفا ، مما يولد في القارىء إحساسا بأن القصص الخمس عشرة لكاتب واحد . قد يقال في هذا الصدد إن المترجم الجيد يستطيع أن ينوع لغته ، لكني لست متأكدة من ذلك ، بل لست متأكدة من أن هذا شيء مطلوب على أية حال ، يكمن هنا خطر ما ، ويستحسن أن نكون على وعي به ، فيما أرى » .(٥)

والترجمة العادية عملية تشبه القراءة . ونلاحظ أن أفضل المترجمين كانوا كتابا أدخلوا ترجماتهم في أعمالهم ، وبالتالي ، أزالوا بلغتهم فرقا كان يبدو طبيعيا لأول وهلة ، ونشأت تفرقة تتسم بالتناقض ، مفادها أن المترجم الذي يترجم فقط ليس مترجما ، وإنما « مقدم » للنص ، على حد قول هـ . ميشونيك H.Meschonnic . الكاتب وحده يعتبر مترجما . وإذا كانت الترجمة نصا أدبيا وكتابة تنتج عن عملية القراءة ، أصبحت مغامرة شخصية ، شأنها في ذلك شأن العمل الأدبي الأصلي . ويقول هنري ميشونيك في هذا الصدد : « لا ينبغي أن نتوهم أن الكتاب - المترجمين قلة بالنسبة لمجموعة المترجمين أو أن الترجمات الابداعية نادرة بين النصوص المترجمة »(٦) . وسواء أكان مترجم النص الأدبي مبدعا أو لا ، يلعب دور « الكشاف » بالنسبة للمؤلف . تقول س . زانس إن « المترجم يعكس للمؤلف أشياء لم يرها لأن الترجمة تتطلب الرجوع إلى « المشهد الأصلي » (بلغة التحليل النفسي) . . . لذا قد يخضع المؤلف لعملية تفسير عندما تترجم أعماله . فجأة ، يظهر شيء آخر : اللغة الأخرى التي تحدد بالضبط المسافة اللازمة لابراز شيء لم يره المؤلف من قبل(٧) وذلك المشهد الأصلي الذي يجب أن يرجع اليه المترجم مشهد محرم ، من حيث المبدأ ومع ذلك - عليه أن يرجع إليه لكي يقوم بعمله . وإذا لم يفعل ذلك ، لا نستطيع أن نقول إنه يترجم ، إذ لا معرفة له بالطريقة التي يكتب بها المؤلف ، والأسباب التي تدفعه إلى الكتابة وإلا عجز عن الترجمة ، أو قدم ترجمة سيئة . ويعني هذا أن على المترجم أن يتشبع بكتابة المؤلف ، وأن يحمل أسلوب هذا الأخير بغد إليه .

وتتطلب الترجمة معرفة اللغة ، لكن ممارستها في مجال الأدب تجعل من المترجم وسيطا Medium دليل ذلك ، على سبيل المثال ، أن الكاتبة الروائية الفرنسية ناتالي ساروت Sarraute قالت ، عندما سئلت عن رأيها في ترجمة أعمالها « إنها

---

(٥) Actes assises des Deuxiemes de la traduction litteraire, Arles, 1985, P. 70

(٦) Pour la poetique II, Gallimard, 1973, p. 354

(٧) Actes de premieres assise de la traduction litteraire," Arles, 1984, p. 57

عمل مختلف ، له بعد آخر . . . وتشكل من مادة مختلفة بما فيها من محاسن ومساوىء . . . وحياة خاصة بها . . . إن النص الذي كتبته يتراجع أمام ترجمته . »[٨] وقد يدخل المؤلف بعض التغييرات على النص الأصلي بعد قراءته مترجما ، وهذا بالفعل ما فعله ص . بيكيت عدة مرات . وقالت ن . ساروت أيضا ، ردا على سؤال عن مقاومة النصوص الأدبية المترجمة للزمن : « أعتقد أن الترجمة عملية صعبة . . . . لقد حاولت ترجمة تشيكوف ، ولم أوفق . . . والترجمة لا تبلى إذا نقلت الاحساس الذي يولد النص الأصلي . . . إذا التصقت به . . . عندئذ تحيا كالنص الأصلي تماما ، فيما أرى . . . بل أكثر منه . . . وإذا عجزت الترجمة عن نقل الحياة والتعبير عنها . . . صارت بالية . . . »[٩]

والحديث عن العلاقة بين المؤلف والمترجم يقودنا إلى الحديث عن الترجمة كعملية إبداعية . يرى البعض بالفعل أن الترجمة عمل إبداعي ، لأن الكاتب لا ينتج نصه عادة دفعة واحدة ، وإنما يعيد صياغته مرات ومرات . لا فرق إذن بين الكتابة والترجمة . فكلاهما عمل إبداعي ، في حين يرى البعض الآخر أن عملية الترجمة تحتاج إلى قدر أقل من الخيال ، وأنها ، « إبداع من الدرجة الثانية » كما سبق أن قلنا بل وأنكروا تمكن المترجم من اللغة ، وقد يفوق تمكن المؤلف منها أحيانا . ويطرح هنا سؤال هام : إذا كان المؤلف لا يتقن الكتابة بلغته الخاصة ، هل ينقل المترجم النص الأصلي كما هو أم يحق له أن يدخل عليه بعض التحسينات ؟ ونود بقولنا إن المترجم يتعامل ، من حيث المبدأ ، مع كتاب متمكنين من اللغة ومن فن الكتابة لكن ، قد توجد ، حتى عند الكتاب المجيدين ، أجزاء أضعف من غيرها . ولا شك أن المترجم في هذه الحالة يجد نفسه في حيرة من أمره ، لأنه يخشى دائما أن تنسب إليه رداءة الأسلوب . وأيا ما كان الأمر ، تعتبر الترجمة عملا إبداعيا بطريقة أو بأخرى ، لا سيما إذا كان المترجم كاتبا أيضا . ولعل هذا ما جعل كاتبة ومترجمة من كيبيك تقول ، عندما طلب منها تعريف الترجمة الأدبية : « أتمنى أن يكون مترجم النص الأدبي كاتبا ، أو أن تكون له ، على الأقل ، رؤية الكاتب وإدراكه ، وأن يحل بطريقة ما محل الكاتب الذي يترجم ، لا كلماته فحسب ، وإنما إحساسه وردود فعله أيضا . وقد يكون المترجم مترجما ممتازا ، لكنه أبعد ما يكون عن ترجمة الأدب ترجمة جيدة . . . لأن الأمر ، في هذه الحالة ، لا يتعلق بالالتصاق بالنص ، وإنما بالالتصاق بفكر الكاتب . »[١٠]

وبعكس النص الأصلي ، لا تعتبر الترجمة إبداعا نهائيا ، مهما كانت قيمتها . ومما لا شك فيه أن ترجمة أي عمل أدبي قد تبلى ، وأن النص الأدبي الواحد قد يترجم مرات ومرات . كما يمكن أن نقول إن العمل الأدبي الأصلي يحمل في طياته مشروع كل ترجماته المستقبلة ، إذ تعتبر ترجمته « قراءة » له ، ومن ثم ، تختلف باختلاف قرائه . وتلك هي القاعدة ، من الناحية النظرية على الأقل . لكن الترجمة الإبداعية حقا ، ترجمة الكتاب الخلاقة ، تعطي للنص صورة ثابتة يصعب التفوق عليها ، وتبلغ بالنص المترجم مرتبة تجعله يبدو أجمل من النص الأصلي . ولا تنتج مثل هذه الحالة الاستثنائية إلا عن التحام وانسجام تام بين الكاتب والمترجم .

---

(٨) المرجع السابق ، ص ١٣١

(٩) المرجع السابق ، ص ١٣٠

(١٠) المرجع السابق ، ص ١٣٤

وتطرح الترجمة الأدبية أيضا سؤالا حول إمكانية الترجمة عن طريق نص وسيط ، كأن يترجم نص ياباني ، مثلا إلى الفرنسية عن طريق ترجمة إنجليزية لذلك النص . وإذا كان البعض يرى أن مثل هذا النوع مشروع ، فنحن نرى ، مع كلير كيرون C.Cayron أن « فكرة الترجمة عن طريق نص وسيط تتنافى تماما مع الأدب ، بل تعتبر إنكاراً للأدب ونفيا له . »[١١] فمثل هذه الترجمة قد تؤدي إلى ترجمة المعنى ، لكنها لا تترجم النص .

وفي مجال الترجمة الأدبية ، لا يعتبر السياق اللغوي إلا مادة خاماً لعملية الترجمة ، لأن أي نص أدبي يشتمل على سياق آخر ، أكثر تعقيدا ، ونقصد به العلاقة بين ثقافتين ، وطريقتين مختلفتين في التفكير والإحساس والتعبير . على سبيل المثال ، تطرح عبارة بسيطة كعبارة « سي السيد » قضية هامة عن نقل السياق العام الذى يعتبر السياق اللغوي جزءا منه . فإذا ترجمت كلمة « سي » إلى الفرنسية بكلمة Monsieur (مسيو) ، فقدت معناها ، ونقلت سياق الرواية إلى سياق اجتماعي مختلف ، وجعلت من شخصية الزوج المسيطر مجرد « خواجه » يقال له « مسيو » ، في حين تدل كلمة « سي » في رواية نجيب محفوظ على خضوع الزوجة خضوعا تاما لزوجها ، في مجتمع شرقي معين . ولعل أنسب حل يمكن اختياره في هذه الحالة ، وحالات أخرى مماثلة ، هو كتابة عبارة « سي السيد » بالحروف اللاتينية في النص المترجم ، وهامش يشار فيه إلى ما تحمله هذه العبارة من معان في السياق الاجتماعي المصري ، وإن كان المترجمون يرفضون أحيانا إضافة أية هوامش تفسيرية الى ترجماتهم ، خصوصا في ألوان معينة من الأدب . ونحن نرى أن مثل هذه الهوامش تصبح ضرورية إذا كان النص الأصلي ينتمي إلى ثقافة ضيقة الانتشار . ولنذكر مثالا آخر ، ترد كلمة Merde الفرنسية في كل صفحة تقريبا ، في مسرحية الفريد جاري A.Jarry « أبو - ملكا » . ولا توجد في اللغة العربية كلمة يعادل معناها « المجازي » المعنى الذي تتخذه هذه الكلمة في مواقف معينة ، وبالتالي ، أصبح ترجمتها أمرا صعبا . ولقد اختار د . حمادة ابراهيم كلمة « نيلة » لترجمة هذه الكلمة ، في ترجمته العربية للمسرحية سالفة الذكر . وحتى إذا كان قد وفق في اختياره هذا ، فإن « نيلة » لا تعبر بالضبط عن معنى الكلمة الفرنسية .

وعندما يفكر مترجم النص الأدبي فيما يقوم به من عمل ، من الناحية النظرية ، يفكر في أغلب الأحيان في كيفية الترجمة . ونظرا للأهمية البالغة التي اتخذها علم اللسانيات في القرن العشرين ، نراه يتجه في تفكيره هذا إلى ذلك العلم ، لا سيما أن اللغة مادة أساسية في الأعمال الأدبية . ونتساءل بالتالي عما إذا كان المترجم في حاجة إلى اللسانيات لكي يقوم بعمله . ونجيب بقولنا : من الواضح أنه لا يحتاج إليه ، ما دام المترجمون قد قاموا بعملهم ، إلى عهد قريب ، بدون أن يتعرضوا لقضايا اللغة . ورغم أن اللسانيات تبحث الطريقة التي يعمل بها المترجمون ، نشعر أحيانا أن خطابيهما لا يلتقيان في أي نقطة فالمترجم لا يترجم الكلمات بكلمات أخرى أو الأبنية اللغوية إلى أبنية لغوية أخرى فقط ، كما قد يتصور علماء اللسانيات . وإذا نظرنا إلى الطريقة التي يترجم بها الناس ، أدركنا أنهم يتبعون قواعد بعينها ، حتى إذا كانوا لا يعون ذلك . فاللغة ، أيا كانت ، تتضمن ثلاثة مستويات على الأقل : قواعد النحو والصرف ، والخطاب الخاص أو الطريقة الخاصة التي ينتظم بها الخطاب في النص الأدبي - وعادة ما يتوقف مترجم النص

(١١) المرجع السابق ، ص ١٤٠

الأدبي عند هذا المستوى . ومستوى ثالث لا يقل أهمية عن هذين المستويين ، يمكن أن نسميه « الانتظام الجماعي للخطاب » . وغني عن البيان أن النص ينتظم بطريقتين مختلفتين في اللغة التي يكتب بها واللغة التي يترجم إليها . وحتى إذا كان المترجم لا يحتاج إلى عالم اللسانيات فمن مصلحته أن يألف مفاهيم علم اللسانيات لكي يوضح لنفسه ما يقوم به من عمل ويحاول تنظيره . ولنلاحظ أن مستوى المترجم لا يرتبط بدراسته لذلك العلم من عدمه . تقول م . ياجيللو M.Yaguello في هذا الشأن : « أرى أن النشاط الترجمي قد يهم عالم اللسانيات ، فهو الذي يستطيع في الواقع ، استخلاص شيء من ظاهرة الترجمة ، إما من زاوية اللسانيات الاجتماعية ، . . . أو على المستوى الفردي »[١٢] وجدير بالذكر أن الترجمة هي المجال الذي تلتقي فيه اللسانيات بالقضايا التي تهمها .

وطرحت علاقة الترجمة باللسانيات عندما حاول البعض وضع نظرية أو منهج للترجمة ونذكر ، من بين هؤلاء الباحثين ، هـ ميشونيك ، و ج د . لدميرال J.R.Ladmiral و ـ ج . مونان G.Mounin ، و ـ ا . نيدا E.Nida ، مترجم التوراة ، الخ . . . . ورغم أن نظرية نيدا لفتت الأنظار ، فلقد أبدى فيها هـ . ميشونيك رأيا له وجاهته . يقول ميشونيك إن إسهام نيدا في نظرية الترجمة وممارستها يعد جهدا من أهم الجهود التي بذلت في السنوات الأخيرة . فلقد طرح مفهوما جديدا للترجمة طبق فيه التكنيك التحليلي المتبع في اللسانيات التحويلية والسيمانطيقا البنيوية . ومن الواضح أنه يريد إرساء قواعد علم الترجمة ، وإن كان يقول ، منذ البداية ، إن الترجمة الجيدة فن دائما . وهو يتخذ من الشعر موقفين متناقضين ومتزامنين : الأول يقال إن ترجمة الشعر شيء مستحيل ، يقال أحيانا إن ترجمة الشعر يجب أن تشبه الشعر ، لكن هذا شيء صعب التنال الذي كثيرا يوجد خلط بين الأدب وما عداه نظرا لعدم تبين خواص الأدب بين الممارسات اللغوية الأخرى . وهذا هو الموقف الترجمي السائد ولولاه لما وجد شيء اسمه الترجمة . يقول ميشونيك في هذا الصدد : « ولكي نرسي قواعد نظرية ترجمة النصوص الأدبية وتطبيقاتها ، يجب أن نتناول بالنقد المسلمات التي أعدها نيدا وكذلك تكنيكه ولا يعني هذا العودة إلى الدفاع عن فن الترجمة . . . فالمقصود هو أن نبين أن التعارض الأساسي بين الشكل والجواب عند نيدا غير عملي في الأدب وأن نيدا لم ينتبه الى خواص الأدب وقضايا ترجمته وأن نظريته ليست نظرية علمية »[١٣] ، حيث انها تستخدم أدوات حديثة للحديث عن أقدم الايديولوجيات الخاصة بالترجمة . بالاضافة إلى ذلك ، يرفض ميشونيك اعتبار نظرية الترجمة نوعا من اللسانيات التطبيقية ، لأنها مجال جديد في نظرية الأدب وممارسته وهي تسهم بلا شك في تجانس الدال والمدلول الذي تتسم به الكتابة كممارسة اجتماعية .

يمكن أن نقول ، بصفة إجمالية ، إن انواع الترجمة ثلاثة ، حتى إذا كان المترجم لا يختار نوعا منها عن وعي :

١ ـ ترجمة تلبس ثوب اللغة التي يترجم إليها النص .

٢ ـ وترجمة تحاول أن تنقل شيئا من خواص النص الأصلي ، وتهتم بأسلوب الكاتب ، أولا وقبل كل شيء .

(١٢) Actes des deuxièmes assises de la traduction littéraire" Arles, 1985, p. 48

(١٣) "Pour la poétique II," Gallimard, 1973, p. 329

٣ - وترجمة تنتمي إلى تيار ظهر مؤخرا ، تيار الحرفية الذي ينقل النص الأصلي حرفيا ، وينقل بناءه . من نحو وصرف كما هو . والنوع الأول أقدم أنواع الترجمة . وكثيرا ما انتقدت الترجمات الأدبية القديمة لأنها تحررت من النص الأصلي ، وحاولت إخضاع النص المترجم لقواعد الكتابة السائدة في عصرها . بعبارة أخرى اتهمت هذه الترجمات بعدم نقلها النص الأصلي بأمانة . ولنعترف على الأقل بأن هذه الترجمات كانت تخاطب أناسا يتقنون فن الكتابة . ومع زيادة التبادل الثقافي ، والتأكيد على الكتابة أكثر من التأكيد على الأسلوب ، اتجهت الترجمة في السنوات الأخيرة إلى مزيد من الأمانة ، وزاد اهتمامها باللغة ونوايا المؤلف . وتجدر الإشارة هنا إلى تأرجح الترجمة بين قطبين : الإخلاص للنص ، ومتطلبات اللغة التي يترجم إليها النص ، من آلاف السنين . ومترجم النص الأدبي يحتاج بصفة خاصة إلى شيء هام هو القدرة على تحليل النص الأدبي ، أو « الادراك الأدبي للنص » ، على حد قول س . زنس ، التي ترى ضرورة استيفاء مترجم النص الأدبي لأربعة شروط ، هي :

١ - معرفة اللغة الأجنبية .
٢ - معرفة اللغة التي يترجم اليها النص .
٣ - والقدرة على التحليل والإدراك الأدبي .
٤ - ورؤية النص من الداخل .

واستيفاء المترجم للشرط الأول أمر ضروري ، لكنه لا يكفي لكي يكون مترجما . والشرط الثاني يمثل إحدى دعامتين تقوم عليهما الترجمة . ومن المؤسف أن تكون معرفة المترجم للغة التي يترجم إليها ، وعادة ما تكون لغته الأم ، نقطة الضعف في ترجمته ، في كثير من الأحيان . فالترجمة تفترض ضمنا معرفة المترجم اللغة التي يترجم إليها معرفة تامة . لماذا ؟ لأنها ، بكل بساطة ، الآلة التي سيعزف عليها مقطوعته الموسيقية ! على سبيل المثال كيف يدرس المترجم أسلوب كاتب ما ، ومخالفته لقواعد اللغة ، إذا كان لا يفرق بين النحو والصرف العاديين ورغبة الكاتب المتعمدة في مخالفة قواعدهما ؟ وتمكن المترجم من لغته عامل هام لان ترجمته بمثابة « رهان » على اللغة التي يترجم إليها . فعملية الترجمة تتسم بالخطورة والمخاطرة . وعندما يقرر المترجم ترجمة عمل ما ، يراهن على قدرة لغته على استيعاب شكل أجنبي ، غريب عنها ، وخلقه من جديد بأدواتها الخاصة . ويستعين في هذا الشأن بذاكرة هذه اللغة وتاريخها ، وقدرته هو على الابداع . والإدراك الأدبي هو الدعامة الثانية لعملية الترجمة . وهو مرتبط بالشرطين الأول والثاني ، ويعتبر نقطة تتضح عندها إحدى المعطيات الأخلاقية الأساسية ، ألا وهي تحيز المترجم للكاتب الذي يترجم عمله ولنص ذلك العمل ، وتحيزه ايضا لما يريد الكاتب أن يوصله للقارىء والمتلقى عامة ، وللوسائل التي استخدمت في هذا الصدد . على المترجم أن يتبين أولا نوعية اللغة التي استخدمها الكاتب : قديمة أو حديثة ، عامية أو فصحى ، مألوفة أم غريبة ، الخ . . . ، مما يدل على أن معرفة اللغة الأجنبية وحدها لا تكفي ، كما قلنا . وعلى المترجم أن يبادر بالدخول في المجال الأدبي ، مجال الكتابة . ويأتي بعد ذلك « الأسلوب » ، اي انتظام اللغة وفقا لقواعد معينة وإيقاع معين . فالكتابة إيقاع . لكن ، كثيرا ما ينسى المترجمون ذلك ، وينسون أيضا أهمية الأصوات ، خاصة في النصوص القديمة المكتوبة شعرا . ولنتذكر بأن الكلمة تتكون دائما من صوت ومعنى وبأن موقع الكاتب يتحدد دائما بالنسبة للغته الخاصة ومجموعة

الكتاب والأدباء التي تمثل ثقافته . ومن ثم يتحتم على المترجم وضعه في المجال الخاص به . تقول س . زنس : « أرى أن المبدأ الأخلاقي الوحيد الذي يمكن تطبيقه عند نقل العمل الأدبي يتمثل في فهم النص وخواصه ، أي المكان الذي يشغله في تاريخه الثقافي .[١٤] ولذلك ، ترفض الترجمة « الحرفية » ، التي تنقل أبنية اللغة الأجنبية ، وتعتبرها ترجمة لغوية لا ترجمة أدبية . والشرط الرابع لأي رؤية للنص من الداخل ، أصعب شيء يمكن تحديده في عملية الترجمة . لكنه أيضاً النقطة التي يتقرر عندها إبداع النص كنص ، ويتضح عندها أن الترجمة فن .

وفي نهاية المطاف ، تجدر الإشارة إلى حيرة المترجم بين الترجمة الحرفية والترجمة الأدبية فكثيرا ما يتساءل عن الموقف الذي يجب أن يتخذه أمام هذا النص أو ذاك ؛ وكثيرا ما يتخذ موقفا وسطا بين هذين النوعين من الترجمة . قد يستفيد المترجم المنحاز للترجمة الأدبية من الملاحظات التي يبديها المنحازون للترجمة الحرفية . لأن ممارستهم أقرب إلى مفاهيم اللسانيات . بشأن هذه الترجمة أو تلك . والعكس أيضا صحيح . فالذين يقتربون من اللسانيات وما يسمى بالحرفية قد يستفيدون أيضا من حديث مترجمي النصوص الأدبية عن الصعوبات والامكانات التي اكتشفوها أثناء الترجمة . وأبدى هـ . ميشونيك رأياً خاصاً في هذا الموضوع : عندما يجري الحديث عن « الحرفية » ، لا أسعى إلى معرفة ما إذا كان المقصود هو نقل النص حرفاً حرفاً ، أو كلمة كلمة ، لأن « الحرف » ـ بالفرنسية lettre في حد ذاته استعارة والحرفية في رأيي ليست مفهوما فعالا لأن موقعها النقطة التي يتعارض عندها الشكل والمعنى ، والدال والمدلول ، كما أنها لا تساعد الأدب على القيام بوظيفته . وأعتقد أن ما يساعد الأدب والترجمة على القيام بوظيفتها هو بالأحرى الميل إلى علاقة التماثل ، التي تتمثل في « النقل » أو « العلاقة » .[١٥] وقد يكون النقل نقلا إلى اللغة المترجم منها أو اللغة المترجم إليها على حد سواء ، لكن كلا منها يتعارض جذريا مع الآخر ، لأن النقل إلى اللغة المترجم منها يتمثل فيما يسمى « النقل » طبق الأصل calque، بينما يتمثل النقل إلى اللغة المترجم إليها في الجملة الشهيرة : لا ينبغي أن يشعر المتلقي أنه أمام نص مترجم . وفيما يتعلق بالنقل في الاتجاهين ، يمكن النظر إلى الترجمة كعلاقة جديدة يتميز بها عصرنا ، وتقبل المقارنة بتطور المسرح . فلقد أراد المسرح إلغاء الاصطلاح في فترة معينة من تاريخه ، ثم جاء المسرحيون الذين أرادوا أن يبينوا أن المسرح اصطلاح . وفيما يتعلق بالترجمة ، علينا أن نبين أنها علاقة ، وأنها تطرح مشكلة ثقافية تتجاوز حدودها بكثير ، ألا وهي المفهوم الثقافي لعلاقات التماثل والاختلاف . ويشير ميشونيك أيضا إلى الخلط بين الكلمتين الفرنسيتين litteralite، أي الحرفية ، و litterarite، أي الأدبية ، الذي يعتبر كارثة بالنسبة للترجمة ومفاهيمها فالحرفية تعني الرجوع إلى « الحرف » ، أي الكلمة ، أما الأدبية ، فتعني خواص الأدب ذاته ، ولا علاقة لها بتعارض روح النص مع كلماته ، وإن كانت السبيل الوحيد إلى محاولة التوفيق بينهما ، لا إلى إزالة ذلك التناقض بطبيعة الحال .

● ● ●

يتمثل النص الأدبي أساسا في الرواية ، والمسرحية ، والقصيدة . وتتطلب ترجمة كل واحد منها منهجا خاصا ، ووسائل خاصة ، وتقابل أيضا مشاكل معينة . لذلك ، يمكن الحديث عن الترجمة الأدبية عامة ، كما يمكن الحديث عن ترجمة هذا اللون الأدبي أو ذاك .

---

(١٤) "Actes des deuxièmes assises de la traduction littéraire," Actes, 1985, p. 51

(١٥) المرجع السابق ، ص ٥٥

ولنتحدث ، أولا ، عن ترجمة النص المسرحي ، ولنتذكر بأن أية مسرحية تتكون من عنصرين متكاملين : النص والعرض . يستخدم النص علامة واحدة ، هي الكلمة المكتوبة ، ويمكن أن تصل الرسالة التي يتضمنها إلى المتلقي عن طريق القراءة الصامتة بصوت عال ، لكن أثر كل منها يختلف عن أثر الأخرى ، بطبيعة الحال . أما العرض فيستخدم كثيرا من العلاقات السمعية والبصرية أساسا ، والكلمة واحدة منها . ومن البديهي أن تحاور الشخصيات على خشبة المسرح ، أثناء العرض ، يكتسب بعدا جديدا بالقياس إلى النص المكتوب ، نظرا لتدخل عنصر « الصوت » في الكلمة المنطوقة ونطق الممثل لها بطريقة معينة . لذلك يبادر المترجم بطرح سؤال : عندما يعتزم نقل نص مسرحي إلى لغة أخرى : هل ستخصص ترجمته للقراءة أو للعرض المسرحي ؟ ويرتبط بهذا السؤال سؤال آخر : وإذا كانت المسرحية المترجمة ستعرض على المسرح ، فما هو الجمهور الذي ستعرض أمامه ، وحتى إذا لم يلق المترجم ردا على هذين السؤالين ، لا بد أن يأخذ العرض بعين الاعتبار ، لا بد أن يحسب حساب عملية التواصل بين المؤلف والمخرج والشخصية ، والممثل ، والمتفرج . وبالتالي يمكن أن نقول إن عليه أن يترجم الحوار الذي يدور بين الشخصيات بصوت عال ، لكي يتبين الأصوات ، وإيقاع الجمل واللهجة ، والنبرة ، الخ . . . ويقول موريس جرافييه M.Gravier في هذا الصدد : « يقع نقل الدراما من لغة إلى أخرى (وأحيانا من سياق حضاري إلى سياق حضاري آخر يختلف كل الاختلاف) في منتصف الطريق بين الترجمة بمعنى الكلمة والترجمة الفورية في المؤتمرات . »[١٦] وبما أن النص المترجم نص منطوق ، من حيث المبدأ يجب أن يستخدم المترجم لغة شفوية ، ويصوغ الجمل بحيث يستطيع الممثل أن ينطق بها ويوصلها إلى المتفرج . وكتابة هذه اللغة الشفوية ، وبناء الحوار ، بل والعمل مع المؤلف والمخرج أمور مطلوبة بقدر الامكان . فالممثل لا يمشي في الشارع بنفس الطريقة التي يتنقل بها على خشبة المسرح . كذلك لا يمكن أن تختلط لغة المسرح ، مهما كانت مألوفة ، بلغة الحياة اليومية . وعلى المترجم أن يتذكر أيضا أن المتفرج يسمع النص مرة واحدة لا تكرر وأن عليه أن يفهمه في التو واللحظة .

وتضاف الى كل هذا قضية مفردات اللغة وتراكيبها . على سبيل المثال ، خضعت هذه التراكيب في المسرح الفرنسي الحديث لعملية تغيير شامل شملت التلاعب بالألفاظ ، بل وكتابة المفردات ذاتها . ويمكن أن نذكر ، في هذا الصدد مسرحيات اوجين يونسكو E.Ionesco وخطاب لوكي في مسرحية ص . بيكيت Beckett في انتظار جودو وتوزيع جمل الحوار بين الشخصيات في مسرحية م . فينافير M.Vinaver « طلب الوظيفة » . في مسرحية « . يبو » الجوع والعطش » . يحدث للبطل ، في لحظة ما ، شبه انفصام يعبر عنه انتشار المادة وتحلل الكلمات وفقدان الذاكرة . عندئذ ، يحاول جاهدا بعث ذكرى المرأة التي حلم بها وأحبها ، ويخلط بين التواريخ وفصول السنة . وفي الفصل الثالث ، يطلب منه الرهبان أن يحدثهم عن رحلاته ، لكن ، سرعان ما تتحلل كلماته ، وفقا لأسلوب اعتاده منذ أن كتب (المغنية الصلعاء) ، أسلوب أبرز مافيه عملية الإحصاء Enumeration التي يقول عنها . . يوجد الاحصاء توازدا صوتيا . إنه لعبة . فالكلمات تأتي وتتجمع بحرية تامة . . . ويوجد شيء من المجانية في كل هذا » .[١٧] وهو مثال

---

(١٦) La traduction des textes dramatiques, in Etudes de linguistique appliquee" octobre - decembre 1973, p. 41

(١٧) C. Bonnefoy: "Entretiens avec E. Ionesco," paris P. Belfond, 1966, p. 154

يتضح منه أن المترجمة[١٨] نقلت الكلمات ، ولم تتوصل ـ نظرا لاختلاف اللغتين العربية والفرنسية ـ إلى توارد الأصوات الذي تحدث عنه المؤلف . ولو أنها فعلت لأدخلت تغييرا على المعنى يقول البطل جان : لم أر هذا . . . الريف والمدن والشوارب والجبال . . . . ماذا تريدون أن أقول لكم أيضا ؟ رأيت شوارع وترعا وأحزمة ، وديكة رومية ، وبرتقالا ، وعربات نقل ، ومدافع وسكارى ، ورجالا بيضا وصفرا وسوداً ومنازل حمراء ، ومنازل خضراء ، وستائر ، وترعا ، وطبولا . . . . »[١٩] وفي « طلب الوظيفة » « الفن م . فيناقير علامات الترقيم تماما ، ووزع جمل الحوار حتى الشخصيات بطريقة تجبر المتلقي على إعادة تركيبها لكي يستخلص منها المعنى . وعلى المترجم في هذه الحالة أن يراعي الترتيب الذي أراده المؤلف ، لأنه مقصود ، وألا يتدخل لإعادة ترتيب الجمل وفقا لهواه . على سبيل المثال ، يدور الحوار الآتي بين أربعة أشخاص : فاج ، وزوجته لويز ، وابنتها ناتالي ، ووالاس ، مدير شئون العاملين في إحدى الشركات :

والاس : أنت مولود في ١٤ يونيو ١٩٢٧ ، في مدغشقر

لويز : يا حبيبي

فاج : من الناحية الجسمانية

والاس : هذا واضح

لويز : كم الساعة

ناتالي : لا تفعل بي هذا

فاج : إنها مثل عليا مشتركة أقصد أن المرء لا يعمل من أجل الراتب فقط

لويز : كان يجب أن توقظني

فاج : كنت أوشك على فعل ذلك لكنك كنت تنامين في استسلام .

والاس : ماذا كان يفعل والدك في مدغشقر عام ١٩٢٧ ؟

فاج : كانت رؤيتك وأنت تسندين رأسك على ذراعك تسر الناظرين .

ناتالي : لو أنك فعلت بي هذا يا بابا

لويز : لم أدهن حذاءك

فاج : كان أبي طبيبا في الجيش

لويز : وخرجت وحذاؤك متسخ

ناتالي : رد عليّ يا أبي

فاج : في محمية في تا نانا ريفا

والاس : في شركتنا

فاج : لكن لم تبق لدي أية ذكريات

(١٨) انظر (المهرج والمطاس) ، تأليف أ . يونسكو ، ترجمة ، سامية أسعد ، سمر حيات حالبا ، دار الكاتب للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

(١٩) المرجع السابق ، ص ١٠٦

والاس : نحن نولي أهمية قصوى للإنسان
لويز : كنت أريد أن أكون بنطلونك
فاج : هذا سبب من الأسباب التي جعلتني أرد على إعلانكم . هذا هو السبب الذي جعلني أهتم بشركتكم . . . .[٢٠]

لكن ، كيف يترجم النص المسرحي ؟ قد يكون الجواب : إنه يترجم كأي نص أدبي ! ونضيف أن هناك اعتبارات معينة لا ينبغي إغفالها في هذه الحالة بالذات . فترجمة النص المسرحي لا تعني وضع الجمل جنبا إلى جنب ، أو ترجمة نص بعينه . بل يجب أن تبدأ العملية بهضم المترجم للنص الأصلي ، وفهم معانيه ، والشحنة الاعلامية والانفعالية التي يحملها ، والتشبع « بالروح المحلية » ـ على حد قول الشاعر ف . هيجو ـ التي يعكسها . فمترجم النص المسرحي لا يكتفي بنقل مضمون الجملة التي تنطق بها الشخصية في النص الأصلي ، بل عليه أيضا مساعدة المتفرجين على حدس النوايا الكامنة وراء نص هذه الجملة . بعبارة أخرى عليه مساعدة القارىء أو المتفرج ، لا على فهم ما تقوله الشخصية فحسب ، وإنما على فهم الأسباب التي تحمله بقولها أيضا . على سبيل المثال ، في المسرحية « الملتزمة » ، توجه الجملة بحيث تخدم نظرية بعينها يريد الكاتب الدفاع عنها . والجملة في المسرحية النفسية تساعد على رسم خطوط الشخصيات . ويجب أن يدرك المترجم كل هذا وأن يكون على وعي به عند القيام بعمله . كما يجب أن يدرك أن الحوار لا يتكون من مجموعة من الجمل فقط ، بل يعتبر كلاماً متكاملاً له منطق وإيقاع خاص به ، وأفكار وتراكيب خاصة به أيضا . ويتضح من هذا المنظور أن الجملة ليست سوى نغمة واحدة في مقطوعة موسيقية متكاملة . ولنذكر بأن للنص المسرحي ، شأنه في ذلك شأن أي نص أدبي ، موسيقى خاصة يجب أن ينتبه لها المترجم . ذات يوم سئل المخرج الفرنسي الشهير عن السبب الذي جعله يتوقف عن تمثيل المسرحيات الأجنبية ، فقال : « تتسم النصوص المسرحية الجيدة بإيقاع خاص ، عادة يعجز المترجمون عن نقله وجعله محسوسا . وأنا أحب أن تحملني أنفاس النص . ونصوص المترجمين تفتقر إليها . لذلك ، أفضل الآن تمثيل النصوص الأصلية أي النصوص المكتوبة أصلا باللغة الفرنسية . » ولكي يتوصل المترجم إلى صياغة نص ممتاز ، يتحتم عليه الدخول في عالم المؤلف الحميم ، وامتلاكه حسا مسرحيا . ومترجم النص المسرحي يشعر أكثر من غيره من المترجمين بالقلق ، وعدم الأمان عندما ينتقل من كاتب إلى آخر . فالترجمة المسرحية تتحول ، في نهاية المطاف ، إلى محاكاة حقيقية ، بالمعنى الأرسطي لهذه الكلمة ويعني هذا أن على المترجم الاقتراب ما أمكن من الكاتب الجديد الذي يترجم له ، والاستسلام له ، بطريقة ما ومعايشته ، والتحدث معه ، والتنفس معه أيضا .

واتخذت ترجمة النصوص المسرحية ، وما زالت تتخذ الاقتباس في كثير من الأحيان مما يطرح للبحث موضوع العلاقة والحدود القائمة بينهما . ويرى م جراليه في هذا الشأن أن الحدود التي تفصل بين الترجمة والاقتباس من ناحية ، وصياغة نص مسرحي جديد من ناحية أخرى ، حدود غير واضحة المعالم . كما يرفض وصف النصوص التي لا تبقي

---

[20] "La demande d' emploi," Paris, L'arche, 1973, p. 9-10

على شيء من أبنية المسرحية أو مادتها الأصلية بأنها نصوص مترجمة أو مقتبسة[٢١] . ونشير في هذا الصدد إلى ارتباط النصوص المترجمة والمقتبسة عامة بجيل معين من المتفرجين ، وبيئة اجتماعية محددة ، مما يجعلها تبلى أكثر من النصوص الأصلية . فلقد ترجمت مسرحيات شكسبير ـ نذكر ما صدر منها مؤخرا ، ترجمة د . محمد عناني لمسرحية « تاجر البندقية » ـ إلى العربية مرات ومرات ـ وما زالت تترجم ـ كذلك مسرحيات موليير . . . لكن تمضي الترجمة . . . . ويبقى نص شكسبير وموليير .

وتطرح ترجمة النص المسرحي الى العربية سؤالا هاما على المترجم : إلى أية لغة عربية يترجم النص ؟ فنحن نعرف جميعا موضوع ازدواجية اللغة العربية ، ووجود العامية جنبا إلى جنب مع الفصحى . ويرتبط بهذا السؤال سؤال آخر عن كيفية ترجمة المأساة والملهاة ، مثلا ، والمسرحية الشعرية والمسرحية المكتوبة نثرا . كما نعرف أن الفصحى ، لغة القرآن الكريم ، عنصر توحيد بين كافة الشعوب العربية ، في حين تساعد العامية على انقسامها . وما زال الجدل حول العامية والفصحى قائما في الأدب عامة ، ولم ولن يجد حلا في القريب العاجل . وغني عن البيان أنه يتجاوز إطار الأدب والمسرح ، ويخضع لاعتبارات سياسية واجتماعية عديدة .

ولقد سبق أن جعل أرسطو لكل من المأساة والملهاة لغة خاصة بها . وكان الشعر من نص المأساة ، أما النثر ، فكان من نصيب الملهاة . وعلى نفس الدرب ، سار المترجمون العرب فترجموا المسرحيات التاريخية والشعرية إلى الفصحى ، لغة الصفوة ، واختاروا العامية في ترجماتهم للمسرحيات الكوميدية والمسرحية الخفيفة . ولا يزال هذا الوضع قائما حتى اليوم . ونذكر ، من بين المسرحيات التي ترجمت إلى الفصحى ، في المسرح المصري ، « البخيل » (تأليف موليير ، ترجمة مارون النقاش) ، و « هوراس » (تأليف كورني ، ترجمة سليم النقاش) ، « واندروماك » (تأليف راسين وترجمة اديب اسحق) ، و « عطيل » (تأليف شكسبير وترجمة محمد عثمان جلال) . ولم يكن المترجمون في تلك الفترة على وعي بأن اللغة التي تتكلمها الشخصيات في المسرحية سمة من السمات المميزة لها وللبيئة التي تنتمي إليها . فضلا عن أن اختيارهم للفصحى كان وسيلة غير مباشرة لإبراز الوعي الوطني .

وسرعان ما أحس المترجمون بالرغبة في الاقتراب أكثر وأكثر من جمهور المتفرجين وإرضائهم . فاعتمدوا لغة تمزج الفصحى بقليل من العامية ، على نحو ما فعل ابو خليل القباني في سوريا عندما نقل بعض المسرحيات الغربية الى العربية . وكان المزج بين اللغتين ـ إذا جاز القول ـ ضرورة الرغبة في الاحتفاظ « باللون المحلي » للمسرحية وأسف الكثيرون لتسلل العامية إلى المأساة ، لأنها تقلل من شأن شخصياتها التاريخية ، أو النبيلة . أسفوا ، مثلا ، عندما ترجم محمد عثمان جلال مسرحية « استير » إلى العامية ، وسمعوا استير والاسكندر الأكبر يتكلمان لغة الحياة اليومية . سمعوا استير تقول « يا أختي ويا ستي » ، وكليتمسترا تقول : أبوس رجلك وحل المترجمون آنذاك ازدواجية اللغة العربية باختيارهم لغة عامية قريبة من الجمهور ، واتبعوا في سبيل ذلك طريقة ترجمة النص ترجمة « حرة » ، أو بناء مسرحية

(٢١) M.. Gravier, "La traduction des textes dramatiques," in "Etudes de linguistique appliquee," octobre- decembre 1973, p. 44.

جديدة ، انطلاقا من الخطوط الرئيسية للنص الأصلي . وهذا حدث عندما نقلت مسرحيتي موليير « طبيب رغم أنفه » و « والشيخ متلوف » إلى العربية .

واليوم ، يرتبط السؤال عن اللغة العربية التي يترجم إليها النص بموضوع الواقع فالبعض يرى أن على الشخصيات أن تتكلم لغة تتناسب مع وضعها الاجتماعي ، وانتمائها الطبقي ، واليومية التي تعيشها لكي تكون مقنعة . بينما يرى البعض الآخر ، مثل جبرا ابراهيم جبرا ، أن اللغة العربية الفصحى أكثر ملاءمة للمسرحية التي تتناول موضوعا تاريخيا أو أسطوريا ، لأنها تبتعد عن الواقعية . وهذا ما حدث بالفعل عندما نقل جورج أبيض بعض المسرحيات المأساوية الفرنسية إلى العربية كما رأى محمد مندور وغنيمي هلال أن العربية تلائم المسرحيات العالمية التي تتجنب الواقع في حين يرى سامي عبد الحميد أن الفصحى وحدها تناسب ترجمة المسرح الذهني ، لأنها تتضمن مفردات تعجز العامية عن نقلها نقلا سليما . ونضيف إلى هذه الآراء عاملا يدفع المترجمين إلى اختيار آخر ويقصد به الطباعة . فهم يلجأون إلى الفصحى ، حتى لو كانت لا تناسب النص المترجم . لذلك ، ترجمت المسرحيات مرتين أحيانا . مرة بالعربية الفصحى لكي تقرأ ، ومرة أخرى بالعامية لكي تعرض على المسرح . مثال ذلك مسرحية بيتر فايس التي ترجمت إلى العربية في نص عنوانه « الغول » ، فلقد ترجمها د . يسري خميس إلى الفصحى ، ثم ترجمها الراحل فؤاد حداد إلى العامية . أما توفيق الحكيم فرأى أن استخدام الفصحى يجعل المسرحية مقبولة عند القراءة . لكن العرض يتطلب الترجمة إلى لغة يستطيع الممثلون أن ينطقوا بها . ومن ثم اقترح تلك اللغة الوسطى التي تكتب بالفصحى وتقرأ بالعامية ، على نحو ما فعل في « الصفقة » . ونرى من ناحيتنا ، أن اللغة التي يترجم إليها النص لا ينبغي أن ترتبط بالواقعية ، لأن الواقعية لا تكمن في طريقة التعبير ، وإنما تكمن بالأحرى في طريقة رسم الشخصية ، والمجتمع والحياة عامة . والمهم هو أن تتكلم الشخصية اللغة التي تناسبها ، وتكون بمثابة علامة تدل عليها فلغة الفلاح تختلف عن لغة الباشا ، ولغة السادة تختلف عن لغة الخدم . وفي كثير من الأحيان يلعب اختلاف مستويات اللغة دورا دراميا في المسرحية . على سبيل المثال ، يتكلم دون جوان وخادمه سجانا ريل بلسانين مختلفين في مسرحية موليير « دون جوان » . والفلاحون في هذه المسرحية أيضا يتكلمون بلهجة ريفية تختلف عن لهجة أهل المدينة . وفي مسرحية ماريفو Marivaux « لعبة الحب والمصادفة » ، يتبادل السادة والخدم أزياءهم . لكن ، يحدث أن تشك سيلفيا المتنكرة في زي خادمتها في شخصية دورونت اللذي تنكر أيضا في زي خادمه . ولغته هي التي تفضحه . فهي ليست اللغة التي يتكلمها أبناء طبقته ، أي الخدم . وتشك سيلفيا أيضا في ارليكان المتنكر في زي سيده لأن لغته سوقية مبتذلة ولا تتناسب مع زي السادة اللذي يرتديه . وكل هذا يضع المترجم أمام أمرين : إما أن يترجم المسرحية كلها بلغة واحدة ، أي بمستوى واحد من اللغة ، وإما أن يتفهم النص جيدا ، ويحاول ترجمته بمستويات لغوية مختلفة ، يلائم كل منها الشخصية أو الشخصيات المذكورة في المسرحية . ولا شك أن الحل الأول هو الأسهل ، وأن الحل الثاني يتطلب جهدا ، وإبداعا حقا ، ينشأ عنه الانسجام بين شكل المسرحية ومضمونها . وفي مجال الكوميديا تلعب هذه المستويات دورا هاما فطن اليه الكتاب منذ البداية . فالشخصية التي تتكلم لغة غير لغتها الأصلية ـ الخواجة أو التركي أو الصعيدي ـ تخلف أثراً كوميدياً أكيداً . ونتفق مع محمد مندور عندما قال إن الفصحى تهدم الكوميديا هدما . فنحن لا نرى ، مثلا ، كيف يمكن أن تترجم مسرحيات ج . فيدو G.Feydeau إلى العربية الفصحى . ويمكن أن تترجم اللهجة التي يتكلم بها أبطال

م . بانيول M.Pagnol ـ وهي لهجة أهالي مارسيليا ـ إلى العامية كما يتكلمها أهالي بورسعيد أو الاسكندرية . ورغم أنني قمت بمراجعة الترجمة العربية لمسرحية ألفريد جاري A.Jarry اوبو ـ ملكا(٢٢) ، فأنا أرى أن ترجمتها إلى الفصحى خيانة تخل بالمعنى ، وأن الأفضل هو أن تترجم إلى العامية ، عامية يلعب بها المترجم ويتلاعب ، على نحو ما فعل جاري في مسرحيته . وقد يسأل سائل : كيف يمكن أن تتعايش كل هذه المستويات اللغوية في النص الواحد ؟ ونرد بقولنا إن هذا ممكن ، لأن المهم هو المواءمة بين المستوى اللغوي ، والشخصية ، والموقف الذي توجد فيه ، بعيدا عن أية محاولة لنقل الواقع كما هو .

• • •

وتحتل ترجمة الشعر مكانا خاصا في مجال الترجمة الأدبية . فرغم أن النصوص الشعرية قد ترجمت من آلاف السنين ـ مثلا ، « الالياذة » ، و « الأوديسة » ومسرحيات سوفوكليس ، الخ . . . ـ ظل التساؤل حول إمكانية ترجمة النص الشعري قائمة ، ولا سيما أن الشعر كان خاضعا ، فيما مضى ، لأشكال ثابتة ومرتبطا بعناصر ثابتة أيضا لعل أهمها الوزن والقافية . لذلك ، كان من يقدم على ترجمة الشعر ، في أغلب الأحيان ، شاعرا ، أي فنانا مبدعا ، يستطيع أن ينقل النص الشعري « بأمانة » ، مع الاحتفاظ بطابعه الخاص ، والقافية على الأقل . وتغيرت الأمور عندما تحرر الشعر ذاته من أشكاله التقليدية ، وأصبح شعرا نثريا ، كذلك الذي قدمه الشاعر الفرنسي بودلير في ديوانه « Poemes en prose» أو شعراً حراً ، بلا قافية . وجدير بالذكر أن ذلك التغيير الذي طرأ على الشعر ، في بلاد الغرب ، قد ساعد على تعرية الخلط بين الشعر والنثر الذي كان سائدا في الماضي ، فأصبح من غير الممكن التساؤل عما إذا كان يمكن ترجمة القافية بقافية ولنلاحظ هنا أن لكل مجال ثقافي تاريخا خاصا به . على سبيل المثال يقول ميشونيك إن الروس لا يفرقون حتى الآن بين ترجمة العروض وترجمة « الشعر » وعندما يترجمون الشعر الحر ، يجعلون له قافية لكي يكون شعرا . وقد يقال ، إزاء هذا التغيير ، إن ترجمة الشعر أصبحت ميسورة كترجمة النثر ، ما دام شكله قد تغير ، وكذلك مفهومه . والواقع هو أن ما تطور هو شكل الشعر فقط ، أما مفهومه ، فلم يتغير ، فيما نرى . ويقول ميشونيك في هذا الصدد إن ترجمة الشعر ليست أصعب من ترجمة النثر ، وإن الاعتقاد السائد بأن ترجمة الشعر شيء صعب ، بل ومستحيل ، لم يعد ذا قيمة ، حيث إنه يتضمن خلطا بين الشعر والنثر ، ويرتبط بمفهوم يقول إن الشعر انتهاك لقواعد اللغة . ويبدو أن جاكبسون ، بتحليله للشكل الشعري ، قد أكد الفكرة القائلة بأن الشعر لا يترجم ، من حيث المبدأ ، وبأن النقل الإبداعي الخلاق ، أي إعادة كتابة القصيدة هو الشيء الوحيد الممكن . ويجعلنا هذا نفهم لماذا لم تدخل اللسانيات الشعر في مجالها . فهو يتجاوز حدود ذلك المجال ، شأنه في ذلك شأن الإبداع الشعري تماما . لكن ، تدخل ترجمة الشعر في إطار نظرية الكتابة وممارستها ، لأنها ليست مجرد نقل ، بل إنتاجا حقيقياً . يقول ف . لاربو V.Larbaud في هذا الشأن : « لكل نص صوت ، وحركة ، ولون ، وجو خاص به . وإذا أغفلنا المعنى المادي والحرفي لأية مقطوعة أدبية ، وجدنا فيها معنى خافيا إلى حد ما ، شأنها في ذلك شأن أية مقطوعة موسيقية . وهذا المعنى وحده هو الذي يولد فينا الاحساس الجمالي الذي سعى إليه الشاعر . وتتمثل مهمة المترجم في نقل هذا المعنى بالذات وإذا عجز عن القيام بها ، فليكتف بأن يكون قارئا . وإذا أصر على أن يكون مترجما ، فليتجه إلى مادة مخطوطة أو مطبوعة ، ككتب الفلسفة

(٢٢) اوبو ـ ملكا ، تأليف آ . جاري ، ترجمة ، حافظ ابراهيم ، مراجعة ، سامية أسعد ، المسرح العالمي ، وزارة الإعلام ، الكويت .

والتاريخ ، والأبحاث العلمية ، والوثائق القانونية والتجارية ، إذا اقتضى الأمر . . . لكن ليدع فيرجيل Virgile ، وكل ما هو أدب ، في حاله . ولكي ينقل المترجم هذا المعنى الكامن في الأعمال الأدبية عامة ، والشعر خاصة ، يجب أن يفهمه أولا ، لكن فهمه لا يكفي إذ لا بد من إعادة خلقه أو إبداعه .(٢٣) وما إعادة الخلق هذه إلا إسهام المترجم الخاص .

هكذا نرى أنه يمكن الاجابة عن السؤال الخاص بامكانية ترجمة الشعر من عدمها بقولنا إن ترجمة الشعر ممكنة . ولولا التجربة التي خاضها المترجمون على مر السنين ، من الناحية العلمية ، عندما نقلوا النصوص الشعرية إلى لغات أخرى ، لما وصلت إلينا وإلى غيرنا أسماء الشعراء وأعمالهم . لذلك ، نقصر بحثنا في ترجمة الشعر على هذا السؤال : كيف يترجم النص الشعري ؟ نلاحظ ، في البداية ، أن آراء المنظرين اختلفت ، بل تعارضت أحيانا ، حول هذه النقطة ، وأنهم لم يتوصلوا إلى استخلاص أية قواعد خاصة بها - وأغلب الظن أنهم لن يتوصلوا إلى ذلك أبدا - ، وأنه اتضح لهم أن ترجمة الشعر تخضع لقواعد وقوانين خاصة مستمدة من الشعر ذاته . ولا نبالغ إذا قلنا إن لكل نص شعري قانوناً خاصاً وطريقة خاصة لترجمته ، وإن لكل نص أو كل (قصيدة) (جوهراً) يختلف باختلاف الشاعر . ويتحتم على المترجم أن ينقله . ونشير ، في هذا الصدد ، إلى قول جاكسون ماثيوز J.Mattews : (لكل لغة أشكالها الخاصة ، أشكالها الحالية الممكنة التي سبق أن اهتدى إليها الشعراء واستخدموها ، وأشكالها التي لم يهتدوا إليها بعد) .(٢٤)

ويرى ج . مونان أن المشكلة الحقيقية التي تواجهها الترجمة الأدبية هي مشكلة ترجمة « الرسائل » الخاصة ، أو بعبارة أخرى الأدب والشعر ، وأن بنية النص لا تهمنا عامة إلا بالقدر الذي تؤدي به وظيفة ما وبالتالي ، لا تتمثل المشكلة التي يقابلها المترجم ، عند نقل القصيدة من لغة إلى أخرى ، في ترجمة الشكل إلى شكل آخر أو ترجمة البنية ببنية أخرى بل تتمثل بالأحرى في ترجمة وظيفة النص الشعرية أو وظائفه ، أي الأثر أو الآثار التي يخلفها في المتلقي . بعبارة أخرى ، على المترجم أن ينقل شاعرية النص ، لا شكله ، أو شكله إذا استطاع أن يثبت أنه مرتبط بأثر ما . ويبدي إي كاري E.Cary ، في هذا الموضوع ، رأيا قريبا من رأي مونان . فهو يرى أنه من الأفضل ، عند ترجمة القصيدة ، أن يحاول المترجم الوقوف على نفس الأرض التي يقف عليها المؤلف ، أي الشاعر ، وأن ينظر إلى القصيدة على أنها « شعر » . فتحديد ماهية الشعر هي بيت القصيد في هذا المجال وهي تمثل بالفعل العقبة الأساسية التي تقف في سبيل ترجمة النص الشعري أو القصيدة . وإذا توصل المترجم إلى « جوهر » النص نقول إنه يكون قد نجح في مهمته : « ويكون المترجم قد قدم ترجمة رديئة للقصيدة إذا نقل معناها الحرفي أو شكلها ، وكانت قيمتها الشعرية تكمن في شيء آخر غيرهما . »(٢٥) ومن ثم ، يجب أن يكون مترجم النصوص الشعرية كاتبا أو شاعرا إلى حد ما ، أي شخصا يفضل على الإخلاص الأعمى للنص الأصلي الإخلاص العميق له ؛ بعبارة أخرى ، على هذا المترجم - الشاعر أن ينقل روح النص ، لا كلماته ، عليه أن يخون النص بدلا من أن يترجمه حرفيا ، وأن يلجأ إلى « المعادلة الدينامكية » ، لا المعادلة الشكلية » ، كما يقول ا . نيدا . باختصار ، لا ينبغي أن يستسلم المترجم لطغيان الشكل ، لأنه قد يحجب عنه المعنى .

(٢٣) "Sous l'invocation de Saint - Jerome," Paris, Gallimard, 1946, p. 69-70

(٢٤) انظر "Pour la poetique II," Gallimard, 1973, p. 355

(٢٥) E. Cary, "Comment faut- il traduire?" Presses universitaires de Lille, 1985, p. 48

وجدير بالذكر أن مترجم النص الشعري يعتمد على أدوات معترف بها ، ولغة شاعرية يتقبلها المتلقي وأن مهمته تتمثل أساسا في نقل النص « الشعري » إلى بلاده وعصره . ويتضح من كل هذا أن المقارنة بين الشاعر ومن يترجم له مقارنة لا معنى لها ، وأن عبارات مثل « المترجم الجيد كاتب فاشل » ، و « الكاتب الجيد مترجم فاشل » تفقد معناها بالتالي . فمثل هذا الترتيب القائم على بعض المعايير المثالية لا يأخذ بعين الاعتبار تفاعل الأبنية اللغوية والأشكال الأدبية عامة ، والشعر خاصة ، في حين ينطبق تماما على كل ما ينتمي إلى مجال الترجمة البرجماتية .

ولا شك أن شهادة الشاعر - المترجم تعتبر أفضل ما يمكن أن نعتمد عليه لايضاح المشاكل الخاصة بترجمة الشعر . ونختار هنا رأيا قيما أبداه الشاعر العربي أدونيس في ندوة عن الترجمة الأدبية عقدت في فرنسا عام ١٩٨٦ . يقول أدونيس ، الذي نقل إلى العربية نصوصا لسان جون بيرس Saint John Perse ، و ا . بونفواه Y.Bonnefoy ، وجورج شحادة :

أنا لا أحترف الترجمة ، ولست عالم لسانيات . لذلك ، أستند فيما سأقوله إلى تجربة محدودة ، تجربتي في ترجمة الشعر ، وإلى مفهومي الشخصي للغة الشعر . ولا أسأل : هل يمكن أن نترجم الشعر ، بل أسأل بالأحرى : ما هو المقصود بترجمة الشعر ؟

وإذا قبلنا الفكرة القائلة بأن لغة القصيدة ليست مجرد وسيلة ، وجدنا أن معنى الكلمة في القصيدة يكمن في « سياقها » ، وأن معنى الجملة يمر بالقصيدة كلها ، وبنيتها كاملة . لذلك ، يتجاوز معنى القصيدة الكلمات والجمل . ويترتب على ذلك افتقارها إلى مرجع يمكن تحديده في الواقع وافتقار معناها إلى وضوح معنى النثر .

بالإضافة إلى ذلك ، نقول إن كل لغة تفتح مجالا مختلفا أمام الحقيقة ، وإن الحقيقة التي تكشف عنها لغة الشعر في نطاق اللغة التي كتب بها ، تختلف عن الحقيقة التي تكشف عنها لغة أخرى . وبالتالي توجد طريقتان لتناول الشيء الواحد والتعبير عنه .

وإذا انطبق هذا على لغتين تنتميان إلى أسرة واحدة ، كالفرنسية والاسبانية ، فهو ينطبق بالأحرى على لغتين تنتميان إلى أسرتين مختلفتين كالعربية والفرنسية . فنحن لا نجد شيئا مشتركا بين هاتين اللغتين لكل منهما نظام لغوي وجمالي خاص بها . ولكل منهما طريقة خاصة للربط بين الكلمة والشيء ، والدال والمدلول . ولكل منهما بناها الصوتية والإيقاعية والموسيقية . ومن ثم ، تنظر كل منهما إلى « الجمال » بعين مختلفة .

كيف يمكن إذن الترجمة من إحداهما إلى الأخرى ؟ هل يمكن نقل جماليات القصيدة الفرنسية إلى القصيدة العربية ، أو العكس ؟ وهل نقل خواص الشعر العربي ونسيجه الصوتي وإيقاعه إلى اللغة الفرنسية أو العكس ؟ أجيب على هذه الأسئلة بالنفي . فلكل نص شعري وحدة شكل وصوت ومعنى . وعندما أنقل أي نص شعري إلى لغتي العربية ، أي إلى وحدة شكلية وصوتية مختلفة ، أتساءل : هل تظل وحدة معناها كما هي ؟ وإذا مزقت الجسد ، فأين تذهب الروح ؟ وما الذي يبقى منها ؟

لنقل إذن إن ترجمة الشعر لا يمكن أن تكون تطابقا أبدا . والذين يصرون على إيجاد هذا التطابق لا ينتهون إلا إلى عملية تشويه ، في رأيي . ولنقل أيضا إن ترجمة الشعر قضية تخص الشعر قبل أن تخص اللغات .

وأعود لسؤالي : ما هو المقصود بترجمة الشعر ؟ يتمثل رأيي الخاص في الآتي : عندما أترجم ، بوصفي شاعرا عربيا ، قصيدة لشاعر آخر مكتوبة بالفرنسية ، أجعل من هذه القصيدة قصيدة ، صورة ، في لغتي أنا وذلك عندما أحاول أن أقيم حوارا بين لغتينا ، من خلال هذه الصورة .

هذا وتعتبر أية قصيدة ترجمة لشيء ما ، ومحاولة لإيضاح الغموض ، وترجمتي لأية قصيدة تعتبر كتابة أخرى لها ، بلغة مختلفة ، وتتمثل ترجمتي لها في ترجمة طريقتها في إيضاح الغموض . وهكذا تصبح ترجمتي ترجمة للطريقة التي يتحاور بها مؤلف هذه القصيدة مع العالم ، وتصبح ، في الوقت نفسه ، بداية حوار بيني وبينه ، ومرآة أصنعها بلغتي أنا لأرى فيها وجهه هو . . . هكذا يتضح أن الترجمة وسيلة للكشف والمعرفة ، ومجال لإجراء حوار يكشف عن اختلاف ويفضي إلى التقاء في نص يشهد على الحوار الذي جرى بيني وبينه ، وعلى مسيرتنا المشتركة في ليل الحواس والمعنى . »[٣٦]

وليسمح لنا القارىء بالحديث عن تجربة شخصية في ترجمة الشعر من الفرنسية إلى العربية[٣٧] فلقد وضعتنا هذه التجربة أمام عدد من القضايا الهامة ، التي نكتفي بذكر بعضها هنا :

ـ هل نترجم النص ترجمة حرفية ، أي ننقل كلماته وجمله أم لا ؟ وهل ننقلها بنفس الترتيب الذي وردت به في النص الأصلي أم لا ؟

ـ هل نترجم الشعر الموزون المقفى إلى شعر موزون مقفى ؟

ـ ما الذي يمكن أن نترجمه : المعنى ، أم الصور ، والإيقاع ، ، والموسيقى ؟

ـ هل ننقل النص نقلا أمينا أم نحوته بطريقة ما ؟ إلخ . . .

واتضح لنا أن الشعر بالذات يقبل الترجمة الحرفية ، لأن جوهره لا يتمثل في المعنى ، بل في وضع الكلمات والجمل بحيث ينتج عن انتظامها أثر وإيقاع معين . وعلى المترجم مراعاة هذا الانتظام وإيجاد مقام للصور ، والايقاع والأصوات التي يتضمنها النص الأصلي ، مع مراعاة السياق العام للغة التي يترجم اليها النص . على سبيل المثال ، يعبر الشاعر الفرنسي عن جمال المرأة بقوله إنها « جميلة كالوردة » ، في حين يعبر عنه الشاعر العربي بقوله إنها « جميلة كالقمر » . وفي تنظيمه للنص ، يستخدم الشاعر وسائل محددة كالتقديم والتأخير ، والإيقاع السريع أو البطيء ، وتوزيع عناصر القصيدة على الصفحة البيضاء . وهذا نموذج من ترجمتنا لشعر بول ايلوار :

انتصار جرنيكا	La victoire de Guernica
(١)	(1)
عالم الأكواخ الجميل	Beau monde des masures
عالم المنجم والحقول	De la mine et des champs

---

(٣٦) "Actes des troisiemes assises de la traduction litteraire," Arles, 1986, p. 59-60-61

(٣٧) انظر : « بول إيلوار » ، مختارات شعرية ، ترجمة د . سامية أحمد أسعد ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦ م .

و « المرأة » و « عيون المرأة » ، تأليف أراجوان ، ترجمة د . سامية أسعد وفؤاد حداد ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ م .

(٢)	(2)
وجوه تصلح للنار وجوه تصلح للبرد	Visages bons au feu visages bons au froid
للرفض لليل للسباب للضربات	Aux refus a la nuit aux injures aux coups
(٣)	(3)
أيتها الوجوه الصالحة لكل شيء	Visages bons a tout
ها هوذا الفراغ يثبت نظرته عليك	Voici le vide qui vous fixe
سيكون موتك مثالاً يحتذى	Votre mort va servir d'exemple

وجدير بالذكر أن ترجمة الشعر تتم دائماً بقدر من (الفاقد) ، قد يكثر أو يقل . ومهما كان المترجم حريصاً على أن يكون أميناً في ترجمته ، (يخون) النص بطريقة أو بأخرى .

ولا يفوتنا ، في ختام هذه الدراسة ، ذكر الطريقة التي نقلت بها الأبيات الشعرية في (ألف ليلة وليلة) إلى اللغات الأجنبية . وكان ا . كاري قد أكد عليها في كتابه عن كيفية الترجمة . عرف الغرب كتاب (ألف ليلة وليلة) عندما نقله ا . جالان A. Golland إلى الفرنسية في القرن الثامن عشر ، وقدمه في إطار سحر الجمهور آنذاك ، لأنه أدخل على النص المترجم بعض المحسنات البديعية ، وحذف منه كل ما يمكن أن يكون فاضحاً . وعندما أعاد ماردروس Mardrus ترجمته عام ١٩٠٠ ، أعاد اليه الأجزاء التي كان جالان قد حذفها منه . وفي عام ١٨٨٥ ـ ١٨٨٦ ، قدم ريتشارد بورتون ترجمة تشيع فيها روح القصص الشرقية وكان قد عاش في الشرق وعرف البلاد العربية معرفة جيدة . لذلك ، رسم الأحداث التي تعيشها الشخصيات ، ولم يحذف منها شيئاً ، وأكد على الأجزاء الشائكة في النص الأصلي وقدم للقارىء هوامش وثائقية تعينه على القراءة . وتوجد كذلك ترجمة روسية قدمها صالييه Salle، في أكثر النصوص إخلاصاً للنص الأصلي ، وإن افتقرت إلى الحيوية والمرح اللذين يشيعان في النص الأصلي . وتجدر الإشارة إلى أن المترجم الروسي نجح فيما لم ينجح فيه أحد من المترجمين من قبل ، ألا وهو نقل أبيات الشعر إلى النص المترجم بنفس البحر الذي كتبت به في النص العربي . وهكذا ، قدمت كل ترجمة لكتاب « ألف ليلة وليلة » صورة تتفق مع ذوق عصرها وإمكاناته . فلقد ترجم ماردروس أبيات الشعر الواردة في النص الأصلي لأنه أدرك أن وجودها بين مختلف أجزاء النص يعطيه مذاقاً خاصاً ، في حين حذفها جالان بكل بساطة . وعندما كان هذا الأخير يدرك أنها لازمة لفهم النص ، كان يلخصها بقدر الامكان ، ويدخلها في النص في شكل نثر عادي .

ومترجم القصيدة يمكن أن يترجمها نثراً أو شعراً . . . بشرط أن يحتفظ بجوهرها أي بالعناصر المكونة لشاعريتها ، وألا يترجمها كما لو كانت نثراً ، على حد قول نيدا .

• • •

والحديث عن الترجمة الأدبية قد يطول . . . لكن ، تأتي لحظة نضطر فيها إلى التوقف مؤقتاً عن الحديث . وقبل أن نفعل ، نعرب عن أملنا في أن تحتل الترجمة الأدبية ويحتل نقل النصوص الأدبية من العربية واليها مكان الصدارة في الاهتمامات الثقافية للبلدان العربية ، بحيث يتصل الحوار بين الآداب المختلفة ، وتضيق الفجوة التي تفصل بينها ، وتهيء الظروف لوجود أدب عالمي حقاً ، بفضل فن الترجمة .

المراجع

(١) J.R. Ladmiral : "Traduire : theoremes de la traduction," Paris, Payot, 1979

(٢) Meta, "Prisme de traductions litteraires," Presses de l'Universite de Montreal, vol. 31, no 3, september 1986

(٣) إبراهيم زكي خورشيد : الترجمة ومشكلاتها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٥

(٤) G. Mounin : "Les belles infideles", Paris, Editions des Cahiers du Sud, 1955

"Les Problemes theoriques de la traduction," Paris, Gallimard, 1963.

(٥) G. Steiner : "Apres Babel," Paris, A. Michel, 1978

(٦) "Revue d' Aesthetique," "la Traduction," no12, 1986

(٧) H. Meschonnic : "Traduction et litterature" dans "Dictionnaire des litteratures de langue francaise," Paris, Bordas, 1984.

* * *

اللغة العربية والنهضة العلمية المنشودة في عالمنا الإسلامي

كارم السيد غنيم
عضو هيئة التدريس بكلية العلوم جامعة الأزهر
عضو اتحاد الكتّاب ـ جمهورية مصر العربية

انّ اللغة تحيا بأهلها قبل أن تحيا بتركيبها، وتحظى بالصدارة عندما يكون أهلها قد سبقوا العالم في التطور الحضاري. ولعلّ مؤلّفات ابن سينا والفارابي وابن يونس وابن الهيثم وجابر والخوارزمي وابن النفيس والزّهْراوي وغيرهم من أعْلام الحضارة الاسلامية العظيمة، لتدل أعظم دلالة على صدق ما نقوله، فالمطلع على هذا الإرث الحضاري الرائع يدهش لأسلوبهم العلمي الأخّاذ ولغتهم العربية الرصينة التي كتبوا بها الرسائل والموسوعات وسطّروا بها التجارب والبحوث في الفلك والجبر والهندسة والطب والجيولوجيا والجغرافيا وعلوم الحياة والكيمياء و... وغير ذلك من مجالات العلوم المختلفة... لقد طوع هؤلاء العباقرة لغتهم العربية لمصطلحات العلوم الكوْنِيّة والطبيعية والأحيائية، فأنتجوا حضارة عالية هي بحق «حضارة القمة».

كذلك ممّا لاشك فيه أيضا أن استعمال اللغة العربية يتيح فرصاً أفضل للابداع في المجالات العلمية مثلما يحدث ذلك في مجالات الآداب والفنون. ووضح هذا بتجارب الزمان المتوالية التي مرت بها الأمة العربية الإسلامية العريقة. لكننا نرى فَريقاً ممن خطفت أبصارهم مَظاهر المَدنِيّة الغَرْبِيّة دُون لبابها، ركنوا لمقولة مكذوبة اخترعها الأعداء ورَوّجُوها في البلدان العربية والإسلامية التي احتلوها رَدحاً مِنَ الزمان، ثم اصطنعوا لَهم أذْناباً مِن أهْلها يشيعون هَذِهِ المقولة ويَغْرِسُونها في عُقول الأجْيال المتلاحِقة من شباب الأمة، تلك المقولة المكذوبة هي أن العربية إنْ صلحت أنْ تكون لغة فقهٍ وأدب وشعر، فانها لا تصلح أن تكون لغة علم أو لغة طب أو لغة صناعة أو تجارة، وذلك لافتقارها إلى الألفاظ العلمية والتعابير الدقيقة التي تتطلبها العلوم الحديثة وتستلزمها التكنولوجيا المعاصرة.

إن بحثنا الحالي ينتهي بنتائج أهمها أن هذه الفِرْية التي قُذِفَت بها لغة الضاد العظيمة مصدرها عجز ذلك الفريق من المدعين عن إثراء لغة أمتهم ، بل ضعفهم عن دراستها ومعرفتها، بيد أنهم يسقطون هذا العجز على اللغة العربية تبريراً لتقصيرهم إزاءها ونكوصهم عن النهوض بها في عصرنا الحالي.

إننا اذا أخلصنا النوايا وشحذنا الهمم وأمضينا العزائم على النهوض بالأمة العربية الاسلامية في عصرنا الحاضر كي تصعد لتتسنّم قمة الحضارة كسالف عهدها، فلابد أن نتخذ من لغتنا العربية مقوما أساسيا، ولعل هذا سيتأكد وضوحه في بحثنا هذا الذي نوجهه الى أهل الحل والعقد، إلى أولي الامر، إلى من بأيديهم الإعداد لنهضة علمية حضارية قادمة إن شاء الله في عالمنا الاسلامي.

الفصل الأول

تأثير اللغة العربية في اللغات الحية الأخرى

لقد غزت اللغة العربية أصقاعاً شتى من العالم، ودخلت أمماً مختلفة، وأثرت في لغاتها، وقد استقبلت اللغات التركية والايرانية والانجليزية والايطالية والاسبانية وغيرها من اللغات مفردات كثيرة من اللغة العربية، مما يدل على أن العربية كانت ولا تزال لغة حية قادرة على استيعاب مصطلحات العلم وألفاظ التكنولوجيا المعاصرة بكافة جوانبها.

يأخذنا د/ قاسم السارة الى عصور النهضة العربية الاسلامية فيوضح ان اللغة العربية عرفت بسختها وثرائها، وبما تملك من وسائل النمو والتطور من اشتقاق ومجاز ونحت وتعريب . . . وقد استطاعت بفضل ذلك أن تستوعب الثقافات والعلوم حين قام النقلة والمترجمون في عصور الاسلام الاولى بترجمة كتب اليونان والفرس والهند والاغريق الى العربية ، حتى أصبحت اللغة العربية حينذاك، ولمدة عدة قرون، لغة العلم والمعرفة التي يستعملها العلماء والمؤلفون في جميع أقطار المعمورة، من الاندلس غربا حتى أقصى بلاد ما وراء النهر شرقاً، وصح وصفها بأنها لغة العالم المتحضر. هذا يوم أن كان العرب سادة العالم ولهم زمام المبادرة في السياسة والفكر والعلم والاقتصاد والاخلاق والفن، كانت لغتهم سيدة الموقف بلا منازع، وقد استطاعت ان تدفن الهيروغلوفية والفارسية القديمة واللغات الاخرى التي طال بها الزمن لأكثر من ثلاثة آلاف سنة.

يقول د/ علي مظهر ان من يتتبع الالفاظ العربية التي دخلت غيرها من اللغات، يرى أنها لم تترك لغةً من لغات أوروبا إلا ولها فيها أثر، في الاسبانية والبرتغالية والفرنسية والانجليزية والغالية القديمة وفي الالمانية واللغات الجرمانية الاصل كالهولندية والاسكندنافية في شمال أوروبا، وفي الروسية والبولندية واللغات الصقلية، وفي الايطالية وبعض لهجات فرنسا وايطاليا. كما أن عثور الباحثين في جهات البلطيق في شمال أوروبا على سكة إسلامية عربية هي من آثار تجار المسلمين العرب الذين وصلوا الى تلك الارجاء يوما من الايام . وفيما يلي نعرض لبعض الآثار العربية في بعض اللغات العالمية الحالية.

تأثير العربية في الانجليزية: صدر معجم وبستر الانجليزي سنة ١٩٣٥ (مراجعة د/ فيليب حتي، وقد ضم (٦٠٠) ألف كلمة مأخوذة من اللغة العربية، منها ٥٠٠ كلمة من الالفاظ المستعملة في الكتابة والاحاديث العادية، والباقي في الشئون الفنية. ولعل من يطّلع على المعاجم الانجليزية الشهيرة ومنها معجم وبستر الدولي الثالث الجديد "Webster's Third New International Dictionary" يلاحظ الآتي: فمن الناحية الدينية نجد كلمة «الله» Allah مثبتة في المعاجم، وهي تختلف أيما اختلاف عن كلمة إله God ، وكلمة «قاضي» Cadi على الرغم من وجود كلمة Judge وكذلك لفظة «الهجرة» Hejra، وهي في الانجليزية Migration، وأخيرا «الشيطان» في العربية والتي نُقلت الى الانجليزية Satan . وقد تنوّع هذا في مجالات أخرى، مثلا في علم الفلك نجد مصطلح «فم الحوت» يُذْكَرُ في الانجليزية بلفظه العربي هكذا Fomalhaut ، وفي علم الرياضيات نجد «الصفر» Cipher، و«الجبر» Algebra، وهما مصطلحان عربيان. وفي علم الكيمياء نجد «القلي» Alkali ، و«الأنبيق» Alembic، وهي اداة التقطير، ولفظة «الكيمياء» من أصل عربي، كذلك فلفظة Alcohol هي في الاصل الغول ثم تُرجمت «الكحول» من الانجليزية.

حتى في أيامنا الحاضرة نجد للغة العربية آثاراً واضحة في اللغات المعاصرة، فمصطلحات «ثوب» Thoub ، و«العود» Oud ، و«فدائي» Fedayee، شائعة الاستخدام في لغة الصحافة الانجليزية المعاصرة.

قدّر الاستاذ أنيس المقدسي الالفاظ العربية التي دخلت الانجليزية فوجدها تناهز المائة والأربعين كلمة، في بحث قدّمه لمجمع اللغة العربية بالقاهرة في أحد مؤتمراته، وهنا مجهودات اخرى وصل الإحصاء فيها الى عشرة آلاف كلمة انجليزية من أصل عربي، كما ورد في كتاب المرحوم الدكتور سليمان أبو غوش، الذي صدر عام ١٩٧٧م.

تأثير العربية في الفرنسية: أشار أنور الجندي الى أن بيير جيرو قد قدم معالجة لهذا الموضوع، وأكد أن العرب هم أصل العلم الحديث، وبخاصة في علوم الطب والكيمياء والرياضيات والفلك، وكانوا هم همزة الوصل مع الشرق، بواسطة فارس والروم، وكانوا نقلة علوم الملاحة والتجارة الى الغرب.. الخ، وكل هذه التأثيرات بارزة فيما نجد في لغتنا من ألفاظ مقترضة، ثم قدّم جيرو قائمة من ٢٨ كلمة دخلت من العربية الى الفرنسية في العصور المختلفة، وقد وزعها بعناية على تواريخ اقتراضها. ومن هذه الالفاظ:

خليفة	Calife	جبة	Jupe
قناع ـ مسخرة	Mascara	سكر	Sucre
كباب	Cubebe	أمير	Emir
قميص	Chemise	قطن	Coton
غزال	Gazelle	أمير البحر	Emiral

__تأثير العربية في الالمانية:__ تشهد المستشرقة الالمانية د/ سجريد هونكة في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب) بذلك، وتملأ كتابها بالكلمات التي ترى أنها عربية الاصل في اللغة الالمانية، وتأتي في فهارس الكتاب بملحق ضم أكثر من ٢٥٠ كلمة، بعضها مشترك مع قائمة بيير جيرو الفرنسية.

__تأثير العربية في الاسبانية والبرتغالية:__ لقد كان للغة العربية أثر بعيد في اللغة الاسبانية وكذلك البرتغالية، لأن اللغة العربية استمرت ثمانية قرون في الاندلس أقامت خلالها حضارة ضخمة. وأحصى العلامة دوزي والعلامة انجلمان هذه الكلمات في كتاب سمياه «مفردات الكلمات الاسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية»، طبع في لندن ١٨٦٩م، وقد اجرى الاسبانيون عددا من التصفيات للغة العربية ومع ذلك فلا يزال ١٧٪ من كلماتهم عربيا.

__تأثير العربية في الايطالية والصقلية:__ أشار د/ لويجي رينالدي الايطالي الى أن اللغة العربية تركت أثراً كبيراً في اللغتين الصقلية والايطالية، وأنه لا يزال الجزء الأكبر من الكلمات العربية الباقية تفوق الحصر، دخلت اللغة بطريق المدنية لا بطريق الاستعمار.

__المقارنة بين العربية واللاتينية:__ نقلاً عن الأب انطون صالحاني اليسوعي (مجلة المشرق ١٩٢٥/٢/٢٣م) وساطع الحصري (في كتاب «آراء في اللغة والأدب») يقول الأستاذ أنور الجندي: .. وجملة الرأي في ذلك أن اللغة اللاتينية ماتت لغة للشعب بموت الدولة، وبقيت لغة للكنيسة والعلماء، أما الشعب فكانت اللغات على لسانه تتكيف بتكيفات مختلفة حسب الأمكنة والأزمنة والعناصر، ولم تكن اللاتينية لغته الاصلية وانما كانت لغات اخرى كالصقلية والسكسونية والجرمانية، وكلها امتزجت بلغة اليونان، فلم تثبت تلك اللهجات الا بتمادي الزمن وتنوع الكتبة وفتح المدارس وتأليف الكتب.

يضاف الى هذا ان اللغة اللاتينية لم تكن لغة الغرب كله، وهي لم تستطع التغلب على «اليونانية»، لأن اللغة اليونانية ارتبطت بحضارة أرقى من حضارة الرومان، فلما انشطرت الامبراطورية الى شطرين كانت اليونانية في الشرق واللاتينية في الغرب..

هذا فضلا عن أن اللغة اللاتينية كانت لغة أرستقراطية لا يمارسها ولا يحسنها الا النخبة الممتازة، ولم تتغلغل في طبقات العوام.

وهكذا رأينا بالدليل والبرهان كيف استطاعت العربية أن تؤثر في اللغات الحية الاخرى تأثيرا جعلها معبّرة وثرية، وهذا دليل قوتها وأصالتها، وقدرتها على مسايرة اللغات الأخرى في التعبير عن العلم والفن.

الفصل الثاني

حملات التغريب الحاقدة وتدهور اللغة العربية

بدأت الحملة على اللغة العربية منذ أواخر القرن الماضي، وامتدت على أيدي كُتّاب ومفكرين أجانب ثم حمل لواءها كُتّاب من بلادنا. يذكر أنور الجندي من الكتاب والمفكرين الأجانب مستر ولكوس حينما ألقى خطابه عام ١٨٩٢م في نادي الازبكية بالقاهرة جعل عنوانه «لِمَ لَمْ تُوجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن؟»، وأجاب عن هذا السؤال بأن السر في تأخرهم هو «اللغة العربية»، وأن المصريين لو اتخذوا لهم لغة «اقليمية» كما فعلت بريطانيا مثلا (مع اللغة اللاتينية التي أودعت المتاحف الآن) لاستطاعوا أن يتفوقوا ويخترعوا. وتابعه في القاهرة القاضي ويلمور عام ١٩٠١ م بحملة أخرى دعا فيها إلى ما أسماه «لغة القاهرة» واقترح كتابتها بالحروف اللاتينية. وقد ذكر أنور الجندي من الأجانب الذين كانوا يدعون الى نبذ العربية في بلاد المغرب العربي المستشرق ماسنيون الذي دعا عام ١٩٢٩م الى الكتابة بالحروف اللاتينية، وامتد نطاق حملته جغرافيا حتى شمل ليس فقط بلاد المغرب العربي بل كذلك سوريا والبلاد العربية التي كانت ترزح تحت نير الاستعمار الفرنسي. ثم تابعه في الحملة المستشرق م. كولان الذي كان يدعو الى العامية في بلاد المغرب العربي.

ولقد ترك هؤلاء الأجانب قبولا من أبناء العرب، يهجون نهجهم في الحملة الحاقدة على اللغة العربية والنيل من قدرتها والتقليل من قدرها، وكان من هؤلاء في أواسط هذا القرن العشرين: لطفي السيد وسلامة موسى وعبدالعزيز فهمي في مصر، والخوري مارون غصن في سوريا، وغيرهم كثير، وكانوا يدعون الى استخدام العامية في التعبير نطقاً وكتابةً والاستعانة بالحروف اللاتينية. يوضح صاحب (العربية لغة العلوم والتقنية) أن محنة العربية لا تتمثل في حشود الألفاظ والمصطلحات الوافدة من عالم الحضارة، الى عالمها الذي يبدو متخلفا، ليس ذلك فحسب، بل ان محنتها الحقيقية هي في انهزام أبنائها نفسيا أمام الزحف اللغوي الداهم، واستسلامهم في مجال العلوم للغات الأجنبية، بحيث تكونت في العالم العربي جبهة عنيدة تجاهد للابقاء على العربية بمعزل عن مجال العلوم والتكنولوجيا، قانعة بعلاقة هشة مع لغة الحضارة، فما دامت صفوة المشتغلين بالعلوم تعرف الانجليزية فلا بأس من عزل العربية، بل وقتلها.

هذا مع أن هناك شبه إجماع على ثلاث نقاط:

أولا: ان العربية قادرة على استيعاب العلوم، وأنه لا يمكن لاي مجتمع أن ينهض ويتحضر إلا من خلال لغته، ومن ثم لن ينهض العرب الا بواسطة العربية.

ثانيا: إن معركة أكثر المشتغلين بالعلوم للغة الانجليزية لا ترقى الى مستوى معرفة أهلها أنفسهم، فهم يستخدمون لغة لا يحسنونها، ويهملون لغتهم التي يمكن أن يحققوا بها مستوى أداء أفضل، فيزدادون ضعفاً على ضعف.

ثالثا: ان مستوى استيعاب الطلاب في الكليات العلمية لما يتلقونه بالانجليزية ضعيف، وهو أضعف قطعاً مما لو تلقوا موادهم بالعربية على أيدي أساتذة يحسنونها.

يذكر الاستاذ عبدالرزاق البصير أنه حضر احدى جلسات مجمع اللغة العربية الاردني، واستمع من رئيسه د/ عبدالكريم خليفة حديثا يدعو الى الحزن والألم.. يقول د/ خليفة (ان بعض اساتذة مادة الرياضيات في جامعة اربد ترجموا الكتب المختصة في هذه المادة والمقررة على الطلاب في السنة الاولى واخذوا يلقون منها دروسهم عليهم، فكان نجاحهم باهراً لأن استيعابهم لهذه المادة كان قويا جدا، ولكن الغريب في الأمر ان عميد تلك الكلية قد تغير وجيء بعميد آخر، فأمر بأن تلغى الكتب المترجمة الى اللغة العربية، وان توضع مكانها كتب باللغة الأجنبية، ولا تسل عما حدث من ارتباك في نفوس الطلاب، وفي هذا دلالة على ان هناك من يسعى لابعاد اللغة العربية عن التعليم الجامعي، وهو امر لا يجوز السكوت عنه).

أما في تركيا فقد نجحت الأتاتوركية في تحويل الحروف العربية التي تكتب بها اللغة التركية الى اللغة اللاتينية، ولكن هل ادى هذا الى ما كان يرنو اليه كمال اتاتورك واشياعه من نهوض وتقدم وتحضر؟ الجواب: لا، فالدولة لا تزال من الدول التابعة حضاريا للتكنولوجيا الغربية، والذي حدث فقط هو ابعاد «اللغة» عن متناول الفرد، وعجزه عن قراءة «القرآن»، إذن فهي حملة تهدف الى سلخ الفرد التركي من دينه وابعاده عن دستور ربه بابعاده عن لغة القرآن.

ويتأسف د/ الناعوري على هؤلاء المتشددين في محاربة اللغة العربية في الجامعات العربية، فقد استطاعوا حتى الآن ان يجمدوا العربية في جامعاتهم، ويمنحوا الحياة والازدهار للغات الأجنبية، وهذا عكس ما يحدث في جميع الامم والشعوب التي تحرص على ان تكون السيادة للغاتها القومية دون سواها، في كل جانب من جوانب حياتها العلمية والعملية والادارية والتقنية. وقد اكد د/ الناعوري على ان هذا التصرف يعد مظهرا من مظاهر التخلف في العالم العربي، حتى في اعلى مستويات الثقافة عندنا.

لقد ادى ادعاء الذين بأيديهم الامر وكبار اصحاب الأقلام والمراكز الادارية والثقافية في بلادنا، بأن اللغة العربية اصبحت لغة الشعر والادب والتعبير عن خلجات النفس، وليس لديها القدرة على مسايرة ركب الحضارة الحديثة وعلى استيعاب مصطلحاتها، ومن هنا فلابد للطالب العربي ان يتلقى دروسه بلسان اجنبي، ادى هذا الاتجاه الى تدهور اللغة العربية في عقر دارها. ولعلنا اذا فصّلنا البحث في الأسباب التي تكمن وراء الدعوة الى التغريب واتهام اللغة العربية بالقصور نعرض لما يلي:

١ ـ يدّعي دعاة التغريب في بلادنا، والحاقدون علينا من الأجانب، ان لغتنا العربية قاصرة عن التعبير عن القضايا العلمية المتجددة وعن استيعاب مواليد الحضارة الحديثة لاسيما وان مخاضها في بلاد أجنبية غربية هي او شرقية، وبمعنى آخر فهم يطلقون على العربية «لغة دينية» او لغة «أدبية» وليست «لغة علمية». والدكتور شاهين يرد

على هذه الفرية في حوار اعلامي اجرته معه مجلة الامة فيقول: الخطأ اولا في المصطلح، فالذين يتعمدون استخدام «لغة الدين» و«لغة العلم» لا يفهمون المصطلحات، لأن اللغة لغة، تستخدم في كل الاهداف التعبيرية التي يريدها المتكلم، سواء اكانت اهدافا دينية ام اهدافا علمية، لا يختلف الامر. . . ولكن الصواب ان يقال: الاسلوب الديني والاسلوب العلمي، ولكل اسلوب طابعه الخاص، وقواعده فيما يُسمَّى بـ «التراكيب». اما القول «بلغة الدين» فهي عبارة يقصد بها مستعملوها التعبير عما يكنونه من عداوة للاسلام والعربية. ولسنا بحاجة الى دليل على صلاحية اللغة العربية للتعبير عن العلوم، فذلك هو الواقع، ولكننا بحاجة الى ان نبين موطن الالتباس في القول بان هنالك لغة دينية، ولغة علمية، فهذا (سخف) وانما القول بأن هناك اسلوبا علميا، واسلوبا دينيا هو الحق، فطبيعة اللغة او التراكيب اللغوية تتصل دائما في خواصها بخواص المعنى الذي تعبر عنه، ان كان صارم الدلالة، محددا تماما، او كان معنى يتدخل فيه ما يسمى بالمجاز او الاستعارة. . فاللفظ في المجال الادبي والانساني يقوم على الغموض احيانا، وعلى الوضوح احيانا، ويؤخذ الغموض فيما يسمى بوسائل التعبير: التشبيه والاستعارة والكناية وما الى ذلك. . اما الاسلوب العلمي فهو شيء مختلف، فلا يقرأه كل الناس، بل يقرأه العلماء، ويستطيع اي عالم ان يعرف ما يعقل اي عالم آخر عندما يقرأ معادلاته وتراكيبه وافكاره العلمية بدقة شديدة جدا، كما يتجنب الاسلوب العلمي ما يسمى بالمجاز او الاستعارة او الكناية.

٢ ـ كذلك يدَّعي هؤلاء عدم مواءمة رسوم حروف العربية الهجائية للحياة الحديثة.

٣ ـ ويدَّعون أيضا جمود اللفظ في معناه.

٤ ـ كذلك كانت الدعوة الى اللهجات العامية وانشاء لغات منها من أهم أسباب تدهور اللغة العربية.

د ـ ولعل خضوع البلاد العربية والاسلامية للحكم الاجنبي عنها، سبب قوي في انصراف ابناء العربية عن استخدام لغتهم في الكليات العلمية خاصة وفي التعليم عامة، يقرر عبد الرزاق البصير ان خضوع الامة العربية تحت ظل حكم اجنبي، ادى الى ضعف وعيها الى درجة اصبحت لا تقدر ما يعنيه ضعف لغتها من اثر على وجودها، فلما جاء الاستعمار الاوروبي زاد في تعميق هذا الداء في نفوس الكثيرين، لأنه يدرك بأن أهم عناصر قوة الأمة وعزتها يأتي من قوة لغتها. وقوة اللغة تنشأ من ترجمة العلوم اليها وتعليم ابنائها بها، لان ذلك يخلق في الامة اعتزازا بلغتها، فانه اذا لم يتأكد في نفوس ابناء الامة ان لغتهم قادرة على استيعاب ما يجد في الحياة انهدمت او ضعفت على الاقل ثقتهم بلغتهم، مما يجعلهم ينصرفون الى غيرها من اللغات الاجنبية. ويؤكد عبدالرزاق البصير ان امة يصل حالها الى هذه الدرجة يصبح شأنها ضعيفا، مما يجعلها هدفا للغزو الثقافي.

وهناك عدة اسباب اخرى عرضها د/ مصطفى شعبان في تعقيب له على بحث في اللغة العربية بعنوان (مَن قتل اللغة العربية؟)، وجاء فيه أن من الاسباب التي أدَّت الى تدهور اللغة العربية حتى أضْحت مشكلة عندنا:

أ ـ فكرة التعليم الكمي لا الكيفي: خصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية. هذه الظاهرة ادت الى خلق جيل من انصاف المتعلمين يعلم جيلا من الجهلاء... وينطبق هذا التحليل بصورة خاصة على اللغة العربية وخريجي مدارسها.

ب ـ الاستهتار باللغة: واعتبار العلم بها عيبا والعالم بها متخلفا، لايجوز الاهتمام به.

ج ـ الإلحاح الدائم من وسائل الإعلام اليومية على استخدام لغة عربية معينة: في ألفاظها وقواعدها. والمطابع والإذاعات تضخ هذا الكلام وتبثه على اسماع الناس وابصارهم كل لحظة، حتى اصبح العامة يحسبون هذه الغثاثة هي السليم، وان ما غيرها (كتبا صفراء) لا يجوز لعاقل متحضر ان يقرأها.

د ـ اصبح يسيطر على وسائل الاعلام جيل ممن يجهل اللغة العربية، وبالتالي فلسان حالهم يقول للمشاهد وللمستمع ان العربية الحقة لغة عيية قديمة لا تصلح للحضارة والتقدم والنهاء الحديث.

ان الغيورين على اللغة العربية لم يقدموا لرجال العلوم واساتذة التكنولوجيا ما يشبع رغبتهم وبسرعة تجري مع معدل ما تلفظه الاكتشافات وما تأتي به الاختراعات وما تتناقله وسائل الاعلام وسبل الاتصال من منتجات التطور العصري السريع في عالم التكنولوجيا ـ أقصد منتجات لفظية ومصطلحات علمية ـ فأعمال هؤلاء الغيورين على العربية لا تزال تحبو في بطء وتكبل حركتها في كثير من الأحيان قيود الروتين في المجامع والهيئات المعنية في كثير من الدول العربية، حتى لا يسمع بما انتهى اليه هؤلاء العلماء.

وان سمع ففي سرعة لا تتفق وسرعة الاختراعات ومسايرة التقدم المدهش حاليا.

الفصـل الثالـث

خصائص العربية وعوامل بقائها حية عبر العصور

لغة العلم هي اللغة التي يستطيع بها أفراد الأمة استيعاب ما هو متاح من علم وأفكار، والتي تمكنهم بمرونتها ودقتها وسلاستها من تأصيل علمهم والإضافة إليه والإبداع فيه، وهذا ما حدث بالفعل للغة العربية في عصور النهضة العلمية في القرون الخوالي. ولقد لخص د/ هدارة سمات اية لغة كي تكون لغة للعلم في النقاط التالية:

١ ـ الوضوح: الذي لا يحتمل اللبس، فالغرض الاساسي للغة العلم هو تفسير ظاهرة او شرح طريقة، ولا يمكن تحقيق ذلك بلغة غير صريحة وواضحة او بكلمات مبهمة غير محددة المعنى.

٢ ـ سلامة البنيان اللغوي والايجاز حتى يمكن ان تعيه الذاكرة في يسْر، وحتى يتحقق للغة هذه الميزة لابد وان تحتوي على عناصر هي:

أ ـ الرموز: وهي عادة من حروف الهجاء تُستخدم للتعبير عن اشياء متعارف عليها، كرموز العناصر الكيميائية ووحدات القياس وغير ذلك، فنجد مثلا الدكتور عبدالصبور شاهين يورد من معجم (المصطلح) تأليف حسن السعران، ومن معجم المصطلحات العلمية لعبدالعزيز محمود وآخرين، ومن موسوعة الثقافة العلمية باشراف د/ انور عبدالواحد، جدول العناصر الكيميائية ومنه العناصر الاتية:

العنصر	رمزه	وزنه الذري	رقمه الذري
ذهب	ذ	197	79
أيدروجين	يد	1	1
نحاس	نح	63 ½	29
زرنيخ	ز	75	33
يود	ي	127	53
حديد	ح	56	26
رصاص	ر	207	82

ب ـ المعادلات الرياضية: وهي صيغ رمزية للتعبير عن علاقة معينة او قانون.

جـ ـ الرسوم: وهي اشكال تخطيطية توضح بنية معينة، كالدوائر الكهربائية او الانشاءات المعمارية او التصميمات الهندسية او الاتحادات الكيميائية.

٣ ـ المصطلحات: والمصطلح العلمي هو كلمة او اكثر يتم الاتفاق على تخصيصها لتعني مفهوما محددا. ويوضح د/ عمر فروخ ان وضع المصطلحات موحدة هو امر من الامور الهامة، فلا يجوز ان يدل المصطلح الواحد على مدركين ولا ان يكون للمدرك الواحد مصطلحان او اكثر.

٤ ـ القصد الى حقيقة الامور وعدم العناية الكبيرة بالشكل: واذا كنا قد اكدنا على ان الوضوح سمة من سمات لغة العلم، فان الامر يستلزم منا شيئا من التفصيل، فهناك نفر كثيرون يؤلفون في العلم كما يؤلفون في الادب والشعر: يبدأ احدهم بترجمة للأديب «قال فلان وقال فلان»، وقد يكون القولان متضادين، ثم يحاول المترجم للأديب او للشاعر او لرجل السياسة استعراض آرائه المختلفة، ويحاول ان يوفق بين المتناقضات منها، او استعراض اختلاف آراء الناس فيه. لكن هذا ـ على حد قول الدكتور عمر فروخ ـ ليس من سمات لغة العلم. . فما دام عندي قول في وجه من وجوه العلم لابن سينا مثلا، فأنا الغي كل قول لغير ابن سينا في هذا الباب من آراء ابن سينا واذا كان تاريخ العلم قريبا من تاريخ الأدب، فان تقرير العلم يختلف عن تقرير الأدب. وكذلك فالجدال ـ كما يجري في الفلسفة وفي الفقه وتخريج الأقوال ـ كما يقال في اللغة والنحو، وتسويغ الآراء ـ كما يقال في السياسة والاقتصاد، ليست من لغة العلم.

٥ - المنطقية: لغة العلم تحتاج الى منطق، وهو كما يعبر عنه د/ فروخ التوالي الصحيح لحدوث الاشياء او سبق الاسباب على النتائج ونسبة الفروع الى الأصول.

٦ - شمولية صفة العلم: فصفة العلم ليست وقفاً على جوانب المعرفة الانسانية في عالم الاعداد وعالم الطبيعة، بل يمكن ان تطلق على كل فرع من فروع المعرفة الانسانية اذا سلك الانسان في بحثه مسلك الدقة والوضوح والمنطق.

٧ - سمات أخرى للغة العلمية: يورد د/ شاهين سمات اخرى للغة العلمية، اولى هذه السمات: الحرص على تجنب الصور البلاغية، كالتشبيه، والاستعارة، والمجاز، والكناية، والتورية في اللغة العلمية، فهي لغة دلالاتها مباشرة، لا تعرف هذا الفن الذي ينم عن المهارة الشخصية، والذي يقصد به تجميل التعبير، واخفاء الحقيقة، وتزييف الواقع بالمبالغة والتناقض، ذلك ان دقة العلمية تقع وسطاً بين الإفراط والتفريط، وهما طرفا المبالغة، ومبنى الصور البلاغية. ليس معنى ذلك ان تخلو اللغة العلمية تماما من كل اثر للوسائل البلاغية، فهي قد تلجأ لبعض انواع التشبيه لغرض الايضاح، كتشبيه افريقيا على الخريطة بعنقود العنب، وكتشبيه ايطاليا بالحذاء، وكتشبيه فوران سائل ما بفوران سائل آخر، وتمثيل حدقة الاسد في اتساعها ليلا باتساع حدقة القط، فهذا كله يساعد على توضيح الفكرة العلمية، وهو لا يخفي حقيقة ولا يزورها.

وثانية تلك السمات ما يمكن ان نطلق عليه: وحدة المفهوم التركيبي للجملة العلمية، فاذا وصف كاتب علمي النار بانها حمراء، او ذات لون بنفسجي وجب ان يراد من ذلك ما يدل عليه من خصائص لون اللهب ونوع الوقود الذي اشتعلت به النار، دون ان يفهم منه التقابل بين لون النار ولون ثوب المحبوب، او خديه، فهذا طريق، وذاك طريق اخرى.

وثالثة هذه السمات التزام التعبيرات المحددة لغويا او رياضيا، فاذا اراد عالم ان يعبر عن بعد احد الكواكب عن أرضنا فيجب ان يبتعد عن التعبيرات الغامضة وغير المحددة، كأن يقول: انه يبعد عنا سنوات ضوئية كثيرة، او مئات الملايين من الأميال، فهذا اسلوب يليق بالخطباء والمتحدثين في البرامج التلفزيونية، اما العالم فيلتزم بكتابة الارقام المحددة، لأنها تعني عنده نتيجة علمية تتصل بوسيلة الاتصال بالكوكب، واثر ذلك على المناخ الارضي، والمجالات المغناطيسية، وغيرها من مشكلات علوم الفضاء.

وبعبارة اخرى يجب ان تتحقق المطابقة التامة بين المفهوم العلمي واللغة المعبرة عنه، وهذا ما يُطْلَقُ عليه في فن البلاغة (المساواة)، في مقابل: (الايجاز والاطناب)، المستخدمان كثيرا في اللغة الادبية.

فهل تتمتع لغتنا العربية بهذه الصفات حتى تكون بحق لغة العلم والتقنية؟ ان هذا هو ما سيتضح بجلاء حينما نقف على أهم خصائص هذه اللغة الحية العريقة والتي توجزها فيما يلي:

أولا : العربية لغة القرآن :

يرى المستشرق المسلم د / عبدالكريم جرمانوس ان للغة العربية سنداً هاماً أبقى على روعتها وخلودها هو « الأسلام » ، فلم تنل منها الاجيال المتعاقبة والعصور المتباينة واللهجات المختلفة ، على نقيض ما حدث للغات القديمة كاللاتينية ، حيث انزوت تماما بين جدران المعابد وكادت تنقرض .

وقد كان للاسلام قوة تحويل جارفة أثرت في الشعوب التي اعتنقته حديثا ، وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عميق في خيال هذه الشعوب فاقتبست آلافا من الكلمات العربية وازدانت بها لغاتها الأصلية فازدادت قوة ونماء .

ثانيا : الوضوح والسهولة والمرونة والتطور :

يوضح المفكر الاسلامي الاستاذ أنور الجندي أن اللغة العربية تملك من المرونة ما لا تملكه لغة حية أخرى ، فالألماني المعاصر مثلا لا يستطيع فهم كلمة واحدة من اللهجة التي كان يتحدث بها أجداده من ألف عام ، بينما العرب المُحْدَثُون يستطيعون فهم لغتهم التي كُتِبت في الجاهلية قبل الاسلام . ولولا تطور اللغة العربية الدائب ما استطاعت الأجيال الجديدة ان تفهم لغة أجدادهم ، والمرونة التي تنطوي عليها لغة الضاد لم تنشأ جزافا وإنما هي نتيجة حتمية لطبيعة اللغة العربية ، حيث ان ماتتميز به من موسيقية واضحة وقابلية للتزاوج مع اللغات الأجنبية جعل منها لغة حية مرنة متطورة .

في بحث له حول جانب واحد فقط من جوانب عظمة اللغة العربية ، شرح الدكتور احمد بسام ساعي مميزات العربية في النطق ، وحتى يأتي شرحه واضحا مُبَيَّنا على أساس علمي اتخذ من اللغة الانجليزية (وهي لغة منتشرة في تدريس العلوم في العالم الآن) أساسا للمقارنة في هذا البحث . وهذه بعض المقتطفات التي تهمنا منه في دراستنا الحالية :

الحروف : المعروف أن الإحصاء النظري ، لا العملي ، لحروف اللغتين العربية والانجليزية يظهر تقارب عدد حروفها ، فهي ستة وعشرون في الانجليزية ، وثمانية وعشرون في العربية ، أو تسعة وعشرون إذا عددنا الهمزة حرفا ، وهو الأفضل لأن الألف مجرد حرف ساكن ، أما الهمزة فحرف صامت حلقي كالعين والحاء والهاء ، فالاختلاف واضح وقوي - هذا هو الإحصاء النظري ، وهو إحصاء ناقص ومخادع عن الواقع العملي للغة .

إن حركات الفتحة والضمة والكسرة في العربية ليست في حقيقتها - على ضوء واقع اللغة الانجليزية - الا حروفا ساكنة كحروف الانجليزية (e,o,a) ، وان التنوين فيها ايضا حرف آخر مركب من ألف قصيرة ونون ، أو واو قصيرة ونون ، أو ياء قصيرة ونون ، أو اذا شئنا الاختصار ، هو نون تضاف الى أحد السواكن القصيرة الثلاثة - اي الحركات - في آخر الاسم النكرة أو العلم المنصرف ، إذا وصفنا الالف والواو والياء بأنها المقابل الطويل لهذه السواكن القصيرة .

وتصل الانجليزية الى تلك السواكن الطويلة بتكرار القصيرة ، فالحرف (O) ساكن قصير فيها يتحول الى ساكن طويل بتكراره كما في (boot) أو بإضافته إلى ساكن قصير آخر مجانس له كما في(four) ، وان كانت الانجليزية لا تملك قاعدة نهائية للتمييز الكتابي بين الساكن الطويل والساكن القصير ، فقد يتحول القصير كتابة الى طويل لفظا كما في (for) التي لا يختلف لفظها عن (four) ذات الساكنين المتجانسين ـ أو الساكن الطويل ـ بينما لا يحقق اجتماع الساكنين في بعض الكلمات أي طول لأحدهما ، سواء أكانا متجانسين أم شبه متجانسين ، كما في (curtain) ، أم متجانسين كما في (does) .

ولكن المقارنة النظرية بين اللغتين تظهر ان هناك تسعة عشر حرفا انجليزيا من أصل ستة وعشرين لها ما يقابلها في العربية وهي : أ ـ ب ـ ت ـ ث ـ ج ـ د ـ ذ ـ ر ـ ز ـ س ـ ش ـ ف ـ ك ـ ل ـ م ـ ن ـ هـ ـ و (w) ـ ي (y) . وهناك ستة حروف عربية أخرى خشنة تقابل في الانجليزية ـ وفي العربية نفسها ايضا ـ ستة حروف رقيقة ، وكأنّ الحروف الاولى تضخيم لهذه الاخيرة ، كما يظهر فيما يلي :

١ ـ (t) ت ط .	٢ ـ (d) د ض .	٣ ـ (th) ذ ظ .
٤ ـ (c ـ s) س ص .	٥ ـ (k) ك ق .	٦ ـ (h) هـ ح .

واذا كان هذا الاختلاف بين الحروف الرقيقة والحروف الخشنة لا يعني أية مشكلة لابن العربية فقد يكون ثمة مشكلة حقيقية امام المقبل على تعلّم العربية من غير العرب ، إذ ليس من السهل على اللسان الأوربي ، مثلا أن يخشّن الكاف (k) لتصبح قافا عربية ، ولكن هذا ، من جانب آخر ، ليس من الصعوبة بحيث يكفي لوسْم العربية بصعوبة النطق ، فليس مطلوبا من المقبل على تعلّم العربية ان يلفظ القاف ، أو أي حرف عربي آخر ، كما يلفظه العرب تماما ، على الأقل في السنوات الأولى من دراسته ، فكيف اذا كان العرب أنفسهم غير متفقين ، منذ الأزل وإلى الآن ، على طريقة واحدة للفظ القاف ، وكذلك معظم الحروف الأخرى ، ولا سيما الحروف الستة التي نحن بصدد الحديث عنها الآن ؟ وهذا ، في رأينا ، ما يؤكده الحديث الشريف « نزل القرآن الكريم على سبعة أحرف » .

ثم لا يبقى أمامنا إلاّ أربعة حروف عربية يمكن أن ندرسها ، ـ بداية ـ بوصفها فاصلا حقيقيا واضحا ، وثقيلا على اللسان الأوربي ، وهي الحاء (وقد اقترحنا ـ مع بعض التجاوز ـ ان يكون المقابل الخشن للهاء) ، والخاء والعين والغين .

ويواصل د/ سامي كلامه في هذا البحث « المقارن » القيّم فيشير الى استجواب حصل عليه من طلابه الانجليز حيث كان يدرّس في قسم اللغة العربية بمعهد الدراسات الشرقية بجامعة أكسفورد في العام الجامعي ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤ ، فيقول : يجمع المقبلون على تعلّم العربية من الطلاب الانجليز على أن أبرز الجوانب سهولة في العربية هو الوحدة القائمة فيما بين اللفظ والاملاء ، وتنبني هذه الوحدة على ثلاثة أسس :

١ ـ تقيد الاملاء العربي شبه التام بالألفاظ المنطوقة ليكون صورة صادقة ودقيقة عنها .

٢ـ وجود صورة نطقية واحدة لا أكثر للحرف العربي ، مع الاستفادة أحيانا من قواعد علم اللغة العام في تجويد الحرف تبعاً لسياقه ضمن الكلمة أو الجملة .

٣ـ عدم ارتباط العربية بنظام نَبْري محدد ، ومن ثم عدم حاجتها الى قواعد إملائية لضبط مثل هذا النظام .

وبعد ان ترسّل الباحث في كلامه عن تقارب الحروف وتباينها في اللغة الانجليزية ومقارنة ذلك في اللغة العربية ، دَلَفَ في حديثه الى « النظام النبري » فقال : « ولكن أهم ما يميز العربية من الانجليزية على الاطلاق هو النظام النبري الذي يشكل أساسا هاما لا يستغني عنه من أسس الانجليزية ، بينما لا تلتفت اليه العربية ، ولا تأبه بوجوده ، ورغم اختلاف اللهجات العربية اختلافا شديدا بين المشرق والمغرب والشمال والجنوب ، ووضوح النبر ، مثلا على المقاطع الأخيرة من الكلمات في بلاد المغرب العربي عامة ، فهذا لا يشكل عائقا في فهم الشعوب العربية بعضها لهجات بعض ـ عند استعمال الفصحى طبعا ـ لأن النبر ـ كما أشار الدكتور ساعي ـ ليس من أسس العربية ، والخلط فيه لا يشكل أي ضرر على اللفظ أو المعنى .

ثم بيّن بعض الثغرات في اللفظ الانجليزي وخصّ منها : توالي السواكن ، استطالة الكلمة استطالة يثقل بها اللسان ، ثم توالي الحروف المتشابهة مَخْرَجاً أو اجتماعها بكثرة في الكلمة الواحدة ، ولا سيما الحروف الصفيرية كالسين والشين والزاي .

وقد يقول قائل : ان اللغة الانجليزية لغة عالمية راقية لا تدانيها اللغات الأخرى في تداولها وعالميتها ، قواعدهابسيطة لا بأس بها ومؤيّدوها وعشاقها أكثر من الكثير ، وقد نجحت في السيطرة على العالم . ولكن يجب على هذا القائل أن يتساءل : هل يعود نجاح هذه اللغة الى مقومات المعاصرة وعناصر السهولة التي تملكها ، أم الى عناصر خارجية ؟ يجيب الاستاذ الجندي بالتأكيد على الشق الثاني وذلك لأن الجوانب التي تعيب اللغة الانجليزية وتقلل من شأنها وتجعلها صعبة المراس عند الإمعان ليست بقليلة . فهي في أكثرها قائمة على الشواذ وتعتمد على السماع ، كما أن عماد اللغة نفسها يدور على نبرات صوتية كاثفة وجرس رنيني لا يخضع لأداء صوتي محدد وقواعد محددة . وقُلْ نفس الشيء في إملاء الانجليزية ، حيث يعزوه نقص بعض القواعد والضوابط من البداية الى النهاية . . . وهكذا فان اللغة الانجليزية التي تحمل صفة « المعاصرة » ولقب « أرقى لغة » لا تطاولها في عالميتها لغة ، هي لغة لا تحمل من مقومات المعاصرة وإمكانية مواكبة العصر الاّ ما هو أقل من القليل . وهذا يؤدي بنا الى حكم واحد هو ان الانجليزية ليست في ذاتها معاصرة ، وان معاصرتها وعالميتها مَدِينَة لتحديات الزمان وتنوعات التاريخ التي ترتفع طَوْراً بأقوام وتنحدر طَوْراً بآخرين .

ثالثا : درجة التنظيم :

في هذا الجانب من عبقرية اللغة العربية ، يوضح د / تمام حسان عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ان العربية بِنْية جامعة مانعة ، شأنها في هذا الطابع شأن كل اللغات ، ومعنى كونها جامعة أنها غانية بنفسها عما عداها ، فلها

من أصولها وقواعدها ومعجمها ما يتيح لها أن تكون أداة للتواصل بين الناس ، دون أن تفتقر الى أصل أو قاعدة من لغة أخرى ، ومعنى كونها مانعة أنها ترفض قبول هذه العناصر التي استغنت عنها بكمال ذاتها .

فهي ترفض ان تضيف الى أقسام الكلم فيها ، أو الى ضمائرها أو أدواتها أو قواعدها ، شيئا جديدا . فتأبى مثلا أن تقدم الصفة على الموصوف ، أو أن تستخدم في الجملة الاسمية فعلا مساعدا ، وهلم جرا ، ولو حدث شيء من ذلك لانهدّت البنْية وتحطّمت ، ولم تَعُدْ النتيجة صالحة لأن تُوصف « بالعربية » .

وهذه البنية العربية نظام كلي ، مكون من أنظمة فرعية ، على نحو ما نرى جسم الانسان جهازا أكبر مكوّنا من أجهزة فرعية ، كالجهاز الهضمي والدوري والتنفسي والعصبي والإفرازي . . . الخ ، يتضافر بعضها مع بعض بأداء الوظائف الخاصة التي يصل الجسم الانساني بمجموعها الى التوازن الحيوي المنشود وهذه الأجهزة الفرعية لا استقلال لأحدها بوجود خاص ، ولا يبرر تناول أي واحد على حدة الاّ لإفادة الشرح والتفسير في سياق تشريحي أو فسيولوجي . أما في واقع الحياة فإن فصل واحد منها عن غيره يقضي على البنية كلها ، فيموت الإنسان بما فقد من وظيفة حيوية كانت لهذا الجهاز الفرعي .

كذلك تمثل العربية نظاما مشتملا على أنظمة فرعية ، كنظام الأصوات ونظام المقاطع ونظام النبر ، ونظام التنغيم ، ونظام المباني الصرفية ، والإعراب والمطابقات ، والروابط ، والأدوات ، والرتب ، والتضام الذي يتمثل في الافتقار والاختصاص والتنافي والتوارد . . الخ .

رابعا : الاقتصاد والإيجاز :

وقد أفاض في هذا الجانب أستاذنا الدكتور حسان أيضا ، فقد بيّن تميّز العربية في اقتصادها بظاهرتين : ظاهرة تعدد المعنى للمبنى الواحد (سواء تعدد المعنى النحوي او تعدد المعنى المعجمي) ثم ظاهرة النقل (سواء في النحو أو في المعجم) .

تتناهى الألفاظ والأنماط التركيبية ولا تتناهى المعاني ، ومن ثَمّ يصبح على العربية أن تعبّر بالقليل المتناهي عن الكثير غير المتناهي ، فاذا تحقق لها ذلك فقد تحقق لها الاقتصاد بعينه . ولقد عمدت العربية الى اصطناع بعض الوسائل التي تمكّنها من تحقيق هذه الخاصية ، ولعل أشهر هذه الوسائل :

أ - ظاهرة تعدد المعنى للمبنى الواحد : تعدد المعنى النحوي : اذا قلّت الألفاظ وَالأنماط وكثرت المعاني فأَوْلَى باللفظ أو النمط الواحد أن ينسب إلى عدد من المعاني ، وقد تحقق ذلك في النحو بواسطة معاني الصيغ ومعاني الأدوات . كأن تصلح « استفعل » للطلب كاستخرج ، والصيرورة كاستحجر ، واعتقاد الشيء على صفة ما كاستصغر ، والمطاوعة كاستقام ، والاتخاذ كاستشعر ، وحكاية الشيء كاسترجع ، وقوة العيب كاستهتر ، والاستحقاق كاستحصد ، وكأن تصلح « تفعل » للمطاوعة كتكسر ، والصيرورة كتحجر ، والاتخاذ كتوسد ، والتدرج كتجرّع ، والتكلف كتصبّر ،

وهلم جرا . وسترى كيف تتعدد المعاني النحوية للادوات ، كأن تصلح « ما » للنفي والموصولية والتعجب والمصدرية الظرفية والشرط والزيادة والإبهام ، أو تصلح « أن » للشرط والنفي والتخفيف ، « من » الثقيلة (أي التأكيد) والزيادة ، وكأن تصلح اللام الجارة لعدد من المعاني كما تصلح للأمر .

تعدد المعنى المعجمي : اما تعدد المعنى المعجمي فحسبك ان تنظر في أي معجم يخطر ببالك وسترى لكل كلمة مفردة عددا من المعاني التي يمكن لها أن تؤديها بحسب ما ترد فيه من الجمل . انظر مثلا الى اختلاف معاني لفظ « ضرب » في الجمل الآتية : ضرب الأب ابنه ـ ضرب الله مثلا ـ ضرب له موعدا ـ ضرب له قبة ـ ضرب في الأرض ـ ضرب خمسة في ستة ـ ضرب النقود ـ ضرب على العود ـ ضرب العيار الناري ـ ضرب التليفون . فهذه معان عشرة ، وهناك غيرها لمن شاء أن يكون أكثر إحصاء وحصْراً ولعل في ذلك ما يشير الى خاصية الاقتصاد في العربية .

ب ـ ظاهرة النقل :

النقل في النحو : لقد فطن النحاة الى بعض مظاهر النقل في النحو ، فأشاروا الى العلم المنقول من الفعلية كيزيد ، أو الوصفية كصالح أو المصدرية كنصر ، كما فطنوا الى نقل نمط التركيب الخبري الى معنى الدعاء ، ونقل التركيب الاستفهامي الى الإنكار أو التقرير أو العرض أو التحضيض . ولكنهم كذلك طبقوا ظاهرة النقل دون إشارة الى هذا المصطلح في حالات أخرى ، كقولهم في « ما » التعجبية إن أصلها الاستفهام وقد أشربت معنى التعجب (أي نُقلت الى التعجب) ، غير أن ظاهرة النقل في النحو أوسع انتشارا من ذلك ، ولكن المقام لا يتسع هنا لبسط القول فيها ، ومن ثَمَّ نورد إشارات عابرة لمثل لها . وهكذا نرى النُّحاة يتناولون بعض مظاهر النقل تحت مصطلح « النقل » وبعضها تحت « الإشراب » ، وبعضها تحت « النيابة » كما في الأدوات .

النقل في المعجم : فهو ما نسميه المجاز ، فالمجاز « نقل » بحكم التعريف ، لأنه نقل اللفظ من معناه الحقيقي الى معنى آخر ليس له بحكم وضعه ، وذلك بواسطة علاقة فنية تربط بين اللفظ ومدلوله المجازي ، والقرينة تمنع أي توهّم لأنْ يكون المدلول المجازي مقصورا على الحقيقة .

جـ ـ الميل الى التركيز :

من مظاهر الاقتصاد في العربية غير ما تقدم ميلها الى التركيز ، ويتجلى ذلك في أمور منها نبذ استعمال الأفعال المساعدة في التعبير عن علاقة الإسناد في الجملة الاسمية ، لأن العربية تفضل أن تعبر عن هذه العلاقة بقرائن أخرى كرفع المبتدأ والخبر ، وتعريف المبتدأ إلاَّ عند أمن اللبس وتقديمه على الخبر الا أن يدعو الى عكس ذلك داع من المعنى نحو « في الدار رجل » أو من المبنى نحو « أين زيد » ؟ ، أو « في الدار صاحبها » . ويتجلى التركيز أيضا في الإضمار بمعنيْه كليهما : المعنى الذي يكون فيه الإضمار ضد الذكر ، والمعنى الذي يكون معه ضد الإظهار ، ومما يتجلى به التركيز قابلية التلخيص والتحويل ، وهي مما كشفت عنه الدراسات الحديثة في حقل اللغة ، وإن أشار اليه القدماء بالقول إن تلخيص الكلام بواسطة العدول عن ذكر ما يسلم المعنى بتقديره ، ويدعو الفهم السليم الى هذا التقدير .

أما ما كشفت عنه الدراسات الحديثة ، ولم يشتمل عليه كلام القدماء ، فهو تلخيص البنية الملفوظة (وتسمى السطحية) للبنية الملحوظة (وتسمى العميقة) .

د - إمكان الاستغناء بالأصناف عن المفردات :

إمكان الاستغناء بالأصناف عن المفردات مظهر اقتصادي في لغتنا يسَّهل به فهمها وتناولها بالدرس ، ويتضح في أمرين : أحدهما التصنيف ، والثاني التقعيد ، وواضح ان المقصود بالتصنيف تحديد الاصناف (أي الأبواب) ، وان المقصود بالتقعيد تجريد القواعد .

هـ - الاقتصاد في الجهد :

ومما يتجلى به الاقتصاد في بِنْية العربية طلب الخفة ، أو ما يسمى في الدراسات الحديثة : « الاقتصاد في الجهد » وهو يُعَدُّ أساسا لبعض الظواهر الصياغية في العربية : كالتأليف والإدغام ، والمناسبة الصوتية ، والإعلال والإبدال ، والتخلص من التقاء الساكنين وغير ذلك .

خامسا : توفر وسائل النمو المعقلي :

من أهم هذه الوسائل : الاشتقاق والإلصاق .

أ - الاشتقاق : وضع د / شاهين تعريفا للاشتقاق نصه : « هو استخدام الحركات في صوغ الكلمات من المادة على أساس قياس مطرد » وحين تدخل الحركات على الصوامت فإنها تخضع لنظام معين ، هو ما يعرف في اللغة بالقياس المطرد في صوغ المفردات . وبعبارة أخرى : تكوِّن الحركات مع الصوامت ما يسمى بالمقاطع ، التي هي من حيث الكمية أكبر من الصوت ، وأصغر من الكلمة غالبا ، وقد يتساوى المقطع مع الكلمة ولا سيما في الأدوات .

المقطع بالتعريف العلمي هو : (تقسيم طبيعي فوق البسيط للحدث اللغوي يتفق مع إيقاع النَّفَس ، ومع تقاليد اللغة في بناء ألفاظها .

وهذه الأشكال الأساسية الثلاثة للمقطع العربي : الاول : المقطع الصغير ، ويتكون من صامت + حركة قصيرة . الثاني : المقطع الطويل المقفل ، ويتكوَّن من صامت + حركة قصيرة + صامت . الثالث : المقطع الطويل المفتوح ، ويتكون من صامت + حركة طويلة .

هذه المقاطع الثلاثة هي التي يتكون منها الكلام العربي المتصل ، ولا بد لكل كلام متصل عربي أن ينتهي في التحليل الأولي للصيغ الى هذه المقاطع ، كلها أو بعضها .

وهناك صورتان مقطعيتان تردان في النطق ، في حالة الوقف غالبا ، وهما : الرابع : المقطع المديد المقفل بصامت ويتكون من صامت + حركة طويلة + صامت ، مثل النطق بالفعل (كان - Kaan) والخامس : المقطع المديد المقفل بصامتين ، ويتكون من : صامت + حركة قصيرة + صامتين ، مثل النطق بكلمة (قدر - qadr) .

وقد أطلق اللغويون على عملية تقليب الصوامت لتعطي جذورها الممكنة وصف (الاشتقاق الكبير) ، وأطلقوا على عملية تغيير أحد صوامت الكلمة لخلق مادة جديدة وصف (الاشتقاق الأكبر) .

وإذن يتحصل لدينا للاشتقاق ثلاثة أنواع :

الأول : الاشتقاق الأصغر ، وهو (أخذ الكلمات من المادة بواسطة إقحام الحركات في الصوامت) ، سواء اقتصرنا على هذا الاقحام ، وهو ما يسمى بالتحول الداخلي ، أو أضفنا اليه استخدام طريقة الالصاق .

الثاني : الاشتقاق الكبير ، وهو (الحصول على جذور مختلفة من مادة ذات صوامت مشتركة بوساطة التقليب) .

الثالث : الاشتقاق الأكبر ، وهو (الحصول على تنوعات من الجذور بوساطة تغيير أحد الصوامت الأصلية) .

ومن أجل هذا توصف اللغة العربية بأنها لغة اشتقاقية ، لأنها تتوصل كلماتها عن طريق استخدام المادة بجميع صور الاستخدام .

فنحن عن طريق الاشتقاق الأصغر نحصل من المادة بالشروط السابقة على : صيغ الأفعال الثلاثة : الماضي والمضارع والأمر ، كما نحصل على صيغ المشتقات وهي اسم الفاعل ، واسم المفعول ، والصفة المشبهة ، وأفعال التفضيل ، وأسماء الزمان والمكان واسم الآلة ، وفعلا التعجب والمصدر الصريح ، والمصدر الميمي ، واسم المرة ، واسم الهيئة .

ولا بد من الاشارة الى أن اللغة العربية تتميز بهذه الطريقة في الاشتقاق على اللغات الاوربية ، فلم تعرف اللغات الاوربية هذا (التحول الداخلي) في الحركات ، بل اقتصرت على طريقة تسمى (طريقة الإلصاق) .

ب ـ الالصاق : ويقصد به أن يضاف إلى أساس الكلمة زائدة في صدرها تسمى سابقة : (Prefixe) ، أو في عجزها تسمى لاحقة : (suffixe) ، أو في وسطها تسمى حشوا (infixe) ، ويغلب على اللغات الاوربية الاعتماد على السوابق واللواحق في صوغ الكلمات ، ويقل ـ ان لم يتعدم ـ استعمال الحشو ، أي : التدخل في قلب الكلمة بالتغيير أو بالاضافة ، وكل ذلك يطلق عليه مصطلح (الإلصاق) Affixation .

فالكلمة في الفرنسية مثلا ذات نواة ثابتة مكونة من صوامت وحركات معا ، مثل sable ثم يضاف إليها ، أو يلصق بها لواحق مثل : sable (er) ، ومثل sabl (e) ، سوابق مثل : desensabler, en — sabler وذلك بإدماج السابقتين . أو هما معا مثل : des — en — sable — ement ، غير أن النواة الأصلية لا تمس أية صورة من الصور الاشتقاقية وبهذا يحصلون في الفرنسية أو في الإنجليزية على جميع المشتقات .

أما في العربية فاننا نستخدم الى جانب (التحول الداخلي) عملية (الالصاق) فتدخل على المادة بعض السوابق واللواحق والدواخل أو الحشو ، في شكل مقاطع كاملة ، تحمل بالقوة معنى وظيفة لغوية ، وبذلك نحصل على قدر وفير من الكلمات .

وقد عرفت العربية حروفا خاصة تستعملها في زيادة البنية ، تسمى (حروف الزيادة) وهي مجموعة في العبارة : (سألتمونيها) ، ومن هذه الحروف زوائد فعلية كالهمزة والسين والتاء والنون ، وزوائد اسمية كالميم والهاء ، وزوائد مشتركة كالالف والواو والياء واللام . على أن هذه الحروف لا تزاد مجردة ، بل لابد من اقترانها بحركات مناسبة لتصبح مقاطع كاملة ، ثم تضاف في موقعها ، واحدا أو أكثر ، لتحقيق البنية الاشتقاقية المرادة . وهذا الذي نقرره هو خلاف ما جرى عليه الصرفيون ، فقد تصوروا دائما حروف الزيادة مجردة عن الحركات ، وهو نقص في البيان لا ينبغي التغاضي عنه .

ولا ريب ان الالصاق يحتاج الى مزيد إيضاح لتحديد دوره في تنمية موارد اللغة العربية .

وعملية الالصاق لا تبتعد كثيرا عن عملية التركيب ، من حيث كونها جمْعاً بين عناصر مختلفة في تكوين واحد ، غاية ما هنالك ان التركيب يقوم على اساس الجمع بين عناصر مستقلة ، ذوات دلالة ، أما الإلصاق فهو جمع بين عنصر ذي دلالة ، وعناصر أخرى لا دلالة مستقلة لها ، بل هي مجرد حروف تظهر معانيها في غيرها ، وهي في الواقع أقل شأنا من حروف المعاني التي تؤدي وظيفتها في التركيب مع احتفاظها باستقلالها الشكلي .

ولقد كان من الممكن من الناحية التنظيمية المحضة اعتبار الحركات المتغيرة وحدات صرفية (الظاهرية) دالة على الوظيفة الاشتقاقية ، كالفاعلية أو المفعولية ، الى جانب الصوامت اللواصق ، لولا أن الخصائص الصوتية للغة العربية قد فرضت أن يعالج جانب الحركات في إطار مفهوم (التحول الداخلي) ، لأن الحركات لا تكون بذاتها مقطعا عربيا ، ويبقى جانب الصوامت في أشكالها المقطعية ليعالج تحت مفهوم (الإلصاق) ، باعتباره داخلا في التنظيم المقطعي .

هكذا يتضح لنا من خلال استعراض خصائص اللغة العربية أنها لغة حية على أعلى مستوى بما تملكه من (استراتيجية) عالمية ، بين اللغات الأخرى ، فهي لغة القرآن أي مفتاح الاسلام ، فكل المسلمين مطالبون بتعلمها واستعمالها وان كانوا من غير العرب ، وهي اللغة العالمية التي تتمتع بالوضوح والسهولة وسلامة البيان والإيجاز والقصد الى حقيقة الأمور ، وهي اللغة التي تمكن أبناءها من استعمالها ـ اذا فهموا أصولها وعرفوا قدراتها ـ وتوفر لهم القدرة على اشتقاق الألفاظ والصاق الكلمات ونحت المصطلحات .

فكيف يستطيع أبناء العربية اليوم أن يجعلوا من لغتهم مقوما أساسيا لنهضتهم العلمية وحضارتهم التقنية المنشودة ؟ وهل قام بذلك العرب والمسلمون في سالف الزمان ، حتى نقتدي بهم ونترسم خطاهم ؟ نعم كانت الحركة العظمى للترجمة والتعريب التي شرفت بها عصور النهضة الحضارية لا سيما العصرين الأموي والعباسي حين ازدهرت العلوم وتقدمت الفنون وارتقت المعارف وانتشرت أشكال الحضارة .

الفصل الرابع

الحركة العظمى للترجمة والتعريب في العالم الاسلامي

أولا : العصر الأموي :

إن أول ترجمة ذات طابع علمي ، وقعت في الاسلام كانت على يد خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى (٨٥هـ - ٧٠٤م) الذي تخرّج في علوم الحكمة على رهبان مدرسة الاسكندرية كمريانوس ، واسطفانوس ، وبذل العطايا والهبات وبذل المال ، لأهل الحكمة ورؤساء الصنعة والمترجمين الذين قاموا بنقل كتب النجوم والطب والكيمياء والحروب والآداب والآلات والصناعات ، ويقول ابن النديم : ولقد كانت له محبة للعلوم ، . . فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كانوا ينزلون بمصر ، وقد أجادوا العربية ، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربي ، وهذا أول نقل كان ، أي في الاسلام .

ولم يكتف هذا الأمير بالنقل والترجمة ، بل أسهم في التأليف بنفسه ، حيث سُمِّيت تآليفه بأنها أول تأليف في مجال الحكمة . ثم جاء الخليفة مروان بن الحكم فوجه بعض همته الى النقل فترجم له ما سرجويه البصري كتاب اهرون بن اعين القس من السريانية ويُعَدُّ من الكتب النفيسة التي تناولت الحكمة وغيرها .

وسار عبدالملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ) على منوال والده في الاهتمام بالنقول والترجمة ، حتى ليعدُّ هذا الخليفة أبرز خلفاء بني أمية اهتماما بالتعريب والترجمة ، حيث وجّه همّته الى ترجمة الدواوين الى العربية ، لأن دواوين مصر كانت ما زالت بالقبطية ، ودواوين الشام بالرومية ، ودواوين العراق بالفارسية ، وبذلك وضع لبنة قوية في صرح بناء القومية العربية ، وتأصيل التعريب .

ولما كانت خلافة عمر بن عبدالعزيز (٩٩ - ١٠١هـ) عثر على اهرون في خزائن موروثات الخلافة ، فأخرجه ، وحثّ المسلمين على قراءته والانتفاع به لما له من أثر كبير في التفكير الفلسفي ، واحتوائه على ألوان من الحكمة ذات القيمة في بناء الحياة الفكرية .

ومما يُذْكَرُ بالثناء ما قام به أبو العلاء سالم ، كاتب هشام بن عبدالملك (١٠٥ - ١٢٥هـ) من نقل رسائل ارسطو ، وكان سالم هذا ممن يجيدون العربية واليونانية ، حتى أنه أعاد النظر فيما سبق ترجمته وأصلح كثيراً من أخطائه .

ثانيا : العصر العباسي :

جاء العصر العباسي فأخذت الترجمة فيه طابع الشمول والغزو - كما عبّر بذلك الدكتور عفيفي - فبعد أن كانت في نطاق رغبة الخلفاء لإشباع نهمهم العلمي ، أصبحت سنّةً من سنن الدولة ، ومنهجاً من مناهج الأفراد والأسر ، وذلك عندما كثر اختلاط العرب بأبناء الدول المفتوحة من الخليج الى المحيط ، فاستشعروا الحاجة الى علوم ومعارف

لم تكن لهم بها صلة ، أو كانت ولكنها كانت صلة ضئيلة ، فأرادوا الاستزادة منها ، فقرّبوا العلماء والأطباء والحكماء ، وأهل الفنون والأدب ، والحساب والفلك ، وأجزلوا لهم العطاء .

فهذا أبو جعفر المنصور (١٣٥ ـ ١٥٨هـ) ثاني الخلفاء العباسيين كان مُولَعاً بالطب والنجوم والفلك والهندسة فكاتب ملوك الروم يطلب منهم ما لديهم في هذا الشأن فبعثوا اليه كليات اقليدس في الهندسة ، وفي الطبيعيات ، وفي ذلك يقول المسعودي : « كان أبو جعفر المنصور أول خليفة تُرجمت له الكتب من اللغات العجمية الى العربية ، منها كتاب : كليلة ودمنة ، وكتاب السندهند ، وتُرجمت له كتب أرسطو طاليس من المنطقيات وغيرها ، وتُرجم له كتاب المجسطي لبطليموس ، وكتاب الارثماطيقي ، وكتاب اقليدس ، وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية ، وخرجت الى الناس فنظروا فيها وتعلقوا الى عملها .

وكان جورجيس (١٦٠ ـ ٧٧٧م) رئيس أطباء جنديسابور قد استقدمه المنصور ليكون طبيبه الخاص ، لما شاع عنه من مهارته الطبية ، وكان يجيد اليونانية والفارسية ، فقام بترجمة كثير من كتب الطب اليوناني والفارسي ، وسار أولاده وتلاميذه كبختيشوع وسرجيس على نهجه في الترجمات الطبية .

وسار الرشيد على منوال أسلافه ، فحينما افتتح عمورية وأنقرة انتخب من أبنائها فريقاً من العلماء والتراجمة وجعلهم في حاشيته ، وطلب اليهم أن يختاروا عيون الكتب التي وُجدت في مكتبات هاتين البلدتين ، فاختاروا الكتب النادرة التي لا توجد عند غيرهم من الأمم في ميدان الطب والفلسفة والفلك ، ونقلوها الى بغداد ، وأمر الرشيد آنذاك أبا زكريا يوحنا بن ماسوية (٢٤٤هـ) أكبر أطباء عصره أن يرعى هذه المنقولات ، وأن يعنى بترجمتها وأن يختار في سبيل إنجاز هذه الترجمة من يعاونه ممن أحسنوا اللغات الى جانب العربية .

كما طلب الرشيد الى طبيبه الخاص منكه الهندي ان يتولى نقل الكتب من الهندية الى العربية ، فنقل عدة كتب تبحث في الطب على طريقة الهنود ، وممن أسهم في النقل معه ابن دهن الذي كان يشرف على بيمارستان البرامكة .

ولما آلت الخلافة الى المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ) سار سيرة والده ، بل أشرف على الذروة ، حيث وجّه همته الى الترجمة والتأليف ، حيث كان يميل بطبعه الى كتب الحكمة ولا سيما كتب الفلسفة والمنطق ، لأنه كان معتزليّ النزعة ، مؤيّداً لسلطان العقل ، وحرية الرأي ، ومن ثمّ أكثر من ترجمة هذا اللون ، لأنه رأى فيه خير معوان على دعم العقل ، وتحكيم المنطق ، مما دعا الى بروز علم الكلام واستوائه فنّاً له مناهجه وقضاياه المعينة . ولقد وصف صاعد الأندلسي مدى ازدهار هذه الانتفاضة الفكرية ، واعتمادها على حركة الترجمة والتعريب فقال : لما أفضت الخلافة الى الخليفة السابع عبدالله المأمون ، تمّم ما بدأ به المنصور . . . فأقبل على طلب العلم في مواضعه ، واستخراجه من معادنه ، بفضل همّته الشريفة ، وقوة نفسه الفاضلة ، فداخل ملوك الروم ، وأتحفهم بالهدايا الخطيرة ، وسألهم صلته بما لديهم من كتب أفلاطون وأرسطاليس وابقراط ، وجالينوس واقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة ، فاختار له مهرة التراجمة ، وكلفهم إحكام ترجمتها ، فترجمت له على غاية ما أمكن ، ثم حضّ الناس على قراءتها ، ورغّبهم في تعلّمها ، فنفقت سوق العلم في زمانه وقامت دولة الحكمة في عصره .

حقاً ، لقد كان « بيت الحكمة » في بغداد بمثابة أكاديمية علمية تنقسم الى أقسام متعددة للنقل حسب اللغات ، وفيها قسم للتأليف وآخر للبحث . وقد بلغ عدد الكتب التي ترجمت الى اللغة العربية حسبما ذكر ابن النديم في الفهرست نحو (٤٠٠) كتاب ، منها (١٤٩) في الطب فقد ترجم من كتب جالينوس (٥٣) كتابا ، ومن كتب روفس (٤٣) كتابا ، ومن كتب أبوقراط (١٠) كتب ، ومن كتب ديسقوريدس كتابان ، ومن كتب فولس الاجانيطي كتابان ، ... الخ .

أساليب الترجمة والتعريب في هذه الحركة العظمى :

أولاً : الترجمة اللفظية : وفيها يعمد المترجم الى النص ، ويقوم بنقله كلمة بكلمة وحرفا بحرف ، وهذه الترجمة الحرفية مرذولة لأن الترجمة تأتي مفككة ليس بين كلماتها كبير ارتباط أو سياق يحكم وحدتها ، فضلا عن أن كثيرا من الكلمات الفنية ليس لها مصطلحات تقابلها في العربية ، أضف الى هذا أن التعابير ذات الصبغة المجازية لا يتيسّر لمترجم أن يقوم بنقلها بعيْنها إلى اللغة المترجم إليها ، لأن ثمة فارقاً كبيرا بين الحقيقة والمجاز . وكان على رأس هذه الطريقة : يوحنا بن البطريق ، وعبد المسيح الحمصي ، والخطير في هذه الطريقة ان الترجمة كانت تتم أولاً من اليونانية الى السريانية ، ثم تقع من السريانية الى العربية ، ففي هذه الدورة ـ ولا شك ـ يقع ابتعاد عن الأصل المترجَم عنه .

ثانيا : الترجمة المعنوية : ويعمد فيها الكاتب أو المترجم الى تفهم عبارة النص ثم يقوم بترجمة فحواها الى العربية ، وهو بذلك يكون أكثر سداداً لأن المقصود ليست الألفاظ ، ولكن المقصود هو الفكرة الدقيقة التي يريدها المؤلّف ، وكان عميد هذا الاتجاه : حنين بن اسحاق .

حين كانت تفد إلى العرب ألفاظ وكلمات من اللغات المجاورة ، لم يكن بوسعهم أن يطردوها بعيداً عن ألسنتهم ، ولقد حدد أبوحيان وسائل تعاملهم معها بما يلي :

(١) تغيير بعض الألفاظ الوافدة وإلحاقها بأبْنية كلام العرب .

(٢) تغيير بعض الألفاظ الوافدة وعدم إلحاقها بأبْنية كلام العرب .

(٣) ترك بعض الألفاظ دون تغيير .

كذلك فقد نقل شحادة الخوري عن الأمير العلامة مصطفى الشهابي تحديده للمسالك الشتى التي اتبعها المسلمون في عصور نهضتهم العلمية العظمى فيما يلي :

(١) تحوير المعنى اللغوي القديم للكلمة العربية وتضمينها المعنى العلمي الجديد .

(٢) اشتقاق كلمات جديدة من أصول عربية أو معرّبة للدلالة على المعنى الجديد .

(٣) ترجمة كلمات أعجمية بمعانيها .

(٤) تعريب كلمات أعجمية وعدها صحيحة .

وإتماما للفائدة ، فان د / شاهين درس هذه المسألة وكانت خلاصة ماتوصل اليه الآتي :

المعاملة الأولى : معاملة اللفظ الأعجمي كاللفظ العربي .

المعاملة الثانية : أن يتركوه على حاله في لغته وينطقوه كما هو .

ولقد كان العرب يغيرون الحروف الأعجمية الى حروف عربية ، وكما لوحظ مثلا أنهم كانوا يبدون صوت الباء فاء والهاء قافا او جيما ، فيقولون في بستة : فستق ، وفي بالوذه : فالوذج ، ويقولون في paradius : فردوس : وفي استبره : استبرق ، وربما قلبوا الخاء هاء كما في (دراخمة) التي صارت : درهم ، وهناك أمثلة كثيرة على ابدال أصوات أخرى ، ولكن المتتبع للتبدلات الصوتية يجد أنها لم تجر في لسان الأقدمين على قاعدة مطردة ، ويبدو أن العامل الذي يتحكم فيها متغير في كثير من الاحوال ، ومن ثم لم تطرد قاعدتها ، غير ان هناك مقاييس عامة استقر عليها الأقدمون يمكن الاحتكام اليها في معرفة اللفظ الاعجمي ، سواء عرب أم بقيت له عجمة ، ومن ذلك أنهم قالوا :

١ - لم تجتمع الجيم والقاف في كلمة عربية ، فمتى جاءتا في كلمة فاعلم أنها معربة ، ومن ذلك كلمة (جرندق) : اسم .

٢ - لاتجتمع الصاد والجيم في كلمة عربية ، فاذا اجتمعتا في كلمة فهي معربة ، مثل : الجص . وليس في كلام العرب زاي قبلها دال ، ولذلك قالوا في مهندز : مهندس .

٣ - ليس في أبنية العرب اسم فيه نون بعدها راء ، وما جاء من ذلك معرب ، مثل نرجس .

٤ - ليس في كلام العرب وزن فعالان ، كخراسان .

٥ - ولاوزن فاعيل ، كقابيل وهابيل .

٦ - ولا وزن فعاويل ، كسراويل .

ولاريب أن أوزان الكلمات الأعجمية أكثر من أن تحصى ، لأن الأعجمي وافد من لغات كثيرة ولكل لغة نظامها الصرفي الذي يميزها عن غيرها ، فهذه الضوابط إذن تعتبر من قبيل التمثيل لا على سبيل الحصر .

ويستطيع من شاء أن يرجع في أمر المعرب في اللغة قديما الى المراجع التي تخصصت في دراسته ، ومن ذلك كتاب « المعرَّب » للجواليقي ، « وشفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل » للشهاب الخفاجي ، « والطراز المذهب في الدخيل والمعرَّب » لمحمد تهامي ، « والدليل الى مرادف العامي والدخيل » لرشيد عطية .

ولقد بقيت مشكلة التعريب محصورة في اطار هذه الافكار الى ان ضعفت العربية في مواجهة اللغات الحديثة ، وأصبح لزاما على أبنائها ان يعالجوا نقاط ضعفها ، وان يعينوها على مواكبة التغيرات المعاصرة .

فحين جاء المجمع اللغوي بالقاهرة ليعالج هذه المشكلة أصدر قراره الذي يقول : « يجيز المجمع ان يستعمل بعض الالفاظ الأعجمية - عند الضرورة - على طريقة العرب في تعريبهم » .

وإنما قال : عند الضرورة - لأن المجمع في قرار آخر يفضل اللفظ العربي القديم على المعرب الا اذا اشتهر المعرب ، كما سبق ذكره .

نتائج حركة الترجمة والتعريب الاولى في العالم الاسلامي :

لقد نمت اللغة العربية على أيدي المسلمين في عصور النهضة العلمية العظمى بفضل ما أوتوا من اقتدار على الاشتقاق والتعريب ، فأفسحت العربية صدرها للعلوم الأجنبية عنهم ، ولو تقاعسوا أو جمدوا أو اكتفوا بما سمع ممن كان قبلهم ، لقصرت اللغة عن أداء المعاني العلمية ولفقدت اللغة العربية ألوفا من أسماء المعاني ومن المصطلحات العلمية التي اشتملت عليها الكتب المترجمة فيما بعد . ولقد كانت هذه التجربة الاولى في العالم الاسلامي نبراسا لقدرة اللغة العربية على التوسع والاغتناء وعلى التعبير عن دقائق العلوم ، وقد أضحت لغة العلم قرونا عديدة من الزمن

ولقد لخص لنا د / حقيقي أهم النتائج المتحصلة من هذه الحركة بل النهضة العظمى كما يلي :

١ - رحب أفق الثقافة العربية فوسع علوما وفنونا وفلسفات لم يكن لهم بها علم من قبل ، أو كانوا على الملم ضئيل ببعضها ، فأفادوا سعة وعمقا وخبرة .

٢ - بلغ التطور درجة ملحوظة في العصر العباسي الذي يعتبر أزهى عصور الترجمة والنقل وأقيمت من أجلها الدواوين ودور الحكومة والمدارس ، وكثر استقدام العلماء من متعددي اللغات فمن اليونانية الى السريانية الى الفارسية الى القبطية الى الهندية ، حتى اذا استقر الأمر بانتهاء دور الترجمة ، كانت حضارة العرب تفتحت ، وأينعت ثمارها ، وأخذت تملأ مسامع العالم المعمور يومئذ ، حتى قال العالم (ليبرى Libri) : « احذفوا العرب من التاريخ ، يتأخر عصر التجديد في أوربا عدة قرون » .

٣ - أصابت اللغة العربية في قاموسها غنى ، بما دخل اليها من مصطلحات وتعابير جديدة في مختلف العلوم والفنون ، وهذا يدل على مرونتها وقدرتها على الاستيعاب والهضم وتجاوبها مع التقدم العلمي .

وأفادت غنى في أدبها وتشريعها من حيث المقاييس والقيم ،واعتماد المقدمات والنتائج والمنهج المنطقي في التقسيم والبراهين .

٤ ـ لقد كان العرب على ميعاد مع القدر ليحملوا عبء الفكر الانساني ويسيروا به قرونا عديدة ، فبمجرد أن اطلعوا على العلوم والثقافات الأجنبية التي ترجمت ، انطلقوا يطبقونها ويشرحونها ، ويتقنونها ويضيفون اليها جديدا نتيجة الممارسة والتجربة والاستقصاء والملاحظة .

فأتاحت لهم هذه التجربة الفريدة من حملهم لهذه الرسالة العلمية أن يتركوا بصماتهم شاهدة ، وان يسجلوا عملهم على صفحات التاريخ ، وان يتقدموا بالعلم والفنون والثقافات خطوات على طريق الحضارة .

٥ ـ لقد أثمرت هذه الكنوز التي نقلوها ، وهذه الثقافات الاجنبية التي أضيفت الى التراث العربي ثمرتها المرجوة ، فأحدثت تطورا كبيرا في العقلية العربية ، ووالتفكير الانساني وخطت بالحضارة الاسلامية خطوات نحو الرقي والازدهار .

٦ ـ لقد قدم المسلمون للانسانية خدمة جليلة بنقل هذا التراث الانساني والمحافظة عليه من العبث والدمار حيث كان مصيره الضياع لولا أن قيض الله له العرب ، ولم يفعلوا به ما فعله الفرنجة في اسبانيا عندما أجلوا المسلمين عنها أو ما فعله المغول والتتار عندما هاجموا البلاد الاسلامية ، ورموا التراث العربي والاسلامي في البحر وحرقوه .

٧ ـ ان التراث العلمي الذي قدمه لنا المترجمون من نقل أو تأليف يحسن بنا أن ننظر اليه في شيء من الحيطة ، لأن الترجمة أحيانا لاتكون دقيقة ، كما أن التآليف قد لاتكون تآليف خالصة ، وانما هي نقول وتلخيصات .

الفصل الخامس

التجارب المعاصرة في بعض الدول

بعد أن أوضحنا تأثير اللغة العربية في اللغات الحية الأخرى ، ثم بينا جوانب من الحملة الحاقدة على لغتنا العظيمة ، وعرضنا لأهم خصائص هذه اللغة وهي التي أبقت عليها حية عبر العصور ، وكذلك أصبح واضحا أمام كل ذي عقل وبصر مدى مقدرة العربية على استيعاب مصطلحات التكنولوجيا المعاصرة ، أضحى أمر التعريب ضروريا اذا أردنا نهضة علمية مرموقة في مستقبل أمتنا العربية والاسلامية بوجه عام ، ولعل التجارب التي قامت بها بعض دول العالم وشعوبه في الاعتماد على لغاتها من الادلة الدامغة على امكانية القيام بهذه المهمة المصيرية : وعلى ارتباط اللغة بحركات التقدم العلمي والحضاري عموما .

التجربة اليابانية : من المعروف ان العلوم نوعان : علوم أساسية ، وعلوم تقنية (تكنولوجيا) ، ومن المعلوم أيضا انه ليس في وسع أمة ما ان تعيش عيشة محترمة وتضمن استقلالها وتصون كرامتها مالم تتضلع بالعلم ، سواء منه الاساسي أو التقني ، وربما كان النوع الثاني وما يتصل به من الامور الفنية في التصنيع والزراعة أجدى وأنفع من النوع الاول في النهضة المادية للأمة ورفع مستواها المعاشي .

أوضح د / فاضل الطائي أن اليابان قد فطنت الى منافع هذا النوع من العلم وتأثيره الكبير في رفع الحياة المعاشية لسواد شعبها فأعارته اهتماما يليق بما له من فوائد جمة وعنه رعاية يستحقها فارسلت بعوثها الى الأمم التي برزت في العلوم التطبيقية كالدول الأوربية والولايات المتحدة الامريكية آنذاك لدراسة هذا النوع من العلم ، كما أوفدت القليل من بعوثها لدراسة العلوم الأساسية . ولما عادت بعوثها بدأت بصنع الآلات الزراعية الحديثة وبناء المعامل التي تستخدم مواردها الطبيعية ولم يكن التصنيع والبناء بجديدين بل نقلت ماهو معروف في أوربا وامريكا الى بلدها وأفادت منه فائدة كبيرة في الحفاظ على دخلها القومي أولا ثم استغلال الأيدي العاملة استغلالا يضمن رفع مستواهم الاقتصادي والاجتماعي ، كما صيرت من خاماتها الطبيعية موارد تجارية تدر عليها الربح الكثير . وخلاصة القول ان اليابان قد اعتمدت في ابان نهضتها على التقليد والنقل لما كان موجودا في الأمم التي سبقتها في المضمار الحضاري المادي . وعندما اطمأنت الى مستوى شعبها المعاشي ودخلها القومي تبنت الاهتمام بالنوع الثاني اي التكنولوجيا من العلم . فتعاون علماؤها من النوعين الأساسي والتقني وانطلقت الى العالم بنهضة قومية وفي فترة قصيرة جدا كانت موضع دهشة الأمم الأخرى واعجابها ، وجعلت من لغتها الرسمية أداة مستعملة في شتى العلوم ومختلف المجالات ، حتى أننا نرى بحوثهم منشورة باللغة اليابانية وإن كانوا يلحقونها بملخصات باللغة الانجليزية .

التجربة الصينية : اذا كانت اليابان قد عنيت منذ بداية نهضتها العلمية والتكنولوجية بالتكوين الأساسي لمبادىء العلوم ثم تدرجت صاعدة من خلال لغتها القومية ، التي أكسبتها الامتلاك الحقيقي للقاعدة التكنولوجية ، بالرغم من الصعوبة الأسطورية التي تواجه الفرد في ممارسة تلك اللغة ، حيث إن حروفها يبلغ عددها عشرة الاف حرف فان عدد حروف اللغة الصينية أكثر من اليابانية فهي تحتوي على ٤٤٤٤ حرفا ، وبالرغم من ذلك فقد ابتكرت بما يشبه الاعجاز « الآلة الكاتبة » التي تستطيع ان تستوعب تلك الحروف ، واستطاعت أن توحد اللغة الصينية حيث كانت تتجزأ الى ٣٠٠ لغة ، ثم استطاعت أن تلغي من قاموسها « اللغة الانجليزية » في مختلف أنواع العلوم والتكنولوجيا .

التجربة الفرنسية : لقد تخلصت فرنسا من عقدة تدريس العلوم بالانجليزية ، حين اتخذت الدولة قرارها بـ« فرنسة العلوم » وخاصة العلوم الطبية منها ، وشجع القرار بنجاح التجربة ، واستقرت العلوم بالفرنسية ونهضت فرنسا حتى أضحت اللغة الفرنسية لغة عالمية في تعلم الطب حيث انتشرت في بلاد كتونس والجزائر على سبيل المثال .

التجربة الروسية : استطاعت روسيا ان تقضي على الأمية وان تنقي اللغة الروسية من الألفاظ الأجنبية ، وأن تدخل بتخطيط علمي وبشكل حاسم اللغة الروسية في مختلف أوجه العلوم والتكنولوجيا الحديثة ، حتى تمت للروس السيطرة اللغوية على لغة التعامل « العلمي والايديولوجي » ـ على حد تعبير مجلة شئون عربية ، العدد ٢٨ ـ ، فأصبح في كل مجال من مجالات التقدم العلمي والرقي التكنولوجي أسماء روسية متميزة وعلماء بارزون ينافسون كثيرا من أضرابهم في مختلف دول العالم ، ولعل بحوثهم التي ينشرونها باللغة الروسية لدليل على إصرارهم على نشر هذه اللغة واقرارها لغة للرقي والتقدم بعد ان كانت اللغة الانجليزية هي الاداة المستعملة في العلوم والتقنية عندهم قديما . ولكننا يجب ألا نغفل جانبا على درجة كبيرة بل وخطيرة من الأهمية في النهوض والرقي العلمي ، وذلك هو جانب

الترجمة ، فلقد تبنى (لينين) في أوليات - هذا القرن - بعد الثورة البلشفية - انشاء جهاز للترجمة الضخمة أربى العاملون فيه على مائة الف مترجم لنقل العلوم الغربية الى اللغة الروسية ، وقد كان يشرف بنفسه على هذا الجهاز الخطير الذي حقق المعجزة ، ومازالت أجهزة الدولة السوفيتية تستخدم أكثر من مليوني مترجم لجميع لغات العالم منها واليها .

التجربة الفيتنامية :

لفيتنام في مجال « فتنمة » العلوم تجربة جديرة بالتأمل والدراسة ، فلقد احتج الاطباء في فيتنام بعدم امكانية « فتنمة » كلية الطب لأن المصطلحات الطبية تتميز بعموميتها وألفاظها الخاصة بها ، وطلبوا من « هوشي منه » أن يمهلهم خمسة أعوام للقيام بذلك العمل ، ورفض « هوشي منه » ذلك الحل المتباطىء ، وحسم القضية بقوله : تستطيعون ان تقوموا بالدراسة بشكل متواز ، بمعنى ان تقوم الدراسة باللغة الفرنسية - لغة العلوم آنذاك عندهم - وفي نفس الوقت تتعلمون الفيتنامية ، على أن تجري الامتحانات في نهاية السنة باللغة الفيتنامية . ونجحت التجربة ، وتخلصت فيتنام من عقدة الخواجة في نهضتها العلمية المعاصرة .

حتى اليهود لهم تجربة : فاستطاعت التجربة اليهودية أن تعيد احياء اللغة العبرية بالرغم من تعدد الألسنة واللهجات ، وأن تجعلها اللغة الأولى للتعليم في مختلف الكليات العملية والنظرية على السواء ، فالطب والهندسة والعلوم تدرس بالعبرية بالرغم من أنها لغة ميتة ،

فهل لنا تجربة ؟

الفصل السادس

تجربتنا في تعريب العلوم المعاصرة ومشكلاتها

هناك فرق كبير بين حركة الترجمة والتعريب الأولى في العالم الاسلامي وبين الحركة أو النهضة التي نحن بصددها ، وبمعنى آخر - حسب تعبير د/ عادل العوا أستاذ الفلسفة بجامعة دمشق - فان القياس على ماحدث في عصر المأمون حين أنشىء بيت الحكمة قياس غير دقيق ، فالمترجمون في بيت الحكمة كانوا يترجمون عن ثقافات وحضارات في حالة سكون ، لثقافات ثاوية في الكتب يمكن - بعد وقت طويل أو قصير - أن تتم ترجمتها كاملة ، أما نحن في وضعنا الراهن فنلاحق تيارات ثقافية وفكرية تمور بحركة علمية متدفقة في تطورها وتقدمها .

فالعربية في العصر الحالي تواجه طوفانا من المصطلحات العلمية ، تواجهه أكثر ما تواجهه من اللغة الانجليزية ، ولايجب أن نغفل هذه الحقيقة ، وان كانت اللغة الفرنسية في بداية هذا القرن ذات انتشار عالمي ، فالانجليزية هي بلا شك صاحبة الحظ في أيامنا الحالية ، وكان مما زاد الانجليزية توسعا وامتدادا هو سيطرتها على أكثر القارة الامريكية تقريبا .

إذن على العربية أن تواجه هذا الطوفان بمرونة كبيرة حتى تستطيع ان تستوعب محدثات العصر ومصطلحات علومه ومكتشفاته ومخترعاته ، وأصبح الأمر يملي على المترجمين أن يجدوا وسائل لاستيعاب كل جديد يظهر في عالم التكنولوجيا والتقدم ، وليست هذه الوسائل سوى (التعريب) على أن يأتي ترتيبه في التطبيق بعد نفاد الوسائل : القياس ـ الاشتقاق ـ النحت ، فحين يستنفد العربي هذه الوسائل فإنه لا محالة يلجأ الى التعريب لمعالجة المادة الأجنبية .

إن المصطلحات العلمية في تزايد مستمر بل إنها لتتكاثر كما يتكاثر الانسان والنبات والحيوان فيزيد عددها يوما بعد يوم وسنة بعد أخرى ، حتى أضحى مجرد حصرها مشكلة تعترض الفنيين والمتخصصين ، وأضحت دور النشر تخرج علينا بين الحين والآخر بمعاجم تتفاوت أحجاماً وأشكالاً ، وتختلف في لغاتها وطرائقها ، فمنها ما يصدر بلغة واحدة ، ومنها ما يصدر بلغتين ، ومنها ما يجمع بين ست لغات أو أكثر فملاحقة هذا التكاثر بلغة عربية أصيلة يبدو مستحيلا لأسباب ، ليس أقلها شأنا أن العرب لم تكن تعرف هذه الموضوعات ، وأن هذه العلوم جديدة حتى على الغربيين ، وأن الكثير منها إنما رأى النور وعرفته الانسانية في مطالع هذا القرن ، بل وبعد ان تنصّف ، فمن أين تأتي الجذور العربية لهذه المستحدثات والمستجدات والنظريات التي لم يكن للعرب بها علم .

إننا نكلف العربية شططا ، ونكلف أنفسنا جهدا لاطائل تحته ، إن نحن صممنا على التنقيب في بطون المعاجم عن أصول عربية للميكروسكوب والترمومتر والالكترون والنيترون والبروتون وما اليها مما يعد بعشرات الألوف ، فما علينا الا أن نبحث وندقق فإن أسعفتنا المراجع ببغيتنا ، فبها ونعمت ، والا ففي التعريب متسع لهذه الألوف المؤلفة من المصطلحات والتعبيرات العلمية في كل علم وفن ، ويسعنا ما وسع الأقدمون من استعمال ارثماطيقا وميتافيزيقا وجومطريا واسطرونوميا وغيرها .

إن للتعريب في عالمنا العربي خاصة والاسلامي عامة بعدين : أحدهما اجتماعي والآخر لغوي ، فأما الاجتماعي فيقول فيه الدكتور محي الدين صابر ، المدير العام لليونسكو العربي ، في حديث له الى جريدة (الشرق الاوسط ١٢/١ : ١٩٨٢) : إن « التعريب ليس قضية لغة ، بل هي قضية حضارية أساسية تواجهنا حاليا ، اللغة ليست ألفاظا ، بل فكرا وبالتالي لابد من تطوير المجتمع العربي ، واستيعاب حضارة العصر ، وذلك لايتم الا عبر اللغة كوسيلة وكأداة ، اليابان مثلا ، وهو مثل تقليدي ـ أوجدت شخصيتها عبر لغتها الخاصة ، وقد أضحت اللغة اليابانية لغة تكنولوجية حديثة ، أي لغة لها عمق تاريخي وتراث ضخم ، من حقها أن تكون مثل اللغات الأخرى . بالنسبة للغة العربية ارتبطت كثيرا بالتراث ، خاصة التراث الاسلامي ، هذا العامل أغرى الغرب على محاربة اللغة العربية ، الاستعمار حين أسس المدارس الحديثة حرص على ابعاد اللغة العربية ، وقد أقصيت عن المجالات الادارية والاقتصادية والتقنية ، وبالتالي أصبحت معرفة اللغة العربية لاتجدي نفعا في المجتمع العربي ، وهذا وضع شاذ ، لقد حوربت اللغة العربية في عقر دارها ، أساتذة اللغات في الغرب هم أفضل الاساتذة ، ولا أود أن اتحدث عن وضع أستاذ اللغة العربية في المدارس العربية .

الغرب أراد أن يدفعنا لاحتقار الذات ، لأننا للأسف احتقرنا لغتنا ، وكما نرى فان قضية التعريب مرتبطة بمجموع الكبرياء القومي .

هل هناك فرق بين الترجمة والتعريب ؟

أحيانا تكون الترجمة العربية لنص أجنبي ترجمة حرفية ، من حيث الأساليب ، فتقرأ الأسلوب فتحس أنه أسلوب أجنبي على الرغم من أنه مكتوب باللغة العربية ، أما اذا أضفى المترجم على النص الأجنبي صفة العربية على العلوم ، أي أعطاه صبغة عربية ، فانه يكون قد عرّبه ، وبالتالي فالتعريب أشمل وأجود من الترجمة . أما من حيث المفردات ، فالتعريب هو اخضاع اللفظ الاجنبي لأوزان عربية كما سيتضح في موضع قادم في القسم الحالي .

يفرق الدكتور عادل العوا بين الترجمة وبين التعريب بقوله : نقوم بترجمة كتاب أو نص من أي لغة الى اللغة العربية مثلا ، فهذه ترجمة . والترجمة هنا هي عملية نقل المعرفة ، وهنا ينبثق سؤال : ماذا أريد من هذه الترجمة ؟ فاذا كنت أريد من نقل هذه المعرفة أن أتيح الفرصة لثقافتي العربية لكي تتحاور مع ثقافة جديدة ، أن تتلاقح معها ، لتنمو ثقافتي وتزدهر ، وتصبح أكثر قدرة على الاسهام في الثقافة العالمية ، وفي النهضة العلمية العالمية ، فهذا هو التعريب . اذن فالتعريب مصطلح يجب أن يطلق على مانقصده من عملية الترجمة ، وهو أن نجعل الثقافة العربية المعاصرة على المستوى المعروف حاليا ، وأن نغني بها قدما ، بحيث تساهم في تقدم المعرفة الانسانية بشكل عام .

ومن الباحثين من فصل القول أكثر في هذه المسألة فأوضح للتعريب ثلاثة معاني :

المعنى الاول : يدل على استخدام العرب الفاظا أعجمية على طريقتهم في النطق واللفظ ، وهو مصطلح قديم . وعن هذه الطريقة دخلت اللغة العربية آلاف الألفاظ الأعجمية التي سميت « دخيلة » وسوف نفصل قولنا فيها بعد قليل .

المعنى الثاني : يقصد به الترجمة من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية ، وينصرف الى ترجمة العلوم والآداب والفنون وسائر الترجمات الاخرى . . . وهكذا تكون كلمة « تعريب » هنا مرادفة لكلمة « ترجمة » ، وكلمة « معرب » بمعنى « مترجم » . ويعكس التعريب ، في هذا السياق كلمة « التعجيم » ، أي نقل الأثر من اللغة العربية الى أية لغة أعجمية أي غير لغة العرب .

المعنى الثالث : وهو ان نجعل اللغة العربية لغة حياة الانسان العربي كلها ، ، لغة الفكر والشعور ولغة العلم والعمل ، بها يعبر عن مكنونات نفسه وخلجات قلبه وومضات فكره ، بها يتعلم ويعلم ، ولاينتقص من مقامها عنده تعلمه لغة أخرى أو أكثر ، انها اداة للتفكير واداة للتعبير .

وخلاصة القول أن التعريب عبارة عن ترجمة لكنها غير جافة كما أنها قابلة لاحتضان كلمة بنطقها في لغاتها الأصلية ، ولاحرج في استخدام ألفاظ أجنبية تكتب بالحروف العربية اذا عجزنا في البحث لها عن مقابل في العربية .

هل هناك فرق بين التعريب والتدخيل ؟

في مرحلة البناء الحضاري والاتصال بالثقافات التي كانت سائدة حول العرب دخلت الفاظ عديدة اللغة العربية فأفادتها وأغنتها ، ففي الجاهلية أخذ العرب عن « الفارسية » الفاظا كثيرة مثل : الابريق والسندس والديباج والنرجس ، ومن « الهندية » أخذوا : الفلفل والقرنفل والكافور والشطرنج ، ومن اليونانية أخذوا : الفردوس والقسطاس والقنطار والترياق ، ومن السريانية أخذوا : الكنيسة والكهنوت والناقوس والفدان والناطور ، ومن العبرية : التوراة والأسباط والشيطان وجهنم ، ومن لغة الحبشة : النجاشي والمنبر والتابوت ، . . .

يوضح صاحب كتاب (العربية لغة العلوم والتقنية) هذا الفرق بقوله : (تدخيل) الالفاظ ـ كلمة من اشتقاقنا ، نضعها في مقابل (تعريب) الالفاظ ، فقد وجدنا ان اللغة تقبل بعض الألفاظ دون أن تمسها بأدق تغيير ، وقد رمز لها المعجم الوسيط بالرمز (د) ، وجاء تتبعنا لألفاظ هذا الرمز مؤكدا أن اللغة قبلت من الدخيل أكثر مما قبلت من طريق التعريب ، أو هكذا بدا لنا .

ثم أتبع كلامه بعرض طائفة من الالفاظ الدخيلة في العربية مصحوبة بتعريفاتها التي جاءت في المعجم الوسيط (من مطبوعات مجمع اللغة العربية بالقاهرة) وكان منها :

اردواز : حجرصلصالي
اسبرين : استيل حمض الساليسيليك
الماس : حجر كريم هو أنفس الأحجار
انزيم : نوع من افراز الخلايا الحية
بدروم : بيت تحت الارض للسكنى
بلهارسيا : مرض
بنسلين : مضاد حيوي
بنك : مصرف
جرافيت : معدن فحمي حديدي
جرانيت : حجر صلب ذو ألوان مختلفة
جلسرين : سائل لزج عديم اللون ـ حلو المذاق
جيلاتين : مادة شبة زلالية تستخرج من عظام الحيوان بالغليان

وقد أشار الى كثرة التدخيل في مجال المصطلحات العلمية خاصة النوع الخاص بـ « المسميات الجديدة » . أما عن نطاق استعمال الألفاظ الدخيلة فيقول : لقد كثر التدخيل في مجال المصطلحات العلمية ، من هذا النوع الخاص بالمسميات الجديدة ، حتى لقد نجد ألفاظا دخيلة تشرحها المعاجم بألفاظ دخيلة أخرى كما جاء في معجم المصطلحات العلمية .

غير ان ذلك لايخفى على المشتغلين بالعلوم ، ومن حسن الحظ انه ليس من عناصر اللغة عامة ، فهو محصور داخل مجال الاهتمام به ، ولذلك ساغ ان يكون خارج أوزان الكلمة العربية ، طويل البنية ، حتى ليزيد عدد حروفه الى عشرة ، على الرغم من أن بنية الكلمة العربية لاتزيد عن خمسة في الأسماء المجردة ، او سبعة في المزيدة ، كما لاتزيد عن اربعة في الافعال المجردة او ستة في المزيدة .

فإذا وجد اللفظ الدخيل مقابل عربي مهجور ، لم يلق عناية من أهله فلم ينتشر على ألسنة الناطقين بالعربية (مثل هاتف أو مسرة بدلا من « تليفون » ، برق بدلا من « تلغراف » ، مأساة بدلا من « تراجيديا » ، وملهاة بدلا من « كوميديا ») فما هو العمل ؟ يجيب صاحب الكتاب بقوله : (هذه الكلمات كلها تحتاج الى مزيد من التوعية الثقافية لتنتشر على ألسنة أبناء العربية بدلا من الدخيلة ، فقد لاحظ المجمع اللغوي ، ولاشك ، ايثار الجماهير للفظ الدخيل فأجاز استعماله ، لكن ذلك لايمنع من اهماله مع تقدم الوعي القومي واللغوي .

واذا كان التدخيل أيسر الوسائل لمواجهة سيل بل وطوفان المصطلحات والكلمات الواردة الينا من العالم المتقدم حديثا ، فهو له أضرار ؟ يجيب صاحب الكتاب بقوله : ان الحياة الحديثة تواجهنا يوميا بالكثير من الألفاظ ، التي يتعين علينا أن نستعملها ، ولاريب أن التدخيل هو أيسر الوسائل لاستعمال اللفظ الجديد ، ولكنه أشبه بالعملة الرديئة التي تطرد العملة الجيدة ، والعملة الجيدة هنا هي المقابل الاصيل عند الترجمة ، أو التعريب عندما لانجد وسيلة الى الترجمة ، غير أن بعض المثقفين يختصرون الطريق ، ويدخلون اللفظ الأجنبي ، دون أن يحاولوا ، ولو طلاءه بلون عربي ، وتلك آفة يجب أن نعمل على معالجتها وتلافي آثارها المخربة في كيان اللغة العربية .

هذه جملة من المشكلات التي تواجه حركة التعريب المعاصرة سواء على المستوى الاعلامي والثقافي أو على مستوى التعليم الجامعي ويتخذها المعارضون لتعريب العلوم والبحث العلمي ذرائع لهم في دعوتهم الشائنة ، نعرضها ثم نقدم اقتراحات العلماء والباحثين من أجل تذليلها والعمل على ازالتها ، كما سيظهر في الفقرات القادمة :

١ ـ قلة ذات اليد وضعف الامكانات المادية اللازمة للنهوض بحركة التعريب المرغوبة على مستوى الأمة العربية .

٢ ـ ردود الفعل التي نتوقعها ، كأن تقوم الدول المتحدثة بالانجليزية مثلا بمقاطعة الرسائل الجامعية والبحوث العلمية التي تصدر بالعربية .

٣ ـ عدم تسهيل اجراءات حضور باحثينا وعلمائنا ومندوبينا الى المؤتمرات العلمية العالمية .

٤ ـ عدم قدرة أبنائنا المبتعثين على استيعاب المواد العلمية في الخارج بلغات أجنبية .

٥ ـ عدم قدرة الأساتذة العرب الحاصلين على الدكتوراه والدرجات العلمية الأخرى من جامعات غير عربية ، وقد تلقوا علومهم وأجروا أبحاثهم بلغات أجنبية ، على متابعتهم البحث العلمي باللغة العربية .

٦ ـ كذلك فان قدرة أولئك الذين حصلوا منهم على درجاتهم العلمية من جامعات عربية تستخدم لغات أجنبية للدراسة والبحث فيها ، قدرة لاتسعف العقل على اخراج ملكاته باللغة العربية .

٧ ـ الأساتذة غير العرب ، الذين ينتمون الى جنسيات متعددة ، ولكنهم يدرسون علومهم لأبنائنا باللغة الأجنبية السائدة في الجامعات التي يعملون بها .

٨ ـ عدم وجود الكتب العلمية الدراسية والمرجعية باللغة العربية أو ندرة هذه الكتب .

٩ ـ عدم وجود وسائل نشر ، وكذلك وسائل توزيع ، جيدة لدى الهيئات والجهات التي تحاول القيام بحركة تعريب في بلادنا العربية .

١٠ ـ عدم وجود اختراعات واكتشافات علمية عربية في فترة التخلف العلمي الذي أصاب الأمة الاسلامية والعربية (من ١٥١٧م وحتى الآن) ، وبالتالي عدم قدرة أصحاب العربية على التعامل مع المصطلحات المتدفقة عبر قنوات الاتصال من الدول المتقدمة في شتى مجالات المعرفة .

١١ ـ تشتت جهود الهيئات المهتمة بحركة التعريب وعدم الوحدة والتنسيق بين جهودها ، مما يبطىء عملية التعريب بشدة .

١٢ ـ ظهور مشكلة توحيد المصطلحات التقنية .

١٣ ـ إغفال التراث العلمي العربي ، مما أدى الى تعريب ألفاظ أجنبية هي في الأصل عربية فحين عربناها أصبحت ألفاظا عربية مشوهة .

ضرورة توحيد الترجمة العربية للمصطلحات والوحدات والرموز والثوابت :

اختلاف الترجمة للمصطلح الواحد : تبرز ضرورة توحيد الترجمة العلمية للمصطلحات في كافة البلاد العربية ، اذا علمنا أن كل بلد من هذه البلاد يجتهد علماؤه بوضع ترجمات معينة ومختلفة لنفس المسمّيات ، ولعلَّ أهم أسباب هذه الاختلافات تعدد المشارب والثقافات التي اكتُسِبَتْ في عصور الاستعمار الاوربي ، فمثلا تأثَّر أهل مصر والعراق والأردن بالثقافة الانجليزية ، بينما تأثر أهل سوريا ولبنان وتونس والجزائر بالثقافة الفرنسية . فأثَّر ذلك في ترجماتهم للكلمات والمصطلحات . ولكي يتضح الأمر نضرب الأمثلة التالية : كلمة « Pendulum» ترجمها العراق بـ « رقاص » ، وترجمتها سوريا بـ « نوّاس » ، ترجمها الأردن « خطّار » وعرّبتها مصر بـ « بندول » . كلمة « Alga» ،

ترجمت في مصر وفي العراق بكلمة « طحلب » ، وأما في سوريا ولبنان فتُرجمت بكلمة « أشنة » ، والكلمة الأخيرة تطلق في مصر على اللفظ Lichen . كلمة Endosperm، عُرِّبت في مصر بـ « اندوسبيرم » ، وتُرجمت في بعض البلدان العربية الى « سويداء » . كلمة Nucellus ، ترجمت الى « جويزة » في البلاد العربية ، ولكنها عُرِّبت في مصر إلى « بويسلة » الى غير ذلك من الامثلة .

شروط واجبة في القائمين على الترجمة والتعريب : لقد أدى هذا الاختلاف في تعريب وترجمة المصطلحات العلمية إلى وضع عدد من الشروط التي يجب أن تتوفر في المساهمين في وضع هذه المصطلحات وهي ستة حتى الآن ، عرض الأمير مصطفى الشهابي منها ثلاثة ثم تقدّم د/شاكر فحام بالشرط الرابع ، وقد وضع د/مدكور شرطا خامسا ، ثم رأى د/السارة إضافة شرط سادس الى مجموعة هذه الشروط . أما الشروط فهي :

١ - الاختصاص بعلم أو بفن ، وممارسته نظريا وعمليا ، ولهذا لابد لمن يجشم نفسه عناء وضع المصطلحات العلمية باللغة العربية من أن يقتصر في عمله على الألفاظ المتعلقة بعلم اختص به واطّلع على دقائقه .

٢ - إتقان لغة واحدة على الأقل من لغات أوربا .

٣ - التمكّن من معرفة اللغة العربية معرفة تقف على أسرارها ، وعلى ما حوته كتبها ومعجماتها ، ولا سيما الكتب العربية القديمة التي تناولت العلم الذي يعالج وضع مصطلحاته .

٤ - العمل في نطاق مجمع ، أو جامعة ، أو منظمة متخصصة ، وأن يحوز كل مصطلح على القبول من الهيئات العامة في تلك المجامع والمنظمات . بل إن هذه المجامع والمنظمات كثيرا ما تعمد الى إرسال ما توصلت اليه من قوائم المصطلحات العلمية الجديدة الى العلماء والادباء في كل الاقطار العربية الاخرى ، وتنتظر منهم أن يمدوها بملاحظاتهم وآرائهم .

٥ - (شرط في إجازة المصطلح) : ولا يمكن ان يؤدى تعاون العالم المتخصص في العلوم او الرياضيات مع اللغويّ المتمكّن من أسرار اللغة العربية الى نتائج مشابهة الا عندما يقوم عالم متمكن من علمه بفهم أسرار اللغة العربية ويفهم أسرار اللغات التي ينقل عنها .

وعموما تكاد مشكلة المصطلح في تعريب العلوم تكون مشكلة محلولة ، فقد فنَّد الاستاذ الخوري مزاعم المعارضين لتعريب التعليم الطبي في البلاد العربية بحجة أنه لاتتوافر في اللغة العربية جميع المصطلحات الطبية ، بل قد تتضارب المصطلحات بين قطر وآخر . . . واذا كنا قد أشرنا آنفا الى وجود مثل هذا التضارب فانه بالامكان تداركه وإزالته ، وقبل أن نتحدث في ذلك نسوق تفنيد الأستاذ الخوري لمزاعم المعارضين لتعريب العلوم وبالذات الطبية منها :

(١) إن تراثنا الطبي العربي القديم يشتمل على مصطلحات طبية كثيرة لم نفد منها حتى الآن في مجالات

التأليف والترجمة ، وإذا كان نفر من أطباء مصر ودمشق وبيروت قد رجعوا إلى التراث في اغتراف بعض المصطلحات ، فإنه رجوع غير كامل ، ومن الممكن الرجوع إليه من أجل إيجاد مصطلحات جديدة .

(٢) إن الكتب التي ألفت في الحقبة الأخيرة أو ترجمت عن اللغات الأجنبية ، والمجلات الطبية العربية التي تصدر في أقطار عربية عديدة ، وما تشتمل عليه هذه الكتب والمجلات لتدل بوضوح على أن وضع المصطلح ليس أمرا مستعصيا وإن كان ذلك يحتاج إلى جهد مستمر (قد أوضحنا في السطور الماضية شروط وضع المصطلح) .

(٣) إن المجال يظل متسعا لإيجاد مصطلحات جديدة بالطرائق المتعددة وهي الاشتقاق والمجاز والنحت والتعريب (وقد فصلنا القول فيها سابقا) ، ولا يسعنا إلا الإشادة بالجهود التي بذلتها وتبذلها مجامع اللغة العربية في دمشق والقاهرة وبغداد وعمّان ولجان المصطلحات في داخل الجامعات وخارجها ومكتب تنسيق التعريب بالرباط .

هذا وليس المهم وضع المصطلح فحسب ، بل المهم استخدامه بشتى أشكال الاستخدام في المحاضرة والحديث والترجمة والتأليف ، لأن استخدام اللفظ هو سبيل حياته وشيوعه وهذا لا يكون إلا بتعريب التعليم محاضرةً وترجمةً وتأليفاً وبحثاً .

(٤) قامت بعض الهيئات الآنفة الذكر بإصدار معاجم طبية في القرن الأخير ، حصرها الأستاذ الخوري في اثنين وخمسين معجما منذ قبل سنة ١٩٠٠ وحتى سنة ١٩٨٠ م ، وكان آخرها صدوراً هو المعجم الطبي الموحد الذي صدر في عدة طبعات في بغداد والقاهرة والموصل .

المبادىء الأساسية في اختيار المصطلحات العلمية

قائمة المكتب الدائم للتعريب : نظم المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي في ١٨ ـ ٢٠ فبراير عام ١٩٨١ م ندوة بالرباط لتوحيد منهجيات وضع المصطلحات العلمية الجديدة أقرت المبادىء الأساسية في اختيار المصطلحات العلمية ووضْعها وهي :

١ ـ ضرورة وجود مناسبة ، أو مشاركة ، أو مشابهة ، بين مدلول المصطلح اللغوي ومدلوله الاصطلاحي ، ولا يشترط في المصطلح أن يستوعب كل معناه العلمي .

٢ ـ وضع مصطلح واحد للمفهوم العلمي الواحد ذي المضمون الواحد في الحقل الواحد .

٣ ـ تجنّب تعدد الدلالات للمصطلح الواحد في الحقل الواحد ، وتفضيل اللفظ المختص على اللفظ المشترك .

٤ ـ استقراء التراث العربي وخاصة ما استعمل منه ، أو ما استقر منه من مصطلحات علمية عربية صالحة للاستعمال الحديث ، وما ورد منه من ألفاظ معربة .

٥ - مسايرة المنهج الدولي في اختيار المصطلحات العلمية :

أ - مراعاة التقريب بين المصطلحات العربية والعالمية لتسهيل المقابلة بينها للمشتغلين بالعلم والدارسين .

ب - اعتماد التصنيف العشري الدولي لتصنيف المصطلحات حسب حقولها وفروعها .

جـ - تقسيم المفاهيم واستكمالها وتحديدهاوتعريفها وترتيبها حسب كل حقل .

د - اشتراك المختصين والمستهلكين في وضع المصطلحات .

هـ - مواصلة البحوث والدراسات لتيسير الاتصال بدوام بين واضعي المصطلحات ومستعمليها .

٦ - استخدام الوسائل اللغوية في توليد المصطلحات العلمية الجديدة بالأفضلية طبقا للترتيب التالي : التراث فالتوليد بما فيه من مجاز واشتقاق وتعريب ونحت .

٧ - تفضيل الكلمات العربية الفصيحة المتواترة على الكلمات المعرَّبة .

٨ - تجنُّب الكلمات العامية إلاّ عند الاقتضاء بشرط أن تكون مشتركة بين لهجات عربية عديدة ، وأن يشار الى عاميتها بأن توضع بين قوسين مثلا .

٩ - تفضيل اللفظة الجزلة الواضحة ، وتجنب النافر والمحظور من الألفاظ .

١٠ - تفضيل الكلمة التي تسمح بالاشتقاق على الكلمة التي لا تسمح به .

١١ - تفضيل الكلمة المفردة لأنها تساعد على تسهيل الاشتقاق والنسبة والاضافة والتثنية والجمع .

١٢ - تفضيل الكلمة الدقيقة على الكلمة العامة أو المبهمة ، ومراعاة اتفاق المصطلح العربي مع المدلول العلمي للمصطلح الأجنبي دون تقيد بالدلالة اللفظية للمصطلح الأجنبي .

١٣ - في حالة المترادفات أو القريبة من الترادف تفضل اللفظة التي يوحي جذرها بالمفهوم الأصلي بصفة أوضح .

١٤ - تفضيل الكلمة الشائعة على النادرة أو الغريبة ، إلاّ إذا التبس معنى المصطلح العلمي بالمعنى الشائع المتداول لتلك الكلمة .

١٥ - عند وجود ألفاظ مترادفة أو متقاربة في مدلولها ينبغي تحديد الدلالة العلمية الدقيقة لكل واحد منها ، وانتقاء اللفظ العلمي الذي يقابلها ، ويحسن عند انتقاء المصطلحات من هذا النوع أن تجمع كل الألفاظ ذات المعاني القريبة أو المتشابهة الدلالة وتعالج كلها مجموعة واحدة .

١٦ - مراعاة ما اتفق المختصون على استعماله من مصطلحات ودلالات علمية خاصة بهم ، معربة كانت أو مترجمة .

١٧ ـ التعريب عند الحاجة وخاصة المصطلحات ذات الصيغة العلمية كالألفاظ ذات الأصل اليوناني او اللاتيني ، أو أسماء العلماء المستعملة مصطلحات ، أو العناصر والمركبات الكيماوية .

١٨ ـ عند تعريب الألفاظ الأجنبية يراعى ما يأتي :

أ ـ ترجيح ما سهل نطقه فى رسم الألفاظ المعربة فى اللغات الأجنبية .

ب ـ التغيير فى شكله حتى يصبح موافقاً للصيغة العربية مستساغاً .

جـ ـ اعتبار المصطلح المعرَّب عربياً ، يخضع لقواعد اللغة ، ويجوز فى الاشتقاق والنحت ، وتستخدم فيه أدوات البدء والإلحاق ، مع موافقته للصيغة العربية .

د ـ تصويب الكلمات العربية التى حرَّفتها اللغات الأجنبية واستعمالها باعتماد أصلها الفصيح .

هـ ـ ضبط المصطلحات عامة والمعرَّب منها خاصة بالشكل حرصاً على صحة نطقه وأدائه .

هذا على الرغم من أن د/ شاهين قد قدَّم عدة ملاحظات حول عدد من فقرات هذه القائمة رأى فيها عجزا أو تقصيرا أو غموضا ومن أراد التفصيل فليرجع الى كتابه (العربية لغة العلوم والتقنية) .

المعاجم العلمية :

أما مقدمات المعاجم العلمية كمعجم حتّي الطبي ومعجم الحيوان للمعلوف والمعجم الطبي الموّحد ، والمعجم الموّحد ، ومعجم الشهابي لمصطلحات العلوم الزراعية ، ومعجم المصطلحات العلمية والفنية والهندسية ، ومعاجم أخرى كالمورد والعصري وغيرها ، فقد حوت خطة كل واضع لمعجمه ، وما تبعه وما تحاشاه والأسس التى سار عليها فى ترجمة المصطلحات العلمية . ونختار من هذه المقدمات مقدمة الأستاذ أحمد شفيق الخطيب رئيس دائرة المعاجم بمكتبة لبنان وواضع معجم المصطلحات العلمية والفنية والهندسية ، وقد اخترناه بالذات لأنه اجتهد فأخطأ فى بعض اجتهاده ، فلنعرض بعض فقرات هذه المقدمة ، ثم نتبع هذا العرض بتعقيب علَم من أعلام اللغة المعاصرين وهو د/شاهين .

يقول الاستاذ الخطيب : « ولكي تصبح لغتنا قادرة على تأدية المسميات المعرَّبة بشكل صحيح علينا أن نتساهل فى لغة المصطلحات العلمية والتكنولوجية بالأمور التالية :

١ ـ جواز الابتداء بالساكن .

٢ ـ كذلك يجدر بنا التساهل فى أمر التقاء الساكنين ، سواء أكان الأمر مقتصرا على ساكنين اثنين ، أم على عدة سواكن ، فنقول : مورس ، ويويل ، وباوند ، ورنتجن ، وكنكستون ، وبلاينت .. الخ .

٣ ـ إضافة الحروف الثلاثة « ب » (مهموسة) ، « ف » (مجهورة) ، « ج » لتؤدى لفظ الحروف اللاتينية G.V.P. (حين تلفظ كالجيم المصرية) ، فنقول : تلفزيون ، وفلْط ، وبيبسين ، ونابالم ، وأنجستروم ، وجاليوم . . . الخ .. وبذلك تصبح لغتنا قادرة على تأدية الألفاظ الاجنبية بصورة مقبولة ، فنسد الطريق على دعاة التحوّل الى الحرف اللاتيني أو سواه من سبل تحديث اللغة » .

أما ملاحظات د/شاهين على هذا فهي :

١ ـ ليست هناك لهجة عربية قديمة كانت تنطق بالساكن في بداية الكلمة ، فذلك ادّعاء على القدماء ، لا يثبته دليل ، وأما اللهجات الحديثة فقد تأثّر بعضها باللغات الأجنبية إبّان فترة الاستعمار أو التأثر بالثقافة الفرنسية ، وبخاصة في الشام وفي بلاد شمال افريقيا ، ولا ينبغي ان نتخذ هذه الانحرافات الطارئة على اللهجات ذريعة إلى تحريف اللغة الفصحى ، بدعوى تحديثها ، ذلك ان تحريك أول الكلمة قضية تتصل ببنْية العربية في أوزانها المختلفة التي يستحيل تغييرها .

٢ ـ إننا لابد أن نفرق بين مفهوم (التعريب) الذي يعتبر التغيير ـ حتى في أدنى صوره ـ شرطا من شروطه ، وبين مفهوم (التدخيل) الذي يقبل اللفظ على علاّته ، وكما هو في لغته الأصلية .

والتعريب يصيِّر اللفظ عربياً ، وملكاً جديدا للغة ، والتدخيل لا يعدو أن يكون إيراداً للألفاظ الغربية في ثنايا التركيب العربي ، ولا حرج على من لا يستطيع النطق بكيفية ما ـ أن ينطق كيفما استطاع ، لكنها تكون حالة فردية ، لا قاعدة اجتماعية ، أو سلوكا جماعيا .

٣ ـ على أننا لا نجد صعوبة في نطق الكلمات التي ساقها الخطيب بالإسكان ـ مُحَرَّكَةَ الأوائل ـ فمن الممكن أن نقول : كلورات ، وكروم ، وغرافيت .. الخ . دون أن تتعثر ألسنتنا ، ودون أدنى التباس في دلالة الكلمة .

٤ ـ وتأتي مشكلة السواكن في آخر الكلمة ، وحين تكون الكلمة ساكنة الأخر فإن العربية تجيز اجتماع ساكنين ، كما في الوقف على كلمات مثل : وَرْدْ ، وبَحْرْ ، وفَهْمْ . وعلى ذلك فلا صعوبة في نطق كلمات مثل : مورس ، وبويل .

اما حين يراد النطق بثلاثة صوامت سواكن فهذه هي الصعوبة في اللسان العربي ، وإن كانت سهلة في اللسان الافرنجي ، ولكننا نتساءل عن الغرابة في نطق كلمة باوند : باوند ، وكذلك رنتجن ، وكنغستون .. الخ . حين تكون الكلمات على لسان عربي ؟ ولهذا اللسان ـ كما قررنا ـ خصائصه التي تميزه عن سائر الألسنة . أم تُرانا مضطرين إلى أن ننطلق في محاكاة الأجانب الى آخر المدى ، ونتناسى خصائصنا أيضا الى آخر المدى ؟

٥ ـ وتبقى هذه الحروف « ب » (المهموسة) ، « ف » (المجهورة) « ج » وهي لا تمثل في نظرنا مشكلة ، سواء نطقت باعتبارها أصواتا أجنبية ، أو نطقت باعتبارها أصواتا معرّبة ، ونحن الى التزام موقف الأصالة ، فإن

التفريط يستدرجنا دائما خطوة بخطوة الى ما يطمح اعداء العربية أن يبلغوه منا ، بعد أن أفلست مخططاتهم في هدم اللغة والقرآن بالمواجهة الصريحة .

كذلك فقد علّق د / فاضل الطائي على معجم الكيمياء الذي أصدره المكتب الدائم لتنسيق التعريب بجامعة الدول العربية ، مؤاخذاً واضعيه على بعض التقصير في الدقة الخاصة بترجمة عدد من المصطلحات ، فمن أراد الوقوف على تفصيلات هذا الأمر فليرجع الى كتابه (لمحات علمية) طَبْع ونَشْر المجمع العلمي العراقي .

جهودات المجامع اللغوية والعمل على تنسيقها :

تقوم المجامع اللغوية الأربعة فى العالم العربي بمجهودات محمودة فى مجال الترجمة العملية أو التعريب ، كما أن اتحاد هذه المجامع يقوم بالتنسيق ـ الى درجة ما ـ بين هذه المجهودات وإن لم يصل هذا التنسيق إلى الدرجة المرغوبة . فمجمع اللغة العربية بالقاهرة مثلا يقدم خدمات جليلة إذْ خصص وقتاً وجهداً لا بأس بهما لترجمة المصطلحات العلمية الى اللغة العربية ، فقد جنّد لهذا الخبراء من الأساتذة المتخصصين في شكل لجان تنعقد بصفة دورية ثم تعرض ما تقرره على أعضاء المجمع فى صورة مجلس ثم تعرضه مرة أخرى على هيئة المجمع فى صورة مؤتمر ، حين يعقد المجمع مؤتمره السنوي ليناقش ويقر ما أنجزه المجلس من أعمال طيلة العام . وينشر المجمع ما يتوصل إليه من تعريب وترجمة للمصطلحات العلمية الوافدة من العالم المتقدم تقنيا ، وذلك فى صورة نشرات تحوى كل منها ما أقره المجمع من ترجمة أو تعريب أو تدخيل للمصطلحات العلمية الحديثة حتى وصلت إلى أكثر من (١٥٠) ألف مصطلح علمى .

فيما يلى من فقرات نعرض جزءاً من مجهودات مجمع اللغة العربية بالقاهرة فى عِلْمَين فقط هما : علم الحياة ، وعلم الجيولوجيا .

فى علم الحياة : أقر مجمع اللغة قاعدة موحّدة للتصنيف كما وضع قواعد لترجمة وتعريب أسماء المواليد والأعيان من نبات وحيوان فأقرّ حلقات التصنيف الآتية :

عالم	Kingdom	عويلم	Subkingdom	شعبة	Phylum
شعيبة	Subphylum	طائفة	Class	طويئفة	Subclass
رتبة	Order	رتيبة	Suborder	فصيلة	Family
فُصَيْلَة	Subfamily	قبيلة	Tribe	قبيلة	Subtribe
جنس	Genus	جنيسة	Subgenus	نوع	Species
نويع	Subspecies	ضرب	Variety	سلالة	Race
عترة	Strain	فرد	Individual		

وقد أزالت هذه الأسماء التي اتفق عليها وأقرها مجمعنا الموقر، أزالت حيرة كانت شائعة لدى مؤلفي كتب المواليد، وأصبح اليوم كل اسم عربي يدل اصطلاحيا على حلقة واحدة من حلقات التصنيف على غرار الأسماء الأعجمية المقابلة لها، وواضح أن أسماء حلقات التصنيف هذه تُعدُّ من أسماء المعاني، وأنها تُرجمت الى العربية ولم تكن الصعوبة في الترجمة ولكن في تخصيص كل حلقة باسم عربي واحد راجح، وهذا ما أقره المجمع. وهو قرار خليق بأن يُتّبع مهما يكن للبعض من آراء أخرى في هذه المسميات وذلك لأن فيه خَلاصاً من فوضى تعدد الأسماء لكل حلقة واحدة من حلقات تصنيف المواليد.

وقد أقر المجمع القواعد الآتية في ترجمة وتعريب أسماء المواليد والأعيان:

الأولى: ترجمة الألفاظ العلمية بمعانيها هو المجال الأوسع في حلقات التصنيف العليا وهي الشعب والطوائف والرتب.

الثانية: أسماء القبائل والفصائل النباتية أو الحيوانية عربية أو معربةٌ على حسب اسم النبات او الحيوان الذي تُنسبُ اليه.

الثالثة: أجناس المواليد التي ليس بها أسماء عربية تُعرّب أسماؤها العلمية إذا كانت منسوبة الى الأعلام، وتُترجم بمعانيها إذا أمكن ترجمتها في كلمة عربية واحدة سائغة وإلا لم يكن ذلك ممكنا رجح تعريبها.

الرابعة: لا مجال للتعريب في الألفاظ العلمية الدالة على أنواع النبات لأن جميع ألفاظها أو معظمها نعوت أو صفات تُتَرْجَمُ ترجمةً في جميع اللغات الحية.

الخامسة: يوجد مجال للترجمة أو التعريب جميعا في الألفاظ الدالة على السلالات والأصناف أو الضروب.

السادسة: لا مجال للنحت ولا للتركيب المزجي في تصنيف المواليد ولا حاجة إليها، وفي اللجوء اليها تشويه للغة العربية.

ومع ذلك فقد رأى المجمع ضرورة الازدواج أى ذكر الأسماء العلمية اللاتينية في الدراسات العليا وفي حالة احتمال أى لبس.

فمثلا لا مجال للتعريب في الفقاريات والأسماك والبرمائيات والزواحف والطيور والثدييات في رتب الحيوان، كذلك لا مجال للتعريب في غشائية الأجنحة وحرشفيات الأجنحة وذوات الجناحين ونصفيات الأجنحة وما اليها من رتب الحشرات، وكذلك النباتات الزهرية واللا زهرية وذات الفلقتين وذوات الفلقة الواحدة وكاسيات البذور وعاريات البذور وما اليها.

فهذه جميعا ترجمات معقولة مستساغة فلا معنى للتعريب هنا مطلقا ، وكذلك نقول في الفصائل النباتية النخيلية والنجيلية والزنبقية والنرجسية والسحلبية والخبازية ، وكذلك أسماء الأجناس كالقمح والشعير والخردل والقطن وما إليها .

أما النوع ، فينبغي إن دلَّ على صفة بعينها أن نردف الاسم المتفق عليه باللغة العربية بالاسم العلمي كاملا ويتعينُ ذلك في الحالات التي تختلف فيها التسميات ، فالبطاطس في مصر هي البطاطا في سوريا ، والخوخ هو الدراق ، والكمثرى هي الاجاص ، بل ان التبس والبوط والبردى أسماء مختلفة لنبات واحد ولكنه يعرف بأسماء مختلفة في الجهات المختلفة ، ففي كل هذه الحالات وفي مجال البحث العلمي والكتابات العلمية يتعين الازدواج وذكر الاسم العلمي باللغة اللاتينية .

وفي الجيولوجيا : وفي المصطلحات الجيولوجية تسعفنا العربية بألفاظ تحدد الفروق الدقيقة بين درجات متفاوتة من النور والظلمة والعمق والضحالة والملوحة والعلوية والبرّي والتفتت والتشقق والانفصال والانفصام وما إلى ذلك فإذا بها معطاة كأجزل ما يكون العطاء .

فنجد النور والغسق والدغش والغبش والاظلام . كما نجد الضَّحْل والغائر والعميق والسحيق ، وفي مدى استجابة الصخور وود الفعل فيها ، بالنسبة للحركات الأرضية :

فاصل وتفصّل	Joint, Jointing	صدع وتصدع	Fault, Faulting
شق ، تشقق	Fracture, Fracturing	دسرة ، ودسر	Thrust, Thrusting
تفلق	Cleavage	انزلاق	Slipping
تزحلق	Sliding	زحف	Creeping

وفي باب الطي :

طيّه وطي	Fold, Folding	ثنية وثني	Plicate, Plicating
تعرّج	Corrugation	قبة ، تقبب	Dome, Doming

وفي درجات ملوحة الماء نقول :

ماء عذب	Fresh Water	ماء مسوس	Brackish Water
ماء ملح	Saline Water	ماء زعاق	Hypersaline Water
ماء أجاج	Brine Water		

وفي باب ما يشبه :

غراوانى	Colloid	بلوراني	Crystalloid
فلزاني	Metalloid	سكراني	Saccharoid
كرواني	Spheroid	دلتاني	Deltoid

وفي موضوع البَرْي والسحج والنحات والتآكل :

البري أو السحج	Abrasion	النحات	Erosion
التآكل	Corrosion		

ونقول : صواعد : Stalagmites

وهي أعمدة من كربونات الكالسيوم ترسبت في أرضية الكهف بسبب بخر الماء متجهة الى أعلى . وهوابط : Stalacites

وهي أعمدة من كربونات الكالسيوم مدلاة من سقف الكهف بسبب بخر الماء متجهة الى أسفل . وهي صيغ عربية سليمة ما أظن أن الاقدمين قد استعملوها .

وفي مراتب ومراحل الزمن الجيولوجي نقول : الدهر والحين والحقب والعصر والبرهة اللحظة .

١ - الدهر : Eon : أطول مرحلة من مراحل الزمن الجيولوجي لا يقل مداها عن عدة مئات قد تصل إلى ألف وأكثر من ملايين السنين ، مثل دهر الحياة الظاهرة .

٢ - الحين : Era : أطول مراحل العمر في الزمن الجيولوجي ويقاس بعشرات الملايين وقد تصل الى بضع مئات للملايين من السنين ويتميز كل حين من الأحيان الجيولوجية بفصائل وأجناس حيوانية ونباتية مميزة يبيد معظمها مع نهايته ، مثل حين الحياة القديمة .

٣ - الحقب : Period : المدة من الزمن ترسبت أثناءها صخور المجموعة وتقدر بعشرات الملايين من السنين مثل الحقب الكربوني .

٤ - العصر : Age : أطول مرحلة من مراحل الحقب ويقاس مداها بعدد قليل من عشرات الملايين من السنين ، ويتميز كل حقب برتب وفصائل حيوانية ونباتية تنقرض أغلبها أو تقل أهميتها الجيولوجية مع نهاية العصر . مثل Eocene

٥ - البرهة : Hemero : مرحلة من الزمن الجيولوجي يقاس مداها بمئات الآلاف من السنين ويندر أن يبلغ مداها أكثر من مليون سنة ، وهي أطول مرحلة ينقسم إليها عصر من العصور الجيولوجية ويتميز بازدهار نوع معين أو عدة أنواع معينة من الحيوانات أو النباتات تنقرض أو تقل في الاهمية الجيولوجية كثيراً مع نهايتها .

٦ ـ اللحظة Moment : أقصر مراحل الزمن الجيولوجي وأصغر وحداته ولا يتجاوز مداها بضع عشرات من آلاف السنين ويتميز بسيادة نوع معين من الكائنات علاها أو بمرحلة معينة من تاريخ هذا النوع .

وتبقى نقطة الضعف الوحيدة في عمل هذا المجمع اللغوى وغيره من المجامع الموجودة في بعض البلاد العربية ، وهي عدم وجود سلطة لفرض ماتقرزه من مصطلحات ، فهى تخرجها وكأنما تخرجها لنفسها . فلا توجد سلطة ملزمة للمؤسسات العلمية والتربوية لتستخدم المصطلح بمجرد صدوره . هناك نقطة اخرى هى ضعف الترابط الفعال بين مجامع اللغة العربية الموجودة في البلاد العربية . وإضافة الى ما يضيفه هذا الضعف من بعثرة الجهود فانه يعد إحدى صور التمزق الذى يعانى منه المسلمون .

كذلك فهناك عتاب يوجهه الأستاذ المفكر أنور الجندى الى هذه المجامع اللغوية لأنها استجابت للدعوات المريبة إلى تطوير اللغة وقواعدها ورسومها ، وهو تطوير يختلف أصحابه في تسميته ، ولكنهم لا يختلفون فى حقيقته ، يسمونه تارةً « تهذيباً » ، وتارة « إصلاحاً » ، وتارة « تجديداً » ، ولكنهم فى كل الأحوال وعلى اختلاف الأسماء يعنون شيئا واحدا هو التحلل من القوانين والأصول التى صانت اللغة خلال خمسة عشر قرنا أو يزيد ، فضمنت لجيلنا وللأجيال المقبلة أن تسرح بفكرها وتمرح فى معارض فنون القول وآثار العبقريات الفنية والعقلية ، لا تحس بقيود الزمان ولا المكان . . . فاذا تحللنا من القواعد النحوية والقوانين الضابطة والأصول التي صانت هذه اللغة طيلة القرون الماضية ، تبلبلت الألسن حتى تصبح قراءة القرآن الكريم والتراث العربي والفكر الاسلامى كله متعذرة على غير المتخصصين من دراسي الآثار ومفسري الطلاسم .

مجهودات مجامع وهيئات أخرى :

الى جانب مجامع اللغة التى تبدو مجهوداتها واضحة فى إخراج عدد من النشرات يضم الترجمات والتعريبات المتفق عليها من قِبَل لجان متخصصة تضم ذوى الخبرة فى هذا المجال ، توجد مجامع أخرى ، ذكر د/ منتصر منها « المجمع المصرى للثقافة العلمية » ، وهو كان صاحب فضل فى هذا المجال عبر السنوات الماضية من حيث نشر الثقافة العلمية باللغة العربية ، وإذاعة المحاضرات ونشر الكتب ، ولقد استحق أعضاؤه ومؤسسوه ـ فى نظر د/منتصر على الأقل ـ كل تقدير ، فقد أسهموا بأوفى نصيب فى خدمة اللغة العربية وتطويعها للتعبير العلمي . ويجب التنويه بعِظَم هذا الدور فى أيامنا هذه ، فلا كتب تصدر ولا نشرات تطبع ولا دورات ثقافية تعقد ، ولا ميزانية كافية توجد ، اللهم الا المؤتمر السنوى وكتابه قليل الصفحات الذى يطبع محتوياً على عدة محاضرات تُلْقَىَ على نفر قليل ممن يحضرون هذا المؤتمر السنوى ، فعلى المسؤولين وعلى الغيورين أن يعيدوا الى هذا المجمع شبابه ويستعيدوا مجده وخدماته ويعملوا على استئناف نشاطه .

كما ان هناك اتحادات علمية أخرى تقوم ببعض الدور فى مجالات الترجمة والتعريب وخدمة اللغة العربية وتطويعها للعلوم الحديثة والتقنية ، نذكر منها على سبيل المثال : اتحاد أطباء العرب (ولدينا من مطبوعاته « المعجم

الطبي الموحد ») ، الاتحاد العلمي المصري ، الاتحاد العلمي العراقي ، وهو أنشط من زميله في القاهرة ، واتحادات علمية أخرى لا يعرف القارىء عنها شيئا الا بالبحث والتقصي ، والمسؤولية في هذا التعتيم يقع الجزء الاكبر منها على عاتق رجال هذه الاتحادات والمجامع .

كذلك فقد أنشأت جامعة الدول العربية عددا من اللجان المتخصصة في مجالات الترجمة والتعريب ، ولعلّ أشهرها في الآونة الأخيرة : « المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي » بالرباط (المغرب) وهو تابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وهي إحدى منظمات الجامعة .

ولا يفوتنا أن نشيد بجهود مؤسسة الكويت للتقدم العلمي في هذا المضمار ، فقد قامت باصدار ثلاثة قواميس في الكيمياء ، ومشروع المؤسسة يشتمل على خمسة معاجم باللغة العربية والفرنسية والانجليزية لشرح المصطلحات ظهر بعضها الآن وسيظهر الباقي تباعا ، وقد وعدت المؤسسة بالالتزام بقواعد وضع المصطلحات التي أقرتها المجامع اللغوية .

لكن هناك مشكلة تبدو في الأفق وتضاف الى قائمة المشكلات التي يجب البحث لها عن حلول ، تلك هي ما يراه « المجمعيون » ولا يفي بمطالب « الجامعيين » ويلبي حاجاتهم الملحة ، سواء فيما يتعلق بمنهج وضع المصطلح أو أولوياته . فالمجمعيون يسيرون في عملهم بايقاع هادىء وفق منهج محدد ، قد يستغرق الوفاء بمتطلباتها وقتا طويلا ، بينما يجد الجامعيون أنفسهم أمام ضرورات عاجلة ملحة ، حيث يتطلب الوفاء لمنهج دراسي محدد وضع مصطلحات جديدة لم يتطرق اليها المجمعيون بعد .

* * *

ثبت بأهم المراجع والمصادر

أولا : الكتب :

الجراري (عبد الله بن العباس) : تقدم العرب في العلوم والصناعات وأستاذيتهم لأوروبا . دار الفكر العربي بالقاهرة ، ط ١ ، ١٩٦١ .
الجندي (أنور) : سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية . مكتبة التراث الإسلامي بالقاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٤ .
: أضواء على الفكر العربي الإسلامي . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١ ، ١٩٨٦ .
: المعاصرة في إطار الأصالة . دار الصحوة بالقاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٧ .
: أهداف التغريب في العالم الإسلامي . الأمانة العامة للدعوة بالأزهر الشريف ، ط ١ ، ١٩٨٧ .
الحسني (محمد) : الإسلام الممتحن . المختار الإسلامي بالقاهرة ، ط ١ ، ١٩٧٧ .
حوى (سعيد) : الإسلام . مكتبة وهبة بالقاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٧ .
حسين (د/محمد كامل) : بحث في الطب والأقرباذين . ضمن بحوث كتاب «أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية» . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١ ، ١٩٨٧ .
الخطيب (أحمد شفيق) : معجم المصطلحات العلمية والفنية والهندسية (إنجليزي - عربي) . مكتبة لبنان بيروت ، ط ٦ ، ١٩٨٤ .
خليل (د/عماد الدين) : حول إعادة تشكيل العقل المسلم . كتاب الأمة بقطر (٤) ١٩٨٣ .
الدفاع (د/علي عبدالله) : لمحات من تاريخ الحضارة العربية والإسلامية . مكتبة الخانجي بالقاهرة ، دار الرفاعي بالرياض ، ١٩٨١ ، بدون رقم طبعة .
الدمرداش (د/أحمد السعيد) : تاريخ العلوم عند العرب . دار المعارف بالقاهرة ، ط ١ ، ١٩٧٧ . ديكسون (د/برنارد ب .) : العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث . ترجمة شعبة الترجمة باليونسكو . العدد (١١٢) من سلسلة عالم المعرفة بالكويت ، ١٩٨٧ .
رضوان (محمد عبد المنعم) : الطريق لعودة الخلافة الراشدة وبعث أمة الإسلام العظمى . مكتبة القدسي بالقاهرة ، ط الأخيرة ، ١٩٨٥ .
زحلان (أنطوان) : العلم والسياسة العلمية في الوطن العربي . مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٩ .
سبع (عبد العظيم عبد العزيز) : حاضر العالم الإسلامي . مكتبة السلام العالمية بالقاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٠ .
شاهين (د/عبد الصبور) : العربية لغة العلوم والتقنية . دار الاعتصام بالقاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٢ .
الشهابي (الأمير مصطفى) : مصطلحات العلوم الزراعية . مكتبة لبنان بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٢ .
الطائي (د/فاضل أحمد) : لمحات علمية . مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، ١٩٧٨ .
عبد الحميد (د/محسن) : أزمة المثقفين تجاه الإسلام في العصر الحديث . دار الصحوة بالقاهرة ط ١ ، ١٩٨٤ .
عبد السلام (د/محمد) : المسلمون والعلم . ترجمة د/ممدوح الموصلي . دار الفد بالقاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٦ .
عبده (الشيخ محمد) : المسلمون والإسلام . دار الهلال بالقاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٧ .
عبده (سمير) : العرب والحضارة العلمية الحديثة . دار الآفاق الجديدة بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٢ .
عبود (د/عبدالغني) : المسلمون وتحديات العصر . دار الفكر العربي بالقاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٥ .
العراقي (المجمع العلمي) : المعجم الموحد للمصطلحات العلمية . ١٩٧٦ ، ١٩٧٩ .
: المعجم الطبي الموحد . اتحاد الأطباء العرب ، ط ٢ ، ١٩٧٨ .
العربية (مجمع اللغة) : المعجم الوسيط . إعداد وإشراف لجان متخصصة في المجمع بالقاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٦ .
: مجموعة المصطلحات العلمية والفنية التي أقرها المجمع بالقاهرة ، ١٩٧٧ .
عز الدين (د/يوسف) : تراثنا والمعاصرة . دار الإبداع الحديث ، ط ١ ، ١٩٨٧ .
العمري (د/أكرم ضياء) : التراث والمعاصرة . كتاب الأمة بقطر (١٠) ١٩٨٥ .
عفيفي (د/محمد الصادق) : تطور الفكر العلمي عند المسلمين . مكتبة الخانجي بالقاهرة ط ١ ، ١٩٧٧ .
عويس (د/عبد الحليم) : فقه التاريخ وأزمة المسلمين الحضارية . دار الصحوة بالقاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٦ .
عويس (د/عبد الحليم) : تفسير التاريخ علم إسلامي . دار الصحوة بالقاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٧ .

الغزالي (الشيخ محمد): مشكلات في طريق الحياة الإسلامية. كتاب الأمة بقطر (١) ١٩٨٦.
غنيم (د/كارم السيد): التخلف العلمي في العالم الإسلامي. القاهرة، ط١، ١٩٨٨.
ـــ : حضارتنا العلمية وواجبنا نحو أعلامها. دار الصحوة بالقاهرة، تحت الطبع.
ـــ : قضية العلم والمعرفة عند المسلمين. الزهراء للإعلام العربي بالقاهرة، تحت الطبع.
كرم (أنطونيوس): العرب أمام تحديات التكنولوجيا. سلسلة عالم المعرفة بالكويت (٥٩) ١٩٨٢.
لوب (مالك): العالم الثالث وتحديات البقاء. سلسلة عالم المعرفة بالكويت (١٠٤) ١٩٨٦.
المبارك (د/ مازن): اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي. دار النفائس بيروت، ط١، ١٩٧٣.
مرسي (د/ محمد عبدالعليم): الهجرة في العالم الإسلامي، مأساة النزيف البشري وهجرة العقول. دار الصحوة بالقاهرة، ط١، ١٩٨٦.
مطلوب (د/ أحمد): دعوة إلى تعريب العلوم في الجامعات. دار البحوث العلمية بالكويت، ط١، ١٩٧٥.

ثانيا: الدوريات والمجلات:

أنور (محمد شكري): عرض كتاب «أسلمة المعرفة» للدكتور إسماعيل راجي الفاروقي. الفيصل (١٠٤) ١٩٨٥.
بدوي (أ. د: السعيد محمد): دراسة الواقع اللغوي أساس حل مشكلات اللغة العربية في مجال التعليم. دراسات عربية وإسلامية (العدد ١٠) ١٩٨٣.
البصير (عبدالرزاق): تعريب التعليم في الجامعات. العربي (٣٦١) ١٩٨٨.
التكريتي (د/ عدنان): قضية تعريب التعليم الجامعي. العربي (٣٤٨) ١٩٨٧.
التواتي (عبد الكريم): لغة الحضارة بين العلوم والتعريب. الفيصل ٩٠ (٤٦) ١٩٨٤.
جاد الكريم (حسن محمود): أسلمة العلوم. الأمة (٥٦) ١٩٨٨.
جبرا (محمد بن علي): على أقدام التكنولوجيا الغربية مصانع الثقافة الغربية؟ الوعي الإسلامي (٢٢٣) ١٩٨٢.
التواتي (عبد الكريم): لغة الحضارة بين العلوم والتعريب. الفيصل ٩٣ (٤٦) ١٩٨٤.
جاد الكريم (حسن محمود): أسلمة العلوم. الأمة (٥٢) ١٩٨٨.
الجندي (الأستاذ أنور): تحديات ستواجه في اللغة العربية. الضياء ٢٢ (٨) ١٩٨٢.
حسين (أبيكاه): تأثير اللغة العربية في اللغة الاندونيسية ودعوة الشباب المسلم للحفاظ على لغة دينه الحنيف. الإصلاح (١٢٨) ١٩٨٨.
السارة (د/قاسم طه): منهجيات صياغة المصطلح العلمي. الفيصل (١٢٤) ١٩٨٧.
ساعي (د/أحمد بسام): اللغة العربية بين اللغات، دراسة مقارنة باللغة الانجليزية. الفيصل (٩٨) ١٩٨٥.
شاهين (د/عبد الصبور): قدرة العربية على استيعاب علوم العصر. الأمة (٦١) ١٩٨٥.
الشيخ (ياسين إبراهيم): لغتنا بين العجز والبنات الثلاث. الأمة (٦٢) ١٩٨٥.
عودة (د/سامي): اللغة والتطور العلمي. آفاق علمية ١٥ (١٣) ١٩٨٨.
فروخ (د/عمر): لغة العلم. بحوث مؤتمر الدورة ٤٧، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٩٨٠.

***

تعريب المصطلح العلمي "إشكالية المنهج"

قاسم السارة

مقدمة :

لعلّ التعريب والقضايا المتعلقة به منْ أكثر القضايا المعاصرة إلحاحاً ، وأكثرها مدعاةً لاهتمام العلماء والباحثين العرب ، ولئن كان التعريبُ مشكلةً قديمة قِدَمَ الوجود العربي المستقل في ماضيه ، فإنه أيضاً يشكّل تحدياً حضارياً راهناً يستهدف الوجود العربيَّ المستقلَّ في حاضره ومستقبله . واليوم يتفق المثقفون العرب على أن التعريبَ ضرورة قومية تساهم في تكوين الروابط المشتركة لأفراد الأمة العربية ، وتوثّق من عرى الأواصر بينهم في الثقافة والفكر والشعور المشترك وهو ضرورةٌ اجتماعيةٌ ، يهدف لتعميم التعليم العالي على جماهير الشعب ، ويتجاوز الفئات (الفوقية) الصغيرة التي تصنّع الازدواج اللغوي في العلم وفي الحياة الخاصة واليومية على أبسط مستوياتها[1] والتعريب أيضاً ضرورةٌ تربوية إذْ يجعل من لغة الجامعة لغة الجماهير ويعطي خرّيجي الجامعات الفرص الواتية لممارسة علومهم النظرية ، وإبداع إنتاجٍ علميٍّ جديدٍ في مجالات الحياة اليومية ويسهل لهم الاشتراك في الخطط الاجتماعية . . .

والتعريب أخيراً ضرورة علميةٌ ، إذْ يسهّل الاتصال بين المعلّم وبين طلابه ويؤمّن جو نقاشٍ علميٍّ خالٍ من الحرج والتكلف . . إذْ هو القاسم المشترك بين جميع أعضاء هيئات التدريس أينما أهلّوا علمياً من جهة ، وهو القاسم المشترك بين الطلاب والأساتذة من جهة أخرى . . ولذلك كله ، ولأسباب أخرى كثيرة فقد دلت الدراسات الميدانية الحديثة على أنّ أصلحَ لغةٍ للتعليم هي اللغة التي « يفكر » بها الطالب . . وأنّ

---

(١) د. ابراهيم حمادة : تعريب العلوم في التعليم العالي ، المجلة العربية للعلوم العدد (٨) السنة (٤) أيار ١٩٨٦ ، ص ٨ .

الطلاب يحتاجون إلى وقتٍ طويل جداً لتفهم أي نص علميٍّ بلغةٍ ثانية[2] ، مما يشكل عبئاً على اقتصاد البلد بكامله[3] ، الأمرُ الذي دفع اليونسكو إلى تَبَنّي قرارات توجب استعمال اللغة الأمّ في التعليم العالي كلّما كان ذلك ممكناً[4] مع تَعلُّم لغةٍ حيةٍ أخرى تُعينُ الدارس على الإطّلاع المستمر على التقدم العلمي .

ولقد أدّى التدريسُ بلغات غير العربية إلى تخلُّف عامّ بين العرب ، لأن الابداع لايمكن أن يكون بغير اللغة الأم ، كما أدّى إلى تخلُّفهم في مجال استيعاب اللغة العربية ذاتها . . . وإلى حرمانِ تلك اللغةِ من النموِّ المطّرد المتمثّل في نَحتِ الألفاظ للتعبير عن المفاهيم الجديدة[5] ، ونظرة عَجلى إلى تاريخ أمتنا العربية تكفي لاقناعنا بأن تعريب العلوم واكب أيام نهضتها وعزها وسيادتها[6] وأنَّ أيامَ التخلُّف والضعف والتمزق هي التي توقعنا في شرك التبعية الثقافية والعلمية . . .

أصل المشكلة :

لعل كل من يتتبّع تاريخَ العلوم عند العرب يوافق الأستاذَ الرئيسَ محمد كرد علي فيما ذهبَ إليه من أنَّ القرن التاسع عشر قد طلع على البلاد العربية وقد انقطع سند العلوم ، وبطل إعمالُ الفكر . . . وأنَّ العربَ آنئذ كانوا في غفلةٍ عن الغرب ، قلّما يعرفون ماأتاه في نهضته خلال أربعة قرون سلفت[7] ورغم أنَّ الدولة العثمانية قد شَهدتْ حركةً اصلاحيةً منذُ مطلع القرن الثامن عشر إبّانَ حكم السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ ـ ١٧٣٠) وخلفائه من بعده فإنَّ حظَّ الولايات العربية مِنْ تلك الاصلاحات كان ضئيلاً من جهة[8] كما وُجِّهتْ تلك الاصلاحات الى ترسيخ اللغة التركية في التعليم من جهة أخرى[9] ثم مالبث أن أصيبت اللغةُ العربيةُ بنكبةٍ حقيقيةٍ في نهاية حكم الدولة العثمانية تمثّلت بعزلها عزلاً تاماً عن تدريس العلوم الحديثة ، وبفرض اللغة التركية في المدارس بدلاً منها ، وبترسيخ فكرة عجز اللغة العربية عن استيعاب مواد أي علمٍ حديثٍ[10] بين جماهير الطلبة والمثقفين آنذاك . . حتى اذا جاءت النهضة العربية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين وجد المتنورون من العرب أنفسهم في مواجهة الحضارة الغربية ، والتي أخذت تظلّهم بظلالها وتفرض عليهم سماتها ، ولم يجدوا أمامهم خياراً سوى الأخذ بالكثير مما قدمته لهم . . مع محاولة التمسك بما يستطيعون الا حتفاظ به من الإرث الحضاري القديم الذي يفخرون به ، وكان عزاءهم في ذلك أن الحضارة المعاصرة لها صفةٌ عالمية[11] ، يمكن لأي أمة أن تغترف منها . . وهنا واجه المثقفون

---

(٢) د. محمد علي الفال : مسابقة التعريب في العلوم الهندسية ، اللسان العربي ، المجلد ١٥ ، الجزء ١ ، ص ١٣٠ ـ ١٤١ .

(٣) ادريس الكتاني : دور اللغة في تنمية الطاقات البشرية وتجربة اللغات الأجنبية في البلدان الأفريقية : دراسة البنك الدولي للبناء والتنمية في المغرب ، اللسان العربي ، المجلد ١١ ، الجزء (١) ص ٣١٩ .

(٤) مقررات مؤتمر التعريب : مجلة اللسان العربي ، المجلد ١١ ، الجزء الثاني ، الجزائر ، ١٦ ـ ٢٠ كانون الأول ـ ١٩٧٣ ، ص ٢٥٠ .

(٥) زغلول النجار : مقدمة كتاب أثر علماء العرب والمسلمين في تطوير علم الفلك ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨١ ، (الطبعة الأولى) ، ص ٦ .

(٦) د. قاسم سارة : اتجاهات تعريب المصطلح العلمي ، مجلة الفيصل ، العدد ١١٨ ، ص ٦ .

(٧) محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية (الجزء الأول) ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، (الطبعة الثانية) ١٩٥٠ ، ص ٣٧ .

(٨) د. عبد الله النمر : مجلة تاريخ العرب والعالم ، العددان ٩٣/٩٤ (تموز / آب ١٩٨٦) ، ص ١٠ .

(٩) د. حسني سبح : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد السابع (الجزء الرابع) ، تعريب علوم الطب ، ص ٦٣٠ .

(١٠) د. عائشة عبد الرحمن : اللغة العربية وعلوم العصر ، اللسان العربي ، المجلد ١٣ ، ص ١٥ .

(١١) د. ابراهيم السامرائي : نظرات في التدريس العربية في جامعات الوطن العربي ، مجلة المعرفة ، دمشق ، السنة ٢٣ ، العدد ٢٧٠ (آب ١٩٨٤) ، ص ٩ وما بعدها . .

العرب التحدي الذى قدمته لهم حضارة الغرب بشكل مفاهيم جديدة على الثروة اللغوية التي اكتظت بمفرداتها ضمائره ، وحفلت بمعانيها المعجمات وكتب اللغة ، وكان على « الطليعة » من مفكري العرب أنْ يسعوا بجدٍ ودأب لمعالجة هذه المشكلة الشائكة ، مشكلة المصطلح العلمي . . .

المصطلح العلمي :

إنَّ مشكلة صياغة المصطلح العلمي وتعميمه والاتفاق عليه مشكلةٌ قائمة في جميع اللغات الحية [١٢] بل هي في الأمم المتقدمة أكثر وُضوحاً وحدَّةً منها في غيرها من البلاد . . إذْ « تقذف » معاهد البحوث والدراسات في الدول المتقدمة كلَّ يوم ، بل كلَّ ساعة ، سيلاً من المفاهيم العلمية الجديدة التي تحتاج « لمصطلحات » تعبر عنها بدقة وأمانة ونوعية . . ولايمكن الوصول إلى ذلك إلاّ بعد وعيٍ تامٍّ للحقيقة العلمية الجديدة التي تبحث عن مصطلح يمثّلها [١٣] ثمّ إدراك عميقٍ للأصول اللغوية ووسائل نموّها وتطورها . . .

ورغم أنَّ « المصطلح » يمثل « الشكل » فقط للمفاهيم العلمية الجديدة فإنّه كثيراً مايمس جوهر الحقيقة العلمية المراد التعبير عنها ، بشكل أو بآخر حتى أصبح من الأمور المسلّم بها اليوم أنَّ منْ أهمِّ العقبات التي تواجه نهوض تعريب التعليم العالي في شتى الأقطار العربية هي العثورُ على مصطلح عربيٍّ ملائم [١٤] للكلمات والمفاهيم العلمية الجديدة القادمة من البلاد الأجنبية . فالمصطلح هو الوسيلة الرئيسية لتكوين وتنظيم وتطوير المعارف [١٥] وهو كالاسم العلم للانسان المتحضِّر في مجتمعه . . يدل بشكل نوعيٍّ وفريدٍ و « رسميٍّ » على مفهوم واحد . . وعلم « المصطلح » بمفهومه الحديث علم معقد ، يشترك في جملة علوم مثل علم اللغة ، والمنطق ، وعلم الوجود ، وعلم المعلوماتية ، وحقول التخصص العلمي والأدبي والفني كلٌّ على حدة ، أحياناً ، وبالاشتراك فيما بينها أحياناً أخرى . . وكل ذلك الاشتراك يخدم تنظيم العلاقة بين « المفاهيم العلمية » وبين المصطلحات اللغوية التي تعبر عنها [١٦] .

ولعل كل التعريفات الحديثة والمعقّدة للمصطلح لاتخرج عن ماأورده الزبيدي في تاج العروس في قوله « الاصطلاح اتفاق طائفة مخصوصة على أمر مخصوص » وفي ذلك اشارة إلى أهمية « اتفاق » العلماء المشتغلين في الحقول العلمية وفي الدراسات اللغوية على إعطاء كلمة ما دلالة جديدةً ، وأنَّ « اتفاقهم » هذا يخلع على الكلمة معنىً جديداً قد يغاير الى حدٍّ ما المعنى المعجمي ويكسبها دلالةً جديدةً قد تختلف عن الدلالة اللغوية المتعارف عليها سابقاً . .

---

(١٢) د. عبد الكريم اليافي : تجربتي في تعريب المصطلحات العلمية ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٥٢ ، الجزء ٤ تشرين أول ١٩٧٨ .
(١٣) د. حسني سبح : تعريب علوم الطب ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٦٠ الجزء ٤ ص ٦٣٢ .
(١٤) د. شاكر الفحام : قضية المصطلح العلمي وموقعه في نطاق تعريب التعليم العالي ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٦٠ ، الجزء ٤ ، ص ٦٩٦ .
(١٥) د. صبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة ، ص ٣٤٩ .
(١٦) د. علي القاسمي : (ندوة كلية الآداب في جامعة سيدي محمد بن عبد الله في فاس حول المصطلح النقدي ٢٠ - ٢٢ نوفمبر ١٩٨٦) مجلة الوحدة ، السنة ٢٨ ، العدد ٢٨ كانون ثاني ١٩٨٦ ، ص ٣٣٩ .

فالمصطلح لفظ موضوعي ، تواضعَ عليه المختصون بقصد أدائه معنىً معيناً بدقةٍ ووضوحٍ شديدَيْن ، بحيث لايقع أي لَبْس في ذهن القارىء أو السامع لسياق النص العلمي (١٧) . . . ولكن هذا التحديد الذى يتم بعناية قصوى لا يعني استقصاء المصطلح العلمي لكل دقائق المفهوم العلمي الذي يعبر عنه ، أو احاطته إحاطةً جامعةً بدقائق المفهوم المسمّى به . . . بل يكفي الاتفاق بين المختصين على ذلك ، مع وجود علاقة أو ملابسة بين لفظة المصطلح وبين دلالته . . . سواء أكانت العلاقة حقيقية أم مجازية ، من قريب أومن بعيد (١٨) . . فلا تفاق هو الأصل وماسواه تبع له . . وهكذا تكتسب الكلمة العربية القديمة الأصيلة ، أو المولدة المُحْدَثَة ـ اشتقاقاً أو نحتاً ـ شحنةً دلاليةً تخرجها من طور الضياع والعطالة في سطور المعاجم الى طور من النشاط والحيوية والانتشار في صدور العلماء والنبوع عبر أقلامهم وكلماتهم . . .

ومنذ بداية عند النهضة العربية أصبح الاهتمام بصياغة المصطلحات العلمية الشغل الشاغل للعلماء العرب في شتى أنحاء الوطن العربي ، إنْ على الصعيد الشخصي الفردي أو على الصعيد الرسمي المؤسّسي . . . ولئن اتسمتْ تلك الجهود بالجدية فانها كانت في غالب الأحيان ارتجالية ومتسرعة ، وبعيدة عن الوفاء لمنهجية واضحة محددة ، إذا كان هناك منهجية واضحة محددة آنذاك ، الأمر الذي وسم الكثير من المصطلحات بسمة « شخصية » مستمدة من مصدر الثقافة العلمية التي ينهل منها صاحبها ، افرنسية ، أو انجليزية أو ألمانية . . وما يزيد الأمر تعقيداً أن المصطلح كثيراً ما يكون في اللغة الأصلية غارقاً في ظلمات الإبهام المجازي أو التشبيه التمثيلي (١٩) . . ولا عجب أن يتحدّد رواج بعض المصطلحات في حدود القطر العربي الذي ظهرت فيه ولا تتخطاه إلى أقطار عربية ولو كانت مجاورة له ، وتتمتع بنفس الصفات الجغرافية والمناخية . . فلا اختلاف واضح بين أسماء العلوم (فضلاً عن المصطلحات) التي تسمعها في سورية وبين تلك التي تسمعها في لبنان أو الأردن أوالعراق مثلاً . . (٢٠) ولعل أهمّ سبب لذلك الاختلاف هو تعدد مصادر النقل ، فالذين ينقلون عن الانكليزية تختلف مصطلحاتهم عن أولئك الذين ينقلون عن الافرنسية (٢١) أو عن الألمانية أو الروسية . وتهدف مراجعتنا هذه الى استقراء المنهجيات التي سنّها واضعو المصطلحات لأنفسهم ، ومدى وفائهم لها في أعمالهم المعجمية وفي أعمالهم العلمية الأخرى من تأليف أو ترجمة . . .

أولاً أعمال ومنهجية النقلة الأوائل

وإذا قلبنا صفحات الكتب العلمية التي نقلها المترجمون الأوائل أو ألفها العلماء العرب في العصر العباسي ، نجد أنهم اعتمدوا في النقل على طرق عدة . .

١ ـ ترجمة المفردات الأعجمية لفظاً بلفظ ، كلما وجدوا في العربية ما يقابل اللفظ الأعجمي . . .

---

(١٧) د. جبور عبد النور : المعجم الأدبي ، دار العلم للملايين ، الطبعة الأولى ـ آذار / ١٩٧٩ .

(١٨) د. تمام حسان : نحو تنسيق أفضل للجهود الرامية إلى تطوير اللغة العربية ، اللسان العربي ، المجلد ١١ ، الجزء (١) ، ص ٢٩٧ .

(١٩) لعل سبيل المثال يقال بالفرنسية Tout-à-l'Egout في مقابل المجاري الصحية الثالثة ، الصرف الصحي ، أو الإصحاح .

(٢٠) د. محمد المنجي الصيادي : التعريب وتنسيقه في الوطن العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨١ (الطبعة الثالثة) ، ص ٧٣ وما بعدها .

(٢١) د. حسني سبح : نظرة في معجم كليرفيل كثير المقاصد ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٤٧ الجزء ٤ ، ص ٨٨٨ .

٢ ـ الاشتقاق وهو من أهم الطرق وأخصبها .

٣ ـ المجاز ، فاستعملوا ألفاظاً بينها وبين المعنى الجديد اتصالٌ من تشبيه أو اتصال سبب أو بعضيةٌ أو كليةٌ أو عموم أو خصوص أوإضافة أو اشتهال . . .

٤ ـ النحت ، وهي نوع من الاختصار والتركيب يمزج فيه لفظان أو عدة ألفاظ أوأهم حروفها فيتولد عن ذلك لفظ واحد جديد ولكن النحت عند النقلة الأوائل كان قليلاً وبمقدار ماتسمح به اللغة العربية . . .

٥ ـ التعريب وذلك بنقل المفردات الأعجمية بلفظها وذلك إلى حين . . . حتى يُيَسِّرَ الله لهذه المفردات الأعجمية من يصيغ لها مصطلحاً عربياً . [٢٢] أما عن أسلوب النقل للنصوص العلمية فقد كان للمترجمين في العصر العباسي طريقان [٢٣]

ـ أحدهما هو أنْ ينظر الناقل إلى كلمة مفردة من الكلمات الأعجمية ومائدل عليه من المعنى فيثبتها وينتقل إلى الأخرى كذلك ، حتى يأتي على جملة مايريد تعريبه وهذه الطريقة رديئة لوجهين :

● أحدهما أنه لايوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع الكلمات الأعجمية ولهذا يقع في خلال هذا النقل كثير من الألفاظ الأعجمية على حالها .

● والثاني أن خواص هذا التركيب والنسب الإسنادية لاتطابق نظيرها من لغة لأخرى دائماً ، وأيضاً يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات .

ـ والطريق الثاني في الترجمة هو أن يأتي بالجملة ، فيحصّل معناها في ذهنه ويعبِّر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها ، سواء تساوت الألفاظ أم خالفتها . . . وهذا الطريق أجود .

فاذا عرفنا أن الذين تولّوا نقل علوم اليونان الى العربية في عصر الخلفاء العباسيين كانوا من النسطوريين والكلدانيين والأعاجم ، وهؤلاء كانوا علماء أكثر منهم أدباء ، وإن كانوا تعلموا العربية فانهم لم يتفقّهوا فيها ولم يتقنوا آدابها فإنَّنا لن تستغرب أنْ نجد ماعرّبوه مشحوناً بالألفاظ الأعجمية مع أنَّ لها في العربية مرادفات . . وأنهم لم يجروا في التعريب على نمط واحد يصح اتباعه إلا في أحوال معينة بل نجدهم صوروا الكلمات اليونانية بصور شتى ، يَصْعُب على قارئها رجعها الى أصولها . . ولم يذكر أحد منهم أو من أئمة اللغويين أيَّ قواعد لما يُعرَّب من الكلمات الأعجمية . . [٢٤]

---

(٢٢) محمد السويسي : مشكلة وضع المصطلح ، من كلمته التي ألقاها في ندوة استراتيجية التعربية والتعريب التي انعقدت في الجزائر ، العاصمة بين ٥ ـ ٨ أيار ١٩٧٨ ، اللسان العربي ، المجلد ١٢ ، الجزء (١) ، ص ٩ .
(٢٣) د. أحمد عيسى بك : التهذيب في أصول التعريب ، ص ١١٣ .
(٢٤) د. محمد شرف : معجم العلوم الطبية والطبيعية (الطبعة الثانية) المقدمة ، ص ١٢ .

لقد قام علماء العرب والمسلمين بترجمة الكتب الفلكية عن اليونان والكلدان والسريان والفرس والهنود ، فكان أول كتاب ترجموه هو « مفتاح النجوم » المنسوب الى « هرمس الحكيم » ، من اللغة اليونانية ، قبل سقوط الدولة الأموية بسبع سنين ثم ركز علماء العرب والمسلمين في العصر العباسي على الترجمة والتعليق والشرح على المؤلفات اليونانية العلمية وخاصة كتاب « المجسطي » لبطليموس في علم الفلك وحركات النجوم .. وكتب سقراط وأرسطو طاليس وأفلاطون في المنطق [٣٥] .. وأهم الكتب التي ضمت علوم الحضارات والأمم السابقة .

ويجمل القول في سبيل التراجمة الأوائل والعلماء الأوائل في حضارتنا العربية والاسلامية أنهم توخوا « البيان والايضاح » ولم يتوقفوا أمام قضية المصطلحات ، بل كان كل مصطلح لايسهل عليهم نقله بلفظ عربيٍّ أصيلٍ بادروا الى تعريبه تعريباً لفظياً .. دون أن يحول ذلك دون نقل نص علمي برمته إلى العربية ، أو دون تأليف كتاب بالعربية [٣٦] تاركين للأجيال من بعدهم مهمة صياغة مصطلح مثيل لتلك الكلمات ...

ولعل أحسن مثال يصوّر لنا طريقة نقل الكتب الى العربية في ذلك الوقت هو ماذكره « ابن جلجل » عن نقل كتاب ديوسقوريد في النبات من اليونانية ، فقد تُرْجِمَ بمدينة السلام أيام جعفر المتوكل ، وكان المترجم له اصطفن بن بسيل الترجمان ، وتصفّح الترجمة حنين بن سحق فصححها وأجازها ..

فما علم اصطفن من تلك الأسماء اليونانية في وقته له اسماً في اللسان العربي فسّره بالعربية ، ومالم يعلم له اسماً في اللسان العربي تركه على اسمه اليوناني اتكالاً منه على أن يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسّره باللسان العربي ، ثم ورد هذا الكتاب الى الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر ، كما ورد لعبد الرحمن الناصر كتاب ديسقوريدس مصوّرا ومكتوباً بالاغريقية من ملك القسطنطينية أرمينوس على سبيل الهدية ، ثم أرسل له براهب يُسمّى نيقولا له معرفة بالاغريقية .. فتمكن من تفسير ما كان مجهولاً من أسماء عقاقير ديسقوريدس بالتعاون مع العلماء العرب الموجودين في بلاط عبدالرحمن الناصر ومن له خبرة بعلوم النبات .. [٣٧] وهذا مايشير بوضوح الى تسامح النقلة الأوائل في نقل الألفاظ الأعجمية الى العربية ، وبدون حرج أو شعور بالنقص .. مالم يكن لهذه الألفاظ مقابل شائع في العربية ..

ثانياً ـ أعمال المؤلفين العرب في العصور التالية حتى عصر النهضة :

وقد امتدت هذه الظاهرة الى المؤلفين ، الذين لم يجدوا مهرباً من استعمال الألفاظ الأعجمية في كتبهم فأوردوها على سبيل التعريب .. فقد لخّص البيروني طريقته في نقل المصطلحات في كتابه « تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » حيث يقول : « وأنا ذاكر من الأسماء والموضوعات في لغتهم مالابدَّ من ذكره مرةً واحدةً يوجبها التعريف ، ثم إنْ كان مشتقاً يمكن تحويله في العربية الى معناه مالم أملْ عنه إلى غيره إلاّ أنْ يكون بالهندية أخف في

---

(٣٥) د. علي عبد الله الدفاع : أثر علماء العرب المسلمين في تطوير علم الفلك ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨١ (الطبعة الأولى) ، ص ١٩ ـ ٢١ .

(٣٦) د. محمد هيثم الخياط : تعريب التعليم العالي والجامعي في سورية في ربع القرن الأخير ، ندوة اللغة والمجامع اللغوية العربية ، الرباط ١٩٨٥ ، ص ١٩٥١ .

(٣٧) محمد السويسي : مشكلة وضع المصطلح ، اللسان العربي ، المجلد ١٢ ، الجزء (١) ، ص ١٠ ـ ١١ .

الاستعمال فنستعمله بعد غاية التوثقة منه من الكتبة ، أو كان مقتضيا شديد الاستحصار فبعد الاشارة إلى معناه ، وإنْ كان له اسم عندنا مشهور فقد سهل الأمر فيه . . . »

وقد كان نقل الأسماء الأعجمية المعربة أكثر تواتراً في الكتب العلمية منها في كتب الأدب والفلسفة . . . ففي علم النبات مثلاً تطالع ماقاله النباتي ضياء الدين بن البيطار في مقدمة كتابه « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » : « وذكرت كثيرا منها (الأدوية) بما يُعرف به في الأماكن التي تنبت فيها الأدوية المسطورة كالألفاظ البربرية واللاتينية وهي أعجمية الأندلس إذْ كانت مشهورة عندنا » . إلا أن كتب الأدب هي الأخرى لم تخل من المعربات . . فقد حفل الجزء الثاني عشر من كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) من تأليف شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري [28] (٦٧٧ ـ ٧٣٣ هـ) ـ (١٢٧٨ ـ ١٣٣٣ م) بذكر أصناف الطيب والبخورات والغوالي والندود والأدهان والنضوحات ، كما حفل بأسماء النبات والأدوية والعقاقير . . واستمد المؤلف مادته العلمية من كتب الأطباء والمترجمين القدامى . . وجاء بالكثير من الأسماء معربا عن لفظه الأعجمي مثل السقنقور ، والدارصيني ، والأيارج ، والاسفيداج ، والخولنجان . . على أن هذه الألفاظ الأعجمية لم تكن لتقف عقبة بين القارىء وفهم النص بوضوح وسهولة . . . فمن يقرأ في كتاب القانون في الطب للشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن علي بن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ ـ ١٠٣٧ م يجد أنّ جملة مايحويه من فصول وأبواب مفهومه لقارئنا المعاصر رغم مرور حقبة « طويلة » من الزمان . . .

ولنأخذ مثالاً على وضوح أسلوبه ويسر تفهمه فصلاً من الكتاب الرابع [29] :

« فصل في الكسر مع الجراحة : وإذا اجتمع كسر وجراحة فليرفق المجبر بالجبر رفقاً شديداً ، وليبعد الجبائر عن موضع الجراحة ، وليضع على الجراحة ماينبغي من المراهم وخصوصاً الزفتي . . وقوم يأمرون بأن يُبتدأ بالشدّ من جانبي الجُرح ، ويترك الجرح مكشوفاً ، وهذا يحسن إذا كان الجرح ليس على الكسر نفسه ، ثم يجب أن يكون عليها ستر آخر يغطيها عن الهواء . . . »

الا أن الأمر يختلف عندما يتحدث الشيخ الرئيس عن السموم ومعالجاتها والأدوية المفردة ، والأدوية المركبة من ترياقات ومعاجين وإيارجات وتيادروسات وجوارشنات وسفوف ولعوق وأشربه وربوب وسكنجبيات وأقراص وأدهان ومراهم وضمادات . . . اذ يواجه القارىء هنا الكثير من الألفاظ الأعجمية التي تحتاج للتوضيح والتفسير . واذا قرأنا له نصاً آخر عن الأدوية القلبية نجد على سبيل المثال الفصل العاشر [30] : « إنْ الأدوية التي تفرّح إما أنْ تُفرّح بشيء من العلل المعروفة كالشراب الذي هو أكسير السرور ومغناطيس الفرح . . أو تنويرها أى الروح أو تسطيعها كاللؤلؤ

(٢٨) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، سلسلة تراثنا ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر القاهرة ، مقدمة السفر الثاني عشر .

(٢٩) ابن سينا : القانون ، الجزء الثالث ، دار الصياد ، بيروت ، ص٢٠٣ .

(٣٠) ابن سينا : من مؤلفات ابن سينا الطبية ، كتاب الأدوية القلبية مصادر ودراسات في تاريخ الطب العربي (٥) معهد التراث العلمي العربي ، جامعة حلب ومعهد المخطوطات العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تحقيق الدكتور محمد زهير البابا ، ١٩٨٤ ، ص ٢٤٢ .

والابريسم بما فيها من الشفّ . أو جمعها ومنعها من أن يسرع اليها التحلّل مثل البليلج والهليلج الكابلي والكهرباء والسد بقبضها . . . وإمّا لتعديل مزاجها بالتسخين مثل الدرونج أو بالتبريد مثل ماء الورد والكافور » . أمّا إذا توفّرت مسميات عربية للمقابلات الأجنبية فإنّ العلماء العرب كانوا يفرحون بها ويزّينون بها كتبهم ويفخرون بالبائها ويعملون على إذاعتها ونشرها . . قال أبو الريحان البيروني في مقدمة كتابه الصيدنة : « وإلى لسان العرب نقلتْ العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلّتْ في الأفئدة ، وسرتْ محاسنُ اللغة منها في الشرايين والأوردة ، وإنْ كانت كلُّ أمة تستحلي لغتها التي ألفتها واعتادتها واستعملتها (. .) والهجو بالعربية أحب الى من المدح بالفارسية »[31] . .

ولاعجب أن ظهرت في شتى ميادين العلوم مصطلحات عربية أصيلة لاتزال تُسْتَعْمَلُ إلى اليوم في فروع العلوم التطبيقية المختلفة ، وفي العلوم البحتة أيضا فمن المصطلحات في العلوم البحتة (غير العملية أو التطبيقية) ظهر مصطلح الجذر ، والمال (س٢) والفرد : (س) ، والكعب (المال × الفرد) : (س٣) ومال المال : (س٤) ، ومال الكعب : (س٥) ، وكعب الكعب : (س٦) ، والأعداد التامة والزائدة والناقصة والمتحابة ، والجبر والمقابلة . . الخ[32] وقد تناقلت الأجيال المتعاقبة من العلماء العرب هذه المصطلحات ، ونقلتْها بدورها الى العصور الحديثة ، محافظين - كعادتهم - على الضبط العلمي الدقيق ، وذكر المصادر والأسانيد التي وردت اليهم تلك المصطلحات عبرها . . . فكان كلُّ مؤلّف يورد في مقدمة كتابه سلسلة الكتب التي طالعها ، ومآخذ عن كل كتاب منها . . والأمثلة على ذلك كثيرة . . فداود الانطاكي المتوفى عام ١٠٠٨ يذكر مصادر كتابه « التذكرة » والمساهمين في وضع ماجدّ من مصطلحات والمعرّبين لها ، والمؤلّفين في مفرداتها ، فيقول « فنحن[33] كالمقتبسين من تلك المصابيح ذبالة ، والمغترفين من تلك البحور بلالة ، وأول من ألّف شمل هذا النمط وبسط للناس فيه ما انبسط ديسقريدوس اليوناني في كتابه الموسوم بالمقالات في الحشائش ولكنه لم يذكر الا الأقل حتى انه أغفل ماكثر تداوله ، وامتلأ الكون بوجوده كالكمون والسقمونيا والغاريقون (. . . .) ثم « روفس » فكان ماذكره قريباً من كلام الأول (. . . .) ثم « فولس » فاقتصر على مايقع في الأكحال خاصة على أنه أخلّ بمعظمها (. . . . .) ثم « أندروماخس الأصغر » فذكر مفردات الترياق الكبير فقط (. . . .) ثم رأس البغل الملقب « بجالينوس » وهو غير الطبيب المشهور فجمع كثيرا من المفردات ولكنه لم يذكر الا المنافع دون باقي الأحوال . . ولم أعلم من الروم مؤلفا غير هؤلاء . . ثم انتقلت الصناعة الى أيدي النصارى ، فأول من هذّب المفردات اليونانية ونقلها الى اللسان السرياني « دويدرس البابلي » ولم يزد على ماذكروه شيئا . . حتى أن الفاضل المعرب والكامل المجرّب « اسحق بن حنين النيسابوري » فعرّب اليونانيات والسريانيات وأضاف اليها مصطلح الأقباط لأنه أخذ العلم عن حكماء مصر وأنطاكية . . واستخرج مضار الأدوية ومصلحاتها ثم تلاه ولده حنين ففصل الأغذية من الأدوية فقط ، ولم أعلم من النصارى من أفْرَد هذا الفن غير هؤلاء . وأما النجاشعة فلهم كثير من الكناشات ، ثم انتقلت الصناعة إلى الاسلام ، وأول واضع فيها الكتب من هذا القسم الإمام محمد بن زكريا الرازي ، ثم مولانا الفرد الأكمل والمتبحر الأفضل الأمثل الحسين بن عبدالله بن سينا رئيس الحكماء فضلاً عن الأطباء فوضع الكتاب الثاني من القانون وهو أول من مهّد لكل مُفْرَد سبعة أشياء (. . . . .) ثم

---

(٣١) د. علي عبد الله الدفاع : أثر علماء العرب المسلمين في تطوير علم الفلك ، مؤسسة الرسالة ، بيروت (الطبعة الأولى) ، ١٩٨١ ، ص ١٧٢ .

(٣٢) د. علي عبد الله الدفاع : العلوم البحتة في الحضارة العربية الاسلامية ، دار الرسالة ، ١٩٨٦ ، (المقدمة) .

(٣٣) داود الانطاكي : تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب ، داود بن عمر الانطاكي ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، ص ١٩ .

ترادف المصنّفون على اختلاف أحوالهم فوضعوا في هذا الفن كتباً كثيرةً من أجلها مفردات ابن الأشعث وأبي حنيفه ، والشريف بن الجزار ، والصالغ ، وجرجس بن يوحنا ، وأمين الدوله ، وابن التلميذ ، وابن البيطار وصاحب مالايسع (. . . .) وأجلّ هؤلاء الكتب الكتاب الموسوم بمنهاج البيان صناعة الطبيب الفاضل يحيى بن جزله رحمه الله تعالى . . . وأظن أن آخر من وضع في هذا الفن الحاذق الفاضل محمد بن علي الصوري . . . »

والحق أن داود الأنطاكي كان يقف عند كل مفرد من مفردات كتابه ليعرِّف قارئه على اسمه الأصلي وما آل اليه من تغير في اللغات الأخرى ، وبخاصة أثناء تعريبه : فالآس : باليونانية أموسير واللطينيه مؤنس والفارسية مرزباج والسريانية هوسن والبربرية احماص والعبرية الحام والعربية ريحان وبمصر مرسين وبالشام : البستاني ، وقف والنظر ، والبري ، وباليونانية مرسي أغريا يعني ريحان الأرض . . . « ثم ينتقل لوصفه ولذكر فوائده الطبية . . . والاسفيداج مُعرّب من الفارسية بالبربرية النحيب ، واليونانية سميوثون والعبريه باروق ، والسريانية اسفطيقا . . والهنديه باريابجي وعندنا اسيداج . . والمراد به المعمول من الرصاص . . . وصنعته . . . » أفيون : يوناني معناه المسبت ، هو عصارة الخشخاش ، وبالبربريه الترياق والسريانية شقيقل أي المميت للأعضاء . . . وهو مايؤخذ من الخشخاش » . . . وفي كتاب « قاموس الأطبا وناموس الألبا » وهو صنعة مدين بن عبدالرحمن القوصوني المصري المتوفى ١٠٤٤ هـ - ١٦٣٤ م وهو أحد أعلام الطب في القرن الحادي عشر للهجرة ، إذْ ذكر في ختام هذا الكتاب أنه فرغ من تأليفه في العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين بعد الألف . . . ففي مقدمته تحدّث عن المادة التي اشتمل عليها الكتاب(٣٤) « هذا الكتاب الذي لم أُسْبَق إلى مثاله ولم يُنسَجْ على منواله لما اشتمل عليه من ذكر أنواع المفردات من المعدن والحيوان والنبات ، ومايحتاج إليه كلُّ فرد منها من معرفة ضبط لفظه مما ذكره أئمة اللغة بأصحّ ضبط بتبيان ، ومن معرفة ماهيته ، ونوعه وطبعه ، وقوته ومنافعه ، ومضرّاته ، وإصلاحه ، وبدليه ، وكمية مايُستعمل منه بحسب الإمكان ، ومن ذكر أسماء المركّبات وضبط كل فرد منها مع بيانه ، ومن ذكر صفة تركيب بعضها كالترياق أيضا حالما خفي من غامضه على الأذهان ، ومن ذكر منها أعضاء بدن الانسان وضبط كلّ فرد منها مع ذكر تعريفه وتشريحه وتوضيحه بأوضح بيان ، ومن ذكر الأوصاف المتعلقة بغالب الأعضاء وضبط كل فرد منها مع ذكر تعريفه لمريد العرفان ، ومن ذكر الأمراض وضبط كل فرد منها مع ذكر تعريفه وسببه وعلامته وعلاجه بحسب الوقت والزمان ، ثم يتطرق إلى ذكر المصادر التي استقى منها مادة كتابه فيعدّها :

- الأزهري : صاحب التهذيب في اللغة ، وتفسير الألفاظ ، والتقريب في التفسير وشرح شعر أبي تمام .
- ابن سيده : صاحب المحكم في اللغة والمخصص في اللغة ، وشرح الحماسه .
- ابن المكرم (ابن منظور) : صاحب لسان العرب ، وكتاب سرور النفس بمدارك الحواس الخمس . . .

(٣٤) مدين القوصوني المصري : مصورات مجمع اللغة العربية بدمشق ، دمشق ١٣٩٩/١٩٧٩ ، الورقة ٣ .

- **ابن مكتوم** : صاحب «المشوف المعلم في بين العباب والمحكم» في اللغة وشرح الكافية لابن الحاجب وشرح الهداية ، وطبقات اللغويين والنحاة .

- **الشيخ الرئيس ابن سينا** : ومن تصانيفه كتاب الشفا وكتاب القانون

- **علاء الدين القرشي** : صاحب كتاب شرح القانون والمهذب والموجز وشرح الهداية للشيخ ابن سينا . .

- **محمود أبو الثنا الكازورني الشيرازي** : صاحب شرح كليات القانون ، وشرح حكمة الاشراق للسهروردي وشرح المفتاح للسكاكي وشرح الكافية لابن الحاجب . . .

- **ابن الكتبي** : صاحب مالا يسع الطبيب جهله .

كما كتب ابن البيطار (١١٩٧ـ١٢٤٨) م كتابه «الجامع في الأدوية المفردة» الذي ضمَّ شرحاً مفصَّلاً لما يزيد على ألف وأربعمائة نبتة طبية ، مبتدئاً بذكر أسمائها ، وطرق استعمالها ، وهو يقول في مقدمة كتابه . «وقد استوعبتُ فيه جميع مافي المقالات الخمس من كتاب الأفضل «ديسقوريدس» بنصّه ، وهكذا فعلتُ أيضاً بجميع ما أورده الفاضل جالينوس في المقالات الست من مفرداته بنصّه ثم ألحقتُ بقولها من أقوال المحدثين في الأدوية النباتية والمعدنية مالم يذكراه ووصفتُ فيه عن ثقات المحدثين وعلماء النباتيين مالم يصفاه . . .»[٣٥] وذلك ينطبق إلى حدٍّ بعيدٍ على المؤلفات التي ظهرتْ في القرون التالية مثل «أقرباذين القلانسي» صنعة بدرالدين محمد بن بهرام القلانسي السمرقندي المتوفى حوالي عام (٥٦٠ هـ ـ ١١٦٥ م) والذي ذكر مؤلفها في مقدمته :[٣٦] «انتخبتُ هذه الفوائد والتقطتُها من الكتب المشهورة المعتمَد عليها وهي القانون والحاوي والكامل والمنصوري والذخيره والكفايه وفردوس الحكمة وأمثالها . . . وأوردتُ فيه قروباً من نسخ الإمام العالم قوام الدين قدوة الفضلاء صاعد المهنّي ومن نسخ الإمام الفاضل شرف الزمن اللاوستاني ، وأعلمتُ كل باب نقلته أو أقله بعلامة دالة عليه ، فالقاف علامة القانون ، والحاء علامة الحاوي والفاء علامة فردوس الحكمة والكاف علامة الكامل والميم علامة المنصوري والذال علامة الذخيرة . . .» وهكذا كانت النتيجة النهائية أنْ طغت المصطلحات العلمية لأسماء النباتات والأدوية المنقولة بواسطة «التعريب» على تلك المنقولة بأسلوب الترجمة اللفظية أو الاشتقاق أو النحت . . فعلى سبيل المثال ، لقد أحصى الدكتور مهند عبدالأمير الأعسم (وهو طبيب أسنان) الأدوية المُفرَدة في كتاب «القانون في الطب» لابن سينا فوجدها ٨٠٤ لفظة منها مايزيد على ٤٠٠ لفظة معرَّبة[٣٧]

(٣٥) زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، نقله عن الألمانية فاروق بيضون و د. كمال دسوقي ، بيروت (الطبعة الثانية) ١٩٦٩ ، ص ٣٢٣ .
(٣٦) أقرباذين القلانسي : دراسة وتحقيق الدكتور محمد زهير البابا ، جامعة حلب ، معهد التراث العلمي العربي ، ١٩٨٣ ، ص ١٨ .
(٣٧) مهند عبد الأمير الأعسم : الأدوية المفردة في كتاب القانون في الطب لابن سينا ، الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ص ١٩٨٤ .

ثالثاً ـ عصر النهضة

١ ـ تجربة القطر المصري في القرن التاسع عشر

طلع القرن التاسع عشر على مصر ولم يكن فيها معهدٌ واحد تُدَرَّس فيه أية لغةٍ من اللغات الأجنبية ... بل كان أفراد الجاليات الأوروبية يعيشون في أحياء خاصة بهم[38] واستغلَّ الأجانبُ من حلَّاقين وصانعي أحذية وعمال مقاهي سذاجة الجمهور ، وعملوا على استعمال أساليب الشعوذة والنصب حتى ذهب المؤرخون للقول عن تلك الفترة إنَّ أيَّ أجنبيٍّ كان ينزل بأرض مصر وليس له مهنة يتقنها كان يُعَيَّنُ صيدلياً أو طبيباً[39] . حتى إذا كانت الحملة الفرنسية على مصر ١٧٨٩ ، اصطحبت معها مطبعة أحضرها بونابرته من مدينة روما وكانت مستعدة لأن تطبع مايروم بها طبعه بالفرنسية واللاتينية واليونانية والعربية والفارسية والسريانية[40] وقام بعض العلماء الفرنسيين المرافقين للحملة الفرنسية ببعض الأعمال العلمية فالعالم «دي جنت» قام بالاحصاء الطبي وحرَّر الطبيب «براون» رسالةً في تشخيص الرَّمَد الصديدي وعلاجه ، وكتب «براتوليه وديكوتنز» بياناً عن خواص بعض النباتات وألَّف رئيس الأطباء رسالة في علاج الجدري ، وعهد بها إلى المترجم الأب «أنطون روفائيل زاخوروخه» لترجمتها إلى اللغة العربية ، ثم طُبِعَتْ في مطبعة الحملة ، ووُزِّعت على المشايخ وأرباب الشأن في بلاد مصر «على سبيل المحبة والهدية ، ليتناقلها الناس وليستعملوا ماأشار اليه فيها من العلاجات لهذا الداء العضال»[41] كما أسَّس بونابرت المعهد العلمي المصري عام ١٧٩٨ ، وبلغ عدد أعضائه ثمانية وأربعين عضواً ، وكانت له نشرة تصدر كل ثلاثة أشهر ، ونُشِرَت أعماله في أربعة مجلدات[42] وخلال إقامة الحملة الفرنسية في مصر بدأت بإعداد بعض الشباب لتعلُّم اللغة الفرنسية ، ولما انسحبت عن بلاد مصر ، خرج معها بعض هؤلاء الشباب ، ولحقها بعد فترة قصيرة بعضهم الآخر بهدف إتمام دراساتهم في باريس ، وبعد تطور أحداث الثورة الفرنسية وسقوط بونابرت لم يلبث أنْ عاد بعض هؤلاء الشباب إلى مصر ، وساهم في حركة ترجمة العلوم إلى اللغة العربية مثل الأب أنطون زاخوروخه ...

ولما بدأ محمد علي باشا بتثبيت أقدام حكمه في مصر ، واتجهت نيته لإنشاء جيشٍ حديثٍ فيها يشبه الجيوش الأوروبية في التنظيم ، استقدم الى بلاده عدداً كبيراً من الأطباء الأوروبيين لتقديم خدمات طبية منظَّمة لعناصر الجيش ... ثم مالبث أنْ أنشأ مدرسةً للطب قرب مشفى الجيش في «أبي زعبل» . كان كل أعضاء هيئة التدريس فيها من الأوروبيين ، بينما كان كلُّ الطلاب من العرب الأزهريين .. وكان على الدكتور «كلوت» المكلَّف بإدارة

(٣٨) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٨٣ .
(٣٩) د. جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١٧ .
(٤٠) أمين سامي باشا : تقويم النيل وعصر محمد علي باشا (الطبعة الأولى) ١٣٤١ / ١٩٢٨ ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة (الجزء الثاني) حوادث ١٥ محرم ١٢١٣ / ١٧٩٨م ، ص ١١٤ ـ ١١٧ .
(٤١) أمين سامي باشا : تقويم النيل . (الجزء الثاني) حوادث شهر شعبان / ١٢١٤ ، ص ١٥٠ .
(٤٢) د. جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في مصر في عهد محمد علي ، ص ١٦٠ .

المدرسة الطبية أنْ يضع خطةً للتغلب على الحاجز اللغوي القائم بين الطلاب والمدرِّسين ، وقد لخصَّ الدكتور كلوت هذه الخطة في كتابه ولمحة عامة عن مصر» وَرَسم خطوات لتعريب المؤلفات العلمية والتقنية . . . فبالنسبة لتعريب المحاضرات ، كان الأمر يتم على النسق التالي :

كان الأستاذ يملي دروسه على الطلاب بوساطة مترجمين . . . وفي غالب الأحيان كان هؤلاء المترجمون مِمّنْ لاعلم لهم بالمواد التي عليهم ترجمتها وليس لهم مقدرة على تأدية معاني الكثير من المصطلحات التقنية بشكلٍ كافٍ وكثيراً مايستغلق عليهم فهم ونقل المسائل العلمية التي يقومون بترجمتها . لذا فإنَّ الأستاذ يُمِدُّ المترجمَ بالشروح والتفسيرات اللازمة لتسهيل مهمته ولكي يتأكد الأستاذ من حُسْنِ فهم المترجم لمادته كان يطلبُ إليه أنْ يُعيدَ ماترجمه إلى اللغة العربية بلغةٍ أخرى يتقنها مثل الفرنسية أو الايطالية . . وبعد موافقة الأستاذ تُملَى الدروسُ المترجَمةُ على الطلاّب باللغة العربية ، ثم يقوم الأستاذ بشرح الدرس ، وبالاجابة عن أسئلتهم . . . عن طريق المترجم . . . وبقصد تعريف المترجين على المصطلحات التقنية أُلْحِقَ بعضُ المترجين بالمدارس الطبية والعلمية الأخرى كتلاميذ يتلقّون العلوم مباشرةً من الأساتذة . . . وأُنْشِئَتْ مدرسةٌ لتعليم الطلاب اللغة الافرنسية . . . وصَدَرَ تنبيهٌ من محمد علي إلى الأساتذة الأجانب بضرورة تَعلُّم اللغة العربية خلال السنة الأولى من عملهم في مصر[43] . . ولئن وَجَدَ بعضُ المدرسين الأجانب صعوبةً في تَعلُّم العربية فقد نبغ بعضهم في الترجمة والكتابة بها مباشرة ، مثل الدكتور «بيرون» Perron الذي مالبث أن أصبح ناظراً للمدرسة الطبية ، بعد أن تتلمذ على يد المشايخ الأزهريين الذين كانوا يعملون محرِّرين ومصحِّحين للكتب المترجمة . . . وساهم في إخراج أول معجمٍ علميٍّ عربيٍّ فرنسي هو الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية»[44].

أمّا خطوات تعريب الكتب العلمية والتقنية فقد كانت أكثر دقةً وإحكاماً إذْ استطاعت تجاوز بُعْد المترجين عن إتقان علوم اللغة العربية رغم إجادتهم اللغات الأجنبية التي يترجمون فيها ، والواقع أنه باستثناء بعض الأعمال الأولى التي كانت على درجةٍ غير مُرْضية من الضبط العلمي ومن الدقة اللغوية ، فإنَّ جميع الأعمال التي أُنجِزَتْ كانت مستوفيةً حقها من الضبط العلمي والصحة اللغوية في نفس الوقت ، وذلك بفضل الخطة الرشيدة والمراقبة الدقيقة لتنفيذ تلك الخطة . . .

فقد تمَّ اختيار نخبةٍ من رجال الأزهر الشريف ، مِنْ ذوي الدراية بعلوم اللغة وكُلِّف هؤلاء الرجال بمراجعة النصوص المترجمة وتصحيحها ، وإعادة كتابتها بلغةٍ سليمةٍ واضحةٍ[45] . . . وكان لزاماً على المصحِّح أنْ يجتمعَ مع المترجم لمناقشة عبارات الكتاب المترجَم ، العبارةَ تلو الأخرى ، وإذا لم يجد المصحِّح العبارة سليمةً أوشكَّ في صحتها يقتضي الأمر الرجوع الى الأصل وإعادة النظر في الترجمة حتى يستقيمَ الأمر . . . ويعتمد المصحِّح والمترجم على مابين

---

(٤٣) أمين سامي باشا : تقويم النيل ، الجزء الثاني ، ص ٤٥٥ .
(٤٤) د. جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة ، ص ٦٠ .
(٤٥) د. جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة ، ص ١٧٢ .

أيديها من معاجم لغوية وكتبٍ طبيةٍ عربيةٍ قديمةٍ . . وبعد كل ذلك العناء قد تُحوّلُ النصوصُ المترجمةُ إلى لجنةٍ ثانيةٍ للمراجعةِ والتصحيحِ لإبداء الرأي والسماح بطبع الكتاب[46] وكثيراً ما يُطْلَبُ من المترجم نفسه أو من مترجمٍ غيره أنْ يعيدَ ترجمةَ النصِّ العربي إلى اللغة الأجنبية ذاتها أو إلى لغة أجنبية ثانية ليطّلع عليها الأستاذُ المتخصص بتدريس المادة فإذا وجد أنّ الأفكار سليمة ، وأنّ المترجمَ متفهمٌ للعبارات ، أجاز تحرير وطبع النصّ العربي . . . ويهدف هذه العمليات التي تبدو للوهلة الأولى معقّدة ومكرّرةً إلى التأكّدِ من تفهّمِ المترجم لعناصر النصوص العلمية . . . ومن المفيد التنويه إلى أنّ نوعاً من التخصُّص قد فُرِضَ على المترجمين والمصحِّحين والمحرِّرين . . . فالعاملون في مدرسة الطب من هؤلاء لا شأن لهم بتصحيح أو تحرير الكتب المترجمة في المدارس الأخرى إلاّ إذا كان هناك حاجة ماسة لذلك . . . وهكذا نشأت «طبقةٌ» جديدة متفرغة لتصحيح ومراجعة الكتب العلمية المترجمة أُطْلِقَ على أفرادها «المصحِّحون والمحرِّرون»[47] . . . إلاّ أنّ هذه الصورة المعقّدة أصبحت أكثر بساطةً بعد أنْ أوفدَ محمد علي البعثات العلمية إلى بلاد أوربة عامةً ، وإلى فرنسة خاصة . . . إذْ كان الموفدون طلاباً في الأزهر الشريف ، وكان لهم دراية بعلوم اللغة العربية وما أنْ أمضوا سنواتهم الأولى وتعلّموا اللغات الأوربية حتى وافتهم تعليماتٌ من محمد علي بالعمل على ترجمة الكتب التي يدرسونها «أولاً بأوله» ، وبإرسال الترجمات إلى مصر[48] كما وُزِّعَتْ تعليماتٌ مشابهة على ضبّاط الجيش المصري تطلب منهم حثَّ طلاب السنة الثالثة من المدارس الحربية على ترجمة الأشياء المفيدة من اللغة الفرنسية إلى العربية حتى إذا عاد الطلاب إلى مصر ، لم ينتظر محمد علي حتى يصلوا لمقابلته في العاصمة بل كان يصدر إليهم الأوامر بترجمة بعض الكتب في الفترة التي عليهم أنْ يقضوها في المحجر الصحي «الكارنتينا»[49] ويروي المؤرخون أنه لما عاد أعضاء بعثة عام ١٨٢٦ استقبلهم محمد علي في ديوانه بالقلعة وأعطى كلَّ واحدٍ منهم كتاباً فرنسياً في المادة التي درسها في أوربة ، وطلب منه أنْ يترجمَ ذلك الكتاب إلى اللغة العربية وأمر بحجزهم في القلعة ، وألا يُؤْذَن لأحدٍ منهم بمغادرة القلعة حتى يُتِمَّ ترجمة ما عُهِدَ إليه بترجمته . . .[50] بل إنّ هؤلاء الموفدين لا يُلْحقون بالوظائف الحكومية مالم ينجزوا ترجمةَ كلِّ ما يُطْلَبُ منهم «ما هو لازمٌ للمدارس الملكيه ، ومُحتاجٌ إليه في المكاتب السلطانية»[51] .

إنّ أكثر الأمور لفتاً للنظر في الترجمة المصرية أنها تجربةٌ مؤسسيةٌ وأكاديميةٌ تحت رعاية وتشجيع الحكومة ، وبإشرافها وتوجيهها ، واعتمدت على أكثر فئات الشعب تنوُّراً ومعرفةً آنئذٍ وهم مشايخ الأزهر وطلبته . . . وفي ظلِّ هذه المؤسسات ظهرت أولى المؤلفات الحديثة في العلوم[52] وأصبح لدى المدارس لوائح لتنظيم التعليم في مصر منذ عام ١٨٢٦ وتنصُّ هذه اللوائح على أنْ يجتمع المدرِّسون والمترجمون في «غرفة الترجمة» بالمدرسة يشتغلون بالترجمة

---

(٤٦) د. جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة ، ص ٩٢ .
(٤٧) د. جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة ، ص ٢٠٧ .
(٤٨) أمين سامي باشا : تقويم النيل ، (الجزء الثاني) ، ص ٤١٤ ، أحداث ٢١ ربيع الآخر ١٢٤٣ / ١٢ نوفمبر ١٨٢٧ .
(٤٩) تقويم النيل ، (الجزء الثاني) ، ص ٤٩١ .
(٥٠) تقويم النيل ، (الجزء الثاني) ، ص ٤٩١ .
(٥١) د. جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة ، ص ٩٤ .
(٥٢) د. جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة ، ملاحق الكتاب وتضم قوائم بأسماء ومصنفات تلك المؤلفات .

ساعتين قبل الظهر وساعتين بعد الظهر . . . وفي غرفة الترجمة هذه تكامل ظهور «مسرد» للمفردات التقنية الأجنبية وما يقابلها من المصطلحات العربية الجديدة ، زاد عدد كلماته على ستة آلاف كلمة .[٥٣]

ويعتقد الكثير من الباحثين أنَّ هذه الهيئات قد وُفِّقت توفيقاً كبيراً في ترجمة أسماء كثير من المصطلحات الحديثة ، وأسماء الآلات ولازال قسمٌ كبيرٌ منها يُسْتَعْمَل حتى الآن في كتب العلوم الحديثة مثل الأنبوبه ، البودقه ، الجفنه ، المخبار ، المرشح . . .

الا أن الترجمة من مختلف الفنون والعلوم ولَّدتْ شعوراً بالحاجة الى «معجمٍ شافٍ للألفاظ الاصطلاحية» كما ذكر «رفاعة الطهطاوي» في مقدمة كتابه «المعادن النافعه» ولما كتب رفاعه كتابه الثاني قلائد المفاخر ذيَّله «بشرح الكلمات الغريبة ، مرتَّبةً على حرف المعجم» ودعا غيره للاقتداء به : «ولو وضع المترجمون نظير ذلك في كل كتاب تُرْجِمَ في دولة افندينا وليِّ النعم الأكرم ، لانتهى الأمر بالتقاط سائر الألفاظ المرتبة على حروف الهجاء ، وتنظمها في قاموس مشتمل على سائر الألفاظ المستحْدَثة التي ليس لها مرادِفٌ أو مقابلٌ في لغة العرب أو الترك»[٥٤] ، ويقول رفاعه في مقدمة كتابه «قلائد المفاخر» شارحاً طريقة تعريبه للألفاظ الأعجمية سواء أكانت أسماء بلدانٍ أم أشخاص أم أشياء : «عرَّبناها بأسهل مايمكن التلفظ به فيها على وجه التقريب ، حتى أنه يمكن أن تصير على مر الأيام دخيلة في لغتنا كغيرها من الألفاظ المعرَّبة عن الفارسية واليونانية» . . . وكان رفاعة يكتب اللفظ المعرَّب بحروفٍ عربية مراعياً طريقة نطقه باللغة الفرنسية ، ثم ينصُّ على كيفية نطق هذا اللفظ بالطريقة «الأزهرية» القديمة ، ثم يشرح معنى اللفظ بجملةٍ واحدةٍ أو جملٍ عدة مثل قوله :

«أوبرا ، أوبره : بضمِّ الهمزه وكسر الباء الفارسية التي تُقْرأ بين الفاء والباء ، فراء مفتوحه . . . وتُطْلَقُ على نوعٍ مخصوصٍ من الأشعار . . .»

وقد حافظ رفاعه على تنفيذ تذييل كتبه بقوائم للمصطلحات التقنيه في كتبه التي ترجمها مثل «مبادىء الهندسة» و«التعريبات الشافية لمريد الجغرافيا» وغيرها . . . ثم مالبث أن أخذ طلابه في مدرسة الألسن بطريقته فظهرت معظم كتبهم وفي آخرها ملاحق مرتَّبة ترتيباً وأبجدياً لشرح الأعلام والألفاظ الاصطلاحية والواردة في تلك الكتب[٥٥] وامتدَّ أثرُ رفاعة إلى المدارس الأخرى فاتَّبع أساتذة المهندسخانة طريقته فأصدروا نبذةً تشتمل على بيان ألفاظ هذا الفن الاصطلاحية في ٣٨ صفحة وتَمَّ تكليف بعض الأساتذة لوضع قاموس في العُلوم الرياضية . وعندما أصدر الدكتور برون كتابه «الجواهر السنية في الأعمال الكيماوية» ألحقه بذيل (١١٩ صفحة) لشرح الآلات الواردة في الكتاب ورتَّب هذا الذيلَ على حروف المعجم الشيخُ التونسي مصحِّح الكتاب . كما ترجمتْ مدرسةُ الطب قاموساً

---

(٥٣) د. جمال الدين الشيال : ص٧٧ .
(٥٤) د. جمال الدين الشيال : ص١٨١ .
(٥٥) د. جمال الدين الشيال : ص١٩٠ .

صغيراً من تأليف Nysten[٣٦] أما عن المنهجية التي سلكها هؤلاء الرواد في اختيار صياغة المصطلح العلمي فيلخّصها الأستاذ الدكتور حسني سبح في معرض حديثه عن تعريب الطب بقوله :[٣٧]

«سلكوا في سبيلها ما يأخذ به المشتغلون باستعراب الطب اليوم :
- أحيوا من مصطلح الطب العربي الاسلامي ما رأوه وافيا بالغرض .
- واجتهدوا في وضع مقابل بالعربية لما جدّ من مطلحات .
- أما ما لم يهتدوا فيه الى لفظٍ عربيٍّ مناسب فلجؤوا فيه إلى التعريب» . . .

وإذا أردنا أن نتعرف بشكلٍ مفصّلٍ على منهجية صياغة المصطلح العلمي في ذلك الوقت فلا بدّ من استعراض التجربة التي شغلت أساتذة ومصحّحي ومحرّري مدرسة الطب وعلماء الأزهر طيلة ربع قرن من الزمان لاعداد أول معجم للمصطلحات الطبية والعلمية . . . وهو «الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية» .

الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية

هو أول معجم عربي - أجنبي متخصص بالمصطلحات الطبية ، أُنجز في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ولعلّه من أضخم المعجمات المتخصصة إن لم يكن أضخمها على الاطلاق ، إذ ساهم في إعداده عشراتٌ من الأساتذة الأجانب في مدرسة الطب مع عشرات من مشايخ الأزهر الضليعين باللغة العربية ، واستغرق العمل فيه قرابة ربع قرن . . . الا أنّ لهذا المعجم القيّم نهاية محزنة[٣٨] . . .

ظهرت الحاجةُ الماسّةُ لوجود معجم مصطلحاتٍ علميةٍ بعد تأسيس محمد علي باشا للمدارس الطبية والهندسية والعسكرية ، واستقدام الأساتذة الأوربيين للتدريس فيها ، ونشاط حركة الترجمة من اللغات الأوربية الى العربية وقيام بعض الأساتذة بالتأليف أو بالترجمة للمقرّرات والمناهج السائدة في الدول الأوربية . . . وقد بدأت حركة الترجمة على يد المترجمين السوريين المقيمين في مصر ، والذين كانوا يتقنون اللغات الأجنبية أكثر بكثير من اتقانهم اللغة العربية وقواعدها . . . مما جعل الأعمال الأولى هزيلةً وعرضةً للانتقاد ، فبادر المسؤولون لتلافي ذلك بالعمل على تعيين مصحّحين لغويين ومحررين مختارين من مشايخ الأزهر ذوي الدراية بعلوم اللغة . . . تُعْرَضُ عليهم ترجمة كُل كتاب ، وكثيراً ما يجتمع المترجمُ والمصحّحُ مع المؤلِّف ليتذاكروا حول ترجمة كلمةٍ طبّيةٍ ويعودون الى ما بين أيديهم من معاجم أجنبية ، وعربية ، وكتب عربية طبية قديمة قبل أن يتفقوا على الشكل النهائي للترجمة . . . ويتَعَرّضِ المترجمون والمصحّحون للمواضيع الاختصاصية في العلوم الحديثة ازداد لديهم الشعور بالحاجة لوجود معاجم متخصصة في المصطلحات العلمية وقد عبّر عن ذلك الشيخ «رفاعه الطهطاوي» كبير مترجمي عهده وراعي مدرسة الألسن في مقدمة

---

(٣٦) د. جمال الدين الشيال : ص ١٩٦ .
(٣٧) د. حسني سبح : تعريب علوم الطب ، مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٦٠ ، الجزء ٤ ، تشرين أول ١٩٨٥ ، ص ٦٥ .
(٣٨) ونحن إذ نتعرض لقصة هذا المعجم فإننا نلتمس من الهيئات والمؤسسات المعنية بأمر تعريب المصطلح العلمي أن تبادر لإظهار هذا الكنز الثمين الى حيز الوجود .

أول كتاب له طُبِعَ في مطبعة بولاق وهو كتاب «المعادن النافعة» (١٢٤٨ هـ - ١٨٣٢) فكتب في مقدمته : «وقد فَسَّرْتُ مفرداته على حسب ماظهر لي بالفحص التام ، وما تَعسَّر منه حفظتُ لفظَهُ ورسمتُه كما يمكن كتابته ، وربما أدخلتُ بعضَ تفسيراتٍ لطيفةٍ . . . والعذرُ لي إذا زلَّ قدمَ ترجمتي في بعض التفاسير لأنَّ اللغة الفرنساوية لم يُفَضَّ ختامُها الى الآن بقاموسٍ شافٍ مترجَمٍ» وعندما قدم الشيخ رفاعه كتابه الثاني «قلائد المفاخر» في السنة التالية (١٢٤٩ - ١٨٣٣) رأى أنْ يُذَيِّل الكتاب بسردٍ صغيرٍ يحتوى على الألفاظ الغريبة الواردة فيه وشرحها . وقد رأى في ذلك حَلاً مؤقتاً ريثما يظهر معجمٌ متخصص بالمصطلحات العلمية ، ودعا غيره من المترجمين أن ينهجوا نهجه . . فتبعه في ذلك كثيرٌ من تلامذته خريجي مدرسة الألسن . . . وبعض الأساتذة الأجانب . . . في مدرسة الطب ، بدأ الأساتذة والمترجمون بترجمة قاموس طبِّي صغيرٍ سبق أن تُرْجِمَ إلى التركية من تأليف الفرنسي Nysten . . . الا أن القائمين على ترجمته شعروا بأنه لن يفيَ بغرضهم . . . فقترحوا عن إكماله فبادر ناظر المدرسة الطبية الدكتور «كلوت» إلى احضار «قاموس القواميس الطبية» Dictionnaire de Dictionnaires de Medecine من فرنسا ، وهو من تأليف فابر Faber ويتألف من ٨ أجزاء ويشتمل على جميع الاصطلاحات العلمية والفنية في الطب والنبات والحيوان والعلوم الأخرى المختلفة المتصلة بالعلوم الطبية . . . وتعاونت مدرسة الطب بكلِّ هيئاتها على ترجمة هذا المعجم الى اللغة العربية تحت اشراف الدكتور برون Perron مدرس الكيمياء فيها والذي أصبح ناظرا لها خلفاً للدكتور كلوت . . . وكان برون يتقن اللغة العربية بعد تتلمذه على أيدي الكثير من المستشرقين في فرنسا قبل مجيئه للعمل في مصر ، وعلى يد بعض مشايخ الأزهر بعد استقراره في مصر . . . وتمَّ توزيع مسائل هذا المعجم الضخم على معلِّمي المدرسة ، وهم من خريجي البعثات العلمية الى فرنسا . . . والذين كانوا قبل ابتعاثهم من طلبة الأزهر الشريف المتفهِّمين لمبادىء اللغة العربية . . . فاجتهد كل منهم في ترجمة الجزء الذي أُعطيه وبذل جهدهم في توقيع كل لفظة منه على المعنى المناسب لها . . . كما تم توزيع مسائل القاموس المحيط على أفراد الهيئة التعليمية وعلى المصحِّحين والمحرِّرين ، وتقاسموا أجزاءه ، ليراجع كل منهم الجزء الذي بيده وينتقي منه كلَّ لفظٍ دلَّ على عرضٍ أو مرضٍ ، وكلُّ اسم نباتٍ أو معدنٍ أو حيوانٍ . . كما كُلِّفَ النابهون من مشايخ الأزهر مثل الشيخ عمر التونسي ، باستخراج التعاريف الطبية من كتب الطب القديمة مثل القانون لابن سينا ، والتذكرة لداود الأنطاكي . . . وبمراجعة كتب اللغة الأخرى مثل فقه اللغة للثعالبي ، ومختار الصحاح ، كما ضُمَّ لنتاج ذلك كله أسماء الأطباء المشهورين على مر الأزمان . . . وأسماء العقاقير المعروفة حتى ذلك الوقت . . . وأخيراً ضَمَّ القاموسُ بين مفرداته الألفاظ المعرَّبة عن اللاتينيه أو الفرنسية أو الفارسية . . وتمَّ ترتيبُ مفردات هذا المعجم . بعد مراجعتها وتهذيب عباراتها على حروف المعجم ولكن الانتهاء من ذلك وافق وفاة محمد علي باشا ، وخشي المشرفون على اعداده من ضياع هذا المعجم ، لاسيما أن الحركة العلمية قد خمدت في عهد خلفه عباس الأول فكان ذلك ذريعةً أتاحت للدكتور كلوت اصطحاب مخطوطة المعجم الى باريس وتقديمه هدية الى المكتبة الأهلية Bibliotheque nationale في ٩ أيلول ١٨٥١ وبعد أكثر من نصف قرن ، فكَّر بعض المتنورين في مصر بالاستفادة من هذا الكنز الثمين ، فأرسلت نظارة المعارف في طلب نسختين مصورتين من هذا المعجم (١٩١٠) وعهدت الى الدكتور أحمد عيسى بالاشتراك مع الدكتور فارس نمر بالاشراف على طبعه . . ولكن الدكتور فارس نمر تقاعس عن ذلك فقام الدكتور أحمد عيسى بنشر مائة صفحة فقط لم يتجاوز فيها لفظة (أزدران) ثم توقف . . . «وقد طُبعت هذه الصفحات المائة في مطبعة المقتطف وعلى نفقة دار الكتب الخديوية عام

١٩١٤ م ١٣٢٢ هـ وفيها لم يقف جهد الدكتور أحمد عيسى على نشر النص العربي كما تركه واضعوه بل أعاد ترجمة كل لفظة الى اللغتين الانجليزية والفرنسية . . . وبقي المعجم منسياً في دار الكتب ينتظر من يُعْنَى بنشره واحياته . . . والغريب أن الدكتور «محمد شرف» عندما وضع معجمه الطبي لم يحاول أن يفيد من الشذور الذهبية ولم يذكره في مراجعه المعتمدة لديه ولعله لم يكن متوفرا بين يديه . . . بينما استفاد من مراجعته الأستاذ «أحمد الزين» في تحقيق وإظهار كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» لشهاب الدين النويري (٦٧٧-٧٣٣) ولاسيما في السفرين الحادي عشر والثاني عشر وهما يبحثان في النبات والطيب والأدوية المفردة والمركبة . . . (وصدر هذا الكتاب تحت اشراف وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر . .)

وهكذا مر منهج النقلة في دولة محمد علي بمراحل متعددة . .

١ ـ حاول المترجمون إحياء ألفاظٍ علميةٍ كثيرةٍ مستعينين بما وصلت اليه أيديهم من معاجم ، وكتبٍ عربيةٍ في الطب والكيمياء والنبات . . .

٢ ـ واذا وجدوا أن اللفظ العربي القديم قد أهمله المتكلمون بالعربية أنفسهم ومالوا لاستعمال اللفظ الجديد أو قريبا منه . . . فضّلوا اللفظ الجديد على اللفظ القديم . . . ونقلوه كما هو ، ورسموه بحروف عربية . . .

وقد أثمرت هذه التجربة التي استمرت زهاء سبعين عاما ثروةً علميةً هائلةً . . فقد أحصى الدكتور جمال الدين الشيال في كتابه «تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي» (١٣٥) كتابا علمياً غير عسكريٍ مترجما الى العربية بين عامي ١٨٣٢ ـ ١٨٥٣ مع (٦٦) كتابا آخر في العلوم العسكرية . . . وقد حوت هذه الكتب عشرات الألوف من المصطلحات العلمية الجديدة . . . وقد وضع «محمود رشدي البقلي» معجما باسم «قاموس طبي فرنساوي ـ عربي» طُبِعَ في باريس سنة ١٢٨٦ هـ ـ ١٨٦٩ م يقع في ٣٥٨ صفحة ويشتمل على نحو ٧٠٠٠ لفظة . . .

٢ ـ تجربة الجامعة الاميركية في بيروت في التعريب : (١٨٦٦ ـ ١٨٨٣)

يمثل لبنان منذ أقدم العصور مكان اللقاء بين الحضارات ، وقد أصبح في القرن الثامن عشر قبلةً للجمعيات التبشيرية التي أعلنت أنها تهدف لتنوير الأفكار . . . حتى زاد عدد تلك الجمعيات عن ثمانين جمعية . . .[٥٩] فأنشأوا المدارس[٦٠] وعلمّ أفرادُها اللغات الأجنبية[٦١] ، وشجّعوا على تأسيس الجمعيات العلمية والأدبية[٦٢][٦٣] ، وتجاوزت

(٥٩) محمد كرد علي : خطط الشام ، الجزء السادس ، ص ٢٥ .
(٦٠) د. سنيقة الشفلي : التعليم الأجنبي في البلاد العربية ، الوحدة عربية ، العدد ٢٢ ، كانون أول ١٩٨٢ ، ص ١٣ ـ ٢١ .
(٦١) نور الدين بيهم : طرائف في أوائل ، مجلة الأديب ، (الجزء الأول) السنة الرابعة كانون ثاني ١٩٤٨ ، ص ١٥ .
(٦٢) عيسى اسكندر المعلوف : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد الأول العدد ٤ نيسان ١٩٢١ ، ص ١٠٥ .
(٦٣) محمد كرد علي : المعاصرون ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ص ١ .

جهود تلك الجمعيات الحماسَ إلى التنافس ، فعندما افتتح المبشرون البروتستانت الأمريكان في بيروت الكلية السورية الانجيلية عام ١٨٦٦ والتي أصبحتْ فيما بعد جامعة بيروت الأمريكية ، هبَّ منافسوهم المبشرون الكاثوليك لانشاء مدرسة طبية فرنسية عام ١٨٦٧ باسم جامعة القديس يوسف[٦٤] ويبدو أن هؤلاء المبشرين «اضطروا» الى تدريس جميع العلوم باللغة المحلية استجابةً للمشاعر الوطنية السائدة آنذاك ، والتي كانت تدعو لاصطناع اللغة العربية لغة علم وتعلم ...»[٦٥] والطريف في أمر الكلية السورية الانجيلية أن العربية لم تقتصر على التدريس بها فحسب ، بل شملت شؤون الادارة والأمور القرطاسية الأخرى ... حتى ان الدولة العثمانية تساهلت معها في بادىء الأمر بقبولها اللغة العربية في أداء امتحانات الخرّيجين في استانبول ومن أجل منح الترخيص وحق الممارسة لمهنة الطب في البلاد العثمانية ، وقد بقي التدريس باللغة العربية حتى عام ١٨٨٣ ... وقد وضع أساتذة الكلية عدة كتب باللغة العربية في فروع العلم المختلفة ...»[٦٦] وأهمها مايحويه الجدول المرفق المأخوذ عن كتاب ..

Arabic & Isalmic, Historical, Educational and Literary Studies

(موضوعات عربية واسلامية في الدراسات التاريخية والتربية والأدبية ، الدكتور عبداللطيف الطيباوي ، لندن ، ١٩٧٦) :

قائمة باثنين وثلاثين كتابا من الكتب غير الدينية التي طبعت بالعربية لتستعمل في الكلية السورية البروتستنتية (الجامعة الأمريكية بيروت) الآن

١ ـ الدروس الأولية في الفلسفة العقلية	١٨٧٤
٢ ـ أصول الكيمياء	١٨٦٩
٣ ـ رسالة الرازي في الحصبة والجدري	١٨٧٢
٤ ـ رسالة في اللوغاريتمات ومساحة المثلثات	١٨٧٣
٥ ـ أصول علم الهيئة	١٨٧٤
٦ ـ التشخيص الطبيعي	١٨٧٤
٧ ـ أصول الباثولوجيا	١٨٧٨
٨ ـ المرآة الوضية في الكرة الأرضية	١٨٥٢
٩ ـ الروضة الزهرية في الأصول الجبرية	١٨٥٣
١٠ ـ كتاب الأصول الهندسية	١٨٥٧
١١ ـ محيط الدائرة في العروض والقافية	١٨٥٧
١٢ ـ النقش في الحجر (ثمانية أجزاء فيها مقالات مبسطة في العلوم)	١٨٨٦
١٣ ـ كتاب القانس	؟
١٤ ـ كتاب نظام الحلقات في سلسلة ذوات الفقرات (جزآن)	١٨٦٩ ـ ١٨٨٢

(٦٤) د. أحمد شوكت الشطي : تاريخ الطب وآدابه وأعلامه ، مطبعة جامعة دمشق ، ص ٤٩٠ .

(٦٥) د. شاكر الفحام : قضية المصطلح وموقعه في نطاق تعريب التعليم العالي ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٥٩ ، الجزء ٤ ، ص ٦٩٤ .

(٦٦) د. حسني سبح : الضمير والذكريات ، المجلة الطبية العربية ، دمشق العدد ٩٠ ، أيار ١٩٨٦ ، ص ٧ .

١٥ ـ مبادىء التشريح والفيسيولوجيا والهيجين	١٨٧٠
١٦ ـ مبادىء علم النبات	١٨٧١
١٧ ـ المصباح الوضّاح في صناعة الجرّاح	١٨٧٣
١٨ ـ الأقرباذين أو المواد الطبية[67]	١٨٧٤ ـ ١٨٧٦
١٩ ـ نباتات سوريا وفلسطين والقطر المصري وبواديها	١٨٨٤
٢٠ ـ التوضيح في أصول التشريح	١٨٧١
٢١ ـ مختصر في أعضاء الجسد البشري ووظائفها	١٨٧٣
٢٢ ـ أصول الفيسيولوجيا	١٨٧٧
٢٣ ـ أطلس في التشريح والفيزيولوجيا	١٨٧٨
٢٤ ـ كفاية العوام في حفظ الصحة وتدبير الأسقام	١٨٨١
٢٥ ـ النهج القويم في التاريخ القديم	١٨٨٤
٢٦ ـ إيضاح نحو اللغة اللاتينية وصرفها	؟
٢٧ ـ تعليم القراءة اللاتينية	؟
٢٨ ـ أصول التحليل الكيمّي	١٨٧٦
٢٩ ـ الهواء والماء	١٨٧٩
٣٠ ـ العروس البديعة في علم الطبيعة	١٨٧٣
٣١ ـ الظواهر الجوية	١٨٧٦
٣٢ ـ سر النجاح	١٨٨٠[66]

منهجية صياغة المصطلحات :

استمدّ الأساتذة في الجامعة الانجيلية مصطلحاتهم من الكتب العربية القديمة ، واستفادوا مما وضعه أساتيذ المدارس المصرية كما قاموا بترجمة طائفة من المصطلحات ، ترجمةً تطابق الأصل الانكليزى . . .[68] ووقف الكثيرون منهم إلى جانب التعريب (نقل اللفظ الأجنبي الى العربية كما هو أو بتبديل طفيف)[69] وظهر بين خرّيجي الجامعتين أعلام ساهموا في دفع حركة تعريب المصطلح العلمي مثل فارس نمر ويعقوب صروف اللذين أصدرا عدداً من المجلات ذات الطابع العلمي . . وأمين المعلوف الذى أصدر معجم الحيوان ، والمعجم الفلكي ، ومعجم النبات . . ويطرس البستاني الذى بدأ بإصدار الأجزاء الأولى من دائرة معارف البستاني[70] والدكتور مرشد خاطر ذي الأيادي البيضاء في حركة التعريب التي قامت ولاتزال مزدهرة في جامعة دمشق الى اليوم . .

(٦٧) نشر قسماً قسماً ابتداء من ١٨٧٤ في مجلة « أخبار طبية » التي عرفت فيما بعد بمجلة « الطبيب » .
(٦٨) صلاح طرمي : التعريب والنقد للكتاب ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد الثاني والخمسون ، الجزء الثاني ، ٤١٠ ، ٤٢٦ .
(٦٩) د . حسني سبح : المصدر السابق له .
(٧٠) عيسى اسكندر المعلوف : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد (٢) .
(٧١) الأعلام ، خير الدين الزركلي .

٣ ـ معجم العلوم الطبيه والطبيعيه للدكتور محمد شرف ـ

في أوائل العشرينات من هذا القرن وضع الدكتور محمد شرف معجمه الطبي تحت اسم «معجم انجليزي عربي في العلوم الطبية والطبيعية . . . » وهو ـ كما رَسَمَ له واضعُه ـ معجمٌ شامل وواسع ، ويَحِقُّ له ان يُعَدَّ أباً لكل ما ظهر بعده من معجماتٍ طبيةٍ أعجمية عربيةٍ . . . وقد جاءت الطبعة الثانية منه عام ١٩٢٩ في ألف صفحة من القطع الكبير ، تحوي كل صفحة عمودين وصدِّر تلك الطبعة بمقدمةٍ مستفيضةٍ شرح فيها منهجه في وضع المصطلحات العلمية وقد ذكر في المقدمة بأنّه تقيّد بالقواعد السبعة التالية :[٣٢]

القاعدة الأولى : الألفاظ الفرنجية أو الأعجمية التي عرفنا لها ما يقابلها أو يرادفها بالعربية ويؤدّي معناها تأدية صحيحة مميزةً أثبتناها بمرادفاتها هذه . مجتنبين الألفاظ الحوشية والوحشية . بشرط التحقّق من ورود هذه الألفاظ في معاجم العربية ودواوينها أو كتب الأدب وغيرها ، أو تواتُرِ سماعها وإنْ لم تذكرْها هذه المصادر المؤلّفة من عهدٍ بعيد . ولم ننقض هذا المنهاج إلّا إذا عرض عارض اضطرنا للشذوذ ، نذكر من ذلك :

- لم نستعمل فعلاً افرنجياً إلّا إذا لم نجد له فعلاً عربياً يقابله فقلنا : بَسْتَرَ وَمَغْنَطَ كما قالوا من قبل كَهْرَبَ

- إذا شاع استعمالُ أحدِ الأسماءِ الفرنجية أو الأعجمية المألوفة ، وكان أدَلَّ على المعنى المراد من الكلمة العربية المبهمة تخيّرنا الفرنجي وفضّلنا استعماله ، مع ذكْرِ اللفظ العربي للاستئناس .

القاعدة الثانية : الألفاظُ والمفرداتُ التي لم نقعْ على مفرداتٍ لها في العربية ، ولكنّنا رجّحنا وجود مرادفاتٍ لها فيها ، كنّا نفرغ كل جهدٍ في البحث والتنقيب عنها في مختلف المظان التي نظنُّ وجودها فيها مهما كلّفنا الوصولُ إليها من عناء . . . والمعجم مشحون بأمثال ما ظفرنا به .

أما الألفاظُ التي لم يُعْرَف لها مرادفات في العربية فقد ـ تخيّرنا لها ألفاظاً : من العربية الفصحى اعتقدنا أنها تؤديه تأديةً حسنةً ـ أو اشتققنا لها من أُصولها مقابلاً .

ـ أو جعلنا لها ألفاظاً مأخوذةً من مضادِّ المعنى . . .

ـ وإذا تعسَّر ذلك رجعنا الى معاني الألفاظ وأصول اشتقاقها ، وترجمناها ترجمة دقيقةً بما يفيد ذلك ، مع المحافظة التامة على أصول المعاني .

(٣٢) د. محمد شرف : معجم العلوم الطبية والطبيعية ، الطبعة الثانية ، المقدمة ، ص ٢٠ وما بعدها .

القاعدة الثالثة : الأعلام الفرنجية التي شاع استعمالُها في العربية حافظنا على تصويرها بالرسم الذي رُسِمتْ به من قديم . . . والاعلام التي عرِّبت قديماً للفظ مخالفٍ لما تُلفَظُ به الآن عند أهلها وكُتِبَتْ بهجاءٍ واحدٍ بالاجماع تابعنا السلف في تصويره ، أمّا ما عدا ذلك فقد صُورناه كما يلفظه أهلُه ، أو بأقرب ما يكون من لفظه الأصلي وتوخّينا حسنَ التطبيق والصدقَ في النقل ، وراعينا قوام العربية .

القاعدة الرابعة : الفكرات حديثة العهد بالوضع ، والتي لا وجود لمرادفاتٍ لها في العربية ، وَعُرِّبتْ من قبلُ ، وشاع استعمالُ الألفاظِ المعرَّبة بصورةٍ معينةٍ أثبتناها كما هي . ولم نحاولْ وضعَ ألفاظٍ أو صورٍ أخرى أمْناً مِنَ اللبسِ وتشويشِ الأذهان . مثال ذلك أوكسجين وايدروجين . . . أمّا إذا لم نعثرْ على تعريبٍ سابقٍ شائعِ الاستعمال عرّبنا اللفظَ وفقاً لمنهاجنا العام . . . وقد جارينا في ذلك أمم الغرب المتقدمة في الحضارة بمحافظتها على الأسماء التي وضعها المبتدعون والمخترعون لما ابتدعوا وأحدثوا . . . فنجد مثلاً الأسماءَ العلميةَ للحيواناتِ والنباتاتِ واحدةً في سائر اللغات الحية تقيلاً لرغبة الاتفاق الدولي المعروف . . . غير أننا في بعض المواضع وجدنا أنَّ من الفكرات العربية ما هو أحكم من الفرنجية وأوفى بالمقصود في تأدية المعنى فأثبتناه .

الأسماء الكيماوية :

التزمنا أنْ نجاري علماء الغرب بالنسبة الى ترجمة هذه الألفاظ التي تفقدُ دلالاتها إذا عُرِّبَتْ . . . فأبقينا الأصولَ على حالها كما أبقينا حروف الالحاق ، لأنَّ لكلِّ حرفٍ من هذه الحروف معنًى خاصاً تواضعوا عليه ليدلَّ على تركيبٍ خاصٍ ، ولامصلحةَ لنا في إيجاد مُعرّباتٍ لهذه الأسماء الجديدة ، فهي تدخلُ في سائر اللغات على حالها .

القاعدة الخامسة : كذلك تابعنا علماءَ الغربِ في تصويرِ المفرداتِ العلميةِ الأخرى التي لم يُعْرَفْ لها مرادفٌ عربيٌّ ، سواءٌ أكانت أسماءَ حيواناتٍ أم نباتاتٍ أم حشراتٍ أم أعضاءٍ من أجسامها . . .

القاعدة السادسة : أمّا المعاني سواءٌ أكانت حقيقيةً أم مجازيةً فلم نجدْ أدنى صعوبةٍ في إيجاد أوضاعٍ تؤديها .

القاعدة السابعة : الألفاظ الفرنجية المأخوذتينْ أصلٍ عربيٍ أو فارسيٌ وتعذَّر رسمُها أرجعناها إلى أصولها القديمة . ويبدو أنه اتبع منهجيةً متكاملةً في صياغة المصطلحاتِ العلميةِ الواردةِ في معجمه ، تتمثل في تحقيق الشروط الثمانية التالية :[٧٣]

١ ـ أن تكونَ الألفاظُ العربيةُ المختارةُ صحيحةَ الأصلِ ، قويةَ المنشأ ومن أحسن ما يمكن ايراده لمقابلة الألفاظ الفرنجية .

---

(٧٣) د. محمد شرف : المصدر السابق ، المقدمة .

٢ ـ أنْ يكونَ مقابل اللفظة الفرنجية ـ بقدر المستطاع ـ لفظةً عربيةً واحدةً بسيطة ، بحيث لو احتاج الكاتب إلى أنْ ينسِبَ إليها أو يضيفَ إليها لفظاً أو أكثر يسهل عليه ذلك .

٣ ـ أنْ تفيدَ الألفاظُ المختارةُ المعاني المطلوبة بأقلِّ ما يكون من الوقتِ والكلفةِ أو بمجرّد سماعها أو قراءتها ، بدون إجهادِ الفكر وإسراف القوة لفهمها ، مع ذكر الفوارق بين المترادفات أو أشباه المترادفات وتخصيصها ، وعدم الضَّنِّ بها على الألفاظ الفرنجية أو العربية بالمعاني المختلفة التي تؤدِّيها . . .

٤ ـ التحري في الوضع والاشتقاق مناحي العرب ، فلا تخالف المنصوص ، والمقيس على المنصوص ، والمسموع من أولي العلم . . . ولاتخالف القواعد التي جاء بها اللذين هداهم الله لعلوم اللغة . . .

٥ ـ تخيُّر الألفاظ السهلةِ المأخذِ والتلقّي ، وإيثار العذب السمعَ على المُسْتَثقَلِ ، وتفضيل ما كان موافقاً للذوق العصري المصقول ورفض استعمال ما شنع تآلفه ، والإقلال مما طال وأُملَّ بكثرة حروفهِ الحلقية الثقيلة أو تطلَّب الكلفة في النُّطق به .

٦ ـ أنْ تكونَ المعاني صحيحةً والألفاظ المختارة مخصصة على المراد منها بحيث تكون كالسمةِ المميزة للموسوم ، أو الرسم المختار للمرسوم والحدِّ المميزُ للمحدود وأن تكونَ أسماء النبات والحيوان والمعادن مطابقةً تمام المطابقة للتسمية العلمية الحديثة ، مع بيان الفروق متى وجدت بين التسمية الحديثة والقديمة وذلك منعاً لفقد الاتصال بالمؤلَّفات العربية القديمة . . .

٧ ـ ضبطُ الألفاظ بالشكلِ حرصاً على سلامة اللغة وحتى لايغلق على القارىء فهمها . . .

٨ ـ أن أختطَّ لي طريقةً قويمةً تتّبع لتصوير الكلمات المعرَّبة والأعلام الفرنجية بالحروف العربية . . . »

أما عن أسلوب التأليف والمصادر التي اعتمد عليها فقد ذكرها بإسهاب ويهمنا منها المصادر العربية القديمة والحديثة وفي ذلك يقول :[٧٤]

« كنتُ كلما طالعتُ كتاباً أو ديواناً أو معاجم العربية المختلفة المؤلَّفة قديماً أو حديثاً استخرجتُ منه المفردات والألفاظ المطلوبة ، مثبتاً أمام كلِّ لفظ مرجعه وأسانيده ومواضع نقله ومواطن أخذه بالأرقام والاختزالات احتياطاً للدقة العلمية واستظهاراً على كل معترض . . ولما استنفدتُ قراءة دواوين اللغة والشعر والمعاجم والموسوعات العربية وأخذتُ بغيتي مما عُرِّف وأُلِّفَ في علوم الطب والطبيعيات قديماً وحديثاً ولم يبقَ بين كتب الأدب والشعر والعلوم مما تتناوله الأيدي أو كان مكنوزاً في الخزائن العمومية إلاَّ وأجلتُ فيه نظري ، تجمّع لديَّ زهاء (٤٥,٠٠٠) تذكرة بدأت في ترتيبها على حروف المعجم الأجنبية . وأكثر ما أخذتُ من دواوين الشعر وكتب اللغة التي كتبت في موضوعات مخصوصة من أمثال :

(٧٤)د. عبد لرف : المصدر السابق ، المقدمة .

١ ـ كتاب خلق الانسان ، وكتاب النبات ، وكتاب النخل والكرم ، وكتاب الوحوش وكتاب الخيل وكتاب النعائم للأصمعي . . . وكتاب المطر لأبي زيد ، وسر العربية للثعالبي .

٢ ـ كتاب الشجر لأبي عبد الله الحسن بن خالويه الهمذاني .

٣ ـ حياة الحيوان الكبرى للامام محمد الدميري .

٤ ـ طبائع الحيوان ـ تعريب أحمد فارس الشدياق ـ طبع مالطة .

٥ ـ الحيوان للجاحظ .

٦ ـ كتاب التعريفات للجرجاني .

٧ ـ مجلة لغة العرب للكرملي ، ومجلات نجعة الرائد لليازجي ، والطبيب والبيان والضياء ومجلة المجمع العلمي العربي الدمشقي .

٨ ـ مفاتيح العلوم للخوارزمي ـ طبع ليدن .

٩ ـ الكشاف للتهانوي طبع الجمعية الأسيوية الهندية بكلكتا .

١٠ ـ كتاب الآلات والحيل لهيرون والآلات المفرغة الهواء لفليون البيزنطي

١١ ـ شرح إشارات ابن سينا للرازي ، والمنصوري في الطب لمحمد بن زكريا الرازي ورسائل بن سينا طبع ليدن .

١٢ ـ أزهار الأفكار في جواهر الأحجار للتيفاشي

١٣ ـ كتاب المختار في الطب لمصنفه الامام شمس الدين بن هبل

١٤ ـ طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة

١٥ ـ كتاب الحشائش لديسقوريدس اليوناني تعريب اصطفن وإصلاح حنين بن اسحق .

وهكذا نجد أن عمل الدكتور محمد شرف يقارب المنهج المأخوذ به اليوم الا أن المتصفح للمعجم يلاحظ للوهلة الأولى أن واضعه كثيرا ما يضع مقابل اللفظ الانكليزي عدة ألفاظ عربية . . وكأنه أراد بذلك أن يترك لغيره ولمن يأتي بعده من العلماء العرب فرصة اختيار مايرونه أوفى بالمعنى وأقرب للمراد . . .[٧٦]

رابعاً ـ ● التجربة السورية في القرن العشرين ●

من المؤكد أنه لا يمكن المرور على ذكر تعريب العلوم في سورية دون التعرض لأحداث الثورة العربية وقيام أول حكومة عربية في دمشق (٣٠ أيلول ١٩١٨) والتي قامت بتأسيس وافتتاح (المدرسة الطبية العربية) في دمشق في ١٢ كانون الثاني ١٩١٩ . وقد تولى التدريس في هذه المدرسة فريق من الأطباء والصيادلة العرب ومنهم أستاذ سابق في مدرسة الطب العثمانية في أسطمبول وهو الأستاذ ميشيل شامندي الدمشقي ، ومنهم الأستاذ مرشد خاطر من خريجي المدرسة الطبية الفرنسية في بيروت ومنهم الدكتور عبد الرحمن شهبندر من خريجي الكلية الأمريكية في بيروت . . .

---

(٧٦) د. محمد شرف : المصدر السابق ، المقدمة .

وهكذا قُدِّر للمؤسسة الطبية العربية ومنذ أيامها الأولى أنْ تنهل من مصادر مختلفة[٧٦] وانضم الى هؤلاء الأساتذة بعض من كان يساعدهم من العرب مثل الأطباء جميل الخاني وأحمد الخياط والصيدلي الكيماوي عبد الوهاب القنواتي . . .

ونظراً لاختلاف مشارب هؤلاء الأساتذة فانهم لم يكونوا على مستوىً واحدٍ في معرفة العربية ، فبينهم المجلُّون الذين يُعدون ـ بحق ـ رواد التعريب في بلاد الشام ، وبينهم من هو أقل علما بالعربية . . الا أن هؤلاء سرعان ما تلافوا مافاتهم من نقص في ممارسة الفصحى ، حتى أصبح المعهد الطبي العربي في دمشق ومن بعده كلية الطب في جامعة دمشق مضرب المثل في التدريس بالفصحى لغةً واصطلاحاً[٧٧] . . . ولم يقتصر جهود الحكومة العربية في دمشق على إنشاء المعهد الطبي العربي ، بل انها سارعت لنشر استعمال المصطلحات العلمية بين أوساط المثقفين والمختصين واشتراط اتقان العربية قبل تعيينهم في وظائفهم[٧٨] ، فمنذ بداية عهدها أصدرت رئاسة ادارة الصحة بدمشق أول مجلةٍ طبية باللغة العربية أُطْلِق عليها اسم « الصحة العمومية » تناول على صفحاتها الطبيب « حكمة المرادي » سلسلةً من المواضيع تحت عنوان « اللغة العربية والطب » عالج فيها عشرات المصطلحات الطبية العربية المأخوذة عن الفرنسية والتركية . . . واستمرتْ بالصدور حتى أواخر العهد العربي[٧٩] ورغم سيطرة « الانتداب » الفرنسي على البلاد منذ تموز عام ١٩٢٠ فان مسيرة التعريب في المعهد الطبي العربي استمرّت ، وأُضيفت اليها الجهود الجديدة في معهد الحقوق الذي أُسس عام ١٩٢٣ ، وفي عام ١٩٢٤ تم اصدار مجلة المعهد الطبي العربي التي رأس تحريرها الدكتور مرشد خاطر ، وحُدِّدتْ أهدافُها « بخدمة اللغة العربية الشريفة والوصل بين الطب العربي القديم والطب الحديث » . وعُرِضتْ على صفحاتها الألفاظ والمصطلحات العلمية للبحث والنقاش والتمحيص من قبل الاختصاصيين واللغويين في سورية وفي الأقطار العربية الأخرى . . . واستمرت المجلة بالصدور حتى عام ١٩٤٧[٨٠] .

وفي عهد الحكومة العربية في دمشق أيضا ألّف الأستاذ ساطع الحصري في دمشق الشام وكان وزيراً للمعارف سنة ١٩٢٠ لجنةً اختصاصيةً رسميةً للنظر في أمر الاصطلاحات العلمية . وقررت اللجنة أن تنظِّمَ نشيةً Fiche خاصةً لكل كلمةٍ على حدة ، يُدْرَجُ فيها :

- منشأ الكلمة واشتقاقها .
- ما يقابلها في اللغات الأوربية الحية .
- ما استُعْمِل من الكلمات العربية بمقابلها في الكتب المطبوعة في مصر وسورية وتركية
- ما كان يُستَعْمل مقابلها أو في معانٍ مقاربةٍ لها في الكتب العربية القديمة .
- مايوجد في القواميس من الكلمات الملائمة لمعناها . . .

---

(٧٦) د. محمد هيثم الخياط : تعريب التعليم العالي والجامعي في سورية ، اتحاد المجامع اللغوية العربية ، ندوة الرباط ١٩٨٥ ، ص ٣٩ .
(٧٧) د. حسني سبح : تصاوير وذكريات ، المجلة الطبية العربية ـ دمشق العدد ٩٠ آذار ١٩٨٦ ، ص ٢ .
(٧٨) سعيد الأفغاني : حاضر اللغة العربية في الشام ، معهد الدراسات العربية العالية ، جامعة الدول العربية ، ١٩٦٢ ، ص ٦٤ ـ ٦٥ .
(٧٩) د. حسني سبح : تعريب علوم الطب ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، الجزء ٤ ، المجلد ٦٠ ، تشرين أول ١٩٨٥ ، ص ٥٩٦ .
(٨٠) د. حسني سبح : المعجمات الطبية وتوحيد المصطلح الطبي ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، الجزء ٢ المجلد ٥٩ ، نيسان ١٩٨٤ ، ص ٢٢٦ .

فتختار اللجنة أوفق الكلمات ، ثم تعرضها على كبار المشتغلين في اللغة والعلوم في البلاد العربية المختلفة ، وتعيد النظر في الأمر بعد ورود الأجوبة ومناقشتها وتتخذ قرارها النهائي بعد هذه التدقيقات والمخابرات والمناقشات كلها[81] . كما توجّهَ الأستاذُ ساطع الحصري إلى مصر للاستعانة بالكتب المدرسية المطبوعة فيها ، والاستفادة من طرائق التدريس المرعية في مدارسها والمصطلحات العلمية المستعملة فيها[82] . وبعد استقلال سورية ، وتضاعف الجهود المبذولة في تعريب العلوم ، شُكّلَتْ في كلية الطب « لجنة المصطلحات الطبية » مؤلفةً من الأساتذة : مرشد خاطر ، أحمد حمدي الخياط ومحمد صلاح الدين الكواكبي .. وقد قامت بترجمة معجم « كليرفيل كثير اللغات » وأصدرته عام ١٩٥٦ في ألف صفحة و(١٤،٥٣٤) من المفردات ، واعتبر مرجعاً وحيداً للمصطلحات الطبية[83] . . . ثم قام الدكتور حسني سبح بالنظر والتعليق على هذه المصطلحات في سلسلة مقالات بلغ عددها ستاً وسبعين مقالة ، صَدَرَتْ مُنَجَّمةً على مدى عشرين عاماً في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ثم صدر مجموعها في كتابٍ أربى عدد صفحاته على الألف بعنوان : « نظرة في معجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات كليرفيل » .[84]

ثم عمل الأستاذان مرشد خاطر وأحمد حمدي الخياط على إخراج معجم فرنسي - عربي موسع طُبِعَ السفرُ الأول منه عام ١٩٧٤ بعد أن أعاد النظر فيه الأستاذ الدكتور محمد هيثم الخياط تحت عنوان « معجم العلوم الطبية » . . . ويقع هذا السفر في ٦٠٤ صفحات ، في كل ثلاثة أعمدة ويتضمن المواد من حرف A إلى حرف E .[85]

ومنذ عام ١٩٦٠ بدأت نقابة الأطباء في سورية بإصدار « المجلة الطبية العربية » والتي جعلت من أهدافها « أن تثبتَ المجلةُ بما لا يقبل الجدل صلاحيةَ اللغة العربية للتعليم الطبي والأبحاث الطبية المختلفة » ولاتزال المجلة تصدر كل ثلاثة شهور حتى أيامنا هذه . . . وقد اتبع أساتذة جامعة دمشق سبيلاً واضحةً وطريقاً صحيحةً في وضع المصطلحات العلمية ، تتمثل بالقواعد التالية مرتبة بدقة[86]

١ - البحث في الكتب العربية القديمة عن اصطلاحٍ مستَعْمَلٍ للدلالة على المعنى المراد نقله .

٢ - البحث عن لفظٍ قديمٍ يَقْرُب معناه من المعنى الحديث فيبدَّل معناه قليلاً ويُطْلَقُ على المعنى الجديد .

٣ - البحثُ عن لفظٍ جديدٍ لمعنىً جديدٍ مع مراعاة قواعد الاشتقاق في اللغة العربية .

٤ - اقتباس اللفظ الأجنبي بحروفه على أن يُصاغَ صياغةً عربيةً . . . ومن البديهي أنهُ لا ينبغي العمل بهذه القاعدة إلا عند العجز عن اشتقاق لفظٍ عربيٍّ للدلالة على المعنى الجديد . . . »

---

(٨١) ساطع الحصري : آراء وأحاديث في اللغة والأدب (حول الاصطلاحات العلمية) مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٥ .

(٨٢) ساطع الحصري : آراء وأحاديث في القومية العربية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٥ ، (٣) .

(٨٣) عادل الفارس : جامعة دمشق في عامها الثمانين ١٩٠٣ - ١٩٨٣ ، المجلة العربية لبحوث التعليم العالي ، العدد الأول تموز ١٩٨٤ ، ص ٦٩ .

(٨٤) د. حسني سبح : المصدر السابق له .

(٨٥) د. محمد هيثم الخياط : معجم العلوم الطبية ، جامعة دمشق ١٩٧٤ ، المقدمة .

(٨٦) د. جميل صليبا : تعريب الاصطلاحات العلمية ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٢٨ ، الجزء ١ ، ص ١٨ .

وهكذا لم تخلُ المؤلفاتُ الطبيةُ في المعهد الطبي العربي وجامعة دمشق من بعده من الألفاظ المعرَّبة قديماً مثل الترياق أو البادزهر تعريباً لما يقابل : Contre -Poison والبافتج تعريباً لما يقابل : Etiquette والاسفيداج تعريباً لما يقابل : Ceruse . . .[87]

ومن أهم المصادر التي اعتمد عليها أساتذة جامعة دمشق في تعريب المصطلحات

١ ـ المصادر التراثية القديمة ، والمعاجم ، والكتب العلمية العربية القديمة[88]

٢ ـ المصادر التركية ، فتتريك الطب الذى جرى في أواخر حكم الدولة العثمانية كان تمهيدا لاستعراب الطب لأن الألفاظ المستخدمة في المصطلحات العلمية التركية قريبة جدا من الألفاظ العربية[89]

٣ ـ ما تركه أساتذة المدارس المصرية في القرن التاسع عشر من مؤلفات ومترجمات بلغت المائتين ، واشتملت على ألوف المصطلحات ، ومعظمها مأخوذ عن الفرنسية[90]

٤ ـ المؤلَّفات والمترجمات العلمية العربية التي وضعها أساتذة الكلية السورية الانجيلية(الجامعة الأمريكية اليوم) ومعظمها مأخوذ عن الانكليزية[91]

٥ ـ جهود أساتذة كلية الطب أولاً والكليات العلمية الأخرى والتي أُسِّسَتْ في أوقاتٍ لاحقةٍ . . . وتمثلت هذه الجهود بما نشره أساتذة كلية الطب في مجلة المعهد الطبي العربي من مقالاتٍ علمية ومن مناقشات حول بعض المصطلحات العلمية . . وفيما ألفوا من تصانيف للتدريس وما ترجموه من معاجم علمية . . . وماوُجِّهَ إليهم من نقدٍ لأعمالهم . . .

٦ ـ جهود رجال المجمع العلمي العربي بدمشق ، وبعضهم كان يجمع بين عضوية المجمع ، والعمل في التدريس الجامعي . . .

٧ ـ جهود لجان المجمع العلمي العربي بالقاهرة . . . ومقررات مؤتمراته السنوية وما تصدرها من مصطلحات في مختلف الاختصاصات .

٨ ـ الجهود الفردية التي قام بها بعض التابعين في وضع معاجم علمية مثل معجم شرف البطي ، ومعجم الألفاظ الزراعية للأمير مصطفى الشهابي ومعجم الحيوان لأمين المعلوف . . .

---

(٨٧) الحكيم ميشيل شاشاتي الدمشقي به . محمد صلاح الدين الكواكبي : موجز في مبحث السموم ، المطبعة البطريركية بدمشق ١٣٤٨ / ١٩٣٠ .

(٨٨) د. أحمد حمدي الخياط : معجم العلوم الطبية ، جامعة دمشق ١٩٧٤ ، المقدمة .

(٨٩) د. حسني سبح : تعريب علوم الطب ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٦٠ ، الجزء ٤ ، ص ٦٥٦ .

(٩٠) الأمير مصطفى الشهابي : المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق (الطبعة الثانية) ١٩٦٥ ، ص ٤٩ .

(٩١) د. جبل سليا : محاضرات في الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام وأثرها في الأدب الحديث ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٥٨ .

٩ ـ الجهود العربية المتمثلة بمقررات المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم أو إحدى اللجان المنبثقة عنها مثل مقررات لجنة المعجم الطبي الموحد .

وإذا أخذنا مثالا على ذلك « نظرة في معجم كليرفيل كثير اللغات » الذي كتبه الأستاذ الدكتور حسني سبح على مدى ربع قرن تقريباً على صفحات مجلة المجمع العلمي فاننا نجد المصادر التي اعتمد عليها هي : . . .

« المصادر العربية »

- المقررات والمصطلحات الصادرة عن مجمع اللغة العربية في القاهرة .
- المصطلحات الواردة في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق .
- لسان العرب .
- تاج العروس .
- المخصص .
- المعجم الوسيط .
- معجم الألفاظ الزراعية للأمير مصطفى الشهابي .
- معجم الحيوان ـ أمين المعلوف .
- مقررات لجنة المعجم الطبي الموحد .
- معجم شرف الطبي .
- محيط المحيط .
- أقرب الموارد .
- معجم دوزى .
- كامل الصناعة .
- متن اللغة .
- قاموس سعاده الانكليزى ـ العربي ـ القاهرة ـ ١٩١٠ .
- مفردات ابن البيطار .
- حياة الحيوان الكبرى .
- فقه اللغة للثعالبي .

المصادر الأجنبية

1- Dorland's Illustrated Medical Dictionary.

2- Stedman's Medical Dictionary.

3- Blakiston's New Gould Medical Dictionary

4- M- Gainier et V. J. Delamar. Doctionair des terms techniques de Medecine

5- Dictionnaire Encyclopedique Quillet

6- Amanyila Dictionnaire Francaise de Medecine et de Biologie

7- Dictionnaire de Medecine Flammarion!

8- larrousse

وعلى كثرة هذه المصادر فلابد من الاقرار بأن السلاح الأول الذي تسلّح به الأستاذ الدكتور حسني سبح والأساتذة السوريون في جامعة دمشق في إنجازاتهم في حقل التعريب هو إيمانهم العارم بالتعريب لدرجة جعلتهم يتغلبون على جميع المصاعب التي واجهتهم ، مثل ضعف العديد منهم في اللغة العربية ، وإقبالهم - في دأب عجيب - على استكمال ما نقصهم . . . حتى استقام لهم - جميعاً - الإمساك بأعنّة اللغة [٩٢] .

وبفضل كثرة المصادر ، وسعة الاطلاع ، والممارسة اليومية والاستخدام اليومي للمصطلحات في التدريس والعمل ، أتيح لأساتذة جامعة دمشق أن (يرجّحوا) أو يفضّلوا اختيار مصطلح على آخر [٩٣] . . . وغالباً ما يكون للترجيح وجه مقنع مثل :

١ - مرادفات ترجمت عن بعض اللغات بشكل يغاير الحقيقة العلمية التي يراد التعبير عنها . . . وقد سمح للأساتذةاختيار ما يرونه مناسباً من هذه المترادفات مستأنسين بما يقابلها في اللغات الأجنبية الأخرى . . . والأمثلة هنا اختصاصية . . .

٢ - اعتماد بعض المصادر لكلمات تخالف الشائع والمألوف مثل ترجمة مجمع القاهرة (Arterial Hyper tension) بـ « تضغاط شرياني » بينما الشائع « فرط ضغط الدم » [٩٤]

٣ - قد يُرَجّح لفظٌ على آخر لأصالته ، أو لأنه أحسنُ جرساً أو وقعاً أو لأنه أقوى دلالةً على المعنى المقصود . . .

---

(٩٢) د. محمد هيثم الخياط : « تعريب التعليم العالي والجامعي في سورية في ربع القرن الأخير » ، ندوة تعريب التعليم العالي والجامعي في ربع القرن الأخير ، اتحاد المجامع اللغوية العربية (ندوة الرباط ١٩٨٥) ، ص ٢١ .

(٩٣) د. مازن مبارك : دور اللغة العربية في التعليم العالي والجامعي مطبوعات المجلس الأعلى للعلوم ، دمشق ١٩٧١ ، الكتاب الثاني ، ص ٥٦٤ .

(٩٤) د. حسني سبح : نظرة في معجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات ، مجلة اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٥٧ ، الجزء ٤ (تشرين أول ١٩٨٢) ، ص ٥٥١ - ٥٥٨ .

خامساً ـ ● مجمع اللغة العربية بدمشق ●

يُعَدُّ مجمع اللغة العربية بدمشق أحد الثمرات الطيبة التي أعطتها الحكومة العربية في دمشق ، إذْ عندما قامت هذه الحكومة في أواخر عام ١٩١٨ واجهت أمامها اللغة التركية سائدةً على الصعيد الرسمي في البلاد ، فأسرعت بتحويل اللغة الرسمية للدواوين والدوائر إلى العربية ، واستحدثت في سبيل ذلك دروساً خاصةً بالموظفين لتعليمهم الانشاء العربي ، وعهدت الى الأدباء العرب بمراجعة الكتب العربية القديمة ، ونشرات الحكومة المصرية التي كانت تصدر بالعربية بغية ايجاد المصطلحات العربية المناسبة ، كما أسست « الشعبة الأولى للترجمة والتأليف » في ٢٨/ تشرين الثاني ١٩١٨ لتنسيق تلك الجهود . . . وفوّضتها صلاحية الاستعانة بمن تراهم أهلاً لهذه المهمة المقدسة من داخل سورية وخارجها . . . ثم ضُمّت الى هذه الشعبة « أمور المعارف » وتم تشكيل « ديوان المعارف » برئاسة الأستاذ محمد كرد علي في ١٢ شباط ١٩١٩ ثم ما لبث أنْ أُعطِيَ المجمع العلمي العربي صفةً مستقلةً برئاسة مؤسسه الأستاذ محمد كرد علي في ٨ حزيران ١٩١٩ . . .

سارع المجمع لمراسلة دوائر ودواوين الحكومة ومعاهد التدريس ، وطلب منهم أنْ ينبّئوه بما يحتاجون اليه من الألفاظ وضعاً وتعريباً ، على أنْ ترسل من جانبها ممثلاً اختصاصياً يشترك في أبحاث المجمع ويوضّح مفهوم الألفاظ في جوها الفني الخاص بها . . وقد اعتمد أعضاء المجمع في تعريب الألفاظ الواردة اليه مراجع موثوقة ، مثل تاج العروس ، المخصّص ، الصحاح ، أساس البلاغة ، تهذيب الألفاظ ، فقه اللغة للثعالبي ، غريب الحديث لابن قتيبة ، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ، المزهر للسيوطي ، لسان العرب لابن منظور . . . واستعان المجمع بالقدرة اللغوية لأعضائه المؤسسين وأضاف اليها علوم الاختصاصيين واحاطتهم بالمفاهيم الفنية للألفاظ العلمية ، ودعا أساتذة معهدي الطب والحقوق للتعاون مع أعضائه في التعريب ووضع المصطلحات العلمية والفنية [٩٥]

اختطَّ مجمعُ اللغة العربية بدمشق لنفسه خطةً واضحةً في وضع المصطلحات الفنية والألفاظ العربية الصحيحة للمسمّيات الأعجمية تتمثل بما يلي : [٩٦]

١ ـ إذا كانت اللفظةُ مما عرفه العرب واستعملوه فيجب البحث عنها ونشرها .

٢ ـ اذا كانت مما استُحْدِثَ بعد عصور الاستشهاد ، ولم يكنْ في ألفاظهم ما يشبهها بأقلّ ملابسةٍ نُظِرَ فيها . . . فإنْ وافقتْ الأوزان العربية استُعْمِلَتْ كما هي . والا غُيّرَ بعضُ حروفها أو حركاتها لتوازن العربية ويَسهُلَ التلفظُ بها جرياً على قاعدة التعريب .

---

(٩٥) أحمد الفتيح لتفاصيل تاريخ المجمع وانجازاته: تاريخ مجمع اللغة العربية بدمشق ، مطبوعات مجمع تاريخ المجمع وانجازاته دمشق .

(٩٦) محمد كرد علي : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٢ ، الجزء ١٢ كانون أول ١٩٢٢ .

ميزات أعمال المجمعين وأساتيذ الجامعة في دمشق

ولعل الميزة الفريدة التي تتسم بها منهجية صياغة المصطلحات العلمية في دمشق هي خضوع المصطلحات للاستعمال اليومي منذ اليوم الأول لولادتها الأمر الذي يتيح للعاملين الاختصاصيين الحكم عليها، واختيار الاستمرار على استعمالها أو استبدالها بما هو أصلح منها . . . كما قام أساتيذ الجامعة في دمشق وهم غالبا من أعضاء مجمع اللغة بدمشق بالكثير من الدراسات حول المصطلح، ومنهجية صياغته، وسبل توحيده، وطرق تعميمه . . فصدرت كتب ودراسات متخصصة في هذه المواضيع، فأصدر الشيخ طاهر الجزائري (من الأعضاء المؤسسين لمجمع دمشق) كتابه التقريب في أصول التعريب، وأصدر الشيخ عبدالقادر المغربي وهو أيضا من الأعضاء المؤسسين لمجمع دمشق والمُنتَخَبين في مجمع القاهرة منذ تأسيسه عام ١٩٣٤ كتابه الاشتقاق والتعريب عام ١٩٤٧، وأصدر الأمير مصطفى الشهابي وهو أيضا (من أعضاء مجمع دمشق والقاهرة . . . وترأس مجمع دمشق) كتابه المصطلحات العلمية والفنية في العربية في القديم والحديث، وظهر كتاب الدكتور حسني سبح «نظرة في معجم كليرفيل كثير اللغات» وفيه آراء نقدية صائبة مدعومة بالحجج المنقولة عن أمهات كتب اللغة في العربية وفي الانكليزية والفرنسية . . . فقد حَدَّد محاور نقده لمفردات معجم كليرفيل قائلاً(٩٧): «المواد التي كان لي مقال فيها لا تخرج عن الفئات التالية:

١ - مرادفات اللجنة معناها العلمي، فترجمتها بغير مدلولها وهي في الغالب مصطلحات اختصاصية يتعلق معظمها بأمراض الجملة العصبية أو الأمراض العقلية، وما هذه سبيله كنت أقول فيه: الصحيح كذا وكذا مستندا في الاستدلال الى المراجع المختصة، ومستأنساً في بعض الأحيان بما جاء في الترجمة الانكليزية أو الألمانية لمعجم كليرفيل هذا فمثلاً تَرْجَمَتْ اللجنةُ الكلمة الفرنسية stereotypie بـ «طباعة بالحروف المصفّحة أو بالحروف المقولبة» . . . بينما الصحيح «التَّنْمِيْطِيَّة»

٢ - مصطلحات باينت في بنيتها أو صيغتها ما أقرّه مجمع اللغة العربية في القاهرة، فكنتُ أذكرُ ما أقرّه المجمع مكتفيا بذلك إذا كان اللفظان متقاربين ومُرَجِّحاً أحدهما إذا مابدا لي وجهٌ للترجيح فمثلاً ترجمتْ اللجنةُ الكلمةَ الفرنسيةَ Colloïdal بـ (شبغري) وأقرّ مجمع القاهرة ترجمتها بـ غرواني. كما ترجمت اللجنة Hypertension arterielle بـ فرط توتر شرياني، وأقرّ مجمع القاهرة ترجمتها بـ تضخاط شرياني . . .

٣ - مصطلحات خالفَتْ فيها اللجنة الشائع والمألوف من المصطلح الصحيح بلا مسوّغ مثل ترجمتهم لـ Coma بـ تسبخ والصواب الشائع سبات ولـ Putrefaction بـ تَدَعُّص والصواب الشائع تَفَسُّخ

٤ - مصطلحات رَجَّحْتُ في كلٍّ منها لفظاً آخر، اما لأصالته أو لأنه أحسن جرساً أو وقعاً، أو لأنه أقرب دلالةً على

(٩٧) د. حسني سبح: نظرة في معجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد السابع والخمسون، الجزء الرابع - تشرين أول ١٩٨٢، ص ٤٤١ - ٤٥٨.

المعنى المقصود ، وما كان من هذا القبيل كنتُ أقول فيه أَفْضَلُ أو أُرَجِّح كذا وكذا . . . مثل ترجمة اللجنة للكلمة الفرنسية Allergie بـ تجاوب والمفضّل اليرجيه أو ارجيه .

ه ـ مصطلحات رأيتُ من المفيد أنْ أُثْبِتَ ترجمتها عن الانكليزية إذا كانتْ مغايرةً لما جاء في الترجمة عن الفرنسية . . . وذلك لأن الانكليزية هي السائدة اليوم في كلية الطب بخلاف ما كانت عليه في السابق ، إذْ كانت السيادة للفرنسية فقد ترجمت اللجنة العبارة الفرنسية trou de conjugaison بـ ثقبه اتصال ، وكان لابد من ذكر الترجمة الانكليزية لها وتعني « ثقبة ما بين الفقار . »

وبالرغم من تقدم وريادة الأستاذ الدكتور حسني سبح في تدريس الطب بالعربية ، ومعاصرته لمشكلة المصطلح العلمي في ممارسته اليومية أستاذاً محاضراً ، ومؤلفاً ومعايشته لتطورها كعضو عامل في مجمع اللغة العربية بدمشق على مدى أربعين عاما ١٩٤٦ ـ ١٩٨٦ [٩٨] . . . فإن المتصفح لأعماله لا يعدم بعض الملاحظات ذات الأهمية . . . اذ يظهر فيها تعارض واضح مع المنهجية التي يدعو اليها :

• فالأستاذ حسني سبح قد لجأ الى التعريب في بعض المواضع التي كانت المفرداتُ العربيةُ القديمةُ شائعةً ومشهورةً . . . فعرَّب goitre بـ «غوتر» وصوابُها دراق[٩٩] وعرَّب thymus بـ تيموس وصوابها توتة[١٠٠] .

• وفي مواضع أخرى لجأ إلى نقل المصطلح الأجنبي بجملة طويلة :

فنقل Hyperuricuria بـ «زيادة اطراح حامض البول في البول» ونقل Fibroblast بـ «أرومة الخلايا للنسيج الضام» ونقل marsupialisation بـ «تثبيت أو خيط جدران الكيس بحافة الشق»

• وقد يعثر الدارس لكتبه على أكثر من لفظٍ عربيٍّ في مقابل لفظةٍ أجنبيةٍ بعينها فـ Addiction تارةً نجدها عنده «استحواذ» وأخرى «ولع» و catabolism ينقلها بلفظة «انتقاض» أما عندما ينقل catabolic effect فيوردها على أنها تعني «تأثيراً مُبَدِّداً» وكذلك بالنسبة لـ anabolism ينقلها على أنها «ابتناء» أما anabolic effect فهي عنده «تأثير بنّاء» و Polydipsia يشير اليها مرة انها «غُلل» ، وأخرى أنها «سُهاف» ، وثالثة أنها «عُطاش» و Idiopathic ينقلها بـ «تلقائي» مرةً وأحياناً «أساسي» . ومرةً ثالثةً «بدئي» . . .

و Diabetes عنده «دیابیط» ته وأمام العبارة الأجنبية Diabetes Insipi dis «داء سكري» مقابل العبارة الأجنبية Diabetes Mellitus و «طليعه الديابيطس» نقلا لقولهم Pre–Diabetes . . .

و Dehydration ينقلها تارةً «نقص تميه» وأخرى «جفاف» وينقل Basal metabolic rate برقم «التطور الأساسي» بينما ينقل Diseases of metabolism «بأمراض التغذية» وينقل Hyperglycemia بـ «فرط سكر الدم» تارةً و

(٩٨) د. قاسم سارة : الأستاذ الدكتور حسني سبح ، مجلة الفيصل ، العدد ١٣٩ ـ ص ٩٥ .

(٩٩ ، ١٠٠) تعني بالصواب هو : كما وردت في المعجم الطبي الموحد .

«فرط غلوقور الدم» تارة أخرى وينقل Provoquer بحرّض او أحْدَثَ أو حثَّ وينقل re education لـ تدريب أو تأهيل

● وقد نجد الكلمة العربية الواحدة تُسْتَخْدَم عنده للدلالة على أكثر من مدلول أجنبي ، فكلمة تلقائي وحدها استعملها لنقل أربعة معانٍ متباينة هي : Idiopathic و Sporadic و Essential و Spontaneous وأمام اللواحق لم نجد للأستاذ الدكتور حسني سبح موقفاً واضحا يدل على منهجية محددة ، فهو ينقل Hypophosphatemia بـ «تدني مقدار فوسفات الدم» بينما ينقل « Hypoxemia » بـ « نقص أكسجين الدم » . وينقل Thermophobia كراهة السخونة بينما ينقل chromophobe بـ «نافرة من الصباغ» وينقل Micro organism بـ «الأحياء الدنيا» بينما ينقل Micropsia بـ «المرؤية المصغرة» . . . وينقل Hyperتارة بـ فرط مثل (Hyperuicemia) الذي نقله بفرط اليوريسميا

وتارة أخرى بـ «زيادة» كما في نقله Hyperuricuria بـ «زيادة اطراح حامض البول في البول» وينقل dystrophia بـ «سوء التغذية» بينما ينقل Lipodystrophy «باضطراب التغذية الشحمية» ، و genital dystrophy بـ «سوء النمو التناسلي» وعند كتابة الألفاظ والمسميات الأجنبية بالحروف العربية على سبيل «التعريب» لا نكاد نجد للأستاذ منهجية واضحة ، فنراه يعرِّب Paraldehyde بـ «بارالدهيد» ويعرّب Formaldehydeبـ فورمالدهيد ويعرّب Parathion بـ باراسيون (جريا على اللفظ في العامية الشامية ويعرّب) glucose تارة بـ «غلوكوز» وأخرى بـ «غلوكوز» ونادراً بـ «جلوكوز» . . .

وقد يتجاوز ذكر الكلمة المعرّبة ، ويكتفي فقط بذكر الكلمة الأجنبية بحروفها الأجنبية فيقول مثلاً : ان التأثير السام للغول الميتلي في البدن يعود الى تحوله الى (Formaldehyde) . . .

إلاّ أننا نجد الأستاذ الدكتور حسني سبح لم يُسْرِف في استعمال النحت ، كما رأينا في أعمال زملائه الدكتور محمد صلاح الدين الكواكبي والأمير مصطفى الشهابي . . . وهذا موقفٌ يُحْمَد له ، إذْ نجده يسرع لاقتراح استبدال (فو- ترقوي) التي وضعتها لجنة «معجم كليرفيل عديد اللغات» ترجمةً لـ Sus- claviculair بـ (فوق الترقوة) واستبدال كُرَيْة ترجمة لـ Lymphocyte بـ (كريه لمفاوية) كما نجد له اجتهاداً على نقل المعنى دون التقيد بالحرفية المخلة بالمقصود من الكلام ، فقد أشار الى خطأ ترجمة للعبارة الفرنسية Toute-a-l'Egoutبـ «الكل الى الكنيف» واستبدالها بـ «نظام المجاري» . ولم يجد الأستاذ الدكتور حسني سبح بأساً من اللجوء الى التعريب حين يعدم اللفظ العربي الأصيل ، أو المعرَّب القديم أو المولَّد الشائع . . . فلا يرىَ في نقل اللجنة للفظة aryle بـ عطريل صواباً ويفضل تعريبها كما هي بـ «أريل»

سادساً : ● مجمع اللغة العربية بالقاهرة ●

- . صدر مرسوم انشاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٣٢ تحت اسم «مجمع اللغة العربية الملكي» ثم ما لبث أنْ عُدّلَ اسمه عام ١٩٣٨ الى «مجمع فؤاد الأول للغة العربية» وأصدر المجمع العدد الأول من مجلته في مطلع عام

١٩٣٥ . . . وقد خصَّص مجمع القاهرة جانباً غير يسير من وقته وجهد أعضائه لترجمة المصطلحات العلمية إلى اللغة العربية ، ورسم لصياغة المصطلح منهجيةً واضحةً ، وأسلوباً متميزاً في العمل إذْ كان أعضاء المجمع يستعينون بالخبراء وأساتذة الجامعات في حقول اختصاصهم ، ويعقدون معهم اجتماعاتٍ دورية منتظمةً للتوصل الى ما يرونه مناسبا من المصطلحات ثم تُعْرَضُ هذه المصطلحات على أعضاء المجمع في «مجلس المجمع» لاقرارها ومناقشتها وعرضها على «المؤتمر العام» الذي ينعقد مرةً كلَّ عام . . . أما عن أساليب صياغة المصطلح العلمي فقد حَدَّدَتْها قراراتُ المجمع بدقة . . وتأتي أهمية تلك القرارات من أنها برهنت على حيوية العربية ومرونتها وقدرتها على مواجهة متطلبات العلم والتكنولوجيا فأجازت الاشتقاقَ من الجامد وكان ممنوعاً ، وتوسَّعَتْ في المصدر الصناعي ، واستَحْدَثَتْ صيغاً للدلالة على الآلة والمكان والزمان ، وسلَّمَتْ بجواز النسب إلى الجمع كما يُنْسَبُ إلى المفرد . . . وأقَرَّتْ ألفاظاً واستعمالاتٍ حديثة[١٠١] ومن أهم تلك القرارات[١٠٢] :

١ - القياس

في المصادر الثلاثية

قرار فِعالة للحرفة :

يُصاغُ للدلالة على الحرفة أو شبهها من أيّ باب من أبواب الثلاثي مصدرٌ على وزن فِعالة بالكسر كالقِراسة من فَرَسَ والطِّباعة من طَبَعَ

قرار فَعَلان للتقلُّب والاضطراب :

يُقاس المصدرُ على وزن فَعَلان للفعل اللّازم مفتوح العين إذا دلَّ على تقلُّبٍ أو اضطرابٍ :
نَوَسان من نَاسَ مَوَجان من ماج ونَبَضان من نبض

قرار فُعال للمرض :

يُقاس من الفعل اللّازم المفتوح العين مصدرٌ على وزن فُعال للدلالة على المرض :
كسُعال من سَعَل ودُواج من عَرَج

قرار المصدر الصناعي :

إذا أُريد صنعُ مصدرٍ من كلمةٍ يُزاد عليها ياءُ النسبة فلوِيَّة ، حمضيَّة ، سميَّة ، عطريَّة ، خشبيَّة

قرار فَعَّال للنسبة الى الشيء :

يُصاغ فَعَّال قياساً للدلالة على الاحتراف أو ملازمة الشيء : خَبَّاز ، طَحَّان

---

(١٠١) د. ابراهيم مدكور : حفل مجمع اللغة العربية بعيد الخمسين (الذهبي) نسيره الدكتور عدنان الخطيب ، دار الفكر ، ١٩٨٤ ، ص ١٢ .
(١٠٢) الأمير مصطفى الشهابي : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٣٢ ، الجزء ٤ ، ص ٣٧٩ .

قرار اسم الآلة :

يُصاغ قياساً من الفعل الثلاثي على وزن مِفْعَل ومِفْعَلة ومِفْعال للدلالة على الآلة التي يُعالج بها الشيء .

قرار المولَّد :

المولَّد هو اللفظ الذي استعمله المولَّدون على غير استعمال العرب . . .

ومايهمنا هو القسم الذي جروا فيه على أقيسة كلام العرب من مجازٍ أو اشتقاقٍ كاصطلاحات العلوم والصناعات أو غير ذلك ، وحكمه أنه عربي سائغٌ

وكلام المولَّدين هو الألفاظ التي لم يضعها أو يصطلح عليها عرب الجاهلية وصدر الاسلام .
أي أنَّها تلك الألفاظ التي استُعْمِلت بعد أواخر القرن الثاني الهجري في الأمصار وبعد أواسط القرن الرابع الهجري في جزيرة العرب .

٢ ـ قرار التعريب :

يجيز المجمع أن يستعمل بعض الألفاظ الأعجمية عند الضرورة على طريقة العرب في تعريبهم .
والتعريب يعني ادخال اللفظ الأعجمي في اللغة العربية أي كتابته بحروفٍ عربيةٍ واعطاؤه حكم اللفظ العربي . . سواءٌ أمكن جعله على وزن من الأوزان العربية أم لا

د ـ نحن مهما تبالغ في تجنب التعريب ذاهبين الى ايجاد ألفاظ عربية بوسائل الاشتقاق والمجاز فهناك ألفاظ أعجمية في العلوم الحديثة :

- لابد لنا من تعريبها .
- ومن هذه الألفاظ الأعجمية مالا يجوز الا تعريبها كأسماء نباتات جهلتها العرب وكشف النباتيون العلماء عنها حديثاً . ثم سموها بأسماء أعلام تنويهاً بتلك الأسماء .

ـ معظم العلماء الحريصين على سلامة اللغة يرون في نقل الألفاظ الأعجمية الى لغتنا العربية الرجوع الى الوسائل الآتية على التتابع ، وهي الترجمة ، واذا تعذَّر الاشتقاق أو المجاز فالتعريب . ومن الواضح أن التعريب يأتي في المرحلة الثالثة أي عند الضرورة اليه .

ـ كلُّ لفظٍ علميٍّ أعجميٍّ يحتاج الى دراسة خاصة لمعرفة أصلح لفظ عربي أو يقابله .

ـ مجال التعريب يكون واسعاً في نقل أسماء أعيان المواليد من نبات وحيوان وجماد التي لم تعرفها العرب ، وأسماء الأدوية والعقاقير والمركَّبات الكيماوية والآلات العلمية والأطعمة والأشربة والألبسة الخاصة الأعجمية . أما أسماء المعاني العلمية فان مجال الترجمة والاشتقاق يكون فيها أوسع من مجال التعريب .

٣ ـ الأصول العامة

١ ـ يُفَضَّل اللفظ العربي على المعرَّب القديم الا اذا اشتهر المعرَّب .

٢ ـ يُنطَقُ بالاسم المعرَّب على الصورة التي نطقت بها العرب .

٣ ـ تُفضَّل الاصطلاحات العربية القديمة على الجديدة ، إلا اذا شاعتْ .

٤ ـ تُفضَّلُ الكلمةُ الواحدة على كلمتين فأكثر عند وضع اصطلاحٍ جديدٍ إذا أمكنَ ذلك ، وإذا لم يمكن ذلك تُفضَّل الترجمةُ الحرفيةُ .

٥ ـ الاصطلاحات العلمية والتقنية والصناعية يجب أن يُقْتَصرُ فيها على اسمٍ واحدٍ خاصٍ لكل معنى .

٦ ـ الموافقة على جواز النحت عندما تلجيء إليه الضرورة العلمية .

وهكذا فإنَّ مجمع القاهرة الذي جعل أول وأهم أهدافه هي « المحافظة على سلامة اللغة العربية » جعل الأوليّة للألفاظ الأثيلة ثم أجاز التعريب عند الضرورة القصوى ، ولم يعط رخصة « التعريب » الا بعد العناء ، واستقصاء المصادر اللغوية والعلمية العربية القديمة واستنفاد وسائل الاشتقاق والمجاز . . . وبعد الاقتناع بما تتيحه الصور والمعاني من قرائن وملابسات[١٠٣] . . .

ورغم دقَّة المجمعين وجدِّيتهم في الدرس ، والتعمُّق في البحث والالتزام في المبادىء التي قرَّروها واستقرّت لديهم ، فإنَّ بعض الألفاظ التي أقرُّوا نقلها لم تكن تخلو من ملاحظات . . .

فقد أقرَّ المجمع نقل « Toxin » الى العربية بـ « تُكْسِين » على سبيل التعريب رغم شيوع كلمةٍ معرَّبة قديماً ومشهورةٍ هي « ذيفان » وقد ينقل اللفظة الأجنبية الواحدة بعدة ألفاظ مختلفة . . . فمثلاً نقل كلمة maceration بـ «نقع» تارةً ، وبـ «عَطْن» تارة أخرى ، وبـ «هروء» تارةً ثالثةً . وفي نفس الوقت أقرّت نقل كلمة «Infusion» بـ «نقع» أيضا . . . كما نقل كلمة Trans fusion بـ (إصفاق) أحياناً وبـ «تَصَفُّق» أحياناً أخرى . . . رغم شيوع «نقل الدم» . . . ونقل Lancette بثلاث ألفاظ (في مواضع متفرقة) ، مِبْضَع ومِفْصَد ومِبَطّ . . . إلا أن كل هذه الملاحظات ليست بذات قيمة أمام غياب سلطة المجمع ، وعدم استطاعته فرض ما يضعه من مصطلحات في حقول العلم المختلفة على الدارسين والباحثين في الجامعات العربية عامة وفي الجامعات المصرية خاصة . . . وهكذا لم يستطع مجمع القاهرة الذي ولَّد أكثر من مائة ألف مصطلح منذ انشائه ايصال تلك المصطلحات الى من يستعملها . . . وبالعكس ، فان الكثير منها ـ بالرغم من جودته ـ مات في الرفوف وبين السطور لعدم الإلزامية[١٠٤] .

---

(١٠٣) منصور فهمي : مجمع مصر واللغة العربية ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٣٢ ، الجزء ١ ، ص ٤٩ .
(١٠٤) عبد العزيز عبد الله : استراتيجية التعريب ، اللسان العربي ، المجلد ١٢ ، الجزء ١ ، ص ٦ .

سابعاً • مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي •

عندما اكتسب مكتب تنسيق التعريب صفة التبعية للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم « الالسكو » أصبح له أهداف محددة تتمثل فيما يلي[١٠٥] :

١ - تنسيق الجهود الرامية لتطوير العربية .

٢ - تتبّع حركاتِ التعريب وإثراء اللغة بالمصطلحات المنسّقة .

٣ - الإعداد لمؤتمرات التعريب ، والندوات . .

٤ - متابعة نشاط المجامع . .

٥ - التعاون مع المجامع والهيئات العلمية .

٦ - نشر المعاجم التي توافق عليها مؤتمرات التعريب ، والتي تُعقد كل ثلاث سنوات . . وقد حدّد المكتب لعمله منهجيةً واضحةً تتمثل في « أن يُشبَع المصطلح بلغتين أجنبيتين ممّا هما الانكليزية والفرنسية ، ويُوضع أمامه جميع المصطلحات التي عُرّب بها ، منسوباً كل منها إلى صاحبه إن كان مجمعاً علمياً أو استاذاً لغوياً مشهوداً له بالتفوق أو معجماً معروفاً ، ونشر ذلك على شكل معجم ألفبائي الترتيب يوضع تحت أنظار العلماء العرب لمدة لا تقل عن ستة أشهر ، ثم يدعو المكتبُ إلى مؤتمر للعلماء المتخصصين يعقد في ظل الجامعة العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) ، بالعواصم العربية على التوالي فيتدارسون المعجم وينقدونه ، ويختارون المصطلح الذي يريدون فيصبح شبه الزامي » . .[١٠٦]

ولقرر اختيار مسؤولٍ عن الشؤون العلمية والفنية ، يعمل في الوقت نفسه رئيساً للخبراء الذين يتقنون لغات عديدة ، ويعملون على الاتصال بالمجامع اللغوية العربية والجامعات ، وبعض الأفراد المتخصصين ويجمعون المصطلحات الصادرة عنهم ويعرضونها على مؤتمرات التعريب ولجانه المتخصصة لقبولها أو تعديلها أو رفضها . . إلاّ أن هذه المنهجية كانت سبباً في إحداث هوةٍ كبيرة بين المكتب وبين المجامع والجامعات والمؤسسات العربية الأخرى المعنية بالتعريب . . إذْ عمل المكتب في بداية عهده بشكلٍ مستقلٍ وبعيدٍ عن المنهجية التي رسمت له ، فعمل على انتاج « معاجم » أو مشاريع لمعاجم ذات طابعٍ شخصيٍّ ، مُرْتَجَلٍ ، مُعْتَمِدٍ على ثقافةٍ وحيدة المنهل . . ودون استشارة جهات اختصاصية ذات صلات وثيقة علمياً وعملياً بمواد تلك المعاجم . . . الا أن تلك الهوة بدأت بالانزياح وحلَّ محلها التعاون مع المجامع العربية والتي بدأت تساهم في رسم سياسة المكتب ، وتخطيط مشاريعه ، والإسهام في انجازاته من خلال اللجنة الاستشارية للمكتب والمكوّنة من رؤساء المجامع اللغوية العلمية العربية في القاهرة ودمشق

(١٠٥) عبد العزيز عبد الله : تطور الفكر العلمي ولغة التقنيات بالمغرب ، اللسان العربي ، كانون ثاني ١٩٧١ ، ص ١٩٦ - ٢١١ .
(١٠٦) عبد العزيز عبد الله : اللسان العربي ، المجلد ١٣ / ١٩٧٦ ، ص ١٠ .

وبغداد وعمّان[١٠٧] . . وقد أصدر المكتب العدد الكبير من المعاجم التي هي الآن قيد التداول[١٠٨] ، وسيصبح الحكم على الكثير مما تحويه من مصطلحات وشيكًا . .

تنسيق الجهود والسير نحو منهجيةٍ واضحةٍ :

لقد اكتسب العلماء العرب اليوم خبرةً واسعةً في مجال نقل العلوم وبالخاصة في سبيل توحيد منهجيات صياغة المصطلح العلمي ، فالمشكلة التي يعاني منها المهتمون بشؤون التعريب اليوم هي توحيد المصطلح العلمي[١٠٩] وليس العثور عليه . . وهذا يحتاج إلى رسم منهجيةٍ واضحةٍ لصياغة المصطلحات أولاً ، والإلزام بها ثانياً . وفي سبيل الوصول إلى منهجيةٍ محددةٍ فقد نظّم مكتب تنسيق التعريب في الرباط ندوة حول توحيد منهجيات وضع المصطلحات العلمية الجديدة (١٨ ـ ٢٠ شباط ١٩٨١) ، وبعد أن نظرت الندوة في البحوث المقدّمة من المجامع اللغوية والمؤسسات المتخصصة ومن الباحثين أقرت المبادىء الأساسية التالية :

١ ـ ضرورة وجود مناسبة أو مشاركة أو مشابهة بين مدلول المصطلح اللغوي ومدلوله الاصطلاحي ، ولا يُشْتَرط في المصطلح أن يستوعب كل معناه العلمي دائماً .

٢ ـ وضعُ مصطلحٍ واحدٍ للمفهوم العلمي الواحد ذي المضمون الواحد في الحقل الواحد .

٣ ـ تجنُّب تعدُّد الدلالات للمصطلح الواحد في الحقل الواحد وتفضيل اللفظ المختص على اللفظ المشترك .

٤ ـ استقراء التراث العربي وخاصة ما استُعمِل منه أو ما استقرَّ منه من مصطلحات علمية عربية صالحة للاستعمال الحديث ، وما ورد منه من ألفاظ معرّبة .

٥ ـ مسايرة المنهج الدولي في اختيار المصطلحات العلمية :

أ ـ مراعاة التقريب بين المصطلحات العربية والعالمية لتسهيل المقابلة بينها للمشتغلين بالعلم والدارسين .

ب ـ اعتماد التصنيف العشري الدولي لتصنيف المصطلحات حسب حقولها وفروعها .

جـ ـ تقسيم المفاهيم واستكمالها وتحديدها وتعريفها وترتيبها حسب كل حقل .

د ـ اشتراك المختصين والمستهلكين في وضع المصطلحات .

هـ ـ مواصلة البحوث والدراسات لتيسير الاتصال بدوام بين واضعي المصطلحات ومستعمليها .

٦ ـ استخدام الوسائل اللغوية في توليد المصطلحات العلمية الجديدة بالأفضلية طبقاً للترتيب التالي : التراث فالتوليد بما فيه من مجاز واشتقاق وتعريب ونحت .

---

(١٠٧) الهادي الدرايرو : مكتب تنسيق التعريب ، آفاق علمية ، العدد ٣ ، السنة الأولى ١٩٨٨ ـ ص ٢٠ .
(١٠٨) الهادي الدرايرو : المصدر السابق ـ ص ٢١ .
(١٠٩) مقررات ووقائع مؤتمر مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، الدورة ٤٣ ، ١٩٧٧ .

٧ - تفضيل الكلمات العربية الفصيحة المتواترة على الكلمات المعرَّبة .

٨ - تجنب الكلمات العاميّة إلا عند الاقتضاء بشرط أن تكون مشتركة بين لهجات عربية عديدة ، وأن يشار الى عاميتها بأن توضع بين قوسين مثلا .

٩ - تفضيل اللفظة الجزلة الواضحة ، وتجنب النافر والمحظور من الألفاظ .

١٠ - تفضيل الكلمة التي تسمح بالاشتقاق على الكلمة التي لا تسمح به .

١١ - تفضيل الكلمة المفردة لأنها تساعد على تسهيل الاشتقاق والنسبة والاضافة والتثنية والجمع .

١٢ - تفضيل الكلمة الدقيقة على الكلمة العامة أو المبهمة ، ومراعاة اتفاق المصطلح العربي مع المدلول العلمي للمصطلح الأجنبي دون تقيُّد بالدلالة اللفظية للمصطلح الأجنبي .

١٣ - في حالة المترادفات أو القريبة من الترادف تفضَّل اللفظة التي يوحي جذرها بالمفهوم الأصلي بصفة أوضح .

١٤ - تفضيل الكلمة الشائعة على الكلمة النادرة أو الغريبة . إلا إذا التبس معنى المصطلح العلمي بالمعنى الشائع المتداول لتلك الكلمة .

١٥ - عند وجود ألفاظ مترادفة أو متقاربة في مدلولها ينبغي تحديد الدلالة العلمية الدقيقة لكل واحد منها ، وانتقاء اللفظ العلمي الذي يقابلها ويحسن عند انتقاء مصطلحات من هذا النوع أن تجمع كل الألفاظ ذات المعاني القريبة أو المتشابهة الدلالة وتعالج كلها مجموعة واحدة .

١٦ - مراعاة ما اتفق المختصون على استعماله من مصطلحات ودلالات علمية خاصة بهم ، معربة كانت أو مترجمة .

١٧ - التعريب عند الحاجة وخاصة المصطلحات ذات الصيغة العالمية كالألفاظ ذات الأصل اليوناني أو اللاتيني أو أسماء العلماء المستعملة من مصطلحات ، أو العناصر والمركبات الكيماوية .

١٨ - عند تعريب الألفاظ الأجنبية يراعى ما يأتي :

أ - ترجيح ما سهل نطقه في رسم الألفاظ المعربة في اللغات الأجنبية .

ب - التغيير في شكله حتى يصبح موافقاً للصيغة العربية مستساغاً .

جـ - اعتبار المصطلح المعرَّب عربياً ، يخضع لقواعد اللغة ، ويجوز فيه الاشتقاق والنحت ، وتستخدم فيه أدوات البدء والالحاق مع موافقته للصيغة العربية .

د - تصويب الكلمات العربية التي حرَّفتها اللغات الأجنبية واستعمالها باعتماد أصلها الفصيح .

هـ - ضبط المصطلحات عامةً والمعرَّب منها خاصة بالشكل حرصاً على صحة نطقها وأدائها .

واشتملت مقررات الندوة على (٨) اقتراحات ، تضمّنت متابعة البحوث والدراسات في ميدان المصطلحات ، وعقد ندوات متابعة ، وتكوين لجنة تحضيرية لإعداد ورقة عمل في الحروف والاتجاهات والرموز المستعملة في العلوم لتعرض على ندوة مختصة في هذا الميدان .

أما عن سبيل الالزام باستخدام المصطلحات العلمية الموحدة فبعض العلماء العرب يرى أن الوسيلة الوحيدة لذلك تقتضي إنشاء مجمع « علمي » واحد ينتقي من الاصطلاحات التي اهتدى اليها القلة الاختصاصيون واحداً يثبته ، ويحمله حظيرة اللغة . . ولا يكون من شأن هذا المجمع وضع اصطلاحات علمية جديدة تزيد الاضطراب والبلبلة[110] .

وبعضهم يرى أن المصطلح العلمي لايوحّدهُ مثلُ وحدة السلطة التي تشرف على وضع المصطلحات ، ومدى نفوذها في مختلف المؤسسات والأدوات ذات العلاقة بهذا الموضوع[111] . ويرى أن من شأن تلك السلطة الاشراف على :

١ ـ إصدار المعجم العلمي العربي الموحد الذي يعتمد على المنهجية الواضحة والمحددة بدقة في اختياره للمصطلحات[112] .

٢ ـ الاكثار من عقد الندوات العلمية لتدارس أمور المصطلح ، وإقرار ما يستجد منه ، وتعميم ما يقر منه . . والتأكيد على استعماله[113] .

٣ ـ قيام هيئة عليا على مستوى الوطن ذات كفاءات ممتازة ، وخبرات اختصاصية في مجال الترجمة والمصطلح بنقل الدوريات والموسوعات العلمية الشهيرة عالمياً من مختلف اللغات الى اللغة العربية[114] .

ثامناً دور المعجمات :

ـ وقد صدرت العديد من المعاجم باشراف هيئات علمية عربية تعتمد منهجية واضحة وموحدة في صياغة المصطلحات العلمية (الجدول المرفق) . وكمثال على الشكل الناضج من هذه المعاجم سنتناول « المعجم الطبي الموحد » بالدراسة المفصلة .

---

(١١٠) د. جميل صليبا : تعريب الاصطلاحات العلمية ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٣٨ ، الجزء ١ ، ص٨٨ .
(١١١) د. شوقي ضيف : توحيد المصطلح العلمي في التعريب ، وقائع مؤتمر مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، دورة ٤٦/ ١٩٨٠ .
(١١٢) د. محمد المنجي الصيادي : التعريب وتنسيقه في الوطن العربي ، الطبعة الثالثة ، معهد الانماء العربي ، ١٩٨٤ .
(١١٣) عبد العزيز بن عبد الله : اللسان العربي ، المجلد ١٢ كانون اول ١٩٧٥ ، ص ٥ .
(١١٤) وجيه فلسطين : وسائل تنسيق حركة الترجمة ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٥٣ ، الجزء ٣ ، تموز ١٩٧٨ .

جدول معاجم المصطلحات

• القاموس الطبي فرنسي - عربي للدكتور محمد رشدي البقلي - طبع في باريس ١٨٧١ .

• القاموس الطبي انجليزي - عربي للدكتور ابراهيم منصور - طبع في مصر عام ١٨٩١ .

• القاموس الطبي العلمي : عربي - فرنسي من تأليف نعمة اسكندر (وهو مترجم في مجلس الصحة العمومية بالقاهرة) وقد طبع بالاسكندرية ١٨٩٣ .

• القاموس الانجليزي - العربي في العلوم الطبية للدكتور محمد شرف - طبع في القاهرة ١٩٢٧ .

• مجمع الألفاظ الزراعية . فرنسي - عربي للأمير مصطفى الشهابي - الطبعة الأولى ١٩٤٣ والطبعة الثانية ١٩٥٧ - القاهرة .

• لوائح المصطلحات والمعاجم المتخصصة الملحقة بكتب جامعة دمشق للأستاذ جميل الخاني في علم الطبيعة ، وللأستاذ الدكتور حسني سبح في الأمراض الداخلية (سبعة أجزاء) .

• معجم كليرفيل الطبي كثير اللغات ، ترجمه الى العربية أساتذة جامعة دمشق الدكتور مرشد خاطر والدكتور أحمد حمدي الخياط والدكتور محمد صلاح الدين الكواكبي . صدر في دمشق عام ١٩٥٦ .

• معجم العلوم الطبية انكليزي - عربي - فرنسي لأساتذة جامعة دمشق : الدكتور مرشد خاطر ، الدكتور أحمد حمدي الخياط والدكتور محمد هيثم الخياط . صدر في دمشق عام ١٩٧٤ الجزء الأول منه .

• موسوعة العلوم الطبية : طبعت في دمشق باشراف وزارة التعليم العالي ، صدر العدد الأول بمناسبة العيد الذهبي لجامعة دمشق ثم توقفت عن الصدور .

ومن المعاجم المتخصصة التي وضعها بعض النابهين في فروع علمية متخصصة كي تعين على التعريب والترجمة والتأليف أو وضعتها المجامع والهيئات المهتمة بالتعريب :

المعجم الوسيط - مجمع القاهرة

معجم كاز مرسكي - بالفرنسية والعربية

معجم لين (مد القاموس) - بالانجليزية والعربية

معجم بادجر - بالانجليزية والعربية

معجم بيلو - بالانجليزية والعربية

معجم المنهل ـ بالفرنسية والعربية

معجم المورد ـ بالانجليزية والعربية

المعجم الطبي الصيدلي الحديث ـ د. علي محمود عويضة ١٩٧٠

المعجم الفلكي ـ أمين المعلوف ١٩٣٥

معجم أسماء النبات ـ د. أحمد عيسى ١٩٤٩

معجم المصطلحات الجراحية ـ د. أحمد عيسى ١٩٦٢

المعجم الكهربائي الالكتروني ـ وزارة الدفاع ـ دمشق ١٩٧٨

معجم المصطلحات البترولية الصناعية والنفطية ـ أحمد شفيق الخطيب

معجم القانون ـ حارث سليمان الفاروقي ـ ١٩٦٢

المعجم العلمي للمصطلحات القانونية والتجارية والمالية ـ يوسف شلالا وفريد فهمي

المعجم الفلسفي ـ يوسف كرم

معجم المصطلحات الديبلوماسية ـ د. مأمون الحموي ـ ١٩٤٩

معجم المصطلحات الجغرافية ـ القاهرة ١٩٦٤

معجم المصطلحات الأثرية ـ يحيى الشهابي ١٩٦٧

معجم مصطلحات الفنون ـ د. عفيف بهنسي ١٩٧١

معجم مصطلحات الحديث ـ د. نور الدين العتر ١٩٧٧

معجم قاموس علم النفس ـ د. فاخر عاقل ١٩٧١

المعجم العسكري الموحد ١٩٦٨

الصحاح في اللغة والعلوم ـ نديم مرعشلي، أسامة مرعشلي تقديم الشيخ عبدالله العلايلي ١٩٧٤

معجم مصطلحات العلم والتكنلوجيا ـ معهد الانماء العربي ١٩٨٢

الموسوعة الفلسفية العربية ـ معهد الانماء العربي ١٩٨٦

معجم مصطلحات تعويض الأسنان ـ انكليزي ـ عربي ـ فرنسي الدكتور ميشيل خوري الأستاذ في كلية طب الأسنان ـ دمشق، نقابة أطباء الأسنان ١٩٧٠

معجم المصطلحات الطبية : نشر عام ١٩٨٤ بالقاهرة بمناسبة احتفال مجمع القاهرة بالعيد الخمسيني لتأسيسه . من وضع لجنة المصطلحات فيه وباشراف مقررها الدكتور حسن علي ابراهيم

قاموس حتّي الطبي : انكليزي - عربي نشر عام ١٩٦٦ في بيروت بمناسبة العيد المئوي لتأسيس الجامعة الأميركية في بيروت لمؤلفه الدكتور يوسف حتّي أستاذ الأمراض الباطنية وعلم التشريح .

المعجم الفلسفي : للدكتور جميل صليبا الذي طبع عام ١٩٧١ في جزئين .

• المعجم الطبي الموحد •

إزاء التعدد في المصادر والجهات التي عنيت بمصطلحات الطب العربي وما بدا في وضعها وصياغتها من مفارقات ليست بالقليلة ، وما حدث في شأنها من بلبلة واضطراب ، إزاء هذا كله ، كان لا بدّ من التفكير والسعي وراء توحيد ما اختلف فيه ، وما أكثره . ومن أحق من الأطباء بأن يضطلع بهذا الأمر الخطير ؟ فلا عجب أن ينهض اتحاد الأطباء ، وأن يعد لهذا الأمر عدته باتخاذه قرارا سنة ١٩٦٦ بتوحيد مصطلحات الطب العربية وأن يسند تحقيق هذه الأمنية الى صفوة مختارة - كما جاء في القرار - من أساتذة وأطباء راسخين في علمهم ومتمكنين من لغتهم الضادية ، جاعلاً منهم لجنة ، لم تلبث أن والت اجتماعاتها طوال عدة سنوات متنقلة بين المواصم العربية المختلفة .

تولى الأستاذ محمود الجليلي - نائب رئيس المجمع العلمي العراقي مقرّر اللجنة ، رئاسة تحرير هذا المعجم ، وقام المجمع العلمي العراقي في مطبعته بطباعة بعض التجارب من المصطلحات المقرة ، عُرِضَت أوراقُها على عددٍ ممن يعنيهم أمرها لاستطلاع الرأي فيها ، وكان عدد من استجاب لهذه الرغبة قلّة قليلة وتمّ طبع الطبعة الأولى من المعجم - المعجم الطبي الموحد - انكليزي عربي سنة ١٩٧٣ في بغداد ، أُثْبِتَ على غلافه « طبعة خاصة » ، وجاء في آخر صفحاته وعددها ٣٨٥ ما يلي : استدراك وتصويب : بعد انجاز طبع هذا المعجم ، أُعيد النظر فيه مرة أخرى وأجريت التعديلات والاستدراكات الآتية : ويبلغ عددها ٣٧٦ في أربع عشرة صفحة ، ومع هذا أعيد طبع هذا المعجم بالأوفست في القاهرة سنة ١٩٧٧ بصورته السالفة بلا تغير ، وبعد سنة أخرى (١٩٧٨) طبع في مطبعة جامعة الموصل طبعة ثانية مصححة . وكان من مقررات مجلس وزراء الصحة العرب سنة ١٩٧٩ السعي الى إيجاد معجمين طبيين أحدهما انكليزي - عربي والثاني فرنسي - عربي يعتمد عليهما المكتب الاقليمي لمنظمة الصحة العالمية بشرق الأبيض المتوسط ، حسماً للخلاف الكثير البادي في المصطلحات الطبية والصحية في التقارير وفي ترجمة المنشورات في مختلف أقطار الوطن العربي ، بعد أن أخذ كل واحد يعمل على هواه . وأوكل أمر تحقيق هذه الأمنية الى المكتب الاقليمي المذكور وسرعان ما دعا مدير المقر في الاسكندرية أعضاء لجنة المعجم الطبي الموحد لاستطلاع الرأي فيما هو عاقد العزم عليه ، وبعد المذاكرة ، رأى المجتمعون أن تكلّف لجنة جديدة تضم بين أعضائها معظم أعضاء اللجنة السابقة لاتحاد الأطباء العرب ، مع زملاء جدد من ذوي الثقافة الفرنسية مهمتها اعادة النظر في المعجم

السابق ، واضافة ما ينبغي أن يضاف الى المعجم ما فات اثباته فيه من المصطلحات .. وبعد عقد عشر لقاءات في بلدان شرقي الوطن العربي وغربه على مدى أربع سنوات أنهت اللجنة عملها ووكلت الاشراف عليه الى مقرر اللجنة الدكتور محمد هيثم الخياط عضو مجمع اللغة العربية بدمشق ومن أساتيذ كلية الطب فيها ، فبذل ـ الجهد المشكور ـ ومضى في التحرير والاشراف على الطباعة ، وقد تمت في سويسرا بعد أن أضاف اليه مسردا عربيا ـ إنكليزياً ، ليعين به الباحث العربي في إيجاد ما يقابل الكلمة العربية من لفظ انكليزي ، فضلا عن مئات الصور الايضاحية في آخر الكتاب ، فجاء هذا المعجم الثلاثي اللغات : انكليزي ـ عربي ـ فرنسي أفضل من سابقه ، ومما صدر من هذا النوع من معجمات طبية شاملة .. وأُخرج المعجم بحلة قشيبة تسر الناظرين ، واشتمل على ٢٣٫٠٠٠ مادة في ٧٦٠ صفحة وعلى ١٥٫٠٠٠ كلمة في المسرد العربي المرتب على الحروف الهجائية .

وهكذا تم انجاز المعجم بشكله الحالي على نفقة منظمة الصحة العالمية ، واسهام مادي من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية ويؤمّل أن يصدر قريباً نسخة منه بترتيب فرنسي ـ عربي ـ انكليزي تلبية لحاجة الأقطار العربية التي درس أطباؤها ومثقفوها اللغة الفرنسية .

الأسس التي جرى عليها العمل في اختيار المصطلحات في المعجم الطبي الموحد

١ ـ استُعملتْ كلمةٌ عربيةٌ واحدةٌ مقابل التعبير الأجنبي ، ولم تُستَعْمَل المترادفات إلاّ في ماندر ، وبذلك يتحقق توحيد المصطلحات ، وهذه أهم ميزة للمعجم وهي التي جعلت اعداده يستغرق وقتا طويلا .

٢ ـ استعملت الكلمات العربية المتداولة التي سبق أن استعملها الأطباء العرب الأقدمون اذا كانت تفي بالغرض العلمي .. ولكن تُرِكَتْ الكلمات الدخيلة التي وجد ما يقابلها في العربية وأخذت اللجنة بنظر الاعتبار المصطلحات التي وضعتها المجامع أو اللجان أو العلماء .

٣ ـ ولما كان كثير من المصطلحات العلمية متعدِّد الأصول فقد كان لزاماً أن تلجأ اللجنة الى اختيار معنى واحد من المعاني العديدة التي وضعتها معاجم اللغة للفظ العربي الواحد وأن تلجأ الى المجاز في استعمال الألفاظ بتخصيص معناها العام أو تعميم معنى مجاور لمعناها اللغوي ، أو نقلها الى مدلول آخر أدق ، فصار لما يظنه البعض ألفاظا مترادفة مدلولات معينة مختلفة .

٤ ـ استُبعِدَت الكلماتُ الدخيلة و الأجنبية المعرّبة » إلا اذا كان اسم شخص أو مشتقة من اسمه ، أو كانت مستعملة في لغات متعددة ، ولم يمكن الوصول الى مقابل لها .. فبقيت لتبدّل فيما بعد .

٥ ـ ثُبِّتت سوابق ولواحق تمَّ الالتزام بها ، وذُكِرَتْ في أول المعجم ، مع تفضيل الصيغ الثلاثية المختصرة ، واستُعْمِلَتْ صيغٌ عربية سبق استعمالها في الطب ، والقياس على ذلك ، مثل صِيَغ فُعَال وفعل وفعول .

٦ ـ فُضِّل الاطِّراد والانسجام في استعمال الكلمات والصيغ على استعمال ألفاظ مُعجمية خارجة عن الانسجام لا يسهل حفظها وتداولها ، وابتعدت اللجنة عن الألفاظ الوعرة ما أمكن .

٧ ـ جرى التصرف في صيغ النسبة للتمييز أو منع اللبس ، فقيل بيضي وبيضوي وبيضاوي أو بيضاني ، كما نسب للمفرد وللجمع فقيل جرثومي وجراثيمي . .

٨ ـ لم تلجأ اللجنة الى النحت أو التركيب الا في ما ندر ، كأن تكون الكلمة قد شاع استعمالها أو تكون اللفظة مقبولة مفهومة أو في النسبة ، مع اتباع القواعد والضوابط المقررة .

٩ ـ كثيرا ما يعبر عن المفهوم الواحد في اللغات الأجنبية بمصطلحات متعددة مترادفة . . ومردُّ ذلك في الغالب الى أسباب تاريخية ، ولمَّا كان وضع المصطلحات العربية الآن قد تجاوز هذه المراحل التاريخية ، فقد اقتصرت اللجنة على ترجمة واحد من هذه المترادفات لا غير (هو أصلها لتأدية المعنى) بمصطلح عربي واحد ، يوضع في مقابلها جميعا مع الاشارة بجانب المترادفات الأخرى الى التعبير الذي اتفق على ترجمته بوضعه بعد علامة المساواة (=) بين قوسين .

١٠ ـ ضُبِطَتْ الكلمات العربية بالشكل ضبطاً كاملاً ، ووُضِع جمع الكلمة بين زاقرتين مسبوقا بحرف (ج :) كما وضع المفرد أو المثنى أو المؤنث أحيانا بين الزاقرتين مسبوقا بحرف (ف :) أو (ث :) أو (م :) على التوالي .

١١ ـ أضيف الى المعجم العديد من الصور التوضيحية ، زيادة في الايضاح ، وتثبيتا للمصطلحات وتعميما للفائدة من المعجم .

١٢ ـ استعملت طريقة الاملاء للكلمات الأجنبية المستعملة في قاموس **Dorland's Illustrated Medical** Dictionary الطبعة السادسة والعشرون سنة ١٩٨١ .

تقويم دور المعاجم :

تناول الأدباء العرب في القرن الماضي قصور المعجمات القديمة عن الاحاطة بمستجدات الفكر الحديث ، وما نتج من تفتح حضاري ، تمثل في ظهور المئات بل الآلاف من الألفاظ المستحدثة ، المندرجة تحت عنوان « المصطلحات » وقد حدا ذلك ببعضهم الى تأليف معاجم جديدة تساير تطلعات العصر وعلومه وفنونه . . وقد ظهر معجمان كبيران هما « محيط المحيط » لبطرس البستاني ، « وأقرب الموارد الى فصح العربية والشوارد » لسعيد

الشرتوني . . وقد ضمّ هذان المعجمان عددا كبيرا من المصطلحات العلمية والفنية مع ذكر المعرّب والدخيل وما تسرّب الى المادة اللغوية من لفظ عامي(١٦٥) . ونحن نسير اليوم على ضوء منهجيةٍ واضحة ، نأمل أن تسمح لنا بصياغة مصطلح علمي مناسب ، قابلٍ للذيوع والانتشار بسهولة ويسر ، وبشكلٍ موحّدٍ على نطاق كافة العاملين في الوطن العربي . . ونترقب أن يصدر القرار بالالتزام باستعمال هذه المصطلحات الموحدة من السلطات التنفيذية المعنية في مختلف البلاد العربية(١٦٦) .

نتائج وحلـــول :

١ ـ ان السمة المشتركة بين نقلة العلوم إلى العربية منذ القرن الثاني للهجرة وإلى اليوم هو الاتفاق على منهجية واضحة في اختيار وفي صياغة المصطلحات العلمية الجديدة وتتمثل هذه المنهجية بإيثار كلمات عربية صحيحة أولاً ثم الانتقال الى التعريب ثانياً . . . فلم يكن النقلة يعمدون دائماً الى استعارة الأسماء الأجنبية لمدلولاتها التي لم يكونوا يعرفونها بل كانوا يحاولون أن يضعوا لتلك المدلولات أسماء عربية خالصة إما عن طريق الاشتقاق وإما عن طريق التوسع في مدلولاتها ومعانيها القديمة . . . الا أنه لم يكن بالامكان تفادي دخول ألفاظ أعجمية الى العربية . . . وبعض هذه الألفاظ أخذ يشيع على ألسنة الكثيرين في الحياة اليومية ، ولا سيما أسماء النباتات والحيوانات والمقاييس والموازين والأمراض والأدوية(١٦٧) ، واستمرت هذه « المنهجية » سائدة على مر العصور ، مع بعض التغيير الذي تفرضه شخصية الناقل ومصادر ثقافته ، والتيارات السائدة في عصره ، والهدف من النقل أو التأليف ، إذا كان للبحث العلمي أو للتدريس والتعليم .

٢ ـ إن الكتابة للطلاب وللمبتدئين تقتضي التيسير والتبسيط ومسايرة تطور العلوم ، والالتزام بالعربية لغة علم وتدريس في وقت واحد . . . وهذا ما يؤدي الى التخلي جزئياً عن الوفاء المطلق للمنهجية التي أراد أن يتبعها المؤلف منذ بدء عمله في النقل أو التأليف . ويبدو ذلك الأمر جلياً في تجربة أستاذنا الدكتور حسني سبح رحمه الله والذي قدر له أن يشهد مولد حركة التعريب في بلاد الشام ويعاين تطورها ، ويساهم في إغنائها أستاذاً في كلية الطب جامعة دمشق وعضواً عاملاً ثم رئيساً لمجمع اللغة العربية بدمشق(١٦٨) . . . فإننا نجده من خلال أعماله يسير على أسس تساير التطور وتماشي علوم العصر(١٦٩) .

---

(١٦٥) د. رياض زكي قاسم : الرائد أول أعمال لغوية في القرن التاسع عشر ، مجلة الفكر العربي ، المجلد ٣٩ / ٤٠ ، ١٩٨٥ ، ص ٢٤٤ .
(١٦٦) د. قاسم سارة : منهجيات صياغة المصطلح العلمي ، مجلة الفيصل ، العدد ١٢٤ ، ص ٢٠ وما بعدها .
(١٦٧) د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي (٣) العصر العباسي الأول ، دار المعارف بمصر ، ص ٩٢ .
(١٦٨) د. قاسم سارة : الأستاذ الدكتور حسني سبح ، مجلة الفيصل العدد ١٣٩ ، ص ٩٥ وما بعدها .
(١٦٩) د. عدنان تكريتي : الأستاذ الدكتور حسني سبح ، المجلة الطبية العربية ، العدد ٩٢ (كانون أول ١٩٨٦) ، ص ٧ .

لقد ذكر الأستاذ حسني سبح شيئاً عن المنهجية التي كان يتبعها في وضعه للمصطلح الطبي وذلك في مقالات متفرقة ومناسبات مبعثرة ، ولعل أكثرها وضوحاً هي القواعد التي أوردها في تصدير أجزاء موسوعته الضخمة التي سمّاها « علم الأمراض الباطنة » والتي أصدرها في سبعة أجزاء ضخمة يختص كل جزء منها بشعبة من شعب الطب الباطني ، واستغرق إعداد الطبعة الاولى اثنين وعشرين عاماً (١٩٣٥ ـ ١٩٦٥)[١٢٠] ومن تلك القواعد كانت القاعدة الذهبية التالية « توخي الألفاظ الدارجة الصحيحة في الدرجة الأولى ، ثم تعريب الكلمات الأجنبية إن لم يجد ما يوفي بالمراد بها من الكلمات العربية تمام الايفاء »[١٢١] إلا أن الأستاذ ـ رحمه الله ـ لم يتقيد تماماً بهذه القاعدة بل آثر أن يخالفها بعض الأحيان[١٢٢] عن دراية وعلم . ويعلل مخالفته لذلك بأن غايته تسهيل فهم الأبحاث لا المباراة بغريب الألفاظ[١٢٣] « وأنه يعمل على تيسير العلم وتبسيط اللغة ، واختيار ما يسهل فهمه وهضمه من المصطلحات[١٢٤] . .

وقد هوّن عليه الاستمرار في المخالفة اعتقاده أنّ الخطأ المشهور خيرٌ من الصواب المهجور ، و (نحن) ما نزال في غمرة السعي الى اجتماع الكلمة على توحيد المصطلحات العلمية المستجدة »[١٢٥] وهكذا بقي الأستاذ على منهجه هذا يراعي القاعدة التي ذكرها في كتاباته في غالب عمله ، ويخالفها أحياناً حينما « يرى » للمخالفة ما يبررها .

٣ ـ يبدو من استعراض كتب النقلة الأوائل وأعمال الأعلام العرب من مؤلفين في العلوم البحتة والتطبيقية وفي علوم اللغة . . . أن المصادر التي اعتمدوا عليها في كتبهم ذات « شخصية متميزة » ، فكل ناقل أو مؤلف يعتمد ما كتبه واعتمده سلفه واذا رأى إضافة شيء جديد لم يمنعه ذلك من ذكر أقوال من سبقه قبل إبداء رأيه والاحتجاج لقوله . . . وهذا ما يعطي للدارس المتأمل انطباعاً عن مدى قدرة النقلة والمؤلفين العرب على التكيف والتعامل مع لغات العالم جميعها ، والوصول الى مصطلحات علمية حازت القبول على مدى العصور التالية ، ويبقى الكثير منها قيد الاستعمال حتى اليوم .

٤ ـ يبدو أن كل المحاولات الفردية أو الشخصية مهما كانت جادّة ومهما اتصف واضعوها بالشمولية العلمية ، والاطّلاع الواسع والدقيق على مفردات اختصاصهم العلمي ومهما كانت لهم خبرات طويلة في تحقيق التراث العلمي أو اللغوي . . . فانها ستبقى جهوداً قاصرة عن الوصول الى المصطلح العلمي الصحيح والملائم للذيوع والانتشار . . .

٥ ـ ولكن هذه الجهود والمحاولات الفردية تبقى ذات قيمة كبيرة . . . اذ تشكّل مصدراً لا يستغنى عنه من قبل المؤسسات والمجامع لدراسة المصطلحات العلمية ، وتطورها ، واختيار الأفضل منها . . .

---

(١٢٠) د. قاسم سارة : الأستاذ الدكتور حسني سبح ، مجلة الفيصل ، العدد ١٣٩ ، ص ٩٥ وما بعدها .

(١٢١) د. حسني سبح : مقدمة الجزء الثاني من علم الأمراض الباطنة (الأمراض الانتانية والطفيلية) .

(١٢٢) د. حسني سبح : مقدمة الجزء السابع من علم الأمراض الباطنة (أمراض الغدد الصم والتغذية والاستسمامات) .

(١٢٣) د. حسني سبح : علم الأمراض الباطنة ، مقدمة الجزء الثاني (الأمراض الانتانية والطفيلية) .

(١٢٤) د. حسني سبح : علم الأمراض الباطنة ، مقدمة الجزء الثالث (أمراض التنفس) .

(١٢٥) د. حسني سبح : علم الأمراض الباطنة ، مقدمة الجزء السابع (أمراض الغدد الصم والتغذية والاستسمامات) .

٦ ـ أما عن الجهة التي يمكن لها أن تضع المصطلحات أو تختار من المسارد الموضوعة سابقاً ما تراه ملائماً . . . فلا بد أن تكون مؤسسة ذات صفة « قومية » ، تتمثل في أفرادها خبرات كل الأقطار العربية في مجال المصطلح العلمي وكل اللهجات المحلية السائدة في الوطن العربي ، وتستفيد عبر خبراتها المختصين علمياً ولغوياً من الخبرات والتجارب القديمة والحديثة في ميدان تعريب العلوم . . .

٧ ـ وفي الوقت الحاضر نجد تسميات مختلفة ، وهيئات عديدة ، قد يتحقق فيها هذه الشروط ، مثل اتحاد المجامع اللغوية العربية ، والاتحادات المهنية العربية (اتحاد الأطباء العرب ، اتحاد المهندسين العرب . . . الخ) ومكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . . . ولا بد من تنسيق الجهود عبر لجان تحوي ممثلين وخبراء يقربون من وجهات النظر بين هذه المنظمات والمؤسسات ولا بد من التواصل الدائم ، والحوار الذي لا ينقطع بين هذه المنظمات قبل إقرار أي مصطلح علمي . ولنا في تجربتي العسكري الموحد والمعجم الطبي الموحد مثالان على ذلك .

٨ ـ وقبل ذلك كله وبعد ذلك كله ، لا بد من قرار سياسي أو سلطوي للالزام باستخدام ما يتم اقراره من المصطلحات . . . وفي كل المؤسسات العربية التعليمية والانتاجية العربية على امتداد الوطن العربي الكبير ، إذ لا حياة للمصطلح العلمي العربي الا باستخدامه اليومي . . .

* * *

مصادر المصطلح العربي العلمي

أعمال النقلة الأوائل - التراث العلمي المنقول من اللغات القديمة الفارسية - الهندية - اليونانية .
أعمال الأعلام العرب من مؤلفين ومعربين .
أعمال المترجمين والمصححين والمحررين في مصر ١٨٢٧ - ١٨٨٢ - مؤلفات علمية فرنسية .
أعمال أساتذة الجامعة الأمريكية في بيروت ١٨٦٧ - ١٨٨٣ - مؤلفات علمية انجليزية .
أعمال أساتذة جامعة دمشق ١٩١٩ - ١٩٤٥ - مؤلفات علمية فرنسية وتركية .
أعمال مجمع دمشق - ١٩١٩ - ١٩٨٨ .
أعمال مجمع القاهرة - ١٩٣٤ - ١٩٨٨ .
أعمال المجامع الأخرى - بغداد - عمان - مؤلفات علمية غربية (فرنسية - انجليزية - ألمانية . . .) - وشرقية - روسية . . .
منظمات أخرى .
مكتب تنسيق التعريب - ١٩٦١ - ١٩٨٨ .
معجمات وجهود فردية - جامعة دمشق - خبرات علمية وعملية - ١٩١٩ - ١٩٨٨ .
كل مؤلف يستفيد من جميع الأعمال التي سبقته .

* * *

الرواية الألمانية الحديثة
على ضوء تلقيها في العالم العربي

عبده عبود
جامعة البعث - حمص - سوريا

لن يصاب في ألمانيا أحد بالدهشة اذا قرأ ، أو تناهى الى سمعه ، أن الأدب الألماني يُستقبل في فرنسا ، أو بريطانيا ، أو في أيّ جزء من أجزاء العالم الخارجي ، الأوروبي - الأمريكي . فالمكتبة الألمانية أصبحت تحوي الآن عدداً لا بأس به من الدراسات حول هذا الموضوع[١] . أما أن يستقبل الأدب الألماني في مجتمع ذي حضارة يعتبرها الألمان غريبة ونائية ، كالحضارة العربية ، فهذه مسألة مازالت تبعث على الدهشة والاستغراب ، حتى في أوساط المختصّين في الأدب الألماني . فكثير من الألمان مازالوا حتى اليوم غير قادرين على أنْ يتصوروا أنّ بوسع القارىء العربي أن يستمتع بمطالعة رواية لغوته ، أو توماس مان ، أو حتى فرانز كافكا . أما الأسباب التي دعت الى استبعاد قضايا استقبال الأدب الألماني في العالم العربي من بحوث علم الأدب الألماني ، فمن غير الصعب تبيّنها . ففي طليعتها تأتي الحواجز اللغوية والحضارية الشاهقة ، التي تباعد بين ألمانيا والعالم العربي ، وتجعل منهما ، في نظر الألمان على الأقل ، منطقتين نائيتين عن بعضهما ، لا جغرافياً فحسب ، بل حضارياً كذلك . لذا يندر أن يقوم أحد من دارسي الأدب الألماني من بين الألمان باختيار اللغة العربية وآدابها (الاستعراب) كفرع دراسي جانبي[٢] . وبعبارة أوضح ، فإنّ علم الأدب الألماني ، بما في ذلك علم الأدب المقارن ، الذي يُمارس ضمنه ، غير بريء إطلاقاً من نزعة « المركزية الأوروبية » ، التي كثُر انتقادها في الأعوام الأخيرة[٣] . فعندما ينظر هذا

(١) راجع : (M.Durzak (1971 يعالج المؤلف في الجزء الأخير من كتابه هذا استقبال الأدب الألماني المعاصر في البلدان الأجنبية ، ولكن من الملاحظ أنه قد استبعد من بحثه العالم الثالث بصورة كاملة ، مما يدل على وجود نزعة الى « المركزية الأوروبية » .

(٢) على من يدرس الأدب الألماني كفرع رئيسي في جامعات ألمانيا الغربية أن يدرس إضافة إليه فرعين جانبيين (في حالة الماجستير) ، كالفلسفة وعلم النفس على سبيل المثال . وضمن هذا الاطار يستطيع طلاب الأدب الألماني أن يدرسوا الأدب العربي ، إن شاؤوا ، ولكن يندر أن يفعلوا ذلك .

(٣) لعلم الأدب المقارن في ألمانيا الغربية مجلة اختصاصية فصلية اسمها arcadia Zeitschrift fuer vergleichende Literaturwissenschaft يرأس تحريرها الأستاذ هورست روديغر ، المعروف بدفاعه المطلق عن « المركزية الأوروبية » في الدراسات المقارنة . فقد كان هذا الرجل يضع علامة مساواة بين الأدب الأوروبي والأدب العالمي . راجع بهذا الشأن (H. Ruediger (1961

العلم الى خارج حدوده اللغوية ، فإنه ينظر الى جيرانه الأوروبيين ، وقلّ أن يتعدى ذلك الى جيرانه الآسيويين ، أو « الشرقيين » ، حتى أولئك الذين يقطنون منطقة تطلق عليها تسمية « الشرق الأدنى » . . .

على أية حال أدّى هذا الوضع الى جعل دراسة استقبال الأدب الألماني في العالم العربي وقفاً على دارسي الأدب الألماني من العرب ، الذين ازداد عددهم بشكل ملحوظ منذ مطلع الستينات . فغالبية الأبحاث التي أُجريت حتى الآن في هذا الميدان ترجع الى باحثين عرب ، وهي أبحاث سرعان ما يفرغ المرء من تعدادها ، فإضافة الى عدد قليل من المقالات التي تعالج استقبال غوته وهيسه ، هناك أربع أطروحات دكتوراه ، حول استقبال بريخت ، وأطروحة خامسة حول استقبال غوته(٤) . ولئن عبّر هذا الوضع عن المستوى المتطور ، الذي بلغه استقبال بريخت وغوته عربياً ، فقد ولّد من جانب آخر انطباعاً بأنّ العرب لا يستقبلون من الأدب الألماني سوى أعمال هذين الأديبين ، وهذا انطباع خاطىء بلا ريب . ولكن بغض النظر عن هذه المسألة ، فإنّ المقالات والأبحاث والأطروحات الآنفة الذكر ، تقدّم للقارىء ـ إضافة الى ما تقدّمه بخصوص مواضيعها المحددة ـ معلومات وافرة عن مجمل الظروف الاجتماعية والثقافية والسياسية ، التي تمّ ويتم في ظلها استقبال الأدب الألماني ، بحيث يمكن القول إن أهميتها وقيمتها تتجاوزان مسائل استقبال بريخت وغوته في المنطقة العربية .

لمحة تاريخية

لم يقم أحد قبل الآن بوضع عرض تاريخي وافٍ لاستقبال الأدب الألماني في العالم العربي . صحيح أنّ بعض مقالات الدكتور مصطفى ماهر تحفل بإحالات وإشارات يمكن أن يستفيد منها الباحث الذي يودّ كتابة عرض كهذا ، ولكن موضوع تلك المقالات هو حركة الترجمة من الألمانية الى العربية بوجه عام ، لا الترجمة الأدبية على وجه الخصوص(٥) . إلا أن الأهم من تلك المقالات هي البيبليوغرافيا التي وضعها الأستاذ ماهر وزميله فولفغانغ أوله ، وتمكنا فيها من حصر القسم الأعظم من الأعمال الأدبية الألمانية التي تُرجمت الى العربية ، وقسم لا يستهان به من المادة النقدية المتوفرة باللغة العربية حول الأدب الألماني(٦) .

---

(٤) راجع مقالات مصطفى ماهر (١٩٨٣/ أ) وكمال رضوان (١٩٨٣) وناجي نجيب (١٩٨٤) ، وقد نشرت بمناسبة الذكرى ... لوفاة غوته . راجع أيضا :
A. G. Mikkawi (1976) ; K. Radwan (1979)

كما نحيل القارىء الى المحاضرات التي تقدم بها عبد الغفار مكاوي و فؤاد رفقة ومصطفى ماهر وغيرهم الى ندوة برلين للترجمة الأدبية (شباط ١٩٨٥) ، تلك المحاضرات التي صدرت بشكل مختصر في العدد الخاص من مجلة :
(Sprache im Technischen Zeitalter, 96/ 1985, S. 287—299)

أما أطروحات الدكتوراه التي عنيناها فهي : A.Karasholi (1970) ; M. Youssef (1976) ;
N. el—Dib (1979) ; A. Hilmi (1985) ; N. Haffar (1988)

والجدير بالذكر أن هذه الأطروحات قد وُضعت بالألمانية ، ولم يُعرب شيء منها حتى الآن ، فحرم القارىء العربي من الاستفادة منها . ومن المستشرقين الألمان القلائل الذين تصدوا لمواضيع ترجمة أعمال من الأدب الألماني الى العربية الأستاذ بيتر بخمان ، الذي تقدم حتى الآن بعدة أبحاث ، عالج فيها تجربتي الأستاذين عبد الغفار مكاوي و فؤاد رفقة على صعيد ترجمة الشعر الألماني ، وقصائد هولدرلين بشكل خاص ، الى العربية . راجع بهذا الخصوص : P. Bachmann (1985)

(٥) راجع : مصطفى ماهر (١٩٧٦) و (١٩٨٣/ ب) .

(٦) راجع : مصطفى ماهر وفولفغانغ أوله (١٩٧٩) . لقد انقضى ما يزيد على عقد من الزمن على صدور هذا المؤلف البيبليوغرافي القيم ، وبات من الضروري أن تصدر في طبعة جديدة ، تعكس الوضع الراهن لحركة الترجمة والتوسط الثقافي بين الأدبين العربي والألماني .

ترجع بدايات استقبال الأدب الألماني في العالم العربي الى مطلع القرن العشرين . فقد صدرت في عام ١٩٠٠ ترجمة عربية لمسرحية الأديب الكلاسيكي الألماني فريدريش شيللر (Friedrich Schiller) « الحب والدسيسة » ، التي يمكن اعتبارها أوّل بداية موثّقة لذلك الاستقبال[٧] . أما المحطة الهامة الثانية فترجع الى عام ١٩١١ ، عندما قامت الأديبة العربية المعروفة مي زيادة بترجمة قصة « الحب الألماني » لفريدريش ماكس موللر (Friedrich M.Mueller) وهو كاتب ألماني ضعف تأثيره الأدبي في هذه الأثناء ، ولم يعد معروفاً إلا كعالم أديان وباحث في الشؤون الهندية[٨] . ورغم أنّ تلك القصة تعتبر في إطار الأدب الألماني المرسِل عملاً غير هامّ ، فقد تحولت في إطار الأدب العربي المستقبِل الذي هاجرت إليه بواسطة الترجمة ، الى عمل أدبي هامّ ذي عنوان جديد هو : « ابتسامات ودموع » . وترجع هذه الهجرة الناجحة الى سببين رئيسين ، يتمثّل أولهما في الموهبة الأسلوبية الفذّة ، التي كانت المترجمة تتمتع بها . أما السبب الثاني فهو كون « الحب الألماني » قصة رومانسية متأخرة ، تماشت مع التيار الرومانسي ، الذي كان منتشراً في الأدب العربي ، وكانت مي زيادة نفسها أحد أعلامه البارزين[٩] .

كانت المحطة الهامة التالية في استقبال الأدب الألماني عربياً هي ترجمة رواية الأديب الكلاسيكي الشهير يوهان فولفغانغ غوته (Johann W. Goethe) ، « آلام فرتر » ، تلك الرواية التي شهدت منذ ١٩١٩ حتى اليوم ، ترجمات عديدة عن لغات وسيطة بالدرجة الأولى ، وقد كان أبرزها تلك الترجمة التي قام بها الكاتب العربي أحمد حسن الزيات عن الفرنسية ، ووضع عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين مقدمة لها[١٠] . تبين تلك الترجمة بنجاحها الكبير الى القدرات الأسلوبية التي كان المترجم يتمتع بها ، والتي مكنته من الجمع بين طرفي تلك المعادلة الصعبة التي تحكم الترجمة الأدبية ، ألا وهُما : « الأمانة » لمعاني النص الأصلي وقيمه الأسلوبية والجمالية من جهة ، ومراعاة المقتضيات والتقاليد الأسلوبية للغة الهدف وأدبها من جهة أخرى[١١] . علّق الزيات وطه حسين آمالاً كبيرة على التأثير الذي يمكن أن تمارسه الترجمة العربية لرواية « آلام فرتر » ، وذلك ليس على الصعيد الجمالي فحسب ، بل على الصعيدين الاجتماعي والثقافي أيضاً . وقد عبّر طه حسين في « مقدمته » ، والمترجم في « إهدائه » ، عن ذلك بصراحة ووضوح . فقد كان طه حسين ينسب الى الترجمة دوراً كبيراً في تجاوز حالة الركود التي كانت تعاني منها الثقافة العربية في عصره ، فوضع الترجمة بذلك في خدمة الثقافة المتلقية[١٢] . وقد اعتبر المقدِّم اختيار أحمد حسن الزيات رواية « آلام فرتر » للترجمة اختياراً صائباً ، لأن هذه الرواية « تمثل حياة الآداب الأوروبية في عصر هو أشدّ العصور شبهاً بهذا العصر الذي نسلكه » ، أي « عصر

(٧) راجع : لطيف زيتونة (١٩٨٨ ، ص ٢٩) . تُرجمت مسرحية شيلر « Kabale und liebe » عن الفرنسية بعنوان « الخداع والحب » ، وطُبعت في المطبعة الروسية ببيروت ، وقد أنجز الترجمة نقولا فياض ونجيب طراد .

(٨) راجع : مي زيادة (١٩٨٠) . الترجمة الأمينة لعنوان هذه القصة هي : « الحب الألماني - من أوراق غريب » . راجع : (F. M. Mueller (1873 والجدير بالذكر فيما يتعلق بموللر أنّ أبحاثه في ميدان الأساطير قد لاقت اهتماماً ملحوظاً لدى جيل رواد النهضة الأدبية الحديثة في العالم العربي .

(٩) راجع بهذا الخصوص : (J. A. Haywood (1971, S. 167 ff u. 185 ff

(١٠) راجع غوته (١٩٨٠) .

(١١) فيما يتعلق بطريقة أحمد حسن الزيات وآرائه في الترجمة راجع : محمد عبد الغني حسن (١٩٦١ ، ص ١٥ - ٢٢) .

(١٢) يمكن للترجمة أن تكون شكلاً من أشكال التفاعل الثقافي الأجنبي ، وأن تكرس التبعية الثقافية ، إذ هي لم تسترشد بالحاجات الثقافية والاجتماعية للمجتمع المتلقي . بهذا الخصوص راجع بحثنا (١٩٨٦ / أ) ، وكذلك بحث : B. Tibi (1981)

الانتقال من طور الى طور » ، على حدّ تعبيره . وعلى هذا الشكل جعل عميد الأدب العربي نجاح استقبال العمل الأدبي الأجنبي رهناً بتوفر شرط اجتماعي ـ ثقافي ، هو وجود تشابه بين المرحلة التي يمر بها المجتمع المرسل ، وتلك التي يجتازها المجتمع المتلقي . وهذه موضوعة هامة ، لم تفقد حتى اليوم شيئاً من راهنيتها(١٣) .

كانت الثلاثينات من هذا القرن مرحلة ركود شديد بالنسبة لاستقبال الأدب الألماني في العالم العربي ، وهو ركود أعقبه إبّان الأربعينات انتعاش ملحوظ ، يرجع الفضل فيه بالدرجة الأولى الى جهود مترجمين هما : محمود ابراهيم الدسوقي والدكتور عبد الرحمن بدوي . فقد عرّب الأول بعض أعمال الأديب الألماني هرمان زودرمان (Hermann Sudermann) ، بينما قام الثاني بترجمة ثلاثة من أعمال غوته الرئيسية ، هي : « الديوان الشرقي للمؤلف الغربي » و « القرابات المختارة » و « فلهلم مايستر » ، فدفع بذلك استقبال غوته في العالم العربي خطوات كبيرة الى الأمام(١٤) . وفي الأربعينات أيضاً بدأت موجة استقبال تمحورت حول الكاتبين الألمانيين إميل لودفيغ (Emil Ludwig) وستيفان زفايغ (Stefan Zweig) . فقد تنافس عدّة مترجمين على تعريب سِيَر اميل لودفيغ الروائية ، التي حظيت برواج كبير ، لا يكفي لتفسيره أن يرجعه المرء الى « الطابع الشرقي الذي تتصف به تلك الأعمال »(١٥) ، بل لابدّ له من أن يأخذ أيضا بعين الاعتبار حقيقة أنّ هذا الكاتب ينطلق من تصور شخصاني فردي للتاريخ ، تلعب فيه الشخصية التاريخية دوراً مطلق الأهمية(١٦) . وفي هذا يتفق لودفيغ مع ذلك التيار القومي العربي ، الذي يعقد أنصاره على شخصية تاريخية قوية كبسمارك أو نابليون الأمل في تحقيق طموحات العرب القومية(١٧) .

أما قصص وسير ستيفان زفايغ فقد شهدت بدورها استقبالا ترجمياً نشيطاً في العالم العربي ، ولكن نوعية الترجمة غير مُرضية في معظم الحالات . فقد شُوِّه بعض أعمال زفايغ الى درجة أنه بات يصعب التعرف الى أصول تلك الأعمال . أما الترجمات الجيدة بينها فهي قليلة ، نخص بالذكر منها ترجمة « لاعب الشطرنج » ، التي قام بها عن الفرنسية القاص العربي المعروف يحي حقي ، وهي ترجمة تذكّرنا جودتها الأسلوبية بترجمة رواية « آلام فرتر » ، التي أنجزها أحمد حسن الزيات(١٨) . والجدير بالذكر في هذا السياق أن علاقة حقي بزفايغ لم تقتصر على الترجمة والتوسيط النقدي ، بل تعدت ذلك الى التلقي الإبداعي الذي يفضي الى تأثر منتج . فقد أشار حقي في المقدمة الهامة التي وضعها لقصة « لاعب الشطرنج » الى أن قصته « البوسطجي » متأثرة بفن زفايغ القصصي(١٩) . وعلى هذا الصعيد لا يمثل حقي حالة استثنائية نادرة ، فبصمات زفايغ واضحة في أعمال العديد من القاصّين العرب الذين ينتمون الى جيل حقي ، ومن المؤكّد أن ذلك التأثير الخلّاق يستحق أن يكون موضوعاً لدراسات مقارنية قادمة .

---

(١٣) راجع بهذا الخصوص : U. Merkel (1982)
(١٤) لمزيد من المعلومات حول ما عُرّب من مؤلفات زودرمان وغوته نرجع الى : مصطفى ماهر وفرانتس ألِيه (١٩٧٩ ، ص ١٥ و ١٣٣ و ٨٤ ـ ٩٠) .
(١٥) المرجع نفسه ، ص ١٥ .
(١٦) راجع : Lexikon deutschsprachiger Schriftsteller
(١٧) بهذا الخصوص راجع : B. Tibi (1971) . نود أن نشير في هذا السياق « بالمدرسة الألمانية » في الوحدة العربية ، التي يعتبر المفكر القومي العربي ساطع الحصري أبرز أنصارها .
(١٨) انظر : ستيفان زفايغ (١٩٧٣) .
(١٩) المرجع نفسه ، ص ٨ .

رغم ان استقبال الأدب الألماني في المنطقة العربية قد دُشّن بتعريب مسرحية من مسرحيات الأديب الكلاسيكي فريدريش شيلر ، فإن استقبال أعمال هذا الأديب ظلّ حتى أيامنا بعيدا عن الاستمرارية والمنهجية والانتظام[٢٠] ، وذلك خلافا لتلقي أعمال صديقه أديب ألمانيا الأكبر الثاني يوهان ف . غوته ، الذي اتسم باستمرارية وتنوع جيدين نسبياً . ولا يتجلى ذلك في أن أعمال غوته الرئيسية قد تُرجمت الى العربية فحسب ، بل يتمثل كذلك في وفرة الأدبيات الثانوية باللغة العربية حول حياته وأدبه ، وفي استقبال أعماله بصورة إبداعية منتجة من قبل العديد من الأدباء العرب . فمن الذين تأثروا بغوته : عباس محمود العقاد ، وتوفيق الحكيم ، وأحمد علي باكثير ، ومحمد فريد أبو حديد ، على سبيل المثال لا الحصر[٢١] .

في الستينات ظهر في ميدان الترجمة الأدبية عدد من دارسي الأدب الألماني ، الذين لا يمتازون من سابقيهم من المترجمين بأنهم ينقلون الأعمال الأدبية عن لغة المصدر الأصلية فحسب ، بل أيضاً في أنهم يلمون بصورة جيدة بتاريخ الأدب والثقافة الألمانيين ، وهذا شرط هام ينبغي أن يتوفر في المترجم الأدبي . وبالفعل فقد كان لهذا العامل أثر إيجابي واضح في حركة الترجمة الأدبية من الألمانية الى العربية سواء على صعيد اختيار الأعمال ، أم على صعيد نوعية الترجمة ، وبالنسبة للتوسيط النقدي . كما طرأ تحول ملحوظ على تلك الحركة من حيث العصور والأجناس الأدبية التي تنتمي إليها الأعمال المترجمة ، فقد ازداد الاهتمام العربي بالدراما الألمانية الحديثة ، وهذا ما تمثل في ترجمة وإعداد الكثير من مسرحيات كُتّاب ألماني اللغة ، مثل برتولت بريخت (Bertolt Brecht) وفريدريش ديرنمات (Friedrich Duerrenmatt) وبيتر فايس (Peter Weiss) وماكس فريش (Max Frisch) وغيرهم . ومن المؤكد أن هذا الالتفات الى الدراما الألمانية الحديثة صلة وثيقة بما يجري في المسرح العربي المعاصر من تطورات جعلت الاستفادة من الفنون الدرامية لدى الشعوب الأخرى ضرورة ملحّة[٢٢] . بالمقابل ظل الاهتمام العربي بالشعر الوجداني الألماني محدوداً ، إذا ما قيس بالاهتمام الذي أبداه العرب بالأجناس القصصية والدرامية . ويرجع ذلك الى أسباب عديدة ، منها كون هذا الجنس أعرق الأجناس الأدبية وأكثرها تطوراً في الأدب العربي ، إضافة الى حقيقة أن ترجمة الشعر الألماني الى العربية بصورة تحقق قدراً مناسباً من التعادل الأسلوبي والجمالي مسألة بالغة الصعوبة ، لا سيما وأن المترجم يواجه نظامين عروضيين مختلفين جذرياً ، ناهيك عن الاختلاف الكبير في التقاليد الأسلوبية والبلاغية[٢٣] . ولكن هذا يجعلنا ننظر بتقدير أكبر الى الجهود التي بذلها بعض المترجمين العرب على صعيد نقل أعمال شعرية ألمانية الى العربية ، وهي جهود كان لثلاثة شعراء ألمان حصة الأسد فيها ، وهم : فريدريش هولدرلين وراينر ماريا ريلكه وبرتولت بريخت . وقد قُيّض للشعر الألماني أن يتوفر له مترجمون يضمون الى المهارة الترجمية موهبة أدبية عامة وحساسية خاصة للغة الشعر ، وفي مقدمتهم الأساتذة : عبد الغفار مكاوي ، وفؤاد رفقة ، وعادل قرشولي ، وهم شعراء ، إضافة لكونهم مترجمين .

---

(٢٠) لمزيد من المعلومات حول استقبال شيلر في العالم العربي راجع بحثنا (١٩٨٦ / ب) .

(٢١) راجع مصطفى ماهر (١٩٨٣ / أ) .

(٢٢) للمزيد حول استقبال الدراما الألمانية الحديثة في العالم العربي راجع مقدمتنا لكتاب دالرمبلد (١٩٨٣) .

(٢٣) حول مشكلات ترجمة الشعر راجع : J. Levy (1969, S. 127 ff)

وكان للأشعار الألمانية المترجمة الى العربية تأثير إبداعي على عدد من كبار الشعراء العرب ، كعبد الرحمن الشرقاوي وصلاح عبد الصبور وأمل دنقل وعبد الوهاب البياتي[٢٤] .

استقبال الرواية الألمانية الحديثة

كان الاهتمام بالأدب القصصي الألماني كبيراً نسبياً في كافة مراحل استقبال الأدب الألماني في المنطقة العربية . وقد تجلت هذه الحقيقة في ترجمة العديد من القصص والأقاصيص والروايات الألمانية الى العربية . ضمن هذا الاطار يتمتع استقبال الرواية الألمانية الحديثة بأهمية خاصة . فهذه الرواية تمتلك بفضل اتساع فضائها الملحمي ، وطابعها المعاصر ، قدرة كبيرة على أن تقدّم للقارىء العربي ، إضافة الى التجربة الجمالية ، معلومات وفيرة عن المجتمع المرسل وثقافته[٢٥] . ومما يزيد فرصها الاستقبالية كون تجسيدها الاستقبالي يتم بطريق المطالعة ، لا من خلال العرض المسرحي ، كما هي الحال في الدراما . ومن هنا تنبع ضرورة أن نولي استقبال الرواية الألمانية الحديثة اهتماماً خاصاً ، وأن نعطيه أولوية في البحوث التي نجريها حول استقبال الأدب الألماني في المنطقة العربية . ومن الطبيعي ألا يتمكن المرء من إيفاء موضوع كبير كهذا حقه من الدراسة والتحليل في بحث واحد . فهذا الميدان يتسع لعدد كبير من الأبحاث التي يخصص كل منها لدراسة استقبال أعمال روائي ألماني معين ، أو رواية ألمانية معينة . إلاّ أنه يحسن في البداية أن يدرس استقبال الرواية الألمانية الحديثة بوجه عام ، وذلك عن طريق معالجة استقبال أعمال روائية يمكن اعتبارها حالات نموذجية ذات دلالات كبيرة بالنسبة لمجمل ذلك الاستقبال ، وهذا ينطبق على روايات هاينريش مان وتوماس مان وهرمان هيسه وفرانتز كافكا ، وهم الكتاب الذين تمثل أعمالهم المترجمة الى العربية مراكز الثقل في استقبال الرواية الألمانية الحديثة في الوطن العربي . أما جوانب الاستقبال التي يجدر بالباحث أن يتناولها فهي : أ) نوعية الترجمة ، أي جودتها من النواحي الدلالية واللغوية والأسلوبية . ب) التوسيط النقدي ، سواء تمثل في المقدمات التي وضعها المترجمون للروايات التي عرّبوها ، أم في مقالات وأبحاث مستقلة ، ج) الاستقبال الإبداعي المنتج الذي تجلى في تأثر بعض القاصين العرب بروايات ألمانية حديثة .

هاينريش مان : « الملاك الأزرق »

حتى عام ١٩٨٧ كانت رواية « الأستاذ نفايات » رواية هاينريش مان (Heinrich Mann) الوحيدة المترجمة الى العربية ، حيث عُرفت تحت عنوان « الملاك الأزرق » . ومع ذلك فإن هذه الترجمة تمثل حالة استقبالية هامة تستحق أن يوليها المرء اهتماماً خاصاً ، فهي المرة الأولى التي تحظى فيها الترجمة العربية لرواية ألمانية حديثة بنجاح كبير على صعيد القراء . وقد تُرجم هذا العمل الروائي للمرة الأولى عن الانكليزية عام ١٩٥٩[٢٦] ، ولكن الترجمة التي قُيّض لها

---

(٢٤) لا يتسع المجال لايراد عناوين كل الأعمال الشعرية التي ترجمت الى العربية حتى الآن ، ولذا نكتفي بالاشارة الى أبرزها : عبد الغفار مكاوي (١٩٦٨) (١٩٧١) (١٩٧٤) (١٩٨٣) ، هلدرلن (١٩٧٤) ، برتولت بريشت (١٩٦٦) ، جورج ماورر (١٩٨٦) ، ناينرو ، ريلكه (١٩٦٩) ، جيورج تراكل (١٩٨٨) ، يوهان ف . غوته (١٩٨٠) .

(٢٥) راجع بهذا الخصوص : J. Levy (1969, S. 76 f)

(٢٦) راجع : هينريش مان (١٩٥٩) .

النجاح الجماهيري هي الترجمة التي قام بها الصحفي اللبناني خيرات البيضاوي ، وقد صدرت بعد عامين من صدور الترجمة الأولى[٣٧] . فما أسباب وخلفيات ذلك النجاح ؟ من المؤكد أنه لا يرجع الى جودة الترجمة ، التي ترتسم عليها من النواحي النصّية واللغوية والدلالية والأسلوبية علامة استفهام كبيرة . وأول ما يلفت الانتباه هو أن المترجم لم يورد العنوان الأصلي للرواية ، ولا الى لغة المصدر التي عرب عنها هذا الأثر الأدبي . فالملاك الأزرق هو عنوان فلمنة الرواية وترجمتها الانكليزية ، وليس بأية حال عنوانها الأصلي[٣٨] . وعندما يتفحص المرء الترجمة بصورة نقدية فسرعان ما يتبين له أن السيد بيضاوي قد استعان عند النقل بالترجمة الانكليزية والأصل الألماني كليهما ، وإن لم يكن بالدرجة نفسها . فمما يدل ، أو بالأصح يوحي بأن المترجم قد عرف الأصل الألماني بصورة ما ، هو ذلك التفسير الضمني لكلمة (Unrat) ، الذي بدأ به المترجم « مقدمته » ، التي دمجها في الرواية ، وحوّلها الى جزء منها[٣٩] . ولكن معرفته بالنص الأصلي كانت على مايبدو محدودة جداً . فكلّ القرائن تشير الى أنّ المترجم قد عرب الرواية عن لغة وسيطة هي الانكليزية ، لا عن لغة المصدر الأصلية . فسرعان ما يتحول اسم الأستاذ « رات » (Raath) الى « راث » ، ثم الى « ريث » ، منسجماً مع النطق الانكليزي لهذه الكلمة . إلّا أن المترجم لم يكتف بالأخذ بالصيغة الانكليزية لأسماء العلم ، بل أخذ أيضاً بأغلاط الترجمة الانكليزية ، وهذا أمر مستحيل الوقوع ، لو كان على معرفة كافية بالنص الألماني . ويمكن توضيح ذلك بالمثال التالي ، الذي تتطابق فيه أغلاط الترجمتين الانكليزية والعربية تطابقاً تاماً . هذا المثال هو تلك الأبيات التي يوجهها التلميذ (لوهمان) الى الراقصة (روزا فروليش) متغزلاً ، وهي في صورتها الأصلية :

Du bist verderbt bis in die Knochen ,
Doch bist du 'ne grobe Kuenstlerin :
Und Kommst du erst mal in die Wochen...

(أنت فاسدة حتى العظم
ولكنك فنانة كبيرة
وأما إذا جاءك النفاس . .)[٣٠]

وفي الترجمة الانكليزية ، التي قام بها هوارد فيرتيج :

Her virtue truly is to seek ,
But she's an artist to the bone
And when she comes to me next week .. [٣١]

---

(٣٧) المؤلف نفسه (١٩٦١) .

(٣٨) إن العنوان الأصلي لرواية هاينريش مان هو :
« Professor Unrat oder das Ende eines Tyrannen »
(بالعربية : الأستاذ نفايات ، أو نهاية طاغية) . راجع : H. Mann (1976a)

(٣٩) انظر : هنريش مان (١٩٦١ ، ص ٣ ـ ٩) .

(٣٠) انظر : H. Mann (1976a, S. 20)

(٣١) انظر : H. Mann (1976b, s. 28)
صدرت الترجمة الانكليزية لرواية هاينريش مان للمرة الأولى عام ١٩٣٢ .

تنطوي هذه الترجمة على خطأ في نقل التعبيرين الاصطلاحيين :

(verderbt bis in die Knochen) (Kommst du in die Wochen)

وقد أخذ خيرات بيضاوي الخطأين كليهما ، حيث عرب المقطع نفسه على الوجه التالي :

« طهارتها حرية حقاً بالبحث عنها ،

الا أنها فتانة في العظم ،

فإذا جاءتني في الأسبوع القادم . . . »[٣٢]

ولكن المترجم لم يكتف بنقل أغلاط الترجمة الانكليزية ، بل أضاف إليها أغلاطاً وتجاوزات وتحريفات معنوية لا حصر لها ، فشوّه الرواية بشدّة . وفوق هذا وذاك فقد صاغ الترجمة بأسلوب مهلهل ركيك ، يخلو من أية مسحة أدبية ، ويخدش الحس الأسلوبي لدى القارىء العربي ، ناهيك عن أنه لا يقترب بأية حال من أسلوب هاينريش مان وقيمه الجمالية .

قد يخطر ببال المرء أن يعتبر « الملاك الأزرق » ترجمة « حرة » أو « اقتباسية » ، ولكن مثل هذه النظرة تفتقد الى كلّ أساس . فالمترجم لم يرم من وراء التشويه المعنوي والنصي والأسلوبي الذي مارسه الى إعطاء العمل الأدبي الأجنبي رؤية جديدة ، أو الى إزالة طابعه الغرائبي[٣٣] . ولئن كان لهذا التشويه الشديد غرض ، ولم يكن مجرد تعبير عن نقص في الكفاءة الترجمية ، فإن ذلك الغرض لا يمكن أن يكون إلا « تعتيم » الرواية المترجمة من خلال مبالغات ترمي الى تكييف العمل الأدبي مع أذواق متلقي الأدب الرخيص ، وترويجه تجارياً في نهاية الأمر ، وهذا ماحدث بالفعل . لكن هذه النزعة التشويهية لا تكفي بمفردها لتفسير النجاح التجاري الكبير الذي حظيت به ترجمة خيرات البيضاوي لرواية « الملاك الأزرق » ، ولابد لنا عندما نحاول أن نفسر ذلك النجاح من أن نأخذ أمرين آخرين بعين الاعتبار : أولهما الغلاف الخارجي للكتاب ، وقد صمم بصورة مثيرة وفاضحة ، لتخاطب المشاعر الجنسية المكبوتة لدى القراء العرب ، الذين كثيراً ما يبحثون في قصص الحبّ الأجنبية عن متنفس للكبت الذي يعانون منه[٣٤] . والأمر الثاني هو النجاح الكبير الذي لقيه فيلم « الملاك الأزرق » أثناء عرضه في دور السينما العربية . وقد حاول المترجم بشكل صريح أن يستفيد من ذلك النجاح لترويج الرواية المترجمة ، التي اختار لها عنوان الفيلم نفسه ، وذلك بأن أشار الى الفيلم المذكور في صفحة الغلاف الأخير . إضافة الى العاملين الآنفي الذكر هناك ، في رأينا ، عامل مضموني ـ ثيمائي لعب دوراً كبيراً في ترويج رواية « الملاك الأزرق » . ويتمثل هذا العامل في تجاوب القراء العرب مع قصة « هذا الأستاذ المتزمت ، الذي يقع في حبّ غانية » ، لأنها قصة يسهل عليهم استيعابها وتعميمها على واقعهم المحلي . فالاشكالية الاجتماعية والسيكولوجية والأخلاقية ، التي يطرحها هاينريش مان في روايته ، قائمة أيضاً في الواقع الاجتماعي والحضاري العربي المعاصر ، وذلك رغم الاختلافات الاجتماعية والحضارية والتاريخية الكبيرة ، التي تباعد بين المجتمعين العربي والألماني .

(٣٢) انظر : هنريش مان (١٩٦١ ، ص ٣٧) .

(٣٣) بالنسبة لمسوغات الترجمة الحرة أو الاقتباسية راجع : J.Levy (1969, S. 86ff)

(٣٤) الأدبيات حول مسألة الكبت الجنسي في المجتمع العربي كثيرة ، ونكتفي هنا بالاشارة الى كتابات بو علي ياسين ونوال السعداوي .

لم يَحُلْ النجاح الجماهيري الكبير الذي لقيته الترجمة العربية لرواية « الملاك الأزرق » دون أن يتوقف استقبال هاينريش مان في العالم العربي بصورة شبه تامة لأكثر من ربع قرن ، لم تُعرَّب خلاله أية رواية أخرى من روايات هذا الأديب ، ولم تُسجَّل أية محاولة لتوسيط أعماله نقدياً . أما سبب ذلك الركود فهو ، في رأينا ، أن « نقد طريقة الحياة الرأسمالية البورجوازية » الذي يمثّل سمة أساسية من سمات أدب هاينريش مان ، هو أمر غير مطلوب ولا مرغوب في مجتمع كالمجتمع العربي ، الذي لم يشهد ظهور طبقة رأسمالية بورجوازية متطورة تشبه البورجوازية الألمانية التي قام هذا الأديب بنقدها في أعماله الروائية والقصصية . لذا يمكننا القول إنّ الشرط الاجتماعي ـ الحضاري لاستقبال أعمال هاينريش مان في العالم العربي بصورة تتناسب ومكانته في الأدب العالمي لم يكن متوفراً . لكن هذا الوضع أخذ بالتغير ، وذلك في سياق التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدها أكثر من قطر عربي في الأعوام الأخيرة ، تمخضت عن بروز « البورجوازية الطفيلية » كطبقة مسيطرة جديدة . وقد تمت في عام ١٩٨٧ خطوة هامة على صعيد استئناف تلقي أعمال هاينريش مان عربياً ، حيث صدرت ترجمة عربية لرواية « الخنوع » ، التي تُعتبر من أهم روايات هذا الأديب وأشهرها[٣٥] .

توماس مان : « آل بودنبروك »

لم يُعرَّب من انتاج توماس مان (Thomas Mann) الروائي الضخم سوى « آل بودنبروك » التي نقلها المترجم محمود ابراهيم الدسوقي عن الألمانية ، وصدرت ترجمتها في مطلع الستينات من هذا القرن[٣٦] . تُعتبر هذه الترجمة إنجازاً بارزاً في تاريخ استقبال الأدب الألماني في الوطن العربي ، وذلك ليس بسبب ضخامة العمل الأدبي المترجم فحسب ، بل وبسبب ضخامة المشكلات الترجمية التي يطرحها ، بهذا الخصوص يمكن للمرء أن يميز بين ثلاث معضلات رئيسية ، أولها المعضلة النحوية المتولدة عن طول الجمل وتركيبها النحوي المعقّد ، الذي يتسبب عند النقل الى العربية في مصاعب أسلوبية كبيرة ، لا يتمكن إلا المترجم القدير من إيجاد حلول ترجمية مناسبة لها . أما المشكلة الثانية فتتعلق بالجانب الدلالي ـ المعجمي ، وترجع بصورة رئيسية الى الوصف التفصيلي الدقيق والمسهب للبيئة والأشخاص ، الذي لجأ إليه الكاتب . وأخيراً وليس آخراً هناك مشكلة تنوع المستويات اللغوية ، والمزج الأسلوبي ، اللذين يتسم بها الحوار الروائي ، كمظهر من مظاهر أسلوب توماس مان الواقعي ، الذي يميل الى الطبيعية .

إذا تفحصنا الترجمة العربية لرواية « آل بودنبروك » بصورة نقدية نجد »نّ المترجم قد بذل قصارى جهده في سبيل التوصل الى حلول ترجمية مناسبة للمشكلات الآنفة الذكر ، وأنه قد نجح الى حد بعيد في مسعاه هذا ، ولا سيما بالنسبة لمشكلتي بناء الجمل والمعجم . فقد حاكى محمود ابراهيم الدسوقي جمل توماس مان الطويلة المعقدة ، بقدر ما هو ممكن لغوياً ، ومقبول أسلوبياً ، كما أظهر قدرة مدهشة على إيجاد معادلات باللغة العربية لتلك الوحدات المعجمية التي لا حصر لها ، التي تحفل بها الرواية . لكن مالم ينجح المترجم فيه بالدرجة نفسها هو نقل الحوار الروائي ، الذي تتجسد فيه

---

(٣٥) راجع : هاينريش مان (١٩٨٧) ، وراجع نقدنا لهذه الترجمة (١٨/ آب/ ١٩٨٨) . في هذا السياق نشير الى أطروحة ماجستير وضعتها السيدة فاطمة مسعود بالألمانية حول « بناء القصة القصيرة عند هاينريش مان » وقدمتها الى كلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٧٧ ، وهذا مؤشر آخر لتزايد الاهتمام العربي بأدب هاينريش مان .

(٣٦) راجع : توماس مان (١٩٦١) .

لغة توماس مان الطبيعية (الناتورالية) في أوضح صورها . فقد لجأ المترجم الى نقل الأحاديث والحوارات التي تجري بين شخصيات الرواية الى مستوى واحد من العربية الفصحى ، وصاغ حتى تلك المواضع التي تتكلم فيها الشخصيات لغة أجنبية غير الألمانية ، بأسلوب موحّد رفيع المستوى ، مما أفقدها الخصوصية اللغوية ، التي تتميز من خلالها كل شخصية عن الأخرى ، نتيجة لوضعها الاجتماعي والثقافي . وقد أدت طريقة الترجمة هذه بالنتيجة الى طمس الفروق الأسلوبية ، والى إفقار جمالي - أسلوبي ، يمكن اعتباره نقطة الضعف الأساسيّة في هذه الترجمة ، التي تعتبر برغم ذلك واحدة من أهم الترجمات الأدبية التي تمّت عن الألمانية حتى اليوم .

لئن كانت جودة الترجمة عاملاً يساعد على جعل العمل الأدبي الأجنبي يحظى بتأثير جماهيري واسع ، فإنها في الوقت نفسه لا تقدم ضمانة لأن يتم ذلك التأثير . فالترجمة العربية لرواية « آل بودنبروك » لم تلق ، بالرغم من جودتها ، نجاحاً كبيراً على صعيد القراء ، ولم تتحول في العالم العربي الى « كتاب منزلي » للبورجوازية ، كما حدث في عديد من الأقطار الأوروبية[٣٧] ولعل سبب ذلك هو أن المجتمع العربي لم يعرف بورجوازية شبيهة بتلك البورجوازيات الأوروبية التي وجدت في « آل بودنبروك » قصتها النفسية . فالشرائح الاجتماعية ، التي يطلق عليها البعض تجاوزاً تسمية « بورجوازية عربية » ، هي في حقيقة الأمر طبقة متخلفة اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ، وليس هناك كبير شبه بينها وبين البورجوازية « الهانزياتية » ، التي صوّرها توماس مان في روايته « آل بودنبروك »[٣٨] . ولهذا يمكن القول إن إشكالية « الانحلال » والانقطاع الى الفكر ، التي تمثل الموضوع الأساسي لهذه الرواية ، هي إشكالية سيكولوجية وثقافية غريبة على « البورجوازية العربية » ، ولا يمكن بالتالي لهذه البورجوازية أن ترى في رواية « آل بودنبروك » مرآة لمشكلاتها . وعلى أية حال فإن الترجمة العربية لهذه الرواية لم تشهد حتى الآن سوى طبعة واحدة ، نفدت منذ وقت طويل ، ولا يعرف اليوم إلا قليل من الناس أن هناك ترجمة كهذه .

من جهة أخرى شهدت رواية « آل بودنبروك » استقبالاً إبداعياً على يدي الروائي العربي الكبير نجيب محفوظ ، حيث مثلت إحدى القدوات الأدبية الأجنبية لثلاثيته الشهيرة . وقد كان السبب الرئيسي في اهتمام محفوظ بهذه الرواية هو أنّها ، من ناحية الجنس الأدبي ، « رواية أجيال » ، وهذا نمط روائي لم يتطور بعد في الأدب العربي الحديث[٣٩] . وقد انصبّ تأثر كاتبنا برواية « آل بودنبروك » على الجوانب الفنية الخاصة بهذا النوع من الروايات ، ونتيجة لذلك التأثر الإبداعي تولدت أوجه تشابه مضمونية وشكلية - فنية بين الثلاثية وقدوتها الأجنبية ، هي في رأي الناقد ناجي نجيب : أ) تصوير مجتمع يعيش مرحلة انحلال وانتقال . ب) ظهور نمط الإنسان المنقطع الى الفكر . ت) ثنائية الحياة والفكر[٤٠] . أما أوجه التشابه الفني بين الروايتين فتتعلق ، كما يرى الناقد نفسه ، بتكوين الشخصيات ، والبناء الروائي ، إضافة الى الشبه الأسلوبي ، الذي يتجلى في استخدام الأديبين أسلوب « التوازي والمقابلة والمفارقة ، مع

(٣٧) راجع بهذا الخصوص : W. Wehig (1970, S. 181)
(٣٨) فيما يتعلق بالنقاش النظري حول طبيعة البورجوازية العربية راجع : مهدي عامل (١٩٨٦) ، وفيصل دراج (١٩٨١) .
(٣٩) راجع : ناجي نجيب (١٩٧٥ ، ص ٦٣) ، جمال الغيطاني (١٩٨٠) .
(٤٠) راجع ناجي نجيب (١٩٧٥/ ، ص ٦١) .

الالتزام في نفس الآن بالخطّ الطولي والتتابع الزمني للأحداث ، هو شبيه ألمح إليه محفوظ نفسه ، حين قال إنه وجد لدى توماس مان « طريقة السرد الموضوعي » التي ينشدها[٤١] .

يُرجع ناجي نجيب التشابه الملاحظ بين روايتي « آل بودنبروك » و « الثلاثية » الى اتفاق في مضمون الخبرات الشخصية والتاريخية لدى الأديبين ، وهذا تفسير معقول ، ولكن له إشكاليته . فالاتفاق في الخبرات الشخصية بين هذين الأديبين فرضية تحتاج الى تدعيم بواسطة دراسة سيرية مقارنة . أما بالنسبة لمضمون الخبرات التاريخية ، فإن أوجه الاختلاف بين الرجلين تبدو لنا أكبر من أوجه الاتفاق . فبينما يطغى على الأفق الاجتماعي عند توماس مان « مزاج انحلالي » ، يعود الى تأثره الشديد بفلسفة المجتمع والتاريخ عند شوبنهاور ، نجد أن أفق نجيب محفوظ مطبوع بأفكار الاشتراكي العربي المبكر سلامة موسى[٤٢] . وخلافاً لناجي نجيب فإننا لا نرى أن الأفق الاجتماعي في « الثلاثية » يتمثل في انهيار شريحة التجار التقليدية القاهرية ، فهذه الطبقة الطفيلية ، التي تعيد تكوين نفسها بأشكال جديدة ، بعيدة كل البعد عن الانهيار . ومع أن أديبنا يصور في « الثلاثية » وأعمال روائية أخرى ما يحدث داخل الطبقة الوسطى من صراع أجيال وانهيارات ، فإن الأفق الاجتماعي في هذه الرواية يتحدد إيجابياً بصعود الحركة الوطنية الديمقراطية ، التي يشكل المتعلمون والمثقفون قاعدتها الاجتماعية الآخذة بالاتساع والتنامي .

شهد الاستقبال العربي لأعمال توماس مان ركوداً شديداً خلال العقدين الأخيرين ، فمنذ نشر الترجمة العربية لرواية « آل بودنبروك » لم يُنقل إلى العربية أي عمل روائي آخر من أعمال هذا الأديب . لكنّ الوطن العربي شهد بالمقابل صدور دراسات كثيرة نسبياً حول توماس مان وأدبه ، ولعل أبرزها كتاب مونوغرافي للفيلسوف الماركسي الشهير جورج لوكاتش ، الذي يتمتع بنفوذ فكري واسع في أوساط المثقفين العرب[٤٣] . وإذا صحّ أن تعريب هذا الكتاب قد مثّل مكسباً هاماً لاستقبال توماس مان في العالم العربي ، فمن الضروري ألا يغيب عن الأذهان أنّ الكتاب المذكور ينطوي على رؤية إشكالية لتطور توماس مان الفكري والفني . فلوكاتش من أشدّ المتحمسين لهذا الأديب الألماني ، حيث يرى في أدبه « تياراً من التقدمية » ، وأنه « لا يذهب إلى حدّ الأخذ بالديمقراطية فقط ، بل إلى حد الاعتراف بالاشتراكية حلاً لمشاكل البشرية »[٤٤] . وقد أثار الرأي جدالاً شديداً حتى في الأوساط الماركسية نفسها[٤٥] . وكان من أبرز الذين رفضوه المنظر الماركسي البارز إسحاق دويتشر ، الذي يعتبر توماس مان أديباً بورجوازياً محافظاً ، لم يقترب من المواقع الفكرية الاشتراكية إلاّ تحت وطأة صعود النازية . ولهذا فهو يرى في تقييم لوكاتش لتطور توماس مان الفني والفكري تعبيراً عن « جماليات ستالينية »[٤٦] . وفي كل الأحوال فإن مقالة دويتشر ، التي ينتقد فيها آراء لوكاتش المتعلقة بتوماس مان ، قد تُرجمت إلى العربية ، وأصبح بوسع القارىء العربي أن يحكم بنفسه على موقفي هذين

---

(٤١) المؤلف نفسه (١٩٧٣/ ، ص ٦٣) .

(٤٢) حول الأهمية التاريخية الفكرية لسلامة موسى راجع : B. Tibi (1972)

(٤٣) راجع : جورج لوكاتش (١٩٧٧) .

(٤٤) راجع : G. Lukacs (1975, S. 49)

(٤٥) راجع بهذا الخصوص : H.–J. Schmitt (1978)

(٤٦) راجع : I. Deutscher (1966, S. 2262 f)

المظَّرين . ولكن كيف يستطيع ذلك ، وروايات توماس مان الرئيسية ، التي يستند إليها لوكاتش ودويتشر ، وفي مقدمتها رواية « الدكتور فاوستوس » ، لم تُترجم بعد إلى العربية ؟ !(٤٧) .

هرمان هيسه : « قصة شاب »

ظلّ الروائي والشاعر الألماني هرمان هيسه (Hermann Hesse) مجهولاً في الرأي العام العربي حتى عام ١٩٦٥ ، حين صدر مقال للدكتور مصطفى ماهر ، قدّم فيه هذا الأديب للقراء العرب ، ولكن ما هي الصورة التي قدّمه فيها ؟ لقد قدّمه في صورة ثائر « يحمل منذ ولادته بذور التمرد » . ولم يشأ الناقد أن يعطي تلك الثورية مضموناً سياسياً أو اجتماعيا محدداً ، فوصف هيسه بأنه ثائر كوني « على الوحدة والانعزالية »(٤٨) . ولكن إذا رجعنا إلى سيرة هذا الأديب ، فسرعان ما يتبين لنا أنّ المقصود بتلك الثورة ليس إلا تلك الأزمات النفسية الحادّة التي مرّ بها هيسه خلال طفولته ومراهقته ، فاصطدم بالسلطة الأبوية والمدرسة ، مما حمله على إنهاء حياته الدراسية في سن مبكرة . فهل يسوغ هذا أن يقدَّم هيسه للقارىء العربي في صورة « ثوري » ، مع كل ما ينطوي عليه ذلك من إثارة لسوء الفهم ؟ ألم يجاء تقديم هيسه على هذا الشكل تحت تأثير المناخ الفكري والسياسي « الثوري » ، الذي ساد في مصر والعالم العربي إبّان الستينات ؟ ومن الملاحظ أيضاً أنّ الناقد قد مارس في مقاله هذا تمجيداً شديداً لهيسه وأعماله الأدبية ، فوصف تلك الأعمال بالخالدة والعظيمة والرائعة ، وذلك في وقت لم يكن فيه بوسع القارىء العربي أن يتأكد بنفسه من صحة تلك الأوصاف ، لأن شيئاً من أعمال هيسه المجّدة لم يُترجم بعد إلى العربية ، مما جعل ذلك التمجيد مجانياً وغير مقنع . ولكن بالمقابل فقد تجنب الناقد أن يتطرق إلى تلك المسائل في أدب هيسه التي يمكن أن تثير اهتمام المتلقين العرب ، وفي مقدمتها مسألة التشابه الواضح بين عالم هيسه الفكري والروحي ، وبين بعض جوانب التراث الفكري والروحي الاسلامي ، كالصوفية والحكمة ، تلك الجوانب التي استأثرت باهتمام أديب عربي كممدوح عدوان ، ودفعته الى تعريب عملين قصصيين من أعمال هيسه عن لغة وسيطة(٤٩) .

يبدو أن الهدف من مقال ماهر الآنف الذكر قد كان تهيئة الرأي العام العربي لاستقبال ترجمات عربية لأعمال هيسه الأدبية . فبعد ثلاث سنوات من صدور ذلك المقال صدرت ترجمة عربية لرواية هيسه المبكرة « بيتر كامنتسند » ، وقد تولى الدكتور ماهر نفسه إنجاز هذه الترجمة وتزويدها بمقدمة ، حافظ فيها على طريقة التوسيط النقدي التي اتبعها في مقاله الآنف الذكر(٥٠) . فقد رسم مرة أخرى صورة ثورية لهيسه ، ومجّده بشدة ، وأعفى نفسه من الخوض في مسألة الراهنية الفكرية والجمالية ، التي يتمتع بها أدب هيسه بالنسبة للمجتمع المتلقي .

---

(٤٧) إن آخر ما تُرجم إلى العربية من أعمال توماس مان هي دراسته « غوته وتولستوي » (١٩٨٨) ، أما روايات « الجبل السحري » و« الدكتور فاوستوس » و« يوسف وأخوته » فليس هناك ما يشير إلى اقتراب موعد تعريبها .

(٤٨) راجع : مصطفى ماهر (١٩٦٥ ، ص ٦٠) .

(٤٩) راجع : هرمان هيسه (١٩٨٣) ، (١٩٨٦) .

(٥٠) المؤلف نفسه (١٩٦٨) .

قدّم الدكتور ماهر ترجمته رواية « بيتر كامنتسند » قائلاً إنها « الترجمة الدقيقة والكاملة لرواية الأديب الألماني الكبير هرمان هيسه » . وبالفعل فإن هذه الترجمة دقيقة كاملة على صعيد النص . فهي لا تنطوي على أي حذف أو إضافة ، وهذا أمر إيجابي ، إذا تذكرنا ما فعله المترجم خيرات بيضاوي برواية « الفلاك الأزرق » على سبيل المثال . لكن « الدقة » التي ينسبها الدكتور ماهر الى ترجمته مسألة إشكالية جداً في الترجمة الأدبية ، وهي تحتاج بالتالي الى مزيد من التحديد والتوضيح . فترجمة النصوص الأدبية ذات الطابع الجمالي لا تتطلب الدقة بمعناها الدلالي ـ المضموني فحسب ، بل تتطلب أيضاً التعادل أو التقارب الأسلوبي ـ الجمالي ، الذي لا يتم إلا بالانتقال من العملية اللغوية ـ اللسانية الى العملية الأدبية(٥١) . ولكن من الملاحظ أن المترجم قد اكتفى في نقله لرواية « قصة شاب » بالعملية الأولى ، ولم ينتقل الى العملية الثانية ، مما أفقد النص المترجم طابعه الأدبي الجمالي . فالترجمة تبدو ، لقلة الصقل الأسلوبي ، جافة وباهتة ، لا تترك في نفس المتلقي ذلك التأثير الجمالي الذي تمارسه النصوص الأدبية حقاً . وحتى الدقة بالمعنى الدلالي ـ المضموني للكلمة ، فإنها غير متحققة بالصورة التي وعد بها المترجم ، ويبدأ النقص في الدقة بترجمة عنوان الرواية ، الذي تحول دون مسوّغ وجيه ، من « بيتر كامنتسيند » الى « قصة شاب »(٥٢) . ويمكننا توضيح هذه المسألة ـ أي قلة الدقة المعنوية ـ بواسطة المثال التالي ، الذي أخذناه من مطلع الرواية المترجمة . لقد جاء في النص الأصلي :

Am Anfang war der Mythos . Wie der grosse Gott in den Seelen der Inder , Griechen und Germanen dichtete, so dichtet er in jedes Kindes Seele wieder .

(في البدء كانت الأسطورة . وكما نظم الإله العظيم الشعر في نفوس الهنود والاغريقيين والجرمانيين ، فإنه يعيد نظمه يومياً في نفس كل طفل) .

وفي ترجمة الدكتور ماهر :

« في البدء كانت الأساطير . بثّ الإله جلت قدرته ـ كما بثّ في أرواح الهنود والاغريق والجرمان ـ مادة الأساطير ، وجعلها تبحث عن عبارة تكتسيها ، كذلك هو في كل يوم يتناول أرواح الأطفال ، كل الأطفال ، فيبثها الشيء نفسه » .

إن أول ما يلفت النظر في هذه الترجمة هو قيام المترجم بتحويل كلمة « الأسطورة » من صيغة المفرد الى صيغة الجمع ، وذلك دون أي مبرر . أو ليس هذا شكلاً من أشكال عدم الدقة ؟ أما « الإله العظيم » فقد تحول الى « الله جلت قدرته » ، أي الى إله المسلمين ، مع أنه في سياق النص إله الهنود والاغريق والجرمانيين . أو ليس هذا تحريفاً دلالياً ؟ و « الله جلت قدرته » لا ينظم الشعر في النفوس ، بل « يبث مادة الأساطير ويجعلها تبحث عن مادة تكتسيها » ! وهو لا ينظم الشعر في نفوس الأطفال ، بل « يتناول أرواحهم فيبثها الشيء نفسه ! » ما معنى هذا ؟ على هذا الشكل لم

(٥١) بالنسبة للدقة والتعادل الأسلوبي ـ الجمالي في الترجمة الأدبية راجع : K. Reiss (1971, S. 35—43) ; J. Levy (1969, S. 68)

(٥٢) يكون تغيير عنوان العمل الأدبي مسوّغاً اذا خشي المترجم أن يبدو العنوان الأصلي غرائبياً يغثر القراء ، ويعرقل استقبال الترجمة . إلا أن هناك أعمالاً أدبية أجنبية كثيرة استُقبلت بشكل جيد ، رغم محافظتها على عناوينها الأصلية ، ونذكر منها : « الكاترينا » و « دون جوان » و « الأخوة كارامازوف » وغيرها . فإذا قرر المترجم أن يغير عنوان العمل الأدبي لهذا السبب أو ذاك ، فلا بد له من أن يجد البديل المناسب . ومن جهتنا نرى أن « قصة شاب » عنوان باهت لا يشكل بديلاً مناسباً لـ « بيتر كامنتسيند » .

يتغير معنى النص فقط ، بل فقد النص تماسكه الدلالي ، وأصبح بلا معنى . فأين هي « الدقة » في كل هذا ؟ والآن لنتابع مثالنا لعل الصورة تتضح بشكل أفضل ! يقول هيسه في النص الأصلي :

Und ich sah die blaugruene glatte Seeberite, mit Kleinen Lichtern durchwirkt, in der Sonne liegen, und im dichten kranz um sie die jaehen Berge...und an iherm Fuss die schraegen, lichten Matten , mit Obstbaumen, Huetten, und grauen Alpkuehen besetzt.... (٥٣)

(ورأيت سطح البحيرة الأملس الأخضر الزرقة مستلقياً في الشمس ، توشيه أضواء صغيرة ، وتحيط به جبال شديدة الانحدار في إكليل كثيف . . . وعند سفوحها المراعي المائلة الوضاءة ، وقد غطتها أشجار الفاكهة والأكواخ وأبقار الألب الرمادية) .

وفي ترجمة ماهر :

« ولكني كنت أرى صفحة البحيرة الملساء ، الزرقاء في خضرة ، وكنت أرى الجبال الوعرة التي تتخللها أنوار صغيرة تحيط بالبحيرة كالتاج الكثيف ، وأرى عند أسفلها بسطاً وضاحة مائلة تقوم فيها أشجار الفاكهة والأكواخ وبقر جبال الألب الرمادي »(٥٤) .

إن أول ما نلاحظه هو أن في هذه الترجمة خطأين دلاليين مجسمين ، يتعلق أولهما بكلمة (Kranz) والثاني بكلمة (Matten) . فمعادل الكلمة الأولى بالعربية هو « إكليل » ، ومعادل الكلمة الثانية هو « مراع » ، ولكن لسبب غير معروف تحول « الاكليل » على يد مترجمنا الى « تاج » ، وتحولت « المروج » الى « بسط » . والغريب في الأمر أن المترجم قد عرّب كلمة (Matten) هذه الى « مروج » بعد سطور قليلة من ترجمتها الى « بسط » ! أولا يدل هذا على أنه لم يكلّف نفسه عناء توحيد ترجمة المفردة الواحدة ؟(٥٥) . ومن الملاحظ كذلك أن الأنوار الصغيرة أصبحت في الترجمة العربية « تتخلل الجبال الوعرة » بدلاً من أن تتخلل « صفحة البحيرة » . أما أبقار جبال الألب « فتقوم » عند أسفل الجبال ، وكأنها مبان أو أشجار . وهذه أخطاء دلالية مردّها عدم استيعاب النص الأصلي بصورة دقيقة ، والتسرع في ترجمته كيفما اتفق . وطبيعي أن تشوه أخطاء دلالية كهذه معنى النص ، إن لم تفقده معناه وتجعله سخيفاً . ولكن هذه الأخطاء ، على فداحتها ، ليست المعضلة الأساسية لترجمة « قصة شاب » ، فالمعضلة الحقيقية تكمن في الجانب الأسلوبي ، وبالتحديد في ذلك الإفقار الأسلوبي والجمالي ، الذي جعل من هذه الترجمة نصاً غير أدبي ، وبالتالي غير قابل للتذوق جمالياً . وتلك أكبر كارثة يمكن أن تلحق بعمل أدبي ، عندما يهاجر من أدب قومي الى أدب قومي آخر عبر الترجمة . فحياة العمل الأدبي تكون في هذه الحالة بيد المترجم ، الذي يستطيع أن يبعث في ذلك العمل حياة جديدة ، أو أن يقتله .

(٥٣) انظر : H. Hesse (1970, S. 343)

(٥٤) انظر : هرمان هيسه (١٩٦٨ ، ص ١٤) .

(٥٥) بخصوص المعنى المزدوج لكلمة (Matte) راجع : G. Wahrig (1980)

في عام ١٩٦٩ صدرت ترجمة عربية لرواية تُعتبر أهم روايات هيسه من الناحيتين الفكرية والجمالية ، ألا وهي « لعبة الكريات الزجاجية » ، وقد تولى نقلها عن الألمانية ، ووضع مقدمة لها ، الدكتور مصطفى ماهر أيضاً[٥٦] . ومن الملاحظ أن المترجم قد لجأ في هذه المرة الى تقديم الأديب الألماني في صورة تختلف الى حد ما عن الصورة التي قدمه فيها سابقاً . فقد استبدل الملامح الثورية بملامح يمكن وصفها بأنها « معتدلة » ، فلم يصف هيسه بأنه ثائر بالفطرة ، بل جعل منه رجلاً يعارض الحرب ، ويناهض الفاشية ، ويمنح الملجأ للذين يلاحقهم النظام النازي ويطاردهم[٥٧] . باستثناء هذا التعديل ظل الدكتور ماهر وفياً لطريقته المعهودة في التوسيط النقدي ، بل صعّد في هذه المرة تمجيده لهيسه ولرواية « لعبة الكريات الزجاجية » ، فوصفها بأنها « أعظم روايات هرمان هيسه وأقواها ، وأعظم مؤلفات زمانها »[٥٨] . ولكن في غمرة هذا التمجيد فات المترجم أن يتطرق الى المسائل التي تهم المتلقي العربي ، وعلى رأسها مسألة راهنية رواية « لعبة الكريات الزجاجية » بالنسبة للثقافة العربية المتلقية .

من ناحية نوعية الترجمة لا تختلف « لعبة الكريات الزجاجية » عن سابقتها « قصة شاب » . فطريقة الترجمة واحدة في الحالتين : « دقة » بمعنى التقيّد الظاهري بالنص الأصلي ، ولكنها دقة لم تحل دون وقوع كثير من الأخطاء الدلالية . أما على الصعيد الأسلوبي ـ الجمالي ، وهنا بيت القصيد ، فإن هذه الترجمة بعيدة كسابقتها كل البعد عن التعادل الأسلوبي والجمالي مع النص الأصلي ، بحيث بات من العبث تماماً أن يفكر المرء في تقييمها وفقاً لهذا المعيار الذي تقيم به الترجمات الأدبية . وقد ظهرت عواقب تردي المستوى الأسلوبي ـ الجمالي وسوء التوسيط النقدي في هذه الأثناء بكل وضوح ، وقد تمثلت في ضعف الاستقبال القرائي ، ولا مبالاة النقد الأدبي ، وغياب التلقي الإبداعي . وهذا مصير مؤسف جداً بالنسبة لرواية تُعتبر جمالياً وفكرياً من عيون الأدب العالمي .

ومن الذين ساهموا في استقبال روايات هرمان هيسه في الوطن العربي المترجم نابغة الهاشمي ، الذي عرّب رواية « ذئب البوادي » عن الألمانية[٥٩] . خلافاً لترجمتي « قصة شاب » و « لعبة الكريات الزجاجية » ، فإن هذه الترجمة لا تدعي الدقة والكمال ، كما لم يمارس المترجم دور الوسيط النقدي ، بل اكتفى بتعريب الرواية دون أن يضع لها مقدمة أو خاتمة . أما نوعية الترجمة فهي تفتقد الدقة النصية والمعنوية الى حد ما ، ولكنها تتسم على الصعيد الأسلوبي بشيء من السلامة ، مما ساعد في جعل المتلقين العرب يُقبلون عليها . فقد شهدت الترجمة العربية لرواية « ذئب البوادي » ثلاث طبعات خلال عقد واحد ، بينما لم تتعد روايتا « قصة شاب » و « لعبة الكريات الزجاجية » بأكثر من طبعة واحدة[٦٠] . ولكن مع أن المرء يستطيع أن يعتبر ترجمة « ذئب البوادي » مقبولة بوجه عام ، فليس بوسعه أن يتجاهل أن في هذه الترجمة كثيراً من الأخطاء الدلالية ـ المعجمية ، وأن طريقة الترجمة التي اتبعها نابغة الهاشمي تنزع الى حذف التفصيلات والجزيئات ، وبالتالي الى اختصار النص المترجم . نتيجة لذلك فقد العمل الأدبي جانباً من مكوناته

(٥٦) راجع : هرمان هيسه (١٩٦٩) .

(٥٧) المصدر نفسه ، ص ١٧ وما يليها .

(٥٨) المصدر نفسه ، ص ٥ .

(٥٩) راجع : هرمان هيسه (١٩٧٣) .

(٦٠) صدرت الطبعة الثانية من رواية « ذئب البوادي » عام ١٩٧٩ ، والطبعة الثالثة عام ١٩٨٦ .

الدلالية ، وخصائصه الأسلوبية . لذا فإن الفرق بين « ذئب البوادي » و « قصة شاب » و « لعبة الكريات الزجاجية » من ناحية نوعية الترجمة لا يتعدى كونه فرقاً نسبياً ليس أكثر ، ولا يمكن القول إن التعادل المعنوي والأسلوبي والجمالي متحقق في أي من هذه الترجمات الثلاث ، وطبيعي ألا يكون لترجمات هذا شأنها تأثير جمالي يقترب من تأثير الأعمال الأصلية .

رغم النكسة الكبيرة التي لحقت باستقبال أدب هيسه على صعيد الترجمة ، فإن هناك دلائل تشير إلى ازدياد الاهتمام العربي بذلك الأدب منذ مطلع الثمانينات . فمن تلك المؤشرات هذا الاستقبال القرائي الواسع نسبياً الذي حظيت به رواية « ذئب البوادي » ، وكذلك قيام بعض المترجمين بتعريب عدد من أعمال هيسه القصصية عن لغات وسيطة . فقد ترجم الكاتب السوري ممدوح عدوان قصتي « رحلة الشرق » و « سد هارتا » عن الانكليزية ، ونقل عبد الله صبحي مجموعة قصصية عنوانها « أنباء غريبة من كوكب آخر » ، وعرّب الأديب المغربي محمد زفزاف قصة « المتشرد »[61] . وما تلاحظ هذه الترجمات إلا دليل على أن أدب هيسه قد أخذ يحظى براهنية متصاعدة في الوطن العربي ، وأن مزيداً من المتلقين العرب أصبحوا يجدون في ذلك الأدب تعبيراً جمالياً عن مشكلاتهم الوجودية .

فرانتس كافكا : « القضية »

لم يثر أديب ألماني في العالم العربي جدلاً كالجدال الذي أثاره فرانتس كافكا ، ولم يترك أديب ألماني بصماته على الأدب العربي المعاصر ، كما فعل هذا الكاتب الألماني اللغة ، التشيكي الجنسية . وقد بدأ استقباله عربياً بمقال نقدي كتبه الدكتور طه حسين في أعقاب إقامته في فرنسا ، ومعايشته موجة تلقي كافكا ، التي شهدتها تلك البلاد بعيد الحرب العالمية الثانية[62] . فقد استأثرت شخصية هذا الأديب باهتمام عميد الأدب العربي ، حيث ذكّرته بشاعره المفضل أبي العلاء المعري ، فاعتقد بوجود شبه كبير بين الرجلين . أما أبرز أوجه الشبه التي رآها فهي : نزعة الشك والتشاؤم ، والإعراض عن الزواج والإنجاب . وقد ردّ طه حسين ذلك التشابه الى تقارب في الظروف التاريخية ، التي عاش الأديبان في ظلها ، وهي ظروف تتصف بانتشار الفساد ، واندلاع الاضطرابات والحروب[63] .

يحمل مقال طه حسين بصمات مرحلة من مراحل استقبال كافكا في فرنسا ، سادت فيها التفسيرات الميتافيزيقية ، والتساؤلات غير الأدبية . أما القرابة التي رأى طه حسين أنها تربط كافكا بأبي العلاء فلا تقوم على مقارنة سيرية موثوقة علمياً ، بقدر ما تستند الى انطباعات ذاتية ، مصدرها أفق صاحبها وموقفه المسبق . ولكن ليس المهم في هذا السياق أن تكون المقارنة بين الأديبين صحيحة من الناحية العلمية ، بل المهم هو أن الناقد أقدم أصلاً على مقارنة كهذه ، فقدم بذلك نموذجاً للنقد الأدبي ذي المنحى المقارن ، الذي يقيم جسوراً بين العمل الأدبي الأجنبي المرسل والأدب القومي المتلقي . وأخيراً فإن مقال طه حسين حول كافكا يستمد أهميته من كونه قد كُتب من قبل أديب يجيد فن

(٦١) راجع : هرمان هيسه (١٩٨٣) و(١٩٨٦) و(١٩٨٨) .

(٦٢) راجع : طه حسين (١٩٧٠) .

(٦٣) المرجع نفسه ، ص ٢٧٠ .

المقالة ، « ويمسك بناصية العربية في كل أشكالها »[٦٤] ، مما ضمن له تأثيراً واسعاً . ولهذا يمكن اعتبار ذلك المقال نموذجاً لتوسيط الآداب الأجنبية نقدياً بصورة سليمة . لم يؤد مقال طه حسين ، رغم جودته الى نشوء موجة من استقبال روايات وقصص كافكا ترجمياً . فالترجمة العربية لقصة « المسخ » ، وهي أول أعماله المنقولة الى العربية ، لم تصدر إلا في عام ١٩٥٧[٦٥] . ومرّ عقد آخر قبل أن تصدر ترجمة عربية لإحدى روايات كافكا ، وهي « القضية » ، التي قام الدكتور مصطفى ماهر بتعريبها[٦٦] . وفي هذه المرة أيضاً أراد المترجم أن يهيء الرأي العام العربي لتلقي مؤلفات هذا الأديب ، وذلك بمقال نقدي ، خصص الجزء الأعظم منه لاستعراض حياة كافكا وأعماله وأفكاره[٦٧] . وقد تطرق الناقد في بداية مقاله الى الصعوبات التي تعترض الكتابة عن كافكا ، وفي مقدمتها أن نفرا من اليهود ذوي المبادىء الخطيرة وضعوا أيديهم على أعمال كافكا وأرادوا لها صورة بعينها » ، مما يجعل تصحيح تلك الصورة ضرورياً[٦٨] . ولكن كيف صحح الدكتور ماهر صورة كافكا ؟ لقد قام بذلك عبر التركيز على أن أعمال هذا الكاتب تتسم بطابع انساني ، وأن كافكا أديب ملتزم بالاشتراكية[٦٩] . تُرى أيكفي ابراز انسانية أدب كافكا واشتراكيته لدحض التفسيرات الصهيونية لذلك الأدب ؟ إن الدكتور ماهر يكتفي برفض صورة كافكا المشوهة ، التي رسمها الصهاينة ، ولكن ذلك الرفض جاء إجمالياً ، لأن صاحبه لم يكلف نفسه عناء دحض الحجج الصهيونية وتفنيدها مضمونياً ، أي مقارعة الحجة بالحجة . كما لم يقدم الناقد في مقاله عرضاً رصيناً لتطور كافكا الأدبي والفكري ، مما يجعل صورة الأديب ذي النزعة الانسانية والاشتراكية ، التي يدعو الدكتور ماهر الى الأخذ بها ، صورة اعتباطية تفتقد التأسيس .

بعد مرور عام على صدور المقال الآنف الذكر صدرت الترجمة العربية لرواية « القضية » ، وقد زوّدها المترجم ، وهو الدكتور ماهر ، بمقدمة لا تختلف طريقة التوسيط النقدي المتّبعة فيها عن الطريقة التي اتبعها المترجم في توسيط روايتي هيسه ، « قصة شاب » و « لعبة الكريات الزجاجية » . كما مثّلت هذه المقدمة استمراراً ، بل وتكراراً ، لما جاء في مقالة « القضية لكافكا » ، سواء فيما يخص الحملة الخطابية على التفسيرات الصهيونية ، أم ما يخص الدعوة الى التمسك « تمسكاً لا هوادة فيه بإنسانية كافكا »[٧٠] . أما فيما يتعلق برواية « القضية » نفسها فقد تمحورت شروح كاتب المقدمة حول أغراض النقد الاجتماعي في هذه الرواية ، التي تصور ، في رأيه ، « محنة الانسان في مطلع القرن العشرين ، بعد البخار والكهرباء ، وفي مكان تظله الثقافة المسيحية الغربية » ! ولكن كافكا يمارس نقده الاجتماعي ، في رأي الدكتور ماهر ، انطلاقاً من « مفهوم اشتراكي » ، مما يدل على مدى إيمانه « بحتمية الاصلاح الاجتماعي والسياسي والثقافي وحتمية الاشتراكية »[٧١] . بذلك قدّم الناقد ـ المترجم تفسيراً « اشتراكيا » لرواية « القضية » ،

---

(٦٤) انظر : G. Brockelmann (1942, S. 285)

(٦٥) راجع : فرانس كافكا (١٩٥٧) .

(٦٦) راجع : فرانس كافكا (١٩٦٩) .

(٦٧) راجع : مصطفى ماهر (١٩٦٧) .

(٦٨) المرجع نفسه ، ص ٨٠٧ .

(٦٩) المرجع نفسه ، ص ٨٢٠ .

(٧٠) راجع : فرانس كافكا (١٩٦٩ ، ص ٤) .

(٧١) المصدر نفسه ، ص ١١ ومابعدها .

ولكنه تفسير يفتقر بدوره الى التحليل الرصين المتماسك . فتصوير البؤس لا يعني بالضرورة أن الأديب ينحو في نقده الاجتماعي منحى اشتراكياً ، ناهيك عن أن إقحام تفسير تبسيطي كهذا على رواية شديدة التعقيد والغموض كرواية « القضية » يتناقض تماماً مع الطريقة الفنية التي كُتب بها هذا العمل الأدبي المفتح على مختلف التأويلات .

إذا نظرنا الى الترجمة العربية لرواية « القضية » ، نجد أنها لا تختلف ، من حيث نوعيتها ، عن الترجمة العربية لرواية « قصة شاب » ، التي قام بها المترجم نفسه . ففي هذه المرة أيضاً أعلن المترجم أنه قد أنجز ترجمة « كاملة » و « أمينة » و « دقيقة » ، ولكنه لم يتمكن في الواقع من تجسيد الصفات التي نسبها الى ترجمته[٧٢] . فالإخلال بالدقة يبدأ بترجمة عنوان الرواية ، وهو بالألمانية : (Der Prozess) ، فترجمته الدقيقة ليست « القضية » ، بل « المحاكمة » ، وقد اختار هذه الترجمة جرجس منسي في تعريبه الرواية نفسها عن الانكليزية ، وابراهيم العريس في ترجمته لسيناريو فيلم اورسون ويلز ، وهو صيغة سينمائية لهذه الرواية[٧٣] . لكن مثل هذه الأخطاء الدلالية ـ المعجمية لا تمثل سوى جانب ثانوي في اشكالية الترجمة التي قام بها الدكتور ماهر . فالوجه الرئيسي لتلك الاشكالية يتموضع على الصعيد الاسلوبي ، حيث لم يتمكن المترجم من أن يؤمن حداً أدنى من التعادل أو التقارب الأسلوبي والجمالي بين الترجمة والنص الأصلي . ويتجلى الافتقار وانعدام التقارب الأسلوبي في أوضح صورهما في الأسلوب الذي عرّب به المترجم الحوار الروائي ، الذي يتميز عن غيره من مكونات النص بدرجة عالية من الشفوية والاقتراب من اللغة الدارجة . فبدلاً من أن ينقل المترجم هذا الحوار بصورة مناسبة لغوياً وأسلوبياً ، لجأ الى تعريبه بطريقة أضافت تعقد وتنوع المستويات اللغوية والأسلوبية . ومن اللافت للنظر أن الدكتور ماهر قد عمد خلال نقله للحوار الروائي في بعض الأحيان الى استخدام مفردات وتعابير قديمة ومتقعرة ، لا يمكن أن تستخدم في التواصل الشفهي اليومي ، وتتناقض كل التناقض مع لغة كافكا وأسلوبه . فقد ترجم مثلاً كلمة (Still) بـ « صه » بدلاً من « إهدأ » ، و « entscheidend » بـ « الفيصل » ، بدلاً من « المهم » ، و (gerne) بـ « على الرحب والسعة » ، بدلاً من « بكل سرور » . أما جملة (Sie sid vorsichtig) فقد ترجمها بـ « أنت عظيم الحيطة » ، بدلاً من « أنت حذر »[٧٤] .

إن حلولاً ترجمية كهذه ليست وليدة الصدفة ، بل تعبير عن نزعة الى التعويض والتقعر ، حيث يكون استخدام الوسائل اللغوية البسيطة أكثر ملاءمة . وهذه ، لبالغ الأسف ، نزعة متفشية في صفوف المترجمين العرب ، الذين كثيراً ما يميلون الى عرض عضلاتهم اللغوية والبلاغية ، حتى وإن تم ذلك على حساب التعادل الأسلوبي والجمالي ، ظناً منهم أنهم بترجمون بأسلوب « جزل » يبهر القارىء[٧٥] . ولحسن الحظ لم يحل المصير البائس ، الذي لقيته أعمال كافكا في الترجمة العربية ، دون أن يتأثر عدد كبير من القاصين العرب بتلك الأعمال عبر تلقيهم إياها بصورة إبداعية منتجة . فهناك إجماع من قبل النقاد على أن تأثير كافكا في القصة العربية المعاصرة كبير جداً ، ولكنه لم ينل حتى اليوم ما يستحق

(٧٢) المصدر نفسه ، ص ٣ .

(٧٣) راجع : فرانس كافكا (١٩٧٠) ، وفرانس كافكا واورسون ويلز (١٩٨١) .

(٧٤) انظر : فرانس Kafka (١٩٦٩) ، ص ٦٨ ، ٨٢ ، ٩٢ ، ٢٢٦ .

(٧٥) من أبرز ممثلي هذه النزعة الدكتور عبد الرحمن بدوي ، وقد كانت لها عواقب وخيمة على ترجماته المسرحية التي تعرضت لانتقادات شديدة من جانب عدد من الباحثين . بهذا الخصوص راجع دراستنا : (١٩٨٦ / ب) .

من دراسة . ومن المحاولات القليلة التي بُذلت على صعيد استقصاء تأثير كافكا في الأدب العربي المعاصر بحثان قصيران للناقدين رضوان ظاظا والدكتور حسام الخطيب . فقد سعى الأول لاظهار أوجه التشابه الفني بين قصتي « القبو » للكاتب السوري زكريا تامر و « حلم » لفرانتس كافكا ، وخلص الى أن القاسم المشترك ، الذي يجمع بين شخصيات هذين الأديبين ، هو « القدرة الغريبة على الخضوع »[٧٦] . ومثالاً على ذلك أورد الناقد « يوزف ك » بطل رواية « القضية » ، الذي ذُبح « عقاباً على ذنب لم يعرف ماهو » . لكن السيد ظاظا يرى أن كافكا لا يريد من قارئه أن يتوحد مع تلك الشخصيات المستكينة ، بل يود أن يثير في نفس هذا المتلقي « ردة الفعل التي لم تتوفر لدى شخصياته » ، وذلك هو غرض زكريا تامر أيضاً ، في رأي الناقد ، الذي يخطىء كل من يتهم هذين الأديبين بالتشاؤم والاستسلام للأمر الواقع .

ولئن كان التشابه بين شخصيات كافكا وتامر مسألة جديرة بالاهتمام ، فإنه من غير الجائز أن ندع ذلك التشابه يحجب عنا رؤية الاختلاف الكبير بين طريقتي هذين الأديبين في الكتابة . كما لا يجوز أن تنطلي علينا الغاية التي عقد الناقد مقارنته من أجلها . فمن الواضح أن السيد ظاظا يريد الدفاع عن زكريا تامر ضد النقد الذي وجهه إليه الداعون الى « الواقعية والالتزام » في الأدب العربي المعاصر ، وفي مقدمتهم أنصار « الواقعية الاشتراكية »[٧٧] . وقد زج الناقد بأديب عالمي الشهرة مثل كافكا في النقاش الدائر ضمن الأدب العربي المعاصر حول قضايا الواقعية والالتزام ، لا حباً بالمقارنة ، بل بغرض ترجيح كفة الطرف الذي يمثله زكريا تامر ، وهو طرف يرفض إلزام الأديب بالواقعية والالتزام السياسي والاجتماعي . وقد استعان السيد ظاظا برمز من رموز الثقافة الغربية المهيمنة في عالم اليوم ، وحاول أن يوظف النفوذ الضخم الذي تتمتع به تلك الثقافة في المجتمعات المتخلفة التابعة في الصراع الفكري الدائر ضمن الثقافة العربية . وهذا أسلوب لا نقره ، لأنه وليد منطق يكرس التبعية الثقافية . فعقد المقارنات بين الأدب العربي والآداب الأجنبية أمر مشروع ومطلوب ، ولكن شريطة ألا نجعل من الآداب الأجنبية معياراً نقيم به أدبنا . ولا يجوز للدراسات الأدبية المقارنة أن تكون وسيلة تكريس للهيمنة الثقافية ، بل وسيلة تصدٍّ لتلك الهيمنة[٧٨] .

أما الناقد الدكتور حسام الخطيب فيرى أن علاقة تأثر مباشر تربط رواية « المحاكمة » لكافكا برواية « في المنفى » للكاتب السوري جورج سالم ، ويعتبر ذلك التأثير « دليلاً على استمرار التأثير المباشر للأدب الأوروبي في القصة السورية »[٧٩] . وهذا التأثير واضح كل الوضوح ، في رأي الناقد ، ولا يحتاج بالتالي الى إثبات : « فمن يقرأ رواية في المنفى لا يستطيع إلا أن يتذكر المحاكمة لكافكا » . ويتجلى التشابه بين هاتين الروايتين في العديد من « المفهومات المشتركة » ، التي يذكر الناقد منها : « الخطيئة الأصلية والبراءة والنفي الكوني والعذاب الانساني والحتمية المفروضة وانحداد الرؤية »[٨٠] . ومع أن ما سمّاه الدكتور الخطيب « مفهومات مشتركة » لا يتعدى كونه عناصر ثيمانية

(٧٦) راجع : رضوان ظاظا (١٩٧٩ ، ص ١٥٩) .

(٧٧) بهذا الخصوص راجع مثلاً : نبيل سليمان وبو علي ياسين (١٩٨٤) ، ص ٢١١ - ٢٣٠ .

(٧٨) بالنسبة للقوى التواصلية السائدة في المجتمع الدولي راجع : B. Tibi (1981)

(٧٩) راجع حسام الخطيب (١٩٨٠) .

(٨٠) المرجع نفسه ، ص ١٣١ .

ومضمونية ، فقد آثر الناقد ألا يخوض في مقارنة تيماتولوجية ،[٨١] وأن يتخلى عن المقارنة الفلسفية والنظرية بين الروايتين « لصالح نوع من المقارنة الفكرية » ، وذلك من خلال المقارنة « بين العناصر الفنية المختلفة » . من ناحيتنا لا نفهم كيف يمكن للباحث أن يتجنب « المقارنة الفلسفية والنظرية » لصالح نوع من المقارنة الفكرية ، ولا كيف يمكنه التوصل الى ذلك من خلال المقارنة بين « العناصر الفنية المختلفة » . وعلى أية حال فإن أبرز العناصر الفنية ، التي يرى الناقد أنها مشتركة بين روايتي « المحاكمة » و « في المنفى » هي التالية : البطل الرئيسي غريب ومُدان سلفاً ؛ مشهد إلقاء القبض ؛ وفساد القضاة ؛ ودور المرأة في مساعدة البطل ؛ والغموض الذي يكتنف الحاكم[٨٢] . ويخلص الدكتور الخطيب من المقارنة التي عقدها بين الروايتين الى نتيجة تقييمية « ليست في صالح جورج سالم على الاطلاق » . فرواية « في المنفى » لا تتعدى كونها ، في نظر الناقد ، « نسخة مبسطة من رواية المحاكمة » ، وذلك لأن سالماً متأثر تأثراً شديداً بكافكا ، وهو يتبع خطاه ، وينسج على منواله » ، دون أن يكون لهذه المحاكاة « تسويغ كاف ، اما من زاوية معالجة الموضوع المشترك ، أو من ناحية إعطاء عمق جديد له »[٨٣] .

يمثل بحث الدكتور حسام الخطيب حول علاقة التأثير المفترضة بين روايتي « المحاكمة » و « في المنفى » نموذجاً لبحوث التأثير ذات المنحى التقويمي ، التي لا تكتفي باستقصاء أوجه التشابه بين أعمال تنتمي الى آداب مختلفة ، بل تتجاوز ذلك الى تقييم الأعمال الأدبية المقارنة ، والحكم على جودتها الفنية والفكرية . ولا جدال في أن لهذا النوع من الدراسات المقارنة فوائده ، وفي مقدمتها أنه يسلط الضوء على حالات التقليد الفجّ وغير المبرّر الذي يقدم عليه بعض الأدباء من ضعاف الموهبة ، وأنه يكشف عن نقاط الضعف الفنية والفكرية في بعض الأعمال الأدبية ، فيساهم بذلك في رفع سوية الأدب والنهوض به ، وتلك وظيفة أساسية من وظائف النقد الأدبي المقارن . ولكن من جهة أخرى لا يمكننا أن نتجاهل أن لهذا النوع من دراسات التأثير مخاطره ، وفي مقدمتها أن التشابه بين أعمال تنتمي الى آداب مختلفة لا يرجع بالضرورة الى التأثر أو المحاكاة ، فمن غير الجائز أن نتحدث عن « تأثير » ، مالم يسبق ذلك التأثير استقبال أدبي منتج[٨٤] .

فالتشابه قد يكون من النوع التيبولوجي ، الذي يرجع الى تشابه البنى الاجتماعية والثقافية للمجتمعات المختلفة ، لا الى علاقة أدبية قوامها التأثير والتأثر[٨٥] . وبالنسبة لروايتي « المحاكمة » و « في المنفى » ليس هناك ما يدل على وجود علاقة استقبال منتج بين جورج سالم وفرانس كافكا ، ولم يقدم لنا الدكتور الخطيب ذلك الدليل[٨٦] . أما

(٨١) بخصوص المقارنة التيماتولوجية في علم الأدب المقارن راجع : H. Dyserink (1981, S. 103)

(٨٢) راجع : حسام الخطيب (١٩٨٠) ، ص ١٣١ ومايليها) .

(٨٣) المرجع نفسه ، ص ١٣٥ ومايليها .

(٨٤) بخصوص علاقة التأثير بالاستقبال الأدبي المنتج راجع : U. Weisstein (1968, S. 35)

(٨٥) فيما يتعلق بأشكال العلاقات الأدبية راجع : G.R. Kaiser(Hg) (1980,S. 91—101) راجع أيضا بحث المقارن السوفيتي ايكور نيوبرشكي ضمن هذا الكتاب . ومن الجدير بالذكر أن الفضل في توضيح القرابة « التيبولوجية » بين الآداب المختلفة ، حتى تلك التي لا تقوم بينها صلات أدبية مباشرة ، يرجع الى هذا الباحث الكبير ، الذي لم تستوعب أعماله في العالم العربي بصورة وافية . راجع : سعيد علوش (١٩٨٧ ، ص ١٢٨) .

(٨٦) لم يشر الدكتور الخطيب في سياق عرضه لـ ... تأثر القصة السورية الحديثة بالأدب الأوروبي الى وجود أية علاقة استقبالية بين كافكا وجورج سالم . لذا جاء إيراد رواية « في المنفى » ، مثلا على استمرار التأثير المباشر الذي مارسه الأدب الأوروبي في القصة السورية مفاجئا للقارئ .

المحذور الثاني فيتمثل في أن المنحى الآنف الذكر في دراسات التأثير يجعل من العمل الأدبي الأجنبي ، والأوروبي بالتحديد ، معياراً يقيم بموجبه العمل الأدبي العربي ، فيحكم على نجاحه أو فشله فنياً وفكرياً بمقياس خارجي ، لا وفقاً لقيمة هذا العمل في إطار الأدب القومي الذي ينتمي إليه . ألا ينطوي هذا المنهج على خطر الإقرار الضمني بتفوق وهيمنة الآداب الأوروبية ، والوقوع غير المقصود في شرك « المركزية الأوروبية » ؟[٨٧] على أية حال فقد أصبحت علاقة رواية الأديب العربي السوري جورج سالم « في المنفى » برواية « المحاكمة » للكاتب الألماني اللغة فرانس كافكا مطروحة للنقاش ، وذلك منذ أثار الدكتور الخطيب هذه المسألة في بحثه الآنف الذكر ، ولا نظن أن الكلمة الأخيرة في هذا الموضوع قد قيلت . وفي رأينا أن الأسلوب الرمزي أو الأمثولي الذي يشكل أساس الطريقة الفنية في روايتي « المحاكمة » و « في المنفى » ، هو الجانب الأجدر بأن تتناوله الدراسات المقارنة ، بغض النظر عن مسألة التأثير والتأثر ، التي تضاءلت أهميتها بتراجع نفوذ « المدرسة الفرنسية » في علم الأدب المقارن[٨٨] .

في مطلع السبعينات عُرِّبت روايتا كافكا الأخريان : « أمريكا » ، التي نقلها الدسوقي فهمي عن الانكليزية ، و « القصر » ، التي ترجمها وقدم لها الدكتور مصطفى ماهر[٨٩] ، فأصبحت بذلك كل روايات كافكا في متناول القارىء العربي . بعدئذ شهد الاستقبال الترجمي لأعمال هذا الأديب شيئاً من الركود ، فلم يقم أحد بإعادة ترجمة الأعمال التي عُرِّبت بصورة غير مناسبة ، ولم تمتد حركة الترجمة الى قصص كافكا وكتاباته السيرية إلا ببطء شديد[٩٠] . ولكن الوطن العربي شهد منذ مطلع السبعينات نقاشاً حامياً حول علاقة كافكا بالصهيونية ، وهو نقاش لا نريد الدخول في تفصيلاته ، كي لا نتجاوز الإطار المرسوم لهذا البحث ، بل نكتفي بأن نعرضه بإيجاز[٩١] .

لئن كان استقبال كافكا ترجمياً قد تم في القطر العربي المصري بالدرجة الأولى ، فإن الجدال العربي حول صهيونية هذا الأديب قد دار في أقطار عربية أخرى ، هي : لبنان وسورية والعراق . وقد انقسم المشتركون في ذلك النقاش الى معسكرين ، الأول يضم خصوم كافكا ، الذين اعتبروه صهيونياً خطيراً تجب محاربته ، والثاني يحوي مريدي هذا الأديب ، الذين انبروا لتبرئته من تهمة الصهيونية ، بل وحاولوا أن يجعلوا منه أديباً معادياً لليهودية والصهيونية على حد سواء . في مراحل النقاش الأولى حاول بعض النقاد المقربين من الحركة الوطنية الفلسطينية ، مثل سعدي يوسف وأنور

---

(٨٧) راجع بهذا الخصوص : G.R. Kaiser (1980, S. 22)

(٨٨) بخصوص الأسلوب الأمثولي في رواية « المحاكمة » راجع : H. Binder (Hg.) (1979, Bd. 2, S. 438) بحول المدرسة الفرنسية في علم الأدب المقارن راجع سعيد علوش (١٩٨٧ ، ص ٣٣ ـ ٨٤) . ترجع كذلك الى نقدنا لأبحاث الملتقى المقدمة في المؤتمر الثاني للرابطة العربية للأدب المقارن دمشق ٦ ـ ٩ تموز (١٩٨٦) ، (١٩٨٦/٧/٢١) ولسوء الحظ لم تُوثق المناقشات النظرية التي دارت في ذلك المؤتمر ، واكتفى بنشر الأبحاث المقدمة في الدوريات السورية أما كتاب الدكتور سعيد علوش المشار إليه أنفاً فقد فرغ المؤلف من وضعه قبل انعقاد المؤتمر ، ولذا جاء خالياً من أية إشارة الى أبحاثه .

(٨٩) راجع : فرانس كافكا (١٩٧٠) ، فرانس كافكا (١٩٧١) .

(٩٠) لم يُترجم حتى اليوم من كتابات كافكا السيرية إلا القليل ، وذلك بالرغم من كثرة الاستشهاد بتلك الكتابات . وقد علمنا أن المرحوم رمسيس يونان قد عرَّب « رسالة الى الأب » التي تعتبر من أهم وثائق السيرة الذاتية لكافكا ، لكنها لم تنشر ، بسبب معيقات البحث العلمي المعروفة للجميع ، من التحقق من تلك الترجمة . أما بالنسبة لترجمة قصص كافكا القصيرة فلعل أبرز ما تم على هذا الصعيد هو قيام الدكتور سامي الجندي بتعريب بعضها من الفرنسية . راجع : فرانس كافكا (١٩٨٤) .

(٩١) نحيل من يريد التفصيلات حول هذا النقاش الى بحثنا (١٩٨٧) و (١٩٨٨/ ب) .

الغساني وفيصل دراج ومحمود موعد ، أن يبرهنوا ، تحدوهم الى ذلك دوافع وطنية تقدمية ، أن كافكا صهيوني . ثم تصاعدت الحملة المعادية لكافكا ، الى أن بلغت ذروتها في مقالة للناقد العراقي كاظم سعد الدين ، الذي قام بمحاولة فريدة في نوعها لإثبات أن كل ما كتبه كافكا من روايات وقصص قد كان مسخّراً لخدمة الصهيونية[٩٢] . وكان من الطبيعي أن تستثير تلك الحملة ، التي ظهر فيها من توظيف تعسفي لكتابات كافكا السيرية وقصصه ، ردود فعل أنصار هذا الأديب ، وفي مقدمتهم الباحثة العراقية بديعة أمين ، التي ألّفت كتاباً ترد فيه على كاظم سعد الدين وغيره من خصوم كافكا ، وتحدد موقفها من المسألة المطروحة للنقاش ، وهو موقف يتلخص في أن كافكا ليس أديباً صهيونياً ، كما يزعم الصهاينة وبعض النقاد العرب الذين وقعوا في حبائل الإعلام الثقافي الصهيوني ، وإنما أديب معاد للصهيونية ، بدليل أنه يكيل لليهود من النقد والتجريح والأوصاف النابية ما لا يمكن إلا أن يستنزل عليه لعنة الصهاينة »[٩٣] .

يمثل النقاش العربي حول صهيونية كافكا حالة فريدة في استقبال كافكا على المستوى العالمي . ومن الملاحظ أن هذا النقاش قد دار حول مسائل غير أدبية بالدرجة الأولى ، فإذا امتد الى قضايا أدبية ، فقد كان يتمحور حول قصة قصيرة عنوانها « بنات آوى وعرب » ، التي تبدو للوهلة الأولى صالحة لأن توظف في نقاش كهذا .[٩٤] أما فيما يتعلق بالإشكالية السياسية والايديولوجية التي تناولها المشتركون في النقاش ، فمن المؤكد أن هذا الجدال الذي دام قرابة عقدين ، ولم ينته بعد ، لم يقدم أية مساهمة في توضيح علاقة كافكا المعقدة باليهودية والصهيونية ، وظل متخلفاً عن المستوى الذي بلغته البحوث العالمية المتعلقة بهذه المسألة . ولعل السبب الرئيسي في ذلك هو أن معظم الذين شاركوا في ذلك النقاش غير مؤهل من الناحيتين اللغوية والعلمية لأن يخوض فيه . فلا بد لمن يريد أن يدلي بدلوه في مسألة شائكة ، مثل علاقة كافكا بالصهيونية ، من أن يجيد اللغة الألمانية التي كُتبت بها مؤلفات هذا الأديب ، وأن يحيط بالأدب الألماني ، وبالخلفيات الثقافية والتاريخية لأدب كافكا[٩٥] . وقد أدى عدم توافر هذا الشرط الضروري الى اعتماد المشتركين في النقاش على المراجع الفرنسية والانكليزية غير الموثوقة ، وفي مقدمتها كتاب الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي « واقعية بلا ضفاف » المترجم الى العربية[٩٦] . وأخيراً لا بد من التنويه الى أن لهذا النقاش خلفية سياسية وتاريخية ، هي الصراع العربي الصهيوني ، الذي شمل ميادين الأدب والثقافة . فقد حاولت الصهيونية توظيف شهرة كافكا العالمية الضخمة لصالح دعايتها الثقافية ، مما أثار ريبة بعض النقاد العرب ، ودفعهم الى وصم هذا الأديب بالصهيونية . ومع أننا لا نشك في نبل الدوافع القومية التي حركت هؤلاء النقاد ، لكن نبل الدافع لا يبرر ما وقعوا فيه من أخطاء ومغالطات ، ومن خروج على الأعراف العلمية ، بل وعلى المنطق في بعض الحالات .

في كل الأحوال فإن استقبال كافكا هو الفصل الأشد إثارة ، لا في استقبال الأدب الألماني ، بل في استقبال الآداب

---

(٩٢) راجع : كاظم سعد الدين (١٩٧٧) .

(٩٣) انظر : بديعة أمين (١٩٨١ ، ص ٥٥) .

(٩٤) أذيعت هذه القصة على الحلقة المذكورة أكثر من مرة . راجع : فرانس كافكا (١٩٧٤) و (١٩٨٦) و (١٩٨٨) .

(٩٥) بخصوص الخلفيات التاريخية لأدب كافكا نحيل القارىء الى مقالة الفيلسوف النمساوي المعروف إرنست فيشر E. Fischer (1975) والى أشمل مرجع حول حياة كافكا وأدبه ومحيطه : H. Binder (Hg) (1979) .

(٩٦) راجع : روجيه غارودي (١٩٦٨) ، ص ١٣٧ - ٢٢٨ .

الأجنبية كلها في العالم العربي . ولا شك في أن هذا التلقي ، بأشكاله الترجمية والنقدية والابداعية ، وبجوانبه السياسية ، سيشغل النقاد والباحثين ردحاً طويلاً من الزمن .

ملاحظات ختامية

إذا استرجعنا ما جاء في هذا البحث حول استقبال الرواية الألمانية الحديثة في العالم العربي فإننا نستطيع استخلاص النتائج التالية :

١ ـ لقد كان هذا الاستقبال جزئياً ، مبعثراً ، وعشوائياً ، بحيث لا يمكن للمرء أن يتبين فيه معالم تاريخ استقبالي مترابط .

٢ ـ على الصعيد الترجمي : أ) كان هذا الاستقبال محدوداً ، فلم يغط سوى نسبة ضئيلة من الأعمال الروائية الجديرة بالتعريب ، ولم يسد غير جزء يسير من الحاجة الثقافية الموجودة في المجتمع المتلقي . ب) قلّ أن أخذت تلك الحاجة معياراً لاختيار الأعمال المراد تعريبها ، فجاء الاختيار غير موفق في كثير من الحالات ، مما حدّ من التأثير الجمالي والفكري الذي مارسته الأعمال الروائية المترجمة . ج) كانت نوعية الترجمة في معظم الحالات غير مُرضية ، ولاسيما من النواحي الأسلوبية والجمالية ، إذ قلّ أن توافر فيها الحد الأدنى من التقارب الأسلوبي والجمالي بين الترجمة والنص الأدبي الأصلي[٩٧] . وقد كان هذا سبباً رئيسياً في ضعف التأثير ، وضآلة الدور التحديثي ، الذي لعبته الأعمال الروائية المترجمة في الأدب المتلقي . د) كان لمترجم واحد هو الدكتور مصطفى ماهر حصة الأسد في إنجاز الترجمات .

ومع أنه لا يمكن لمنصف أن ينكر الدور الكبير الذي لعبه هذا الرجل في التعريف بالأدب الألماني ، فإن الانصاف يقتضي كذلك أن نقف وقفة موضوعية وصريحة من الترجمات الأدبية التي أنجزها . فالدكتور ماهر لا يمثّل حالة فردية مقتصرة على قطر عربي معين ، أو على استقبال أدب أجنبي دون سواه بل نموذجاً يجده المرء في كل الأقطار العربية ، وعلى صعيد استقبال كل الآداب الأجنبية . إنه نموذج الأكاديمي المتخصص في أحد الآداب الأجنبية ، ولكنه لا يملك الموهبة الأدبية ، والحساسية الأسلوبية والجمالية ، اللتين تجعلان منه مترجماً أدبياً موفقاً ، ومع تقديرنا الشديد لهؤلاء الأكاديميين ، نرى أنه لا يجوز لمنزلتهم الأكاديمية أن تمنعنا من أن نقف من الترجمات التي أنجزوها وقفة نقدية علمية وغير مجاملة ، وذلك خدمة لحركة الترجمة ، وللحياة الأدبية في الوطن العربي .

٣ ـ يمكن اعتبار القسم الأعظم من محاولات التوسيط النقدي للروايات الألمانية المترجمة غير موفق ، ولا يسهم في تيسير استقبال تلك الروايات ، وتعميق فهم القارىء العربي لها . فكثيراً ما افتقرت المحاولات المذكورة الى التوجه المقارن ، ووضوح العرض ، والأناقة الأسلوبية ، والمنهجية ، وغير ذلك من مقومات التوسيط السليم للأعمال الأدبية الأجنبية .

---

(٩٧) بخصوص مسألة التعادل الأسلوبي والجمالي في الترجمة الأدبية راجع J. Levy (1969)

٤ - رغم التقدم الفني والفكري الكبير الذي تتسم به الرواية الألمانية الحديثة ، ورغم تمتع عدد كبير من أعمالها براهنية شكلية ومضمونية كبيرة بالنسبة للأدب العربي الحديث ، فإن استقبال هذه الرواية في شكله الابداعي المنتج لم يلعب أكثر من دور هامشي في تجديد الرواية العربية . وهذا يرجع في المقام الأول الى رداءة نوعية الترجمات ، التي جعلت الأدباء العرب يُعرضون عن تلقيها بصورة إبداعية ، وعن التأثر بها .

في الختام لا بد لنا من أن نتساءل : كيف يمكننا أن نصحح استقبال الرواية الألمانية الحديثة ، ليكون أكثر انسجاماً مع الحاجات الثقافية للمجتمع العربي من جهة ، ومع واقع تلك الرواية من جهة أخرى ؟ إن أول ما ينبغي عمله هو إخضاع ما تم نقله الى العربية من أعمال روائية ألمانية لنقد منهجي صارم ، يشمل أصعدة النص والمعنى واللغة والأسلوب . فالاستقبال الترجمي الصحيح هو أساس كل استقبال سليم للآداب الأجنبية(٩٨) . وغني عن الشرح أن على هذا التوسيط النقدي أن يعتمد منهجاً مقارناً ، يقيم جسوراً بين الأدبين العربي والألماني ، ويجعل المتلقين العرب يعون هويتهم الثقافية بصورة أفضل ، عبر مقابلتها بالثقافة الأجنبية .

فاستقبال الآداب الأجنبية بصورة غيرنقدية ، وبمعزل عن الحاجات الثقافية للمجتمع المستقبل ، لا يؤدي إلا الى مزيد من التبعية والغربة الثقافيتين . وفي رأينا فإن الأمة العربية قد تجاوزت مرحلة الانبهار غير الانتقادي بالثقافات الأجنبية ، وانتقلت الى مرحلة استيعاب تلك الثقافات على ضوء حاجاتها ، وانطلاقاً من هويتها الثقافية الراسخة . فلماذا تستثني الرواية الألمانية الحديثة من هذه المقولة ؟(٩٩)

* * *

(٩٨) لقد حاولنا التصدي لهذه المهمة في كتابنا : A. Abboud (1984) الذي ستصدر طبعته العربية ضمن منشورات وزارة الثقافة بدمشق .

(٩٩) لقد ساهمنا في ذلك بالنسبة للدراما الألمانية الحديثة عندما عربنا كتاب هانز فيشر (١٩٨٣) ، ووضعنا له مقدمة استعرضنا فيها استقبال هذه الدراما في العالم العربي ، ومعجماً لكتاب الدراما الألمان ، إضافة الى بيبليوغرافيا الأعمال الدرامية الألمانية ، التي تُرجمت الى العربية .

● أهم المراجع والمصادر

١ ـ باللغة العربية

ـ أمين ، بديعة (١٩٨١) : هل ينبغي إحراق كافكا . بيروت : دار الآداب .

ـ بريشت ، برتولت (١٩٦٧) : قصائد . ترجمة عبد الغفار مكاوي . القاهرة : دار الكاتب العربي .

ـ تراكل ، جورج (١٩٨٨) : قصائد مختارة . تعريب فؤاد رفقة . بيروت : المكتبة البوليسية .

ـ حسن ، محمد عبد الغني (١٩٦٦) : فن الترجمة في الأدب العربي . القاهرة : الدار المصرية للتأليف والترجمة .

ـ حسين ، طه (١٩٧٠) : فرانز كافكا . في : ألوان . القاهرة : دار المعارف . ط ٤ .

ـ الخطيب ، حسام (١٩٨٠) : سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية . دمشق : المكتب العربي لتنسيق الترجمة . ط ٢ .

ـ دراج ، فيصل (١٩٨١) : العلاقة الروائية في شخصيات الأيديولوجية ... الطريق ، المجلد ٤٠ ، ١٩٨١ ، ص ٢٢ ـ ٥٠ .

ـ ريلكه (١٩٦٩) : قصائد مختارة . تعريب فؤاد رفقة . بيروت : دار النهار .

ـ زافيغ ، ستيفان (١٩٧٣) : لاعب الشطرنج . ترجمة ... القاهرة : دار الكاتب العربي .

ـ زيادة ، مي (١٩٨٠) : ابتسامات ودموع أو الحب الألماني . دمشق : مؤسسة نوفل .

ـ زيتونة ، لطيف (١٩٨٨) : ترجمة المسرحية إلى العربية في عصر النهضة . الفيصل ، العدد ١٣٦ ، أيار ـ حزيران ١٩٨٨ ، ص ٢٨ ـ ٣٦ .

ـ سعد الدين ، كاظم (١٩٧٦) : حل رموز كافكا الصهيونية . في : الأقلام ، العدد ٩ ، ١٩٧٩ ، ص ٥٥ ـ ٦٦ .

ـ سليمان ، نبيل وبو علي ياسين (١٩٨٥) : الأدب والأيديولوجيا في سورية . اللاذقية : دار الحوار ط ٢ .

ـ قلعة ، رضوان (١٩٧٩) : الحلم والواقع عند فرانز كافكا وزكريا تامر . في : المعرفة ، العدد ٢٠٣ ، كانون الثاني ١٩٧٩ ، ص ١٥٧ ـ ١٦٠ .

ـ عامل ، مهدي (١٩٧٦) : في نمط الانتاج الكولونيالي . بيروت : دار الفارابي .

ـ عبود ، عبده (١٩٨٦) : الترجمة والحاجات الحضارية . دعوة إلى فتح ملف ثقافي عربي . الموقف الأدبي ، العدد ١٨٥ ، أيلول ١٩٨٦ ، ص ٩ ـ ١٨ .

ـ عبود ، عبده (١٩٨٦ / ب) لماذا يكره المسرح العالمي : حول الترجمة العربية لمسرحيات شيلر . في : الحياة المسرحية ، ٢٨ ـ ٢٩ / ١٩٨٦ ، ص ٩ ـ ١٨ .

ـ عبود ، عبده (١٩٨٧) : أين تقع أرض كنعان ؟ المثقف العربي حول صهيونية كافكا . في : المعرفة ، ع ٣٠٤ ـ ٣٠٥ ، تشرين الثاني ـ كانون أول ١٩٨٧ ، ص ٩٠ ـ ١١٠ .

ـ عبود ، عبده (١٩٨٨ / أ) : في انتظار الدكتور فاوستوس . في : تشرين ، ١٥/٦/١٩٨٨ .

ـ عبود ، عبده (١٩٨٨ / ب) : البطل الذي أتعب الثقافة . الأسبوع الأدبي ، ١٨/ آب/١٩٨٨ .

ـ عبود ، عبده (١٩٨٨ / ج) : أوقفوا كافكا على قدميه . الهدف ، المجلد الأول ، العددان الثاني والثالث ، ابريل ١٩٨٨ ، ص ٥٥ ـ ٣٢ .

- غارودي ، روجيه (١٩٦٨) : واقعية بلا ضفاف ، ترجمة حليم طوسون ، القاهرة : دار الكاتب العربي .

- غوته ، يوهان فولفغانغ (١٩٨٠/أ) : الديوان الشرقي للشاعر الغربي ، ترجمة وتقديم عبد الرحمن بدوي ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات ، ط ٢ .

- جيته (١٩٨٠/ب) : آلام فارتر ، ترجمة أحمد حسن الزيات ، تقديم الدكتور طه حسين ، بيروت : دار القلم .

- الغيطاني ، جمال (١٩٨٠) : مذكرات نجيب محفوظ ، في : المسيرة ، العدد ٨ ، ١٩٨٠ ، ص ٦٧ - ٧٥ .

- كافكا ، فرانز (١٩٥٩) : المسخ ، ترجمة منير البعلبكي ، بيروت : دار العلم للملايين ، ط ٢ ١٩٧٩ .

- كافكا ، فرانز (١٩٦٩) : القضية ، ترجمة وتقديم الدكتور مصطفى ماهر ، القاهرة : دار الكاتب العربي .

- كافكا ، فرانز (١٩٧٠/أ) : المحاكمة ، ترجمة جورج منسي ، القاهرة : دار الكاتب الجديد

- كافكا ، فرانز (١٩٧٠/ب) : أمريكا ، ترجمة الدسوقي فهمي ، القاهرة : دار الهلال .

- كافكا ، فرانز (١٩٧١) : القصر ، ترجمة وتقديم الدكتور مصطفى ماهر ، القاهرة : دار الكاتب العربي .

- كافكا ، فرانز (١٩٧٤) : بنات آوى وعرب ، ترجمة فيصل دراج ومحمود موعد ، في : الموقف الأدبي ، العدد ٦ ، ١٩٧٤ ، ص ١٢٤ - ١٢٧ .

- كافكا ، فرانز (١٩٨٢/أ) : بنات آوى وعرب ، ترجمة صلاح حاتم ، في : المرفأ ، العدد ٢٨ ، تموز ١٩٨٢ .

- كافكا ، فرانز (١٩٨٢/ب) : سور الصين ، ترجمة د. سامي الجندي ط١ ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات .

- كافكا ، فرانز (١٩٨٨) : « [illegible] » ، ترجمة [illegible] ، الكرمل ، العدد ٢٦ ، شباط ١٩٨٨ .

- كافكا ، فرانز / [illegible] (١٩٩١) : المحاكمة ، ترجمة وتحرير إبراهيم العريس ، بيروت : دار الطليعة .

- لوكاتش ، جورج (١٩٧٧) : توماس مان ، ترجمة كميل قيصر داغر ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات .

- مان ، توماس (١٩٦٦) : آل بودنبروك ، ترجمة محمود إبراهيم الدسوقي ، القاهرة : المؤسسة العربية الحديثة .

- مان ، هاينريش (١٩٥٩) : الملاك الأزرق ، ترجمة صادق رشيد ، القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر .

- مان ، هاينريش (١٩٦٦) : الملاك الأزرق ، ترجمة خيرات البيضاوي ، بيروت : دار العلم للملايين .

- مان ، هاينريش (١٩٨٧) : الخنوع ، ترجمة وتقديم ، أنيل نعيم ، بيروت : دار الوحدة .

- ماهر ، مصطفى (١٩٦٥) : هرمان هيسه رحلة الثقافة المعاصرة ، في : الفكر المعاصر ، العدد ١ ، آذار ١٩٦٥ ، ص ٥٩ - ٦٨ .

- ماهر ، مصطفى (١٩٦٧) : القضية لكافكا ، في : تراث الإنسانية ، العدد ١ ، نوفمبر ١٩٦٧ ، ص ٨٠٧ - ٨٣٠ .

- ماهر ، مصطفى (١٩٧٤) : ألمانيا والعالم العربي ، ترجمها وقدم لها د. مصطفى ماهر ، شارك في الترجمة كمال رضوان ، بيروت : دار صادر .

- ماهر ، مصطفى (١٩٨٣/أ) : فاوست في الأدب العربي المعاصر ، فصول ، المجلد الثالث ، العدد الرابع ، يوليو - سبتمبر ١٩٨٣ ، ص ٢٣٨ - ٢٤٧ .

- ماهر ، مصطفى (١٩٨٣/أ) : الترجمة من الألمانية إلى العربية ، في : ٢٥ عاماً معهد غوته في القاهرة ، القاهرة : معهد جوته ، ١٩٨٣ ، ص ٢٢ - ٢٧ .

- ماهر ، مصطفى وفولفغانغ أوله (١٩٧٩) : مؤلفات الكتاب الألمان مترجمة إلى اللغة العربية سلسلة ببليوغرافية ، بون ، باد جودسبرغ ١٩٧٩ .

- مايرز ، جورج (١٩٨١) : [illegible] ، ترجمة وتقديم : [illegible] ، بيروت .

- مكاوي ، عبد الغفار (١٩٦٦) : البلد البعيد . الشعر الألماني بعد الحرب العالمية الثانية ، القاهرة ، دار الكاتب العربي .

- مكاوي ، عبد الغفار (١٩٧١) : التعبيرية في الشعر والقصة والمسرح . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة .

- مكاوي ، عبد الغفار (١٩٧٤) : ثورة الشعر الحديث . النصوص . القاهرة . الهيئة المصرية العامة .

- مكاوي ، عبد الغفار (١٩٨٧) : قصيدة وصورة . الكويت . سلسلة « عالم المعرفة » .

- نجيب ، ناجي (١٩٧٨) : قصة توماس مان و آل بودنبروك ، وثلاثية نجيب محفوظ . في : فكر وفن ، العدد ٣١ ، ١٩٧٨ ، ص ٣٧ - ٦٥ .

- نجيب ، ناجي (١٩٨٢) : جوانب من استيعاب غوته في العربية ، كيف استوعب النقاد فاوست ، في : فكر وفن ، العدد ٣٧ ، ١٩٨٢ ، ص ٦١ - ٦٦ .

- هلدرلين (١٩٧٤) : مختارات من شعره ، تعريب فؤاد رفقة ، بيروت : الأهلية للتوزيع والنشر .

- هيسه ، هرمان (١٩٦٨) : قصة شاب . ترجمة وتقديم الدكتور مصطفى ماهر ، القاهرة : دار الكاتب العربي .

- هيسه ، هرمان (١٩٦٩) : لعبة الكريات الزجاجية ، ترجمة وتقديم الدكتور مصطفى ماهر ، القاهرة : دار الكاتب العربي .

- هيسه ، هرمان (١٩٧٣) : ذئب البوادي ، ترجمة النابغة القاسمي ، دمشق ط ١ ١٩٧٣ ، بيروت : دار ابن رشد ، ط ٢ ١٩٧٩ ، ط ٣ ١٩٨٦ .

- هيسه ، هرمان (١٩٨٩) : رحلة الشرق ، ترجمة ممدوح عدوان ، بيروت : دار الشروق .

- هيسه ، هرمان (١٩٨٦ / أ) : سد هارتا ، رواية ، ترجمة ممدوح عدوان ، عمان : دار منارات .

- هيسه ، هرمان (١٩٨٨) : الطاحونة ، ترجمة عصام زكراك ، مراجعة شلبية حطر ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية العامة .

- هيلر ، فالتر (١٩٨٣) : الدراما الحديثة في ألمانيا ، ترجمة وتقديم هند عبود ، دمشق .

***

٢ ـ باللغات الأجنبية

— Abboud, Abdo (1984) : **Deutsche Romane im arabischen Orient,** frankfurt/M

— Bachmann, Peter (1985) : Deutsche gedichte in arabischer Uebersetzung. In : sprache im technischen Zeitalter, 96-1985, S. 267-271.

— Binder, Hartmut (Hg.) (1979) : **Kafka-Handbuch,** stuttgart.

— Brockelmann, Carl (1942) : **Geschichte der arabischen Literatur,** 3. Supplementband, Leiden.

— Deutscher, Isaac (1966) : Lukacs, Critique de Thomas Mann, In : **Temps Modernes, Nr. 248,**

— Dib, Nahed (1979) : **Die Wirkungen des Stueckeschreibers B. Brecht in Aegypten,** stuttgart.

— Dyserinck, Helmut (1981) : **Komparatistik Eine Einfuehrung,** Bonn.

— Fischer, Ernst (1975) : **Von grillparzer zu Kafka,** Frankfurt a.M.

— Haffar, Nabil (1988) : **Arabische Brecht-Rezeption,** Berlin.

— Haywood, John F. (1971) : Modern Arabic Literature 1800-1970, London.

— Hesse, Hermann (1970) : Gesammelte Werke, Frankfurt a.M.

— Hilmi, Aladdin (1985) : Arabische Goethe-**Rezeption,** Bonn.

— Kaiser, Gerhard R. (1980) : Einfuehrung in die Vergleichende Literaturwissenschaft, Darmstadt.

— (Hg.) (1980) : **Vergleichende Literaturforschung in sozialistischen Laendern,** Stuttgart.

— Karasholi, Adel (1970) : Das Lehrstueck "Die Ausnahme und die Regel" und die **arabische Brecht-Rezeption**

— Levy, Jiri (1968) : **Die** literarische Uebersetzung Theorie einer Kunstgattung, Bonn.

— Lexikon **deutschsprachiger** Schriftsteller (1974), Leipzig.

— Lukacs, George (1957) : **Thomas Mann,** Berlin.

— Mann, Heinrich (1976) : **Werkauswahl in zehn Baenden,** Duesseldorf.

1932-1976) : **The blue Angel,** Trns. Howard Fertig, New York.

— Mann, Thomas (1974) : **Gesammelte Werke in dreizehn Baenden,** Frankfurt-M.

— Mikkawy, Abdel-Ghaffar (1976) : **Faustaufnahme in Aegypten,** In : D. Papenfuss und J. Soering, Rezeption der deutschen Gegenwartsliteratur in Ausland, Stuttgart.

— Mueller, Friedrich M. (1873) : **Deutsche Liebe Aus den Blaettern eines Fremdlings,** Leipzig.

— Merkel, Ulrich (1982) : Zur Rezeption deutscher Gegenwartsliteratur in der dritten Welt, in : K. Stecker (Hg.) : **Literatur der Moderne im Deutschunterricht,** Koenigstein-Ts.

— Reiss, Katharina (1971) : **Moeglichkeiten und Grenzen der Uebersetzungs - Kritik,** Muenchen.

— Ruediger, Horst (1981) : **Europaeische Literatur** — Weltliteratur In : Komparatistik, Hg. v. F. Rinner u.K. Zemischek, Heidelberg.

— Schmitt, Hans-Juergen (1978) : Der Streit mit Georg Lukacs, Frankfurt/M.

— Tibi, Bassam (1971) : **Zum Nationalismus in der dritten Welt am arabischen Exempel,** Frankfurt a.M.

(1972) : Sprachentwicklung und sozialer Wandel, In : **Die Dritte Welt,** Nr. 4-1972.

(1981) : **Die Krise des modernen Islam,** Muenchen.

— Wahrig, Gerhard (1980) : **Deutsches Woerterbuch,** Muenchen.

— Weisstein, Ulrich (1968) : **Einfuehrung in die Vergleichende Literatur — wissenschaft,** Stuttgart.

— Welzig, Werner (1970) : **Der deutsche Roman im 20. Jahrhundert,** Stuttgart.

— Youssef, Magdi (1976) : **Brecht in Aegypten,** Bochum.

شخصيات وآراء

الغزالي ونظرية المعرفة

مصطفى النشار
كلية الآداب - جامعة القاهرة - قسم الفلسفة

لم أتهيب الكتابة عن فيلسوف قدر تهيبي من الكتابة عن أبي حامد الغزالي فهو شخصية موسوعية لها مكانتها الدينية الرفيعة عند كل المسلمين . وما لهذا تهيبت ، إنما كان تهيبي لأسباب أخرى أهمها أن الداخل الى رحاب الغزالي إنما يسبح في بحر ماله نهاية والوصول الى شاطئه وهم كبير ، فهيهات لأحد أن يستطيع الإمساك بجوهر فكر هذا الرجل ، ربما لأنه هو نفسه قد صعب المهمة على كل قرائه ودارسيه بقلقه وتوتره الفكري الدائم ، فكانت انتقالاته المفاجئة والسريعة عبر رحلته الفكرية الطويلة من مجال فكري الى آخر وهو في تلك الانتقالات يرى آراء قد تتناقض أحيانا وقد تتوافق أحيانا أخرى . إنه المتكلم ، والفيلسوف ، والمنطقي ، والفقيه ، والإمام ، والصوفي . إنه العقلاني صاحب منهج الشك ، والمجادل الذي يهابه الجميع ويرضخون لحجته وقوة منطقه ، وهو صاحب الرؤى الصوفية التي تستعصي على الأفهام لكنها تمس وتر القلوب وتقربها الى الله .

لقد لخص الغزالي بشخصيته وبما كتبه الروح الاسلامية والفكر الاسلامي بصورة مركبة وفريدة . لقد أراد أن يعبر بطموحه المحدود وبعقليته الفذة وبهمه الشديد هذه الروح ليصبح الشاهد الأول والأخير على الفكر الاسلامي . لقد أراد أن يكون مرآة ينظر فيها المسلم التقي العادي فيرى نفسه وينظر فيها المجادل والفيلسوف فيرى نفسه . ويا ليت الأمر كان بهذه البساطة وإلا لقلنا إن الغزالي قد حقق ببراعة التوافق بين إسلام العوام وإسلام المجادلين والفلاسفة .

لكن الواضح أن الغزالي انتصر لاسلام العوام والمتصوفة ، وأعلن تكفير الفلاسفة في المسائل الخلافية الثلاث الشهيرة ، فاكتسب بذلك صفة لم يكتسبها غيره ، إنه الفيلسوف عدو الفلاسفة . والعقلاني عدو

العقل ، فلماذا اجتمعت لديه هذه التناقضات ؟! وهل هي حقا تناقضات ؟ .

لقد قتل الباحثون الغزالي بحثا ودراسة ، وكادوا يجمعون على أنه رغم صعوبة دراسته ، فقد استطاعوا تتبع مشواره الفكري وتطوره الروحي فكان لهم أن أمسكوا بالخيط الفكري الذي ارتقى فيه الغزالي من احترام للمحسوس والمعقول الى الشك فيهما ثم هجر علم الكلام والفلسفة على السواء وارتاح أخيرا الى طريق المتصوفة والى يقين الرؤى الصوفية . وبالطبع فإن دليلهم القوي على ذلك كان ما قدمه الغزالي نفسه من وصف لتطوره الفكري والروحي في « المنقذ من الضلال » .

لكنني أتشكك كثيرا في هذا الإجماع ، وأنظر الى هذا الوصف لتطور الغزالي الفكري على أنه وإن كان تطورا تاريخيا لحياته ، فانه لا يعطي الدلالة الكافية على جوهر فكر الغزالي لسبب أراه واضحا أمامي هو أن صاحبنا تحت ضغط عوامل وظروف فكرية وسياسية واجتماعية كثيرة لم يكن في جوهره هو الإمام المتصوف السني التقليدي الذي يرسم للناس حياتهم بالمسطرة والقرجار ـ على حد تعبير أستاذنا د . زكي نجيب محمود[1] ويصور لهم كيف يأكلون وكيف يشربون وكيف يتزاوجون . . الخ . إن الظن بأن الغزالي هو في النهاية الإمام المتصوف السني ظن خاطيء في اعتقادي .

إن الغزالي فيلسوف بكل ما تحمله الكلمة من معان عقلانية وشكية وتحليلية إنه صاحب الموقف الفلسفي الفريد في تراثنا الاسلامي ، ذلك الموقف الأصيل ذي الأبعاد العميقة التي قد تخفى كثيرا على من درجوا على تسطيح الغزالي ونسبته مرة الى المتكلمين ومرة إلى الفلاسفة واعتبروه في هذا وذاك مجرد رجل دين مخلص .

إن إخلاص الغزالي للدين الاسلامي كان أعمق من كونه فقيها أو متصوفا . إن اخلاصه يبدو أكثر ما يبدو في إدراكه بحسه الحضاري الفذ أنه لابد من وقفة نقدية خالصة مع كل التيارات الفكرية التي يموج بها العصر . وكان أخص خصائص هذه الوقفة انها كانت وقفة فلسفية عقلانية متميزة أعتبرها بحق علامة على أصالة الغزالي الفكرية بحيث تضعه دون أدنى مجاملة في مصاف أعظم الشخصيات الفكرية في تاريخ الفلسفة العالمية .

وتبدو أول عناصر هذه الاصالة الفكرية من النظر في أطوار حياته الفكرية لا كما رواها هو فقط ، بل كما يجب أن نفهمها بربطها بظروف عصره ومحاولة استكشاف ما بين سطوره وما حوت الكثير مما لم يقله صراحة .

إنه أبو حامد الغزالي الذي ولد في منتصف القرن الخامس الهجري أي سنة ٤٥٠ هـ في مدينة طوس إحدى مدن خراسان[2] . ويمكن التأريخ لحياته الفكرية على أنها مرت بأطوار أساسية ثلاثة : أولها : طور النشأة والتلمذة ، ويمتد هذا الطور من يوم مولده حتى عام ٤٧٨ هـ . وقد ولد الغزالي لأب كان فقيرا متصوفا لا يأكل الا من عمل يده في غزل الصوف ، ويختلف الى مجالس الفقهاء والمتصوفة في أوقات فراغه ليأخذ عنهم ويقوم على خدمتهم . ولما بلغ الغزالي الابن أشده تعلم القراءة والكتابة ، وحينما توفي والده وهو مايزال صغيرا تعهد بتربيته واستكمال تعليمه هو وأخيه أحد أصدقاء والدهما الذي أنفق على تعليمهما مما معه من مال أبيهما ، ولما نفد المال وكان الرجل فقيرا أوصاهما بالالتحاق

(١) د. زكي نجيب محمود : المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري : دار الشروق القاهرة ـ بيروت ـ بدون تاريخ ، ص ٣١٨ ـ ٣١٩ وأيضاً في ص ٤٧ وما بعدها .
(٢) انظر : في حياة الغزالي : د. سليمان دنيا : الحقيقة في نظر الغزالي ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة ١٩٨٠م ، الفصل الثاني ، ص ١٨ وما بعدها .

بإحدى المدارس التي كانت تمد الوافدين اليها بما يلزمهم من نفقات ليواصلا تعليمهما .

بدأ الغزالي دراساته بتعلم الفقه في بلدته على يد الراذكاني الطوسي ، ثم سافر الى جرجان وهو لم يبلغ العشرين بعد ليتعلم في مركزها العلمي على يد نصر الاسماعيلي حتى علق عنه التعليقة (وهي مجموعة كتب في خلافة) في الأصول وعاد بها إلى طوس . وقد حدث له في طريق عودته ما لم ينسه قط حيث هاجمه اللصوص وأخذوا كل ما معه ولما حاول أن يرد تعليقته التي هاجر لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها من زعيم اللصوص قال له : كيف تدعي أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟! لقد حملته هذه الحادثة ـ من فرط حبه للعلم والمعرفة ـ بحفظ كل ما يعرفه . وقد قضى في طوس ثلاث سنوات حتى حفظ جميع ما في تعليقته . وما إن انتهى من ذلك حتى بدأ رحلة أخرى في طلب العلم حيث اتجه الى نيسابور ليتلقى عن ضياء الدين الجويني إمام الحرمين ورئيس المدرسة النظامية الزاخرة بشتى المعارف . ولقد كان له ما أراد حيث وجد هناك أصلح الغذاء لعقله المتعطش ولنفسه التواقة الى كل جديد في المعرفة والعلم .

لقد كان شيخه المذكور ممن خف فيهم قيد التقليد فصار ذلك محركا للفطرة الغزالية ومشعلا لتلك النار الطوسية ، فجد واجتهد في تحصيل تلك العلوم التي كانت مشهورة ومعتمدة في ذلك الوقت فأقبل عليها جميعا من فقه وأصول وعلم كلام ، وخلاف وجدل . ولذلك قال بعض المؤرخين إن هذه الفترة التي قضاها الغزالي في نيسابور تعد من أخصب أيام حياته العلمية ، فقد برع في أثنائها في المنطق والجدل وعرف مناهج الفلاسفة وكتب وألف لان معلوماته كانت قد تركزت واتضحت ، وعقليته قد نضجت وأثمرت . وكان قد استقر به الحال وتزوج وأنجب . وقد ظل الغزالي في نيسابور الى وفاة إمام الحرمين عام ٤٧٨هـ ، فغادرها بعدها وكان قد بلغ الثامنة والعشرين من العمر . واختلف المؤرخون حول سبب مغادرته نيسابور فمنهم من يرى أن السبب في ذلك هو تسمم الجو العلمي من حوله حيث خلق له نبوغه خصوما وحاسدين ، ولكن يرى آخرون أنه غادرها لكي يذهب الى المعسكر حيث حكم نظام الدولة ، ذلك الوزير السلجوقي الذي كان يقدر العلم والعلماء تقديرا خاصا .

وربما يكون السبب في تقديري مزيجا من هذا وذاك ، فقد رأى نفسه وقد مات أستاذه وبقي تلاميذه لا يستفيد منهم شيئا ووسط جو علمي غير مثمر .

وأيا ما كان السبب الذي جعله يغادر نيسابور فبمغادرته لها تبدأ المرحلة الثانية من أطوار حياته الفكرية التي تمتد من عام ٤٧٨هـ الى عام ٤٨٨هـ ، وهو طور الاستفادة ، حيث عاش في هذه الفترة حياة المعلم دائما ، وإن كان قبل ذلك قد ألقى دروسا وعلم الا أنه مع ذلك كان يجلس كتلميذ أمام أستاذه إمام الحرمين .

وقد تحقق للغزالي ما أراد من اتجاهه إلى المعسكر وإقامته فيها حيث إقامة نظام الملك الذي كان أعلى رجل في الدولة السلجوقية مكانة وحبا للعلم ، وكان قد أسس العديد من المدارس في مدن مختلفة لتشجيع العلم والعلماء .

وقد اعترف الجميع هناك للغزالي بقوة الحجة واتساع المعرفة وطار اسمه في الآفاق مما جعل نظام الدولة يوليه مهمة التدريس في مدرسته النظامية ببغداد عام ٤٨٤هـ . وقد أمضى الغزالي تلك السنوات في عقد مجالس المناظرة والجدل بغية الوصول الى الحقيقة مع

التلاميذ والاتباع . كما أنه بلا شك قد قضاها يكتب ويؤلف ويبدو أنه قد انشغل انشغالا شديدا في تلك الفترة بمحاولة التماس الحقيقة التي اختلفت حولها الفرق الأربعة التي تقاسمت الساحة الفكرية فيما بينها آنذاك وهي المتكلمون ، والفلاسفة ، والتعليمية (أي أصحاب الامام المعصوم) والصوفية .

وقد أجهد الغزالي نفسه إجهادا شديدا في تقصي الحقيقة بين هذه الفرق فكان أن حصل كل آرائها ورد عليها فرقة بعد أخرى . وقد حكى لنا كيف تنقل بين هذه الفرق تفصيلا في « المنقذ من الضلال » .

على أي حال ، لقد انتهى إلى التشكيك في كل شيء حتى في مهنته مهنة التدريس التي عافتها نفسه أخيرا ، فهو لم يعد يطلب الجاه وانتشار الصيت قلب قصدا له بلا شك . لكن الذي حيره كثيرا هو كيف يتخلص بسلامة من كل هذه العلائق التي ربطته ببغداد وبالمدرسة النظامية وبالتلاميذ وبالاتباع . لقد كان في واقع الامر مترددا بين أن يظل على ارتباطه بالدنيا وبين الاتجاه كلية الى العمل من أجل الآخرة ، فهو يصف حاله آنذاك بقوله « لم أزل أتفكر في الامر مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوما وأحل العزم يوما وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة الا ويحمل عليها جند الهوى حملة فتفترها عشية فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها الى المقام ومنادي الايمان ينادي الرحيل ! الرحيل ! . . »[3] .

وظل على هذا الحال من التردد حوالي ستة أشهر الى أن « جاوز الامر حد الاختيار الى الاضطرار إذ قفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس »[4] . واحتار الأطباء حتى انقطع أملهم في علاجه ، فكأنه كان أمرا إلهيا ، وكان على العبد الامتثال حيث انتهت حيرة الغزالي أخيرا ، اذ سهل الله على قلبه الإعراض عن الدنيا بجاهها ومالها وأصحابها ، فقرر السفر من بغداد وفرق ما كان معه من مال ولم يدخر منه « إلا قدر الكفاف وقوت الاطفال »[5] وبمغادرته بغداد يبدأ الغزالي مرحلة جديدة من حياته .

إنه الطور الثالث من حياته الفكرية الذي يمتد من نهاية عام ٤٨٨ هـ حتى وفاته عام ٥٠٥ هـ . ونستطيع أن نطلق عليه طور العزلة والتصوف ، حيث ترك بغداد ليهيم على وجهه باحثا عن مكان يخلو فيه إلى نفسه واتجه إلى الشام حيث قضى ما يقرب من سنتين يقول انه قضاها « لا شغل له الا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى »[6] . وقد كان يقضي وقته معتكفا في مسجد دمشق . وقد انتقل من دمشق إلى بيت المقدس لنفس الغرض حيث كان « يدخل الصخرة كل يوم ويغلق بابها على نفسه ـ بعد هذه المدة التي قضاها هادىء النفس مستقر المقام مع الله ـ دعاه داعي الحج فاتجه الى مكة ليؤدي فريضة الحج ويستمد البركات منها ومن المدينة حيث زيارة رسول الله عليه الصلاة والسلام »[7] .

(٣) أبو حامد الغزالي : المنقذ من الضلال : القاهرة : مكتبة الجندي ، ١٩٧٣م ، ص ٧١ .
(٤) نفسه ، ص ٧٢ ، ٧٣ .
(٥) نفسه ، ص ٧٤ .
(٦) نفسه ، ص ٧٤
(٧) نفسه ، ص ٧٥ .

ولما شعر بعد ذلك أنه إنما اتجه الى الله كلية ، ولن يؤثر فيه عودته الى الأهل والوطن عاد وكان في عودته حريصا على « الخلوة وتصفية القلب بالذكر » رغم بعض الانشغال « بحوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعاش » التي كانت تشوش عليه صفوة الخلوة[٨] .

وقد ظل على هذا الحال بين التمتع بصفوة الخلوة والأخذ بأسباب الحياة والتغلب على عوائقها مدة عشر سنوات استطاع خلالها أن يتوصل بما انكشف له أثناء تلك الخلوات الى اليقين المقتبس من نور مشكاة النبوة . إنه يقين الصوفية الذي أخذ الغزالي يعلمه لتلاميذه ومريديه في نيسابور . وشتان بين ما كان يعلمه لتلاميذه في أستاذيته الأولى في حياة أستاذه إمام الحرمين ، وبين ما يعلمه لهم الآن ، إنه يعلمهم الآن العلم الذي به يترك الجاه وحب الدنيا . لقد مكث الغزالي في نيسابور ما شاء الله أن يمكث ثم انتقل الى مسقط رأسه طوس فلم يبرحها حتى وفاته في عام ٥٠٥هـ بعد حياة حافلة بالمعارك الفكرية والمشاعر الروحية الفياضة . وقد تميزت حياة الغزالي الفكرية بملامح ثلاثة :

أولها : إحساسه منذ صغره أنه صاحب رسالة ، فقد كان من الذكاء منذ صباه بحيث أدرك أن الاختلاف والصراع بين الفرق المتناحرة فكريا في عصره إنما يتطلب منه محاولة حسم هذا الصراع . ولم يكن ذلك ممكنا إلا بمواصلة البحث والدرس ليل نهار حتى يصل الى حقيقة هذه الفرق وجوهر ما تدعو إليه بنفسه ، وخرج من هذا البحث المضني برفض ما تدعو اليه معظم هذه الفرق . وعبر عن ذلك الرفض في مؤلفات عديدة منها « فضائح الباطنية » و « تهافت الفلاسفة » . ومن الرفض والسلب ظهرت الأفكار الإيجابية لديه حيث اختار في النهاية طريق الصوفية كحياة يتقرب بها الى الله .

ولقد أدى الغزالي رسالته بتحرير المنطق ـ رغم الحملة الشديدة عليه من غلاة الفقهاء ـ وإلباسه ثوبا إسلاميا في « القسطاس المستقيم » . كما حاول جر الفلاسفة إلى أن يكونوا إسلاميين بدلا من اقتصارهم على متابعة فلاسفة اليونان تلك المتابعة التي جعلتهم يخالفون دينهم في تلك المسائل الثلاث (إنكار بعث الأجساد ـ إنكار علم الله بالكليات ـ القول بقدم العالم)[٩] .

وكان في ذلك مثالا للمسلم الحق الذي يعي أن الاسلام ليس كما يردد غلاة الفقهاء ورجال الدين ـ ضد العلم ، بل هو دعوة أصيلة إلى العلم إذ أن « الحق لا يضاد الحق » كما كان يردد دائما .

أما ثاني هذه الملامح في حياة الغزالي الفكرية ، فهي سمة الافق والإيمان العميق بحرية الفكر ، لقد كان في ذلك مثالا للفيلسوف الحق ، كما كان مثالا للإمام المجتهد الحق . لقد كان يخوض المعارك الفكرية مع غلاة المتكلمين من الشيعة والباطنية وكذلك مع الفلاسفة الخارجين على دينهم ، وكذلك مع المشركين والملحدين دون حنق أو جحود لفضل أحدهم . لقد كان يتمثل جيدا الآية الكريمة « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » ، كما كان يعرف أهمية الالتزام بأصول وقواعد الجدل والبرهان ويعتبرها ليس فقط إنجازا أرسطيا يونانيا ، بل لقد بلغ من جرأته وقوة منطقه وعمق معرفته أن استخرجها من القرآن الكريم . وأكد في « القسطاس المستقيم » أنها موازين قرآنية للمعرفة والبرهان .[١٠]

---

(٨) نفسه .
(٩) انظر في ذلك : الغزالي : تهافت الفلاسفة وكذلك : المنقذ من الضلال : ص ٥١ ـ ٥٢ .
(١٠) انظر : الغزالي : القسطاس المستقيم : المنشور في « القصور العوالي من رسائل الغزالي » ، الجزء الأول ، تحقيق الشيخ محمد مصطفى أبو العلا ، مكتبة الجندي ـ القاهرة بدون تاريخ ، ص ٩ وما بعدها .

وأراد بذلك أن يثبت لعامة الناس أن دفع الحجة بالحجة ، وأن تقديم البرهان والدليل والاستدلال ، إنما هو دعوة قرآنية يجب أن يتمسكوا بها .

لقد كان يعي أن الاسلام رسالة عامة لجميع البشر ، وأن المواجهة الحضارية بينه وبين غيره من الأديان والفلسفات إنما أساسها الجدل بلا تعصب ، والفهم بلا مغالاة ، والإبداع بدلا من الاتباع ، والاجتهاد بدلا من الجمود . وإذا كان البعض سيحتج على ما نقول بـ « إحياء علوم الدين » ، فإن الغزالي في « الإحياء » كان يرسم لحياة المسلم العادي الطريق السوي . أما أرباب العلم ومحبو الجدل والفكر فلهم شأن آخر . أليس هو القائل في نفس الكتاب « وإنما حق العوام أن يؤمنوا ويسلموا ويشتغلوا بعباداتهم ومعايشهم ، ويتركوا العلم للعلماء »[(١١)] . أليس هو القائل في « المضنون به في غير أهله » : « اعلم أن لكل صناعة أهلا يعرف قدرها ومن أهدى نفائس صنعة الى غير أربابها فقد ظلمها »[(١٢)] . ومصداق ذلك ما قاله في مستهل « الاقتصاد في الاعتقاد » في إطار بيانه لأقسام الكتاب والغاية منه « انه ليس مهما لجميع المسلمين بل لطائفة منهم مخصوصين »[(١٣)] .

أما ثالث تلك الملامح الفكرية في حياة فيلسوفنا ، فقد كانت الصدق مع النفس الذي كان السبب المباشر في هذه الأصالة الفكرية في التراث الاسلامي .

فالغزالي لم يختر الطريق السهل ولم يركن الى الحقائق الجاهزة لدى أي فرقة من الفرق العديدة في عصره . لقد كان صادقا مع نفسه حينما جاهر بأنه انما يشك في ادعاءات أصحابها ، وأن عليه أن يفحص تلك المبادىء التي يؤمنون بها ، وأن يبحث عن الحقيقة بعقله الواعي الذي لا يسلم بالموروث ، وبقلبه المفتوح لكل الآراء . ولقد حكى لنا الغزالي بكل الصدق مع النفس هذه التجربة الفريدة في رحلة البحث عن الحقيقة وما لاقاه فيها من متاعب وشكوك الى أن استقر به المقام أخيرا وارتاح عقله الوثاب وهدأت عواطفه الثائرة .

إن هذه التجربة التي عاشها الغزالي وعبر عنها بصدق ووعي ، وكانت على حد علمي أول وصف لرحلة البحث عن الحقيقة لدى فيلسوف بعد « الرسالة السابعة »[(١٤)] لأفلاطون ، لو اعتبرناها أدخل في هذا المجال رغم أنه كتبها لصديقه وتلميذه ديون دون قصد لأن يؤرخ فيها لحياته الفكرية كما فعل فيلسوفنا .

وقد تتابعت في مطلع العصر الحديث المؤلفات الفلسفية التي حكى فيها أصحابها تجاربهم ورحلتهم الفكرية ، وكان من أشهر هذه المؤلفات كتابا ديكارت « مقال عن المنهج » و « التأملات »[(١٥)] حيث كان التشابه الشديد بينها وبين ما قدم الغزالي في « المنقذ من الضلال » يؤكد - دون أدنى شك لدي - تأثر الفيلسوف * الفرنسي بفيلسوفنا الإسلامي وأخذه عنه .

---

(١١) الغزالي : إحياء علوم الدين : الجزء الثامن ، ص ٦٣ .
(١٢) الغزالي : المضنون به على غير أهله : المنشور في « القصور العوالي من رسائل الغزالي » الجزء الثاني ، تحقيق الشيخ محمد مصطفى أبو العلا ، مكتبة الجندي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٠م ، ص ١٢٥ .
(١٣) الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد : تحقيق مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الأخيرة ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٢٠ هـ ، ص ٣ .
(١٤) انظر : Plato : Letter VII in "Phaedrus and Letters VII and VIII, translated by W. Hamilton, Penguin Books.
(١٥) انظر : مقدمة تحقيق : معيار العلم في فن المنطق للغزالي ، ص ٨ .

على أي حال ، لقد انعكست هذه الملامح في فكر الغزالي ، اذ نلمسها في كل جانب من جوانب اهتماماته الفكرية ، فقد واجه عصره الفكري بذكاء وشجاعة نادرين وعبر عن هذا العصر خير تعبير في نفس الوقت الذي أصبح فيه بعد ذلك مسيطرا سيطرة تكاد تكون تامة على الفكر الإسلامي طيلة ثمانية قرون ولايزال هو الإمام وحجة الإسلام إلى يومنا هذا .

ويمكن أن يكون فهمنا للغزالي أعمق إذا ما قسمنا الحديث عن فلسفته الى قسمين :

القسم الاول : هو الجانب النقدي السلبي ، والقسم الثاني : هو الجانب الايجابي البنائي . أما الجانب الاول ، فقد ركز الغزالي فيه على نقد الفرق المتطرفة من منطلق واحد هو الخلاصة للاسلام وكان في نقده نزيها موضوعيا . لقد نظر في موقف الناس من الفلسفة والفلاسفة فوجد أنهم فريقان متطرفان ، فريق ينكر على الفلاسفة جميع علومهم حتى ما كان منها بدهي الصحة واضح البرهان ، أما الفريق الأخر فيقبل كل ما يسمعه عنهم بحسن الظن ولمجرد التقليد ، فكان أن هاجمها الغزالي ونقد تطرف الفريق الأول حيث أوضح أن الدين ، إذا كان ينبغي أن ينصر بإنكار كل علم منسوب الى الحكماء وادعاء غلطهم في جميع أقوالهم حتى إنكار مثل قولهم في الخسوف والكسوف ، رغم أن ما قالوه على خلاف الشرع ، كان الدين إذن مبنيا على الجهل وإنكار البرهان القاطع ، وهو مما لا يشتبه في فساده .

لقد قال فيلسوفنا : « لقد عظم على الدين جناية من ظن أن الاسلام ينصر بإنكار العلوم الرياضية وأمثالها من البرهانيات ، اذ ليس في الشرائع تعرض لهذه العلوم ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية ، ولأن ما أدى إليه البرهان لا يعارض الدين الصحيح إذ الحق لايضاد الحق » .

أما الفريق الثاني ، الذي يتبع الفلاسفة دونما تمحيص أو مناقشة ، فقد رد عليهم بأن الدين لو كان حقا ـ وهو حق ـ ما خفي على هؤلاء الفلاسفة مع دقة علومهم وغزارة معارفهم ورزانة عقولهم .

وهذا الرد الذي قدمه الغزالي على الفريقين ـ كما يقول صاحب مقدمة « معيار العلم » ـ له وجهان ، الأول إنكار نسبة الجحود إلى الحكماء إذ قد اتفق كل موموق من الاوائل والأواخر على الايمان بالله واليوم الآخر وإنما الخلاف في التفصيل .

الوجه الثاني : أنه لا يلزم من أصابه مشاكلة الحق في موضوع إصابته في سائر المواضع ، ولا يجب أن يكون الحاذق في صنعة حاذقا في بقية الصنائع ، فلا يلزم من إتقان الرياضيات احكام الالهيات مثلا . ومن ثم فإن تقليد الفلاسفة في دعاويهم وأدلتهم جميعا قابل للتزعزع بعواصف الاعتراض والرد . ولذلك فقد ألف الغزالي تهافت الفلاسفة ليعرف هؤلاء المتهاونين بالشرائع فساد التسرع الى قبول كل ما يروى ويسمع دون إجراء مناقشة فيه وتحريك للذهن في مجاريه[٦٦] .

وكما رد الغزالي على الفلاسفة وأثبت بعض جوانب مخالفتهم للاسلام وحذر الناس من متابعة طريقهم بلا

(٦٦) نفسه ، ص ٨-٩ .

مناقشة أو تمحيص ، فقد كشف عن أضاليل الباطنية ورد عليهم جملة وتفصيلا في « فضائح الباطنية » بعد أن استكشف أسرار مذهبهم من خلال ما كتبوه من كتب ومقالات كانت كالشرر المستطير سريع الانتشار في ذلك العصر ، فقد استفحل أمر الباطنية في عصره دينيا وسياسيا وبث دعاة الاسماعيلية من قبل الدولة الفاطمية في مصر للدعوة الى الخليفة الفاطمي « المستنصر بالله » ضد الخليفة العباسي خليفة كل المسلمين « المستظهر بالله » . ولذلك فقد استهدف الغزالي من رده عليهم التقليل من خطرهم الديني والسياسي معا[١٧] .

ولقد كان أهم نقاط رده عليهم ما يتعلق بإبطالهم نظر العقول واعتمادهم المطلق على عصمة الإمام اذ يبطل ذلك الرأي ووجوب التعليم . وقد جاء رده مستخدما الحجة المنطقية والبرهان العقلي حيث يقول مستنكرا اعتقادهم « كل ما عرفتموه من مذهبكم : من صدق الامام وعصمته وبطلان الرأي ووجوب التعليم بماذا عرفتموه ؟ ودعوى الضرورة غير ممكنة . فيبقى النظر والسماع . وصدق السمع أيضا لا يعرف ضرورة فيبقى النظر ، وهذا لا مخرج عنه . »[١٨] انه يؤكد في ذلك أنهم لا يملكون دليلا عقليا على عصمة الامام ، فما بالنا بالدليل النقلي الديني ، إذ مثل هذا الدليل لا يوجد على الإطلاق ، اذ ليس هناك معلم معصوم بعد صاحب الشريعة محمد عليه الصلاة والسلام فإنه قد أبان طريق الرشد وأوضح المحجة وأكمل الحجة وأتم الإرشاد والتعليم « اليوم أكملت لكم دينكم » .

وإذا كان ذلك الجانب من الرد يتعلق برفض رأيهم من زاوية الدين ، فإنه ألزم للناحية الدنيوية ، ويصدق أكثر على العلوم النظرية العقلية ، فليس في العقيدة ولا في الفطرة ما يمنع تعلمها واختلاف الرأي فيها كما أنه لاحاجة فيها مطلقا لمعلم معصوم بل الحاجة هنا لمعلم متخصص في هذا العلم أو ذاك بشرط عدم تبعية المتعلم وتسليمه بكل ما يقال ، فالغزالي لا يرضى عن المتعلم التابع فإن كان المعلم ضروريا في أي علم نظري فليأخذ المتعلم من معلمه الطريق والأدلة « ثم يرجع العاقل فيه (أي فيما تعلم من منهج المعلم وأدلته على آرائه) الى نفسه فيدركه بنظره . وعند هذا فليكن المعلم من كان ولو أفسق الخلق وأكذبهم . فإنا لسنا نقلده بل ننتبه بتنبيهه فلا نحتاج فيه لمعصوم »[١٩] .

وقد أكد الغزالي في مقابل جمود هؤلاء عند آراء ما يسمونه بالمعلم أو الإمام المعصوم حتى لا يختلط الأمر على العامة وتتذبذب عقيدتهم ، أكد على ضرورة اختلاف الرأي اذ أن « الفقهيات لابد فيها من اتباع الظن فهو ضروري ، كما في التجارات والسياسات وفصل الخصومات للمصالح ، فإن كل الأمور المصلحية تبنى على الظن .

والمعصوم كيف يغني عن هذا الظن ، وصاحب الشريعة (أي النبي) لم يغن عنه ولم يقدر عليه بل أذن في الاجتهاد وفي الاعتماد على قول أحد الرواة عنه وفي التمسك بعموميات الألفاظ ، وكل ذلك ظن عمل به في عصره ومع وجوده فكيف يستقيم ذلك بعد وفاته »[٢٠]

---

(١٧) انظر : مقدمة د. عبد الرحمن بدوي : لكتاب الغزالي : فضائح الباطنية ، مؤسسة دار الكتب الثقافية ، الكويت بدون تاريخ ، ص. ح.
(١٨) الغزالي : فضائح الباطنية . ص٨٦ .
(١٩) نفسه : ص٧٨ .
(٢٠) نفسه : ص٩٦ .

أيمكن بعد هذا النص الرائع من حجة الاسلام أن نطلب من دعاة الجمود والركود والموات عند كل قديم أن يتحرروا وأن يرفعوا القيود التي وضعوها على عقولهم وأن يزيلوا الغشاوة عن أعينهم ، وأن يتمثلوا لرأي الامام ؟

على أي حال ، لقد استطاع الغزالي ببراعة أن يرد على حجج الباطنية كما رد من قبل على حجج الفلاسفة فيما يتعلق بالمسائل التي خرجوا فيها عن الدين ردودا قاطعة وباستخدام مناهجهم العقلية البرهانية إن استخدموها ، ومستندا على الأدلة القرآنية إن استندوا اليها .

ولاشك أن آراء الغزالي الإيجابية قد خرجت من جوف هذه المعارك الفكرية التي خاضها . ولأن بحره كما قلنا من قبل ممتد امتدادا يكاد يكون لا نهائيا فإننا سنقصر حديثنا على أهم ما نراه ممثلا للروح الغزالية الحقة ، إنه المنهج ! منهج المعرفة الذي يعبر بصدق عن روح الغزالي الفكرية المغامرة الحرة التي إن دخلت إطار منهج معين استنفدت كل سبله واستخلصت نتائجه وحينما تستشعر أنه قد ضاق بطموحاتها تنفضه عن نفسها وتغادره الى منهج آخر أكثر سعة وأكثر إتيانا لليقين وأكثر إدراكا للحق .

ولنترك فيلسوفنا يعبر عن شغفه بالإمساك بالحقيقة فيقول « لقد كان التعطش إلى إدراك حقائق الامور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد شرخ الصبا »(٢١) .

ولكن أي طريق سلك هذا الفتى الذي ولع بالسعي إلى إدراك حقائق الأمور منذ صغره ؟؟ .

إنه طريق العقل ، لقد اتبع منهجا عقليا يقوم على فكرتين أساسيتين ، فكرة « الشك » وفكرة « الحدس الذهني » . وهاتان الفكرتان يعبر عنها فيلسوفنا تعبيرا شافيا حينما يقول « إن العلم اليقيني هو الذي يكشف فيه المعلوم انكشافا لايبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم لايتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا لليقين لو تحدى باظهار بطلانه . مثلا من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا ، لم يورث ذلك شكا وإنكارا ، فإني إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، فلو قال لي قائل : لا بل الثلاثة أكثر بدليل أني أقلب هذه العصا ثعبانا وقلبها وشاهدت ذلك منه لم أشك بسبب في معرفتي ، ولم يحصل لي منه الا التعجب من كيفية قدرته عليه ! فأما الشك فيما علمته فلا . »(٢٢) .

وإن كان ذلك كذلك فيما يتعلق بأنه يقيس « العلم اليقيني » بالانكشاف والحدس الذهني الذي « لا يبقى معه ريب » فأين مرحلة الشك من ذلك ؟! إنها بالتأكيد مرحلة سابقة منطقيا على هذا اليقين العقلي الواضح بداهة وبدون حاجة لدليل ، لكنها عند فيلسوفنا لم تأت الا بعد إدراكه السابق لماهية العلم اليقيني . وحيث أنه فتش بعد إدراكه لمعنى العلم اليقيني في علومه فوجد نفسه عاطلا عن علم موصوف بهذه الصفة الا « في الحسيات والضروريات » ومن هنا فقد وثق في المحسوسات وعلق عليها أمل الوصول الى ذلك « العلم اليقيني » . وقد عبر

(٢١) الغزالي : المنقذ من الضلال . ص ٢٥ .
(٢٢) نفسه : ص ٢٦ .

عن ذلك قائلاً « فأقبلت بجد بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات وأنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها ؟ فانتهى بي طول التشكيك الى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضاً[٢٣] . وأخذ هذا الشك يتسع فيها ويقول : من أين الثقة بالمحسوسات ؟ »[٢٤] .

إذن لقد بدأ الغزالي طريق البحث عن الحقيقة من الثقة في الحس والمحسوسات لكنه لم يلبث أن وجد أن شكوكاً تحيط باستخدامه أدوات الحس في المعرفة بعد أن شكك من قبل في التقليديات الموروثة .

وقد عبر عن هذه الشكوك من خلال إبراز التناقضات التي تقدمها لنا أدوات الحس وخاصة البصر فهي تنظر الى الظل فتراه واقفاً غير متحرك ، وتحكم بنفي الحركة ، ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة بغتة ، بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم تكن له حالة وقوف . وتنظر الى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار الدينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار . وهذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيباً لا سبيل الى مدافعته »[٢٥] .

ولما كان ذلك كذلك ، فقد انتقل الى البحث في العقل ومعارفه « فلعله لا ثقة الا بالعقليات التي هي من الأوليات كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة ، والنفي والاثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً موجوداً معدوماً واجباً محالاً . »[٢٦] وسرعان ما ثارت الشكوك في نفس الفيلسوف حول قيمة هذه الأوليات العقلية ، إذ يصور لنا الغزالي الصراع الذي صار بين الحس والعقل ، فإن كان العقل قد شكك من قبل في قيمة الحس ، فإن الحس يثير الفيلسوف ضد العقل حيث يتخيله الغزالي يقول : « بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات

وقد كنت واثقاً بي فجاء العقل فكذبني ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ؟ فلعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر ! . . »[٢٧] .

وقد تمهل فيلسوفنا في الحكم على العقليات وأخذ يتأمل المشكلة حيث « توقفت النفس في جواب ذلك قليلاً ، وأيدت أشكالها بالمنام وقالت أما تراك تعتقد في النوم أموراً وتتخيل أحوالاً وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً ولا شك في تلك الحالة فيها ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل ؟ فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس أو عقل هو حق بالاضافة إلى حالتك التي أنت فيها . لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك كنسبة يقظتك الى منامك ، وتكون يقظتك نوماً بالاضافة اليها ! فاذا

---

(٢٣) هو يقصد هنا أنه بدأ يشكك في قيمة المحسوسات بعد أن تشكك قبل ذلك في التقليديات ، أي في كل ما هو تقليد أعمى ما كان شائعاً في عصره ، حيث كان كل مولود يتبع أهله فان كان أبواه يهوديين أصبح يهودياً ، وان كانا من النصارى يصبح نصرانياً .. وهكذا . (انظر المنقذ : ص ٢٥ - ٢٦) .

(٢٤) نفسه : ص ٢٧ - ٢٨ .

(٢٥) نفسه : ص ٢٩ .

(٢٦) نفسه : ص ٢٩ .

(٢٧) نفسه .

وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها »[٢٨] .

كان ذلك هو موقف الغزالي من « الحس » و « العقل » كأداتين للمعرفة وتحليله لمدى صدق ما ينقلانه من معارف لنا . وفي ذلك فليقارن المقارنون ما وسعتهم المقارنة بين فيلسوفنا وبين ديكارت أبي الفلسفة الحديثة في حالة الشك التي عاشاها وفي كيفية انتقالهما منه الى اليقين . وإنك لواجد فقرات بأكملها من « منقذ » الغزالي تتشابه حرفياً مع فقرات من « تأملات » ديكارت ومن « مقالة عن المنهج » أحياناً أخرى[٢٩] .

لقد عاش الفيلسوفان نفس التجربة المعرفية تقريباً ، ويبقى للغزالي السبق الزماني والأصالة غير المسبوقة . كما يسبق له صدق تجربته وحيويتها حيث عاش فترة شكه التي دامت على حد تعبيره « قريباً من شهرين » في معاناة فكرية حقيقية بينما كان شك ديكارت شكاً منهجياً مفتعلاً حيث اتخذ من الشك منهجاً متعمداً يفرغ من خلاله كل محتويات عقله من المعتقدات الموروثة لكي يعرضها على ميزان الحدس والوضوح الذاتي ، فما اتضح صدقه وضوحاً لا يحتمل أي شك يؤمن به ويعتقد فيه .

ولا يظن أحد أن تلك التجربة المعرفية التي عاشها فيلسوفنا الاسلامي كانت مجرد تجربة نفسية خرج منها الى يقين الصوفية دونما إعلاء لشأن العقل الانساني وقدرته على الوصول إلى اليقين ، فلقد كانت تلك التجربة ـ رغم أبعادها الشعورية النفسية التي وصفها صاحبها ـ تجربة واعية بأهمية دور الحواس والعقل في المعرفة .

لقد كان على وعي كامل بضرورة إعمال العقل الفردي في كل ما ورثه الإنسان من معتقدات وآراء .

لقد أكد الغزالي قبل رينيه ديكارت وكذلك قبل فرنسيس بيكون أن صدق الفكرة لا يقام على قائلها مهما يكن شأنه ، بل يقام على البرهان . انظر الى قول الغزالي في « ميزان العمل » : « من الناس من يقولون الرأي عن هوى ، ثم يتعللون بأنه مذهب فيلسوف معروف كأرسطو وأفلاطون ، والأغلب أن من يسمع لهم لا يطالبهم ببرهان لموافقة قولهم لطبعه . . . إنه لمن العجب أن السامع للخبر المنقول له على هذا النحو لا يطالب الناقل ببرهان أكثر من نسبة الخبر إلى صاحبه ، مع أنه لو كان يحدثه عن أمر يتعلق به خسران درهم لا يصدقه إلا ببرهان » . انظر اليه يقول « من لم يشك لم ينظر ، ومن لم

---

(٢٨) نفسه : ص ٣٠ .

(٢٩) انظر : Descartes, Discourse on Method and the Meditations . translated by F. E. Sutcliffe, Penguin Books, 1976.

لقد وجدت فيما وجدت بعد ما كتبت هذا الكلام من قام بهذه المقارنة خير مقام وأوفاه . محمود حمدي زقزوق في كتابه « المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت » ولقد ما دهشت من أنه شغل بنفس القضية التي ترددت في إثارتها بوضوح وهي قضية تأثر ديكارت بالغزالي وهل قرأ ديكارت « منقذ » الغزالي أم لا؟ . ولقد كتب د. زقزوق نتائج بحثه في هذه القضية في مقدمة الطبعة الثانية حيث كشف عن أن أحد الباحثين الفرنسيين وهو الكاتب قد عثر بين محتويات مكتبة ديكارت الخاصة بباريس على ترجمة لكتاب « المنقذ » الغزالي ووجد أن ديكارت قد وقف عند عبارة الغزالي الشهيرة « الشك أول مراتب اليقين » ووضع تحتها خطاً أحمر ثم كتب على الهامش ما نصه « يضاف ذلك الى منهجنا » .
(انظر : د. محمود حمدي زقزوق : المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت : مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١م ، ص ٦) .

ولست أجد أي مجال للتشكيك في هذه الروايات حيث أن ذلك واضح للعيان إذا ما وضعت نصوص ديكارت السابق الاشارة اليها ونص الغزالي . ولست أدري متى الليل ويعيد النظر في فهم الغزالي لا على أنه هادم الفلسفة في الشرق .

كما أعيد النظر فيمن يلقب بأبي الفلسفة الحديثة في أوربا . فليس من شك أن الغزالي لو كان قد فهم جيداً لكان له نفس التأثير الذي كان لديكارت . فالمنهج هو نفس المنهج ، والمدرسة الأرسطية التي هاجمها ديكارت هي نفسها التي كان الغزالي يهاجمها قبله بخمسة قرون .

يتـظر لم يبصـر ، ومن لم يبصـر بقي في العمى والضلال[٣٠] » .

ولست أجد فيلسوفاً عقلانياً قدم حججاً ضد خداع الحواس ونصر العقل تفوق ما قدمه الغزالي ؛ فلقد حصر في « مشكاة الأنوار » نقائص الحواس ممثلة في إحداها وهي حاسة الإبصار فوجدها سبعة « أما الأولى : أن العين لا تبصر نفسها والعقل يدرك غيره ويدرك نفسه ويدرك صفات نفسه ، إذ يدرك نفسه عالماً وقادراً ويدرك علم نفسه ويدرك علمه بعلمه بنفسه . . . أما الثانية : أن العين لا تبصر ما قرب منها قرباً مفرطاً ولا ما بعدها ، والعقل عنده يستوي القريب والبعيد ويعرج في طرفه الى أعلى السموات رقياً وينزل في لحظة الى تخوم الأرض هوياً بل إذا حقت الحقائق انكشف أنه منزه عن أن يحوم بجنبات قدسه القرب والبعد الذي يعرض بين الأجسام فانه أنموذج من نور الله تعالى ولا يخلو الأنموذج من محاكاة وإن كان لا يرقى الى ذروة المساوقة . . أما الثالثة : فهي أن العين لا تدرك ما وراء الحجاب والعقل يتصرف في العرش والكرسي وما وراء حجب السموات وفي الملأ الأعلى والملكوت كتصرفه في عالمه الخاص به ومملكته القريبة أعني بها الخاصة به بل الحقائق كلها لا تحجب عن العقل وإنما حجاب العقل حيث يحجب من نفسه لنفسه . . أما الرابعة : فهي أن العين لا تدرك من الأشياء ظاهرها وسطحها الأعلى دون باطنها بل قوالبها وصورها دون حقائقها والعقل يتغلغل الى بواطن الأشياء وأسرارها ويدرك حقائق أرواحها ويستنبط أسبابها وعللها وحكمها . . أما الخامسة : فهي أن العين تبصر بعض الموجودات إذ تقصر عن جميع المعقولات وعن كثير من المحسوسات ولا تدرك الأصوات ولا الروائح والطعوم والحرارة والبرودة والقوى المدركة أعني قوة السمع والشم والذوق بل الصفات الباطنة النفسانية كالفرح والسرور والغم والحزن والألم واللذة والعشق والشهوة والقدرة والإرادة والعلم الى غير ذلك من موجودات لا تحصى ولا تعد . . السادسة : أن العين لا تبصر ما لا نهاية له فإنها تبصر صفات الأجسام المعلومات . والأجسام لا تتصور أن تكون متناهية . . أما السابعة : أن العين تدرك الكبير صغيراً فترى الشمس في مقدار مجن والكواكب في صورة دنانير منثورة على بساط أزرق والعقل يدرك أن الكواكب والشمس أكبر من الأرض أضعافاً مضاعفة . . .[٣١] » .

---

(٣٠) هذه النصوص نقلاً عن : د. زكي نجيب محمود : المعقول واللامعقول ، ص٣٢٨ - ٣٢٩ . وقارن هذه النصوص بما ورد عند ديكارت في : Descartes : Discourse on Method : ch. I; p. 33-34, Ch. 2, P. 39;40.

وانظر نص الواضح في الترجمة العربية : المقال عن المنهج ، ترجمة محمود الخضيري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥م ، ص ١٦١ وما بعدها . وقارن أيضاً : Bacon F. : Novum Organum : in "Great Books of the Western world", ed. R. M. Hotchins, vol. 30, The University of chicago, chicago; 1952, ch.I.ff.

وانظر : ما قاله هناك . زكي نجيب محمود في « المعقول واللامعقول » حيث أقام مقارنة بديعة بين ما قدمه الغزالي من عناصر منهجية خطيرة في التفكير وبين ما قدمه ديكارت وبيكون ، وقد أكد من هذه المقارنة أسبقية الغزالي بخمسة قرون على الفيلسوفين الغربيين في تقديم الأساس المنهجي الصحيح للتفكير العلمي . (ص ٣٢٠ - ٣٣٥) .

لقد أكد أن الغزالي صاحب منهج يكاد يجمع كل أطراف المنهج الرياضي عند ديكارت والمنهج التجريبي عند بيكون . إذ « يكاد لا يكون في منهجيهما نقطة واحدة لم يوردها الغزالي شرطاً من شروط النظرة العلمية التي نشر أصولها على صفحات كتب كثيرة » . (ص ٣٣٠)

(٣١) الغزالي : مشكاة الأنوار : تحقيق الشيخ محمد مصطفى أبو العلا ، في « القصور العوالي من رسائل الغزالي » ، الجزء الثاني ، مكتبة الجندي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٠م ، ص١٠٠٨ .

وبالطبع فان تأثر الغزالي هنا بأرسطو واضح ، ولست أشك في أنه قرأ كتاب « النفس » أو أحد شروحه أو ربما قرأ ما كتبه فلاسفة الإسلام كالفارابي أو ابن سينا وكانوا في ذلك متأثرين كثيراً بما نقلوه عن أرسطو ؛ فما عنده الغزالي من تصور في إدراكات العين الحسية ، ومقارنته بين الإدراك الحسي ممثلاً في الإبصار وبين الإدراك العقلي موجودة بصورة أو بأخرى في كتاب « النفس » والكتاب الأول من « الميتافيزيقا » لأرسطو[٣٢] » .

وعلى أي حال ، فقد عبر الغزالي عن هذه الحجج ضد الحواس تعبيراً واضحاً وأضاف إليها الكثير من عنده . كما استنتج منها أن « العقل أولى بأن يسمى نوراً[٣٣] » .

واستنتج أيضاً أن « العقل إذا تجرد عن غشاوة الوهم والخيال لم يتصور أن يغلط بل يرى الأشياء على ما هي عليه[٣٤] » لكن رغم هذه المكانة الرفيعة التي أعطاها الغزالي للعقل في نظريته للمعرفة إلا أنه لم يتغافل عن نواقصه ، وأكد محدوديته فقد أضاف بعد كلماته السابقة أن « تجرده من هذه النوازع بعد الموت وعند ذلك ينكشف الغطاء وتتجلى الأسرار[٣٥] » .

لقد أكد فيلسوفنا أن العقل الانساني لا يمكنه التخلص من نوازع الوهم والخيال إلا بعد الموت ، اللهم الا إذا صفت النفس معه واستطاعت قطع علائقها بالعالم المحسوس وبالمطالب الدنيوية . وهذا الصفاء العقلي - النفسي يتيح للإنسان مرتبة أعلى وأعظم من المعرفة المباشرة بالحقيقة ، تلك المعرفة التي لا تحتاج « لنظم دليل أو ترتيب كلام » وهي تتم « بنور يقذفه الله تعالى في الصدر وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف[٣٦] » .

لقد وصل الغزالي بنا هنا الى أرقى الدرجات المعرفية ، إنها درجة « الحدس الصوفي » التي تتضاءل الى جانبها المعرفة الحسية أو المعرفة العقلية الاستدلالية . إن هذا الحدس أو الكشف الصوفي يتيح المعرفة بما لا يمكن أن تعرفه الحواس وما يعجز عنه العقل .

ولست أرى هنا ما يراه معظم الدارسين للغزالي من أنه قد أبطل الحواس والعقل لصالح هذا « الحدس الصوفي » ، وإن استندوا في رأيهم هذا الى الكثير مما قاله الغزالي في ذلك ، والذي عبر عنه بوضوح في « القسطاس المستقيم » بقوله : « أما ميزان الرأي والقياس ، فحاشا لله أن اعتصم به فإنه ميزان الشيطان[٣٧] » ، فإني أدعوهم أن يستكملوا قوله في

(٣٢) انظر : أرسطو : كتاب النفس : ترجمة د. أحمد فؤاد الأهواني ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ط ١ ، ١٩٤٩م ، ك ٣ ، ف ٤ وما بعده ، ص ١٠٨ وما بعدها .
وانظر كذلك كتابنا : نظرية المعرفة عند أرسطو ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥م ، ص ٨٨ وما بعدها .
وأيضاً : Aristotle, Metaphysic, B.1-Ch. 1-2, pp. 980a-983a, translated by W.D. Ross, in "Great Books of the Western World", p. 8-vol. I; pp. 499-501.

(٣٣) الغزالي : نفس المصدر السابق ، ص ٨ .

(٣٤) نفسه : ص ١١ .

(٣٥) نفسه .

(٣٦) الغزالي : المنقذ من الضلال ، ص ٣١ .

(٣٧) الغزالي : القسطاس المستقيم ، ص ١٠٠ .

نفس الموضع ، ومن زعم من أصحابي أن ذلك ميزان المعرفة فأسأل الله تعالى أن يكفيني شره عن الدين فإنه للدين صديق جاهل[٣٨] » . فهو هنا كما في كل المواضع التي يرفض فيها ميزان العقل إنما يرفض تدخل العقل في مناقشة الأمور الغيبية الإلهية إذ أن « هذه دقائق لا تدرك إلا بنور التعليم المقتبس من إشراق عالم النبوة[٣٩] » . ففي أمور الدين الغيبية يحذرنا الغزالي بقوله : « إياكم أن تجعلوا المعقول أصلاً والمنقول تابعاً ورديفاً فإن ذلك شنيع منكر . . إياكم أن تخالفوا الأمر فتهلكوا وتُهلكوا وتَضلوا وتُضلوا[٤٠] » .

لقد اطمأن الغزالي إذن إلى « الحدس الصوفي » لأنه وجد فيه النهج الأصلي لإدراك جوهر هذه الأمور الغيبية بما يقذفه الله للإنسان من كشف للحجب بعد طهارة القلب ونقاء السريرة وصفاء العقل . لكنه لم يقصد مطلقاً في أي مرحلة من حياته الفكرية الى التقليل من شأن الحواس أو العقل ، فلكل منها ميدانه الذي يصول ويجول فيه دونما قيد ، فللحواس أن تعرف الظاهر وتسلم معارفها للعقل الذي يحكم ويستدل ويصول ويجول في ميدان المعقولات وآفاق الكون الشاسع يتأمله ويدلي بدلوه فيه وليكشف ما استطاع أن يكشف من أسراره وليفسر ظواهره ويسيطر على مقدراته . لكن ليقف العقل عند هذه المرتبة ولا يتعداها إلى ما لا يمكن أن يأتيه اليقين فيه ألا وهي الأمور الغيبية .

وما أشبه الغزالي هنا بكانط الفيلسوف الألماني العظيم في القرن الثامن عشر حينما حدثنا في « نقد العقل الخالص » عن حدود المعرفة العقلية فأكد أن العقل الانساني « محمل بأسئلة لا يستطيع بطبيعته نفسها أن يعرض عنها ، ولكنه لا يستطيع أيضاً أن يجيب عنها لأنها تجاوز كل ما يملك من طاقات[٤١] » .

وإذا كان ذلك كذلك ، فليتوقف العقل الإنساني عن الجدل فيما لا يستطيع أن يصل فيه الى يقين ، وليسلم من زاوية عملية أخلاقية - بوجود هذه الحقائق على أنها افتراضات أو مسلمات للعقل العملي ، وعلى رأس هذه المسلمات مسلمة وجود الله وخلود النفس[٤٢] .

إن الغزالي ، وهذا شيء يخصه ، قد ارتضى في النهاية أن يكون صوفياً رغبة في التقرب الى الله لأن « الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وإن

---

(٣٨) نفسه .

(٣٩) نفسه : ص ١٣ .

(٤٠) نفسه : ص ٨٠ .

(٤١) كانط : نقد العقل الخالص : فقرة مأخوذة من ترجمة د. عثمان أمين لبعض نصوص من كانط في كتابه : رواد المثالية في الفلسفة الغربية : دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٧م ، ص ١٨٨ .

(٤٢) كانط : نقد العقل العملي : انظر نفس المرجع السابق للدكتور عثمان أمين ، ص ٢٤٥ - ٢٤٧ .

سيرتهم أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أذكى الأخلاق[٤٣] » . لقد ارتضى هذا الطريق الصوفي وذلك المنهج الحدسي الكشفي باعتباره الطريق الأصوب للتقرب الى الله ، وبأنه المنهج الأفضل في تلقي المعرفة اليقينية الملائمة لطبيعة موضوعها وليس في هذا أي تجني على العقل أو رفض لعلومه . ولاكرر ما نقلناه عنه من قبل : « لقد عظم على الدين جناية من ظن أن الاسلام ينصر بإنكار هذه العلوم » ولأضف الى ذلك قوله في « المنقذ » ، « أما المنطقيات فلا يتعلق شيء منها بالدين نفياً وإثباتاً بل هو النظر في طريق الأدلة والمقاييس . . وإن العلم إما تصور وسبيل معرفته الحد وإما تصديق وسبيل معرفته البرهان وليس في هذا ما ينبغي أن ينكر[٤٤] » . وقد يندهش البعض إذا ما قلنا إن للعقل - عند الغزالي - دوراً أساسياً بالنسبة للطريق الصوفي ، إذ أن العلم اللدني لا يكون في نظره إلا بعد استيفاء « ثلاثة أوجه أحدها : تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر من أكثرها .

والثاني : الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة .

والثالث : التفكر فإن النفس إذا تعلمت وارتاضت بالعلم ثم تفكرت في معلوماتها بشروط التفكير يفتتح عليها باب الغيب . فالمتفكر إذا سلك طريق الصواب يصير من ذوي الألباب وتنفتح روزنة من علم الغيب في قلبه فيصير عالماً عاقلاً ملهماً مؤيداً[٤٥] » .

بل إن الغزالي قد إحتج بالعقل على المتصوفة المتطرفين القائلين بحالة الفناء والاتحاد ، أولئك الذين إذا « سكروا سكراً وقع دونه سلطان عقولهم قال بعضهم : أنا الحق وقال الآخر : سبحاني ما أعظم شأني . وقال الآخر : ما في الجبة غير الله » . لقد احتج عليهم بالعقل قائلاً : « . . فلما خف عنهم سكرهم وردوا الى سلطان العقل الذي هو ميزان الله في أرضه عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد بل يشبه الاتحاد . . .[٤٦] » .

فكأن الغزالي إذن يريد أن يؤكد أن من الممكن أن ينكشف للصوفي ما لا يمكن للعقل إدراكه ، ولكن ليس من الممكن إطلاقاً أن يكشف له عن شيء يحكم عليه العقل بالاستحالة . فالعقل هو الميزان الذي قيضه الله للإنسان ليقيس مدى صدق معارفه ووضع الحدود لها .

إن الغزالي اذن فيلسوف عقلاني في المقام الأول . يعرف حدود الحس كما يعرف حدود العقل ، كما يعرف

---

(٤٣) الغزالي : المنقذ من الضلال ، ص ٧٧

(٤٤) نفسه : ص ٤٩ .
وانظر كذلك : معيار العلم في فن المنطق : دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٣م ، ص ٣٩ وما بعدها .

(٤٥) الغزالي : الرسالة اللدنية : منشورة بالجزء الثالث من « القصور العوالي من رسائل الغزالي » ، ص ١٢٢ .

(٤٦) الغزالي : مشكاة الأنوار ، ص ١٩ .

حتى ينبغي أن يتوقف كلاهما ، ولتكون المعرفة بعد ذلك إن أردنا مواصلة الطريق ـ موكولة للحدس الصوفي ، الذي هو درجة معرفية عليا ـ تأتي بعدما تستوفي طرائق المعرفة الأخرى عملها وتحصل النفس علمها ـ كما أنه في الوقت نفسه موقف من الحياة واتجاه بالكلية الى الله . ولذلك فهي درجة مقصورة على قلة قليلة من الناس هم خواص الخواص .

لقد قدم الغزالي نظرية في درجات المعرفة تميزت بالمحافظة على المستويات ووضع الحدود ، كما تميزت بأنه أستلها بعدما استخلصها بعقليته الفلسفية الى الإسلام واستخرج معالمها من « القرآن » . فكان أول من حاول بحق أسلمة نظرية المعرفة . وفي تصوري أن هذا هو جوهر ما حاوله الغزالي من جهد مضنٍ على مدار مؤلفاته وخاصة في « القسطاس المستقيم » الذي حاول فيه أسلمة المنطق و « المنقذ من الضلال » الذي قدم فيه تجربته المعرفية حية محاولاً أسلمة المعرفة .

وفي هذا الاطار الجديد فليتنافس الباحثون في درس الغزالي وفهمه دونما حدود . فهو عبقرية فلسفية إسلامية أصيلة لم تلق بعد الإنصاف الذي تستحقه من الدارسين المتخصصين سواء في الفلسفة أو في الدين رغم آلاف الصفحات التي كتبت عنه شرقاً وغرباً .

❊ ❊ ❊

سيرة الحضارة من شك التجريد إلى يقين التجريب

جلال شوقي
عميد كلية الهندسة - جامعة قطر

تقصد هذه الدراسة إلى تبيان مسيرة الإنسان في سعيه الدؤوب وراء الحقيقة ، فمنذ العصر التقليدي (الكلاسيكي) للمعرفة أخذ الحكماء في الاعتماد المطلق على التأمل الذهني ، وإعمال الفكر المنظم طلبا لطبائع الأشياء وجواهرها ، ووقوفا على دقائق خصائصها وخواصها ، وما يعتريها من أحوال الاستحالة والثبات . ولقد نزع الفكر الإغريقي إلى اعتبار أن العقل بأحواله ومقولاته هو المصدر الوحيد للمعرفة ومن ثم قام المذهب الفلسفي ، وما صاحبه من أقيسة منطقية متسقة ، وأفكار تصورية منسجمة ، تعمل بتجريدها للمعاني الكلية من الموجودات الحسية . بيد أن هذا النهج لا يؤدي إلا إلى أحكام ذهنية كلية قد لا تتمشى مع ولا تطابق العالم الخارجي المتشخص ، ولا توصل إلا لبراهين ليست بالضرورة يقينية .

وما إن دوت صيحة الدين الجديد الذي يدعو إلى المشاهدة والتأمل ، والتفكر والتدبر ، والتقصي والتحليل ، ويحض على طلب العلم ، وأخذ المعرفة ، وتوخي الحقيقة ، ويشجع على سبر الأغوار وارتياد الآفاق ، والنظر في ملكوت الأرض والسماوات ، والاعتبار بمحكم الآيات ودقيق المشاهدات ، ما إن دوت هذه الصيحة حتى تحرر الفكر من سلطان التجرد والتجريد ، واتجه إلى يقين الشهود والتجريب ، ليتحول ركب الحضارة عن المذهب الفلسفي إلى المنهج العلمي ، فمن معالم هذا التحول الهام ، الذي دفع بالحضارة الإنسانية دفعة هائلة إلى الأمام ، يدور محور حديثنا ، ويتركز مبلغ همنا ، ويرجى وفاء قصدنا .

« مسيرة الحضارة من شك التجريد إلى يقين التجريب »

المحتويات

١ - السعي في طلب الحقيقة .

١ ر ١ - من أقوال الجاحظ .

٢ ر ١ - من أقوال الكندي .

٣ ر ١ - من أقوال الرازي .

٤ ر ١ - من أقوال ابن الهيثم .

٥ ر ١ - الشك المنهجي عند ابن الهيثم .

٢ - طرق المعرفة ومناهجها

١ ر ٢ - المناهج الأساسية للمعرفة

١ ر ١ ر ٢ - المنهج الفلسفي ، أو المنحى النظري ، أو التجريدي .

٢ ر ١ ر ٢ - المنهج العلمي ، أو التجريبي ، أو الوضعي .

٢ ر ٢ - المنهج العلمي عند جابر بن حيان

٣ ر ٢ - المنهج العلمي عند ابن الهيثم .

٣ - أمثلة من القياسات العلمية في الحضارة العربية الإسلامية

١ ر ٣ - قياسات الثقل النوعي

١ ر ١ ر ٣ - الميزان الطبيعي للرازي .

٢ ر ١ ر ٣ - الآلة المخروطة للبيروني .

٣ ر ١ ر ٣ - القسطاس المستقيم للخيامي .

٤ ر ١ ر ٣ - موازين الخازني .

٢ ر ٣ - القياسات الكونية

١ ر ٢ ر ٣ - الاسطرلابات .

٢ ر ٢ ر ٣ - قياسات الأرض .

٣ ر ٢ ر ٣ - طول السنة الشمسية .

٤ - المنهج التجريبي في الغرب

١ ر ٤ - المنهج العلمي عند ليوناردو دافينشي .

خاتمة .

١ - السعي في طلب الحقيقة

ما برح الإنسان - وقد آتاه الله نعمة العقل - يبحث عن الحقيقة ، وينقب عن طرق الوصول إليها ، ويسهب في تعريفها وتحديدها ، ويعدد مصادرها وروافدها . وقد اهتم فلاسفة العرب والمسلمين وعلماؤهم بوجه خاص بما يفرزه العقل ويصدقه الحس والواقع ، وهو ما نطلق عليه اليوم المنحى العلمي المبني على التجربة ، وقد سماها العرب « الاختبار » ، وهو المنحى الذي فاق المنحى التجريدي للحضارة الإغريقية ، وكان حجر الزاوية في صرح الحضارة الإنسانية المعاصرة .

ولعلنا ونحن في صدد الحديث عن الحقيقة ، نورد على سبيل المثال لا الحصر بعض النماذج من كتابات العرب والمسلمين في تلمس الحقيقة من أي سبيل أتت ، ومن أي حضارة جاءت ، وذلك قبل أن نعرج إلى تفصيل نشأة المنهج التجريبي ، والتدليل على نسبته - بما لا يدع مجالا للشك - لحضارة الإسلام .

١ ر ١ - من أقوال الجاحظ [1]

يقول أبو عثمان عمرو بن بحر الشهير بالجاحظ [2] (١٥٩ - ٢٥٥ هـ) = (٧٧٥ - ٨٦٨ م) في مقدمة أشهر كتبه ونعني به كتاب « الحيوان » :

« جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا وبين الصدق سببا ، وحبب إليك

---

(١) هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء ، الليثي ، أبو عثمان ، الشهير بالجاحظ (صاحب كتب « الحيوان » و « البيان والتبيين » و « البخلاء » و « المحاسن والأضداد » و « سحر البيان » وغيرها .

(٢) يعتمد كتاب « الأعلام » للزركلي تاريخ ميلاد الجاحظ بسنة ١٦٣ هـ = ٧٨٠ م .

الثبت ، وزين في عينك الإنصاف ، وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عز الحق ، وأودع صدرك البر واليقين ، وطرد عنك ذل اليأس ، وعرفك ما في الباطل من الذلة ، وما في الجهل من القلة . . . »

٢ ر ١ ـ من أقوال « الكندي » فيلسوف العرب

يقول يعقوب بن إسحق الكندي (حوالي ١٨٥ ـ ٢٦٠/٤٦ هـ) = (٨٠١ ـ ٨٧٣/٦٠ م) في رسائله الفلسفية [٣] :

« ينبغي أن يعظم شكرنا للآتين بيسير الحق ، فضلا عمن أتى بكثير من الحق ، إذ أشركونا في ثمار فكرهم ، وسهلوا لنا المطالب الحقية ، التي بها تخرجنا إلى الأواخر من مطلوباتنا الخفية ، فإن ذلك إنما اجتمع في الأعصار السالفة المتقادمة ، عصرا بعد عصر إلى زماننا هذا ، مع شدة البحث ولزوم الدأب وإيثار التعب في ذلك . . .

وينبغي أن لا نستحي من استحسان الحق ، واقتناء الحق من أين أتى ، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا ، والأمم المباينة لنا ، فإنه لاشيء أولى بطالب الحق من الحق » .

٣ ر ١ ـ من أقوال « الرازي » طبيب الإسلام

يقول أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (حوالي ٢٥٠ ـ ٣١٣ هـ) = (٨٦٤ ـ ٩٢٥ م) في كتابه « الطب الروحاني » [٤] :

« إن أشرف الأصول وأحلها وأعونها على بلوغ غرض كتابنا هذا قمع الهوى ، ومخالفة ماتدعو إليه الطباع في أكثر الأحوال ، وتمرين النفس على ذلك . »

ومن ثم فإن الرازي يقرر أن ادراك الحقيقة لايمكن التوصل إليه إلا بالابتعاد عن الهوى ، وإحكام العقل . وعن هذا الأخير يقول الرازي في كتابه « الطب الروحاني » [٥] :

« إن الباريء ـ عز اسمه ـ إنما أعطانا العقل ، وحبانا به ، لننال ونبلغ به من المنافع العاجلة والآجلة ، غاية مافي جوهر مثلنا نيله وبلوغه ، وإنه أعظم نعم الله عندنا ، وأنفع الأشياء لنا ، وأجداها علينا .

فبالعقل فضلنا على الحيوان غير الناطق ، حتى ملكناها وسسناها وذللناها وصرفناها في الوجوه العائدة منافعها علينا وعليها .

وبالعقل أدركنا جميع مايرفعنا ، ويحسن ويطيب به عيشنا ، ونصل إلى بغيتنا ومرادنا .

فإننا بالعقل أدركنا صناعة السفن واستعمالها ، حتى وصلنا بها إلى ماقطع وحال البحر دوننا ودونه ، وبه نلنا الطب الذي فيه الكثير من مصالح أجسادنا وسائر الصناعات العائدة علينا ، النافعة لنا . »

لقد أدرك الرازي تماما خطر العقل وأهميته ، واعتبره أحد المصادر الرئيسية للمعرفة ، ولم يمنع الرازي من أن يكون الوحي والإلهام والكشف مصدر معرفة ، على عكس ماذهب إليه الأشعري الذي جعل العقل آلة للإدراك فحسب ، ورأى أن الوحي هو مصدر كل معرفة .

هذا وقد اتخذ الرازي منحى عقليا متحررا ، وانتهج طريق الشك المنهجي في مناقشته للقضايا العقلية ،

---

(٣) رسائل الكندي الفلسفية ، الصفحتان ١٠٢ ، ١٠٣ .
(٤) صفحة ٢٠ .
(٥) الصفحتان ١٨ ، ١٩ .

وذلك بقصد التثبت من الأمور ، ويكون بذلك قد سبق كلا من الإمام أبي حامد الغزالي [٦] ، والعالم رينيه ديكارت [٧] في هذا النحى .

٤ و ١ ـ من أقوال « ابن الهيثم » عالم البصريات

يقـول الحسن بن الهيثم (٣٥٤ ـ ٤٣٠ هـ) = (٩٦٦/٥ ـ ١٠٣٩ م) في كتابه « المناظر » [٨] :

« ... ونجعل غرضنا في جميع مانستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ، ونتحرى في سائر مانميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء ، فلعلنا نهتدى بهذا الطريق إلى الحق الذى به يثلج الصدر ، ونصل بالتدريج والتلطف إلى الغاية التي عندها يقع اليقين ، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يـزول معهـا الخلاف ، وتنحسم بها مـواد الشبهات . »

ويقول ابن الهيثم في صدر كتابه « الشكوك على بطليموس » [٩] :

« الحق مطلوب لذاته ، وكل مطلوب لذاته فليس يعني طالبه غير وجوده ، ووجود الحق صعب ، والطريق إليه وعر ، والحقائق منغمسة في الشبهات ، وحسن الظن بالعلماء طباع في جميع الناس .

فالناظر في كتب العلماء إذا استرسل مع طبعه ، وجعل غرضه فهم ماذكروه وغاية ما أوردوه ، وحصلت الحقائق عنده ، وهي المعاني التي قصدوها ، والغايات التي أشاروا إليها ، وما عصم الله العلماء من الزلل ، ولا حمى علمهم من التقصير والخلل .

ولو كان ذلك كذلك لما اختلف العلماء في شيء من العلوم ، ولا تفـرقت آراؤهم في شيء من حقـائق الأمور . والوجود خلاف ذلك ، فطالب الحق ليس هو الناظر في كتب المتقدمين ، المسترسل مع طبعه في حسن الظن بهم ، وطالب الحق هو المتهم بظنه فيهم ، المتوقف فيما يفهمه عنهم ، المتبع الحجة والبرهان ، لاقول القائل الذى هو انسان المخصوص في جبلّته بضروب الخلل والنقصان . »

ويستطرد ابن الهيثم قائلا :

« والواجب على الناظر في كتب العلوم ـ إذا كـان غرضه معرفة الحقائق ـ أن يجعل نفسه خصما لكل من ينظر فيه ، ويجيل فكره في متنه ، وفي جميع حواشيه ويخصمه من جميع جهاته ونواحيه ، ويتهم أيضا نفسه عند خصامه ، ولا يتحامل عليه ، ولا يتسمَّح فيه ، فإنه إذا سلك هذه الطريق انكشفت له الحقائق ، وظهر ماعساه وقع في كلام من تقدمه من التقصير والشبهة . »

٥ و ١ ـ الشك المنهجي عند ابن الهيثم

دأب الحسن بن الهيثم عـلى التشكـك في الآراء والأقوال السابقة عليه حتى يتيقن منها بطريق التمحيص والتجريب ، فهو يعلق حكمه حتى تثبت له التجربة صحته ، فيتحول عن الشك إلى اليقين . ولا أدل على هذا المنهج المتشكك من قول ابن الهيثم [١٠] :

« إني لم أزل منذ عهد الصبا مرتابا في اعتقادات الناس المختلفة ، وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأى ، فكنت متشككا في جميعه . »

---

(٦) (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) = (١٠٥٨ ـ ١١١١م) .

(٧) عاش في الفترة من ١٥٩٦ إلى ١٦٥٠م .

(٨) مخطوط مكتبة الفاتح باستانبول ـ رقم : ٣٢١٢ ، المقالة الأولى ، الورقة رقم (٤) مكرر .

(٩) مصوَّر بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة .

(١٠) من كتاب « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » لأحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة (٦٠٠ ـ ٦٦٨هـ) = (١٢٠٣ ـ ١٢٦٩م) ، الجزء الثالث ، الصفحتان ١٤١ ، ١٤٤ .

ويقول أبو علي الحسن بن الهيثم في المقالة الأولى من صدر كتابه الموسوم : « في حل شكوك كتاب إقليدس في الأصول وشرح معانيه »[١٦] :

« كل معنى تغمض حقيقته ، وتخفى بالبديهة خواصه ، ويشابه في بعض أحواله غيره ، فالشك متسلط عليه ، وللمعاند والمتشكك طريق مهيع إلى معاندته والطعن عليه ، وخاصة العلوم العقلية والمعاني البرهانية ، إذ العقل والتمييز مشترك لجميع الناس ، وليس جميعهم متساوي الرتبة فيها ، وليس يذعن واحد من الناس لغيره فيما يدعى صحته بالقياس ، ولا تصح دعواه في نفسه إلا بعد أن يصح له ذلك المعنى بقياسه وتمييزه الذي استأنفه هو ، وتتشكل صحته في عقله . والعاجز المقصر الضعيف التمييز ليس تتشكل صحة المعنى المعقول في عقله في أول تمييزه ، بل هو في أكثر الأحوال يسرع إليه التشكك في صحته ، ثم إذا أطال الفكر والتميز ظهرت له حقيقته ، وربما لم يتبينه مع غاية اجتهاده وإطالة الفكر فيه إلى معرفة حقيقته ، فأكثر ذوي العقول والتمييز الصحيح فضلا عمن هو دونهم إذا مر بأحدهم معنى من المعاني اللطيفة والحقائق الخفية فليس تظهر له تلك الحقيقة بالبديهة ، وإذا لم تظهر له الحقيقة ، فقد عرض له التشكك ، فالتشكك واقع لأكثر الناس في المعاني الخفية .

ومن جملة المعاني اللطيفة التي من العلوم الحقيقية التي لايشك الناس في صحة براهينها المعاني التي يشتمل عليها كتاب إقليدس في الأصول ، وهذا الكتاب هو الغاية التي يشار إليها في صحة البراهين والمقاييس ، ومع ذلك فلم يزل الناس قديما وحديثا يتشككون في كثير من معاني هذا الكتاب وكثير من مقاييسه ، ويتكلف أصحاب علم التعاليم حل تلك الشكوك ، وكشف فسادها وصحة المعاني المتشكك فيها . . . . . » .

٢ ـ طرق المعرفة ومناهجها

لعله من المناسب بل ومن الضروري ـ ونحن نتحدث عن المعرفة ـ أن نعرض بإيجاز إلى بيان مصادر المعرفة ، فنقول إنه من الممكن أن نعدد هذه المصادر على النحو الآتي :

١ ـ طريق الحواس من سمع وبصر وغيرهما ،

٢ ـ طريق الإدراك بالوجدان ، كالشعور باللذة والألم ، والجوع والشبع ، والظمأ والارتواء ، والفرح والحزن ، والغيظ والحقد ، والابتهاج والاكتئاب ، والتفاؤل والتشاؤم ، وما إلى ذلك من مشاعر .

٣ ـ طريق العقل ، كالعلم ، ويشمل البديهيات .
ويمكن تقسيم العلم إلى قسمين رئيسين هما :
ـ العلم المعقول ،
ـ والعلم المنقول .

٤ ـ طريق الاستنتاج بالمنطق استنادا إلى طرق المعرفة الثلاثة المتقدمة .

٥ ـ طريق الإيحاء والوحي الإلهي بدءا بتعليم آدم الأسماء كلها ،
كما جاء في قوله تعالى :

« وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة . . . »

(سورة البقرة ـ ٢ : ٣١)

« الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان »

(سورة الرحمن ـ ٥٥ : ١ ـ ٤)

---

(١٦) مخطوط مكتبة جامعة استانبول ، القسم العربي ، رقم ٨٠٠ .



بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وحده
المقالة الاولى من كتاب الحسن بن الحسن بن الهيثم
في حل شكوك كتاب اقليدس في الاصول وشرح معانيه
كل معنى تغمض حقيقته وتخفى بالبديهة [illegible] ويتشابه في بعض
لمحاته غيره فالشك مسلط عليه والمعاند والمتشكك طريق متفتح
الى معاندته والطعن عليه وخاصة العلوم العقلية والمعاني
البرهانية اذا العقل والتمييز مشترك لجميع الناس وليس جميعهم
متساوين في الرتبة فيهما وليس يدعى واحد من الناس [illegible]
صحته بالاساس ولا يتهم دعواه في نفسه الا بعد ان يتضح له ذلك
المعنى بقياسه وتمييزه الذي يستانفه هو وتتشكل صحته في
عقله والعاجز المقصر الضعيف التمييز ليس تتشكل صحة المعنى
المعقول في عقله في اول تمييزه بل هو في اكثر الامور الذي يسرع اليه
الشك في صحته ثم اذا اطال الفكر والتمييز ظهرت له حقيقته
وربما لم يتبين مع غاية اجتهاده واطالة الفكر فيه الى معرفة حقيقته
واكثر ذوي العقول والتمييز الصحيح فضلا عن من هو دونهم اذا مر باحدهم
معنى من المعاني اللطيفة والحقائق الخفية فليس تظهر له تلك

شكل (١) - الصفحة الأولى من كتاب «في حل شكوك كتاب أقليدس في الأصول وشرح معانيه»، مخطوط مكتبة جامعة استانبول - القسم العربي، رقم ٨٠٠.

« اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم »

(سورة العلق - ٩٦ : ٣ - ٦)

٦ - طريق الكشف لعباد الله الصالحين ، من أصحاب المجاهدات ، ويشمل الرؤيا الصادقة .

هذا وتشمل المدركات أربع مجموعات هي : المحسوسات ، والمعقولات ، والمتخيلات ، والموهومات .

١ر٢ - المناهج الأساسية للمعرفة

يمكن التعرف على منهجين أساسيين للمعرفة هما :

١ر١ر٢ - المنهج الفلسفي ، أو المنحى النظري ، أو التجريدي

ويعتمد هذا المنهج على إعمال العقل في إطار مجموعة من الأقيسة المنطقية ، والتأمل الفكري المستمر ، دون النظر بالضرورة إلى حقائق الوجود الخارجي ، ويعرف هذا المنهج أيضا بالمنهج الاستقرائي المنطقي ، أو المنهج الأرسطي ، نسبة إلى أرسطو أو أرسططاليس الملقب بالمعلم الأول (٣٨٤ - ٣٢٢ق . م .) ، وهو المنحى الذى اتصفت به حضارة الإغريق .

إن النتائج الذهنية التي يتوصل إليها بهذا المنهج ماهي إلا استنتاجات نظرية ظنية لاتغني بالضرورة عن الحق واليقين شيئا . وفي هذا المعنى يقول عبدالرحمن بن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ) = (١٣٣٢ - ١٤٠٦م) في مقدمته : « إن المطابقة بين الأحكام الذهنية التي تستخرج بالحدود والأقيسة ، وبين مافي الخارج من الأعيان ليست يقينية » .

إن المنطق - وإن صلح كأداة لتنظيم المعرفة ، وتصحيح العلم - إلا أنه لايشكل وسيلة لاكتساب العلم وتحصيله ، وإنما تتركز فائدته في ترتيب الأدلة وتنظيم الأقيسة .

٢ر١ر٢ - المنهج العلمي أو التجريبي أو الوضعي

يقوم هذا المنهج على المشاهدة والتجريب ، والرصد والتحليل والاستقراء ، للتوصل إلى الحقائق التي يشهد بها الوجود الخارجي . وعلى ذلك فإن هذا المنهج يوغل في الواقع ، بعكس المنهج الفلسفي أو النظري الذى يعتمد على العقل وحده للتوصل إلى كنه الأمور ، وسبر غور الكون والخلق والحياة .

إن المذهب القائل بإمكان التوصل الى الحقيقة باعتماد منفرد على العقل وحده مع إعمال قوانين المنطق هو مذهب غير صحيح ، إذ أننا لابد وأن نلجأ إلى المدركات الحسية وأن نتفاعل مع الواقع ، ولانجنح بالكلية إلى التجريد ، والتجرد من الموجودات الحسية ، فلاحقيقة علمية دون تجريب وشهادة حس مع إعمال فكر .

وفي هذا المعنى يقول ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨هـ) = (١٣٣٢ - ١٤٠٦م) في مقدمته :

« . . . ومن هنا يتبين أن صناعة المنطق غير مأمونة الغلط لكثرة مافيها من الانتزاع ، وبعدها عن المحسوس ، فإنها تنظر في المعقولات الثواني ، ولعل المواد فيها مايمانع تلك الأحكام وينافيها عند مراعاة التطبيق اليقيني . »

وعن المنطق يقول ابن خلدون في موضع ثان من مقدمته :

« ووجه قصور هذا العلم ، أن المطابقة بين النتائج الذهنية التي تستخرج بالمنطق ، وبين ما في الخارج ليست يقينية » .

وعن الأحكام اليقينية يقول ابن خلدون في موضع آخر من مقدمته :

« وإن العقل ميزان صحيح ، وأحكامه يقينية في أمور الحس والتجربة . . »

لاشك أن المنحى العلمي هو وليد الحضارة الإسلامية ، فهي التي أفرزته ، وهي التي فطنت إليه ونادت به وطبقته ، فأصبح سمتها البارزة وطابعها المميز ، ونسوق فيمايلي بعض أمثلة للتدليل على صحة وأحقية نسبة « المنهج العلمي » أو « المنحى التجريبي » للحضارة الإسلامية ، ويتضح ذلك من الأدلة الكثيرة المتعددة التي تشتمل عليها كتابات علماء المسلمين وأعمالهم . ولاغرو فقد وقف المسلمون على أهمية إجراء التجارب في بحوثهم ، وذلك منذ فجر حضارتهم .

٢ر٢ - المنهج العلمي عند جابر بن حيان

إن عالم الكيمياء العربي القاطع الصيت أبا موسى جابر بن حيان الصوفي (حوالي ١٢٠ - ١٩٨هـ / ٧٣٧ - ٨١٣م) قد آمن إيماناً عميقاً بأهمية إجراء التجارب كسبيل علمي دقيق للوقوف على الحقائق ، ويؤثر عنه قوله :

« وأول واجب في الكيمياء أن تعمل وتجرى التجارب ، لان من لايعمل ويجرى التجارب لايصل إلى أدنى مراتب الإتقان .

فعليك يابني بالتجربة لتصل إلى المعرفة » .

ويعزى إليه قوله :

« واجب المشتغل في الكيمياء هو العمل وإجراء التجربة ، وإن المعرفة لاتحصل إلا بها » .

كذلك أورد جابر بن حيان في كتابه « الصنعة الإلهية والحكمة الفلسفية » رأيه فيما يجب أن يكون عليه من يشتغل بالكيمياء ، فكتب يقول :

« يجب على المشتغل بالكيمياء أن يعرف السبب في إجراء كل عملية ، وأن يفهم التعليمات جيداً ، لأن لكل صنعه أساليبها الفنية ، كما يجب ألا يحاول عمل أى شيء مستحيل أو عديم النفع . .

ويجب أن يكون هو صبوراً مثابراً لاتغره الظواهر ، فيعجل باستنباط النتائج » .

ويقول جابر في إحدى رسائله[١٢] :

« إننا نذكر في هذه الكتب خواص مارأيناه فقط دون ماسمعناه ، أو قيل لنا وقرأناه ، بعد أن امتحناه وجربناه ، فماصح أوردناه ، وما بطل رفضناه ، فمن كان دربا كان عالما حقا ، ومن لم يكن دربا لم يكن عالما حقا » .

على هذا النحو تحولت الكيمياء - على يد جابر بن حيان - من مجرد بحث فلسفي نظري عند الإغريق إلى علم عملي قوامه التجربة أو الاختبار أو الدربة ، والمشاهدة ، والتثبت قبل الاستنتاج ، فيكون جابر قد ساهم بذلك في إرساء قواعد المنهج العلمي التجريبي في عصر سابق جداً على عصر النهضة الأوروبية ، حال كانت أوروبا تمر بأحلك أيامها ، في تلك الحقبة التي عرفت فيما بعد بالعصور المظلمة ، ولم يكن لعلمائها أن يأخذوا بهذا الأسلوب العلمي إلا بعد قرون عدة .

٣ر٢ - المنهج العلمي عند ابن الهيثم

اتخذ الحسن بن الهيثم التجربة والقياس سبيلاً

---

(١٢) « رسائل جابر بن حيان » ، نشر بول كراوس ، مطبعة الخانجي بالقاهرة ، سنة ١٣٥٤هـ / ١٩٣٦م . الصفحات : ١ - ٣٠ .

للوصول إلى الحقائق العلمية ، وقد نقل ابن أبي أصيبعة [١٣] في كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » عن مقالة له قوله :

« فرأيت أني لا أصل إلى الحق إلا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية ، وصورتها الأمور العقلية . » .

اعتمد الحسن بن الهيثم على الأمور الحسية ، أي على التجربة والدليل الملموس كأساس لنهجه العلمي . وتظهر عناصر الطريقة العلمية التي أخذ بها ابن الهيثم بوضوح في مقدمة كتاب « المناظر » الذي ألفه في مستهل القرن الحادي عشر للميلاد حيث يقول :

« ونبتديء في البحث باستقراء الموجودات ، وتصفح أحوال المبصرات ، وتمييز خواص الجزئيات ، ونلتقط باستقراء مايخص البصر في حال الإبصار ، وماهو مطرد لايتغير ، وظاهر لايشتبه من كيفية الإحساس ، ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدريج والترتيب ، مع انتقاد المقدمات ، والتحفظ في النتائج » .

وتؤكد دراسات ابن الهيثم وبحوثه أنه اعتمد على الاستقراء والقياس والتناظر [١٤] ، ولم يكن ليقطع برأي مالم يؤيد بالتجارب ، « والاعتبار » [١٥] وكان هذا النهج رائده في جميع أعماله ، فتحققت له الصفات العلمية الأصيلة .

ولعله من المناسب هنا أن تستكمل عناصر المنهج العلمي عند ابن الهيثم ، فنسوق مثلاً لاستخدامه التمثيل (Analogy) ، حيث إنه عند دراسته لموضوع انعكاس الضوء أتى بمثال ميكانيكي يبين سلوك كرة صغيرة ملساء عندما تصطدم بسطح يمانعها من الاستمرار في حركتها ، وأورد في سياق هذا التمثيل قوانين التصادم ومعامل الارتداد ، وقوة الحركة ، أي كمية الحركة . وقاس ابن الهيثم انعكاس الضوء على تصادم الأجسام ، وبذلك يكون قد استكمل عناصر المنهج العلمي من تجريب وتحليل واستقراء وقياس وتمثيل .

مما تقدم يمكن بحق اعتبار الحسن بن الهيثم واضع المنهج العلمي التجريبي دون منازع ، وعلى ذلك يكون قد أحرز سبقاً أكيداً على علماء الغرب بمايربو على قرنين من الزمان ، في وقت لم يجرؤ فيه علماء أوروبا على الخروج عن تعاليم الأقدمين ، والإفلات من سيطرة المعتقدات والقوانين الموضوعة المتوارثة والتحرر من السلطان الفكري للكنيسة .

هذا ويرجع سبب اهتمامنا بوجه خاص بالآثار العلمية للحسن بن الهيثم للتدليل على سبق الحضارة العربية إلى طريقة البحث العلمي ، إلى أن ليوناردو دافينشي قد وقف على بحوث ابن الهيثم في الضوء ، وذلك في أواخر القرن الخامس عشر كما تم إثباته من واقع مذكراته ، ولابد أن يكون لاطلاع ليوناردو على أعمال ابن الهيثم أثر بالغ في اتجاهه نحو النهج التجريبي في عصر النهضة ، بعد أن كانت طريقة البحث العلمي قد استكملت عناصرها ، وبعد أن كانت النظرة العلمية الصحيحة قد اكتملت لها مقوماتها في الحضارة العربية ، التي ازدهرت قبل عصر النهضة الأوروبية وقبل مولد ليوناردو دافينشي بمئات السنين .

يقول جورج سارطون [١٦] ، صاحب التآليف العظيمة في تاريخ العلوم : « لقد كان العرب أعظم

(١٣) هو أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة المؤرخ العربي (٦٠٠ - ٦٦٨هـ) = (١٢٠٣ - ١٢٦٩م) .
(١٤) المقصود بها هنا التمثيل : Analogy .
(١٥) يُستعمل هذا اللفظ بمعنى التجريب : Experimentation .
(١٦) George Sarton

معلمين في العالم ، فإنهم لولم ينقلوا كنوز الحكمة الإغريقية لتوقف سير الحضارة بضعة قرون .

إن وجود ابن الهيثم ، وجابر بن حيان كان لازماً وممهداً لظهور جاليليو [١٧] ونيوتن [١٨] وغيرهما ، ولو لم يظهر ابن الهيثم لاضطر نيوتن إلى أن يبدأ من حيث بدأ ابن الهيثم : » .

ثمة شهادة أخرى يوردها « سيديو »[١٩] حيث يقول :

« إن أهم ما اتصفت به مدرسة بغداد بادىء ذي بدء هو روحها العلمي الصحيح » .

٣ - أمثلة من القياسات العلمية في الحضارة العربية الإسلامية

إنه بعد أن أوضحنا نشأة المنهج العلمي التجريبي في صدر الحضارة العربية الإسلامية ، نستكمل هنا معالم هذه الصورة ، فنسوق بعض أمثلة من قياسات علماء العرب والمسلمين ، ونقصر التمثيل على موضوعين اثنين فحسب ، هما قياس الثقل النوعي لبعض الأجسام الصلبة والسائلة ، وقياس بعض العناصر الفلكية .

١ر٣ - قياسات الثقل النوعي

أبدع المسلمون في تعيين القيم العددية للثقل النوعي مستخدمين أنواعاً مختلفة من الموازين ، وإنه بالرغم من بعد الشقة بيننا وبينهم ، وبدائية الآلات والأجهزة التي استعملوها في قياساتهم ، إلا أن درجة الدقة التي توصلوا إليها في تجاربهم تدعو - بغير شك - إلى الإعجاب والتقدير ، وفي بعض الحالات إلى الانبهار من قرب قياسات علماء العرب والمسلمين من القيم التي أقرتها المجامع العلمية في عصرنا الحالي ، ونعرض فيما يلي لبيان بعض الأجهزة ونتائج القياس بها .

١ر١ر٣ - الميزان الطبيعي[٢٠]

لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي (حوالي ٢٥٠ - ٣١٣هـ) = (٨٦٤ - ٩٢٥م) وهو ميزان ذو كفتين على الهيئة الطبيعية ، كفتاه خارجتان عن الماء ، وكلتاهما مملوءتان مترعتان ، ونقصان الماء من كل كفة منها بقدر مساحة الجرم[٢١] الذي فيها .

٢ر١ر٣ - الآلة المخروطة[٢٢]

لأبي الريحان محمد بن أحمد البيروني (٣٦٢ - ٤٤٣هـ) = (٩٧٣ - ١٠٥١م) وهي آلة مخروطة الشكل ، واسعة القاعدة ، ضيقة الفم بعد عنق ممتد بذلك الضيق من البدن إلى الفم . وثُبِّتَ في أوسط هذا العنق بالقرب من أسافله ثقبة صغيرة مدورة ، وألحمت عليها بقدرها أنبوبة منكوسة الوضع ، رأسها إلى جهة الأرض ، وتحت هذا الرأس كالحلقة لوضع كفة الميزان عليها وقت العمل ، وتعتبر هذه الآلة أقدم جهاز لقياس الثقل النوعي بدقة .

---

(١٧) Galileo Galilei (١٥٦٤ - ١٦٤٢) .

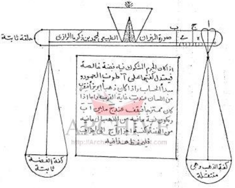
(١٨) Isaac Newton (١٦٤٢ - ١٧٢٧) .

(١٩) L. P. Sedillot ، صاحب كتاب « تاريخ العرب » .

(٢٠) من كتاب « ميزان الحكمة » لعبدالرحمن الخازني ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن بالهند ، ١٩٣٨م ، صفحة ٥٣ . انظر شكل (٢) .

(٢١) يقصد حجم الجسم المغمور .

(٢٢) كتاب « ميزان الحكمة » للخازني ، الصفحتان ٥٨ ، ٥٩ . انظر شكل (٣) .



الميزان الطبيعي لأبي بكر الرازي

شكل (٢)



الآلة المخروطة لأبي الريحان البيروني

شكل (٣)

وتتلخص طريقة البيروني في وزن المادة المطلوب تعيين ثقلها النوعي ، وذلك قبل إدخالها في الآلة المخروطة ـ التي تكون قد ملئت بالماء حتى غاية مصبها ـ فتزيح المادة المولجة قدراً من الماء مساوياً لحجمها ، حيث يفيض هذا الحجم المكافىء من الماء ، ويخرج من المصب ، حيث يجمع في كفة ميزان لإيجاد وزنه . ويجرى حساب الثقل النوعي بتحديد النسبة بين وزن المادة المختبرة ، ووزن كمية الماء المزاحة نتيجة إدخال المادة المختبرة في الآلة المخروطة ، أي أن

الثقل النوعي = وزن الجسم في الهواء / وزن مقدار حجمه في الماء

ويبين جدول رقم (١) نتائج قياسات البيروني [٢٣] للثقل النوعي لبعض المعادن منسوبة أولا الى الذهب وثانيا الى الماء ، كما يشتمل الجدول على أحدث ما حصلنا عليه من قيم الثقل النوعي لهذه المعادن .

جدول رقم (١)

المعدن	قيم البيروني للثقل النوعي: منسوبة الى الذهب على أساس الوزن النوعي للذهب = ١٠٠	قيم البيروني للثقل النوعي: منسوبة الى الماء على أساس الوزن النوعي للماء = ١	القيم الصحيحة للثقل النوعي منسوبة الى الماء
الذهب	١٠٠	١٩	١٩,٢٥٨ ـ ١٩,٣
الزئبق	٧١	١٣,٤٩	١٣,٥٥٧
الرصاص	٦٠,١٢٥	١١,٤٣٧	١١,٣٨٩ ـ ١١,٤٤٥
الفضة	٥٤,٦٢٥	١٠,٣٧٧	١٠,٤٢٨ ـ ١٠,٤٧٤
الصفر	٤٦,٦٢٥	٨,٨٥٩	٨,٦٠ ـ ٨,٩٢
النحاس (الأحمر)	٤٥,٦٦٦	٨,٦٧٦	٨,٦٦٧ ـ ٨,٧٣٦
توتياء النحاس	٤٤,٨٧٥	٨,٥٢٦	
الحديد	٤١,٧٢	٧,٩٢	٧,٦ ـ ٧,٧٩
القصدير	٣٧,٦٣	٧,١٥	٧,٢٩١

قيم الثقل النوعي للمعادن كما عينها البيروني بالتجربة

(٢٣) عن « دراسات البيروني في الطبيعيات » للدكتور جلال شوقي ، أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب ، حلب : ٥ ـ ١٢ إبريل عام ١٩٧٦ ، جامعة حلب : معهد التراث العلمي العربي ، الجزء الأول : الأبحاث باللغة العربية ، عام ١٩٧٧ ، الصفحات : ٢٥١ ـ ٢٧٣ .

وبمقارنة القيم التي توصل اليها البيروني بقيم الوزن النوعي التي تم تحديدها بالإمكانات المعاصرة ، نجد أن قيم البيروني قريبة جدا من القيم الصحيحة بالرغم من أن الأجهزة التي كان يستعملها في زمنه لم تكن لتقارن بالأجهزة الحديثة من حيث الدقة ، الأمر الذي يشهد للبيروني بالامتياز والإعجاز .

ويقدم جدول رقم (٢) نتائج التجارب التي أجراها البيروني [٢٤] لتعيين الوزن النوعي لبعض الأحجار الكريمة مقدرة أولا على أساس الياقوت ثم على المقارنة لهذه النتائج مع القيم المعاصرة ، وهي تبين درجة الدقة العالية التي تتسم بها نتائج البيروني .

جدول رقم (٢)

قيم الثقل النوعي لبعض الأحجار الكريمة حسب قياسات البيروني

أنواع الحجر الكريم وتسمياته باللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية	قيم البيروني للثقل النوعي: منسوبة إلى الياقوت على أساس الوزن النوعي للياقوت = ١٠٠	قيم البيروني للثقل النوعي: منسوبة إلى الماء على أساس الوزن النوعي للماء = ١	القيم الصحيحة للثقل النوعي منسوبة إلى الماء
الياقوت الأحمر[١]	٩٧,١٢٥	٤,٠١	٣,٩٩ - ٤,٤
	٩٠,٤٥٨	٣,٧٢	
الزُمرد[٢] أو الزبرجد[٣]	٦٩,٥	٢,٨٦	٢,٦٧٨ - ٢,٧٧٥
الياقوت الأزرق (لازورد)[٤]	٦٧,٨١	٢,٨	حوالي ٣
اللؤلؤ[٥]	٦٥,٥٨	٢,٧	٢,٦٥ - ٢,٦٨٤
المرجان أو العقيق[٦]	٦٤,٧٥	٢,٦٧	٢,٥ - ٢,٧
المرجان اللامع (للصدف)[٧]	٦٤,٥٤	٢,٦٦	٢,٦
زجاج سوريا	٦٣,١٢٥	٢,٦	للزجاج عموما :
	٦٢,٧٩	٢,٥٩	٢,٥ - ٣,٤٥
البِلّور الصخري أو الصوان الشفّاف للبِلور (الكوارتز)[٨]	٦٢,٦	٢,٥٨	٢,٥٨

(١) Red Hyacinth-Hyacinthe rouge-roter Hyacinth.
(٢) Emerald-Emeroude-Smaragd.
(٣) Topaz.
(٤) Lapis-Lazuli-Lapis lazulé-Lapis Lazuli.
(٥) Pearl-Perles-Perle.
(٦) Coral-Coraline-Koralle.
(٧) White Coral-NacrelCoraįl-Weisse Koralle.
(٨) Quartz-Cristal-Quarz.

(٢٤) المرجع السابق

٣و١و٣ ـ القسطاس المستقيم [٢٥]

وهو ميزان ابتكره أبو الفتح عمر بن إبراهيم الخيامي النيسابوري (٤٣٦ ـ ٥١٧هـ) = (١٠٤٤ ـ ١١٢٣م) :

« ميزان ذو ثلاث رمانات ، يعرف بالقسطاس المستقيم ، ويوزن به من حبة إلى ألف دينار أو ألف درهم ، وهو على صورة القَبَّان ذات عمود وعارضة ولسان وكفة واحدة ، وكبرى الرمانات الثلاث للمئات ، ووسطاها للعشرات والآحاد معا ، وصغراها للكسور »

٤و١و٣ ـ موازين الخازني

ضمن عبد الرحمن الخازني (ت : ٥١٥هـ = ١١٢١ م) كتابه الجليل « ميزان الحكمة » مجموعة من الموازين بقصد عمل قياسات متعددة ، نذكر منها على سبيل المثال ما يأتي :

١ ـ معرفة نسب الأوزان الموائي إلى المائي .

٢ ـ معرفة نسب حجوم الفلزات الذائبة وأوزانها بالرصد والاعتبار .

٣ ـ صنعة مقياس المائعات في الثقل والخفة .

٤ ـ صنعة القفان ، ووضع الرقوم عليه ، والوزن به ، وتحديد ثقل الرمانة .

وقد أورد في كتابه مجموعة من الموازين ، ويقصد بها أجهزة قياس ، نذكر أهمها فيما يلي :

أولا : موازين الماء [٢٦]

وتأتي أشكالها على ثلاثة أصناف :

أ ـ الميزان المطلق أو الميزان الساذج ، وهو ميزان ذو كفتين .

ب ـ الميزان الكافي أو الميزان المجرد عن المنقلة ، وهو ميزان ذو ثلاث كفات طرفيات ، إحداها منوطة تحت الأخرى وهي المائية .

جـ ـ الميزان الجامع أو ميزان الحكمة [٢٧] ، وهو ميزان ذو خمس كفات ، ثلاث كفات منها ثابتة ، واثنتان منها متنقلتان عن موضعها .

ويستخدم هذا النوع من الموازين لمعرفة نسب الفلزات بعضها إلى بعض في الحجم ، وتمييز بعضها من بعض من غير سبك ولا تخليص ، ومعرفة الجواهر الحجرية ، وتمييز حقها من أشباهها وملوناتها .

ثانيا : ميزان الأرض

وتسوية وجهها على موازاة السطح الأفقي ، ووجوه الحيطان على عاذاة القطر الذي يثبت عليه .

ثالثا : ميزان الساعات

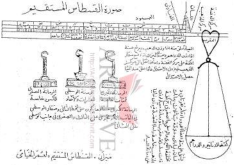
وتعرف به الساعات الماضية من ليل أو نهار ، وكسورها بالدقائق والثواني ، وتصحيح الطالع بها بالدرج وكسورها ، ويشتمل هذا الميزان على خزانة ماء أو خزانة رمل .

---

(٢٥) من كتاب « ميزان الحكمة » للخازني ، ص ١٥٣ .
انظر شكل (٤) .

(٢٦) من كتاب « ميزان الحكمة » للخازني ، الصفحات : ١٠٠ ـ ١٠٥ .

(٢٧) انظر الشكلين (٥) و (٦) .



ميزان . القسطاس المستقيم لعمر الخيامي

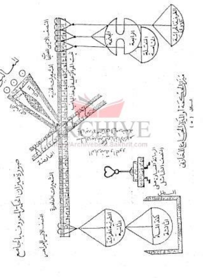
شكل (٤)

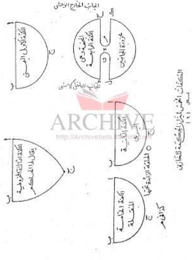
جدول (٣)

نتائج قياسات الخازني للثقل النوعي

لبعض المواد السائلة

المادة السائلة	الثقل النوعي حسب قياسات الخازني	القيم الصحيحة للثقل النوعي في العصر الحديث
ماء عند درجة الصفر	٠,٩٦٥	٠,٩٩٩٩
ماء عذب بارد	١,٠٠٠	١,٠٠٠
ماء البحر (مالح)	١,٠٤١	١,٠٢٧
زيت الزيتون	٠,٩٢١	٠,٩١
لبن البقر	١,١١٠	من ١,٠٤ إلى ١,٤٢
دم الإنسان	١,٠٣٣	من ١,٠٤٥ إلى ١,٠٧٥


صورة ميزان الحكمة المعروف بالجامع



٢و٣ ـ القياسات الكونية

١و٢و٣ ـ الاسطرلاب

عني علماء العرب والمسلمين أشد العناية بعلم الهيئة ، فأخذوا عن الإغريق آلة الاسطرلاب لرصد النجوم ، وطوروها أيما تطوير ، فدانت لهم القياسات الكونية التي أمكنهم إجراؤها بدقة مذهلة تفوق كل ماكان معروفا في العصر الوسيط .

وعن الأسطرلابات يقول الكاتب الخوارزمي [٢٨] في كتابه « مفاتيح العلوم » [٢٩] :

« أنواع الأسطرلابات كثيرة ، وأساميها مشتقة من صورها ، كالهلالي من الهلال ، والكري من الكرة ، والزورقي ، والصدفي ، والمسرطن ، والمبطح ، وأشباه ذلك . . . » .

ولعله من المفيد أن نبين هنا بإيجاز الأنواع الثلاثة الرئيسية للاسطرلاب ، وهي مقسمة بحسب ما إذا كانت :

١ ـ تمثل مسقط الكرة السماوية على سطح مستو ، أو

٢ ـ تمثل مسقط هذا المسقط على خط مستقيم ، أو

٣ ـ تمثل الكرة بذاتها دون أي إسقاط .

ومن ثم فالأنواع الثلاثة هي :

١ ـ الاسطرلاب المسطح أو السطحي ، ويعرف أيضا « بذات الصفائح » ، ويتركب من الأم ، والأقراص المستديرة ، والعنكبوت أو الشبكة ، والعضادة أو المسطرة .

٢ ـ الاسطرلاب الخطي ، ويسمى أيضا « عصا الطوسي » نسبة إلى مخترعه المظفر بن المظفر الطوسي (المتوفى سنة ٦١٠ هـ = ١٢١٤/٣ م) .

٣ ـ الاسطرلاب الكري أو الأكرى ، ويمثل الحركة اليومية للكرة بالنسبة لأي مكان معلوم دون استخدام لأية مساقط . ويتركب هذا النوع من كرة معدنية ، والعنكبوت أو الشبكة التي تتخذ هيئة نصف كرة معدنية ملامسة تمام الملامسة للكرة ، وصفيحة معدنية ضيقة ، وعقرب متعامد على هذه الصفيحة ، وأخيرا محور يخترق كلا من الكرة والشبكة والصفيحة المعدنية الضيقة ، وذلك في اتجاه القطبين الاستوائيين

٢و٢و٣ ـ قياسات الارض

يعتبر علماء العرب والمسلمين أول من استخرج ـ بطريقة علمية ـ طول درجة من خط نصف النهار ، أي مقدار درجة من أعظم دائرة من دوائر سطح الكرة الأرضية . ونشير فيما يلي إلى أهم من قام بهذه القياسات (جدول ٣) :

١ ـ فلكيو الخليفة المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ) = (٨١٣ ـ ٨٣٣م) ، وقد أجروا قياسين لطول الدرجة

---

(٢٨) هو محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي الكاتب (المتوفى سنة ٣٨٧هـ = ٩٩٧م) .
(٢٩) طبعة دار الكتاب العربي بيروت ، بتحقيق ابراهيم الأبياري ، سنة ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م ، ص ٢٥٤ .

أولها يلغ ١/٥٦ ميلا عربيا ، وثانيهما يلغ ٥٧ ميلا عربيا (الميل العربي = ١٩٧٣,٢ مترا) .

٢ - سند بن علي ، أبو الطيب (حوالي ٢٣٦ هـ = ٨٥٠ م) ، وعلي بن عيسى ، وعلي بن البحتري ، وقد ذكروا أن محيط الأرض يعادل ٤١ ٢٤٨ كيلومترا .

٣ - أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (٣٦٢ - ٤٤٣ هـ) = (٩٧٣ - ١٠٥١ م) ، وقد أورد طريقة مبتكرة لقياس محيط الأرض ، ونبين فيما يلي إلى أي مدى كانت دقة قياساته :

	القيم المعاصرة
قطر الأرض عند خط الاستواء : (كيلومتر)	١٢ ٧٥٦
قطر الأرض عند المدار القطبي (كيلومتر)	١٢ ٧١٤

قياس البيروني	الفرق	٪
١٢ ٦٨٣	- ٧٣	- ٠,٥٧٢
	- ٣١	- ٠,٢٤٤

٤ - القياسات المرواة عن قاضي زاده ابن الرومي (ت : ٨١٥ هـ = ١٤١٢ م) في شرحه على « الملخص في الهيئة » لمحمود بن محمد بن عمر الجغميني (ت : ٧٤٥ هـ = ٤/١٣٤٥ م) ، ومحمد بن مباركشاه الشهير بميرك البخاري (القرن ٨ هـ = ١٤ م) في شرحه على « حكمة العين » لنجم الدين الكاتبي القزويني (٦٠٠ - ٦٧٥ هـ) = (١٢٠٣ - ١٢٧٧ م) ، وتقدر قطر الأرض بـ : ٢١٦٤ فرسخا (الفرسخ = ٥٩١٩,٦ مترا) .

	القيم المعاصرة
قطر الارض عند خط الاستواء : كيلومتر	١٢ ٧٥٦
قطر الارض عند المدار القطبي (كيلومتر)	١٢ ٧١٤

القياسات المرواة	الفرق	٪
١٢ ٨١٠	+٥٤	+٠,٤٢٣
	+٩٦	+٠,٧٥٥

ومن هذه النتائج تبدو بوضوح دقة القياسات التي قام بها علماء العرب والمسلمين ، ولعل أدقها هي قياسات أبي الريحان البيروني لقطر الكرة الأرضية (جدول ٣) .

ومن قياسات العرب يقول كرلو نلينو في كتابه « علم الفلك : تاريخه عند العرب في القرون الوسطى »[٣٠] :

« أما قياس العرب فهو أول قياس حقيقي أجرى كله مباشرة ، مع كل ما اقتضته تلك المساحة من المدة الطويلة والصعوبة والمشقة ، واشتراك جماعة من الفلكيين والمساحين في العمل .

فلا بد لنا من عداد ذلك القياس من أعمال العرب العلمية المجيدة المأثورة . »

---

(٣٠) صفحة ٢٨٩ .

جدول (٣) ـ قياسات الأرض عبر الحضارات المتعاقبة
القيم التقديرية في الحضارات الاغريقية

المصدر	قطر الأرض كيلو مترا	محيط دائرة نصف النهار كيلو مترا	درجة من درجات خط نصف النهار One degree of Latitude كيلو مترا
من رواية أرسطو [1] (٣٨٤ - ٣٢٢ ق . م .)	٢٣٥٥٤,٨٧٦	٧٤٠٠٠ (٤٠٠٠٠٠ استطاديون)	٢٠٥,٥٥٥٥
إغريقي مجهول الاسم [2]	١٧٦٦٦,١٥٧	٥٥٥٠٠	١٥٤,١٦٦٦٦
إراتوستين [3] Eratosthenes (٢٧٦/٥ - ١٩٤ ق.م)	١٤٨٣٩,٥٧٢	٤٦٦٢٠	١٢٩,٥٠٠
عن الكندي [4] (٨٠١ - ٨٧٣م)	١٥٠٦٨,٠٩٥ (٧٦٣٦ ٣/٤ ميل عربي)	٤٧٣٣٧,٩٢٧	١٣١,٤٩٤٢٤

(١) كتاب : علم الفلك : تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ، كرلو نلينو ، ص ٢٦٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٩ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧٤ .
(٤) رسائل الكندي الفلسفية ، الجزء الأول ، ص ٢٥٦ .

المصدر	قطر الأرض كيلو مترا	محيط دائرة نصف النهار كيلو مترا	درجة من درجات خط نصف النهار كيلو مترا
القياس الأول فلكيو المأمون (٥) (٨١٣ - ٨٣٣م)	١٢٧١٨,٧٧٣	٣٩٩٥٧,٣	١١٠,٩٩٢٥ ($56\frac{1}{4}$ ميلا عربيا)
القياس الثاني	١٢٨٨٨,٣٥٧	٤٠٤٩٠,٠٦٤	١١٢,٤٧٢٤ (٥٧ ميلا عربيا)
عن سند بن علي، وعلي بن عيسى، وعلي بن البحتري (٦)	١٣١٢٩,٦١٥	٤١٢٤٨	١١٤,٥٧٧٧٧
أبو الريحان البيروني (٧) (٩٧٣ - ١٠٥١م)	١٢٦٨٢,٧١١	٣٩٨٤٤,٠٠٨	١١٠,٦٧٧٨
عن قاضي زاده ابن الرومي (ت: ١٤١٢م) في شرحه على «الملخص في الهيئة» لمحمود الجغميني (ت: ٧٤٥هـ = ٤/١٣٤٥م) (٨) وميرك البخاري في شرحه على «حكمة العين» للقزويني .	١٢٨٨٠,٨١٤ (= ٣٦٩٤ فرسخا)	٤٠٤٤٣,٩٣٩	١١١,٧٨٨٧١
عند خط الاستواء الفلكي الألماني (٩) Friedrich Wilhelm Bessel	١٢٧٥٤,٧٩٤٣١	٤٠٠٧٠,٣٦٨١١	١١١,٦٧٩٧٨٢
عند المدار القطبي عام ١٨٤٢م (١٧٨٤م - ١٨٤٦م)	١٢٧١٢,١٥٧٩٣	٤٠٠٠٣,٤٢٣٠٤	١١٠,٥٦٣٧٩٠
القيم المعاصرة (١٠) عند خط الاستواء	١٢ ٧٥٦	٤٠٠٧٤,٢٤٩	١١١,٣١٧٣٥
عند المدار القطبي	١٢ ٧١٤	٣٩٩٤٢,٣٠٢	١١٠,٩٥٠٨٣

(٥) نلينو، ص ٢٨١ - ٢٨٢ . (٦) نلينو، ص ٢٨٩ . (٧) من كتابه «غرة الزيجات»، وكتابه «الاسطرلاب» .

(٨) نلينو، ص ٢٦٥ . (٩) نلينو، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

(١٠) The Guinness Book of Answers 1985, P. 31.

تحويل وحدات القياس (٣١)

الذراع الشرعي	٤٩٣,٣ =	مليمترا
(= الذراع الأسود)	٠,٤٩٣٣ =	من المتر
الميل العربي	٤٠٠٠ =	ذراع شرعي
	٠,٤٩٣٣ × ٤٠٠٠ =	مترا
	١٩٧٣,٢ =	مترا
	١,٢٢٥٩٤٧ =	ميلا انجليزيا
الفرسخ العربي	٣ =	أميال عربية
	١٩٧٣,٤ × ٣ =	مترا
	٥٩١٩,٦ =	مترا
الاسطاديون اليوناني (الملقب بالأوليمبي)	١٨٥ =	مترا
الميل الروماني	١٤٧٩,٥ =	مترا
الميل الايطالي	١٥٨٩ =	مترا
(في القرن ١٥م)		
الميل الانجليزي	١٦٠٩,٣٤٤ =	مترا

٣,٢,٣ - طول السنة الشمسية (المدارية)

اهتم علماء العرب والمسلمين - في دراساتهم الفلكية - بتحديد طول السنة الشمسية ، ويبين جدول (٤) أنهم توصلوا الى قيم على جانب كبير من الدقة بالمقارنة مع القيم العصرية .

(٣١) كتاب «علم الفلك : تاريخه عند العرب في القرون الوسطى» تأليف كرلو نلينو ، ص : ٢٦٣ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ .
«وحدات القياس في الحضارة العربية» للدكتور جلال شوقي ، مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم ، القاهرة ، العدد الثامن ، مارس ١٩٧٥م ، الصفحات : ٣١ - ٤٤ .
كذلك مجلة «رسالة العلم» بالقاهرة ، المجلد ٤٢ ، العدد الأول ، مارس ١٩٧٥ .

جدول (٤) - مقارنة بين قياسات طول السنة الشمسية .

المصدر	طول السنة الشمسية			
	يوم	ساعة	دقيقة	ثانية
بطليموس القلوذي (تألق حوالي ١٥٠م) (صاحب المجسطي)	٣٦٥	٥	٥٥	صفر
أبو عبدالله محمد بن جابر ابن سنان البتاني (ت : ٣١٧هـ = ٩٢٩م)	٣٦٥	٥	٤٦	٢٤
أبو الفتح عمر بن ابراهيم الخيامي النيسابوري (٤٣٦ - ٥١٧هـ) = (١٠٤٤ - ١١٢٣م)	٣٦٥	٥	٤٩	صفر
ألوغ بك بن تيمور (٧٩٦ - ٨٥٣هـ) = (١٣٩٤ - ١٤٤٩م)	٣٦٥	٥	٥٠	٨
القيم المعاصرة ٣٦٥,٢٤٢ ١٩٨ ٧٨	٣٦٥	٥	٤٨	٤٨,٧

من هذا الجدول يتضح أن قياسات الخيامي تحمل خطأ يقل عن ٠,٠٠١٪ ، ومن ثم كان « التقويم الجلالي » المنسوب لعمر الخيامي أدق من التقويم الجريجوري (أو الغريغوري) ، فبينما يؤدي هذا التقويم الأخير الى خطأ يبلغ واحدا في كل ٣٣٣٠ سنة ، فإن الخطأ الناجم عن « التقويم الجلالي » لايتعدى يوما واحدا في كل ٥٠٠٠ سنة .

٤ - المنهج العلمي في الغرب

لم تكن الحضارة الأوربية أول من وقف على المنهج التجريبي في العالم ، وإنما كانت قد سبقتها اليه حضارة العرب التي وضعت أسس البحث العلمي قبل أن تعرفها أوروبا بمئات السنين ، ومع ذلك يتجاهل أهل الغرب - عن قصد أو عن جهل - نسبة المنهج العلمي لعلماء العرب والمسلمين ، وينسبون تأسيس هذا المنهج لبعض من رواده منهم :

١ - روبرت جروستست : Robert Grosseteste (١١٧٥ - ١٢٥٣م)

٢ - روجر بيكون : Roger Bacon (١٢١٤ - ١٢٩٤م)

٣ - ليوناردو دافينشي : Leonardo da Vinci (١٤٥٢ - ١٥١٩م) .

٤ - فرانسيس بيكون الفيلسوف الانجليزي : Baron Verulam Francis Bacon (١٥٦١ - ١٦٢٦) ، وقد أكد على أهمية التجربة في كتابه : "The Advancement Of Learning".

٥ - رينيه ديكارت : Rene Descartes (١٥٩٦ - ١٦٥٠م) .

ونشير فيما يلي ـ على سبيل المثال ـ إلى بعض ما جاء في كتابات ليوناردو دافينشي خاصا بالمنهج العلمي الذي لابد وأن يكون قد وصلت سهامه اليه بحكم اطلاعه على كثير من تراث الحضارة الإسلامية لاسيما على كتابات الحسن بن الهيثم في كتابه « المناظر » ، كما تقدمت الاشارة اليه .

٤،١ ـ المنهج العلمي عند ليوناردو دافينشي

لم يكن ليوناردو دافينشي ليقبل عن رضى واقتناع السيطرة التقليدية العمياء لعلوم الاغريق القديمة التي سادت الحياة الفكرية في القرون الوسطى ودمغتها بطابع الجمود سواء أكانت هذه العلوم منسوبة الى أفلاطون أم أرسطاليس (أرسطو) أو إقليدس أو غيرهم من عظماء المفكرين والكتاب الاغريق . وتعبر مذكراته بوضوح عن هذا المنحى الفكري حيث يقول : « سيظن الكثيرون أن بوسعهم لومي بحق متهميني بأن براهيني تخالف تعاليم بعض الرجال الذين يتمتعون بأعلى درجات التقدير ، بيد أنهم لم يدخلوا في اعتبارهم أن أعمالي تصدر عن مجرد التجربة البسيطة وهي صاحبة السلطة الحقيقية . »

ومضى في موضع آخر يقول :

« إن من يعتمد في مناقشته على تعاليم موضوعة ، فإنه لايستعمل فكره ، وإنما يلجأ الى ذاكرته » .

كما ورد عنه في موضع ثالث قوله :

« إننا لانملك في علمنا حقيقة على الاطلاق تقع خارج نطاق الرياضيات . كذلك لايمكن للمرء أن يحب سوى مايعرفه ، ولا يعرف الإنسان في الواقع الا ما قام بقياسه » . (عن مجلد الـ : Codex Atlanticus)

إن ليوناردو دافينشي ليعد بحق من مؤسسي المنهج العلمي والمدرسة التجريبية في أوروبا ، حيث تبدأ الدراسة بالمشاهدة الدقيقة يليها الفحص والتحليل ثم الاستنتاج المنطقي ، وتنتهي باختبار صحة النتائج النظرية بإجراء التجارب العملية ، وهو اتجاه لم يكن مألوفا في العصر الذي عاش فيه ليوناردو . وكثيرا مانوه ليوناردو في مذكراته الى أهمية إجراء التجارب فكتب يقول :

« إن التجربة لاتخدع أبدا : إن تقديرنا وحده هو الذي يخدع ، ويبني عليها أمورا لاتدخل في طاقته » .
(عن المخطوط : Cod Atl., 154 v)

وذكر في موضع آخر :

« قبل أن تجعل من هذه الحالة قاعدة عامة ، اختبرها بالتجربة مرتين أو ثلاث مرات ، وانظر ان كانت التجربة ستحدث نفس الأثر » .
(عن المخطوط : Ms. A, 47r.)

ومضى في موضع ثالث من مذكراته يقول :
« يجب أن تجري التجربة عدة مرات حتى لايكون هناك مايعرقل أو يدحض هذا البرهان ، اذ أن التجربة قد تكون خاطئة سواء أخدعت الباحث أم لم تخدعه . »
(عن المخطوط : Leicester Ms.,3 v)

هذه مقتطفات من أقوال ليوناردو دافينشي في أهمية التجربة وضرورتها للتأكيد والتيقن من النتائج ، وهي ولاشك حجر الزاوية في المنهج العلمي .

خاتمة

أرجو أن تكون هذه الدراسة المقتضبة قد ألقت مزيدا من الضوء على معالم الطريق الذي سلكته الحضارة الانسانية لتخرج من إسار المنهج الفلسفي التجريدي إلى رحاب المنهج العلمي التجريبي ، وأن تكون هذه الدراسة قد ساقت من الأدلة وأوردت من البراهين مايثبت ويدلل على أحقية علماء العرب والمسلمين في نسبة هذا المنحى الأخير اليهم ، فلولا سبقهم وفضلهم في هذا المضمار لتأخر ركب الحضارة عدة قرون .

أسئلة الشعر في زمن اللاشعر

رشيد بنحدو

« العالم يحتقر الشعراء ، يعتبرهم غير مؤهلين لتسيير شؤون المدينة » .

« الشعر يتجاوز السياسة ، أو هو سياسة تتمرس على السياسة » .

« الشعر لغة داخل اللغة » .

« الشاعر اليوم يهذر أكثر مما ينظم الشعر » .

« نشر قصيدة دون تسمية صاحبها أفضل ، شعريا ، من تسمية الشاعر ونسيان قصيدته » .

« المهم هو العمل الأدبي ، وليس ناشره ، بل ولا اسم مؤلفه نفسه » .

أجرت مجلة « Caracte're's » الفرنسية مؤخراً استفتاء هاماً شمل فئة من أبرز الشعراء المعاصرين ، يتعلق بآفاق وحدود الكتابة الشعرية في نهاية القرن العشرين ، وفي إطار علاقاتها بالحقلين السياسي والايديولوجي ، وكذا ببعض التيارات الفنية والفكرية التي شهدها هذا القرن .

و « CARACTERES » مجلة دولية للشعر ، يديرها BRUNO DUROCHER أحد كبار شعراء فرنسا المعاصرين ، وهي مستقلة عن كل المؤسسات الرسمية والتنظيمات السياسية ، تصدر بفضل اشتراكات قرائها الكثيرين في العالم ، أربع مرات في السنة بباريس .

وقد نشرت المجلة أجوبة ٤٢ شاعراً و شاعرةً عن عشرة أسئلة ، ووعدت بنشر أجوبة شعراء آخرين في عدد لاحق .

ونظراً لأهمية الاستفتاء ، خاصة وأنه يشمل شعراء بارزين ، ويعكس محاور الجدل السائدة راهناً في الغرب حول الممارسة الشعرية ، ونظراً لما يمثله من

إمكانيات خصبة للنقاش والمقارنة في أوساط الشعراء العرب الشباب - ارتأينا تقديم صورة متكاملة عنه لقراء « عالم الفكر ». وقد كانت نيتنا في البدء عرض أجوبة الشعراء المستجوبين من خلال تصنيفها إلى محاور مشتركة . لكن الأشكال التي اتخذتها بعض الأجوبة (قصائد على هامش الاستجواب ، رسائل شخصية إلى مدير المجلة ، إجابات مسهبة ومتناقضة ، أسئلة حول الأسئلة . . .) ألزمتنا باعتماد طريقة انتقائية في العرض ، مع حرصنا الأكيد على تفادي الاختزال والتشويه .

السؤال الاول :

« ما هو في اعتقادكم موقع الشاعر في المجتمع ؟ »

نيكول كداليا

« المجتمع وردة تقتات بالحشرات » ، هذا ما كانت تقوله جدران المدينة في ماي ١٩٦٨ . إن المجتمع يلتهمنا جميعاً بجشع تتفاوت حدته . أما الشاعر ، فهو يتعرض لأبطش التهام ونهب . فلا مكان في المجتمع للشاعر مطلقاً . . . من الممكن قبول الطبيب - الشاعر والأستاذ - الشاعر . . . . . فهو يتعيش من عمله الأساسي ويحلم بعمله الثانوي ويقرائه . أما الشاعر الخالص ، فمنبوذ من المدينة . على أي حال ، لم يتعود الشاعر أن يهتم الناس بتمزقاته وهواجسه . هو دوماً مخلوق طفيلي لأن ما ينتجه لايمكن تحويله ، فيما يبدو ، إلى مادة استهلاكية ومربحة .

جيرار بوشولي

هل الشاعر عراف ، نبي ، محرض . . ؟ لست أدري ، يمكنه أن يكون كذلك . لكن هذا لايبدو لي ذا قيمة . حالياً يجب على الشاعر أن يكون إنسان الأبد ، لا الزوال ، مجتمعاً في زمن التثار ، إنساناً خارج الحشد دون أن يكون فوقه .

ج . ب . بالب

أنا أعمل ، أبادل ، أنتج إذن فأنا موجود ومعترف بي . . . أما الشاعر ، فلا ينتج ولا يبادل شيئا . فلا فائدة منه ولا موقع له في المجتمع أياً كان شكله . لكن الشاعر ، مثل الطفيلي ، كائن موجود . فهو يستقر كالسرطان في قلب الأنسجة المجتمعية ، فينمي طاقاته ويولد أنسجته الخاصة ، مهدداً بذلك وجود الجسم الذي يحتويه . إنه ، بما هو حضور ملح وموجع « للفوضى » ، يشهد على ضرورة « ما لا يفيد » الدائمة أي على شكل أسمى من أشكال الوجود الأساسي فيه هو الإنتاج الذي يجاوز ذاته إلى غيره ، أي ما ينتجه عمل مستلب ، بل هو إنتاج الحياة ذاتها ، وتوقف الزمن في فعل الوجود حيث يعرف الشعر بأنه محاولة تعطيل الحياة في الكلمات واستيقاف امتلاك الزمن الذي يمضي . . .

الشاعر - تبكيت ضمير المجتمع .

فلوروتس فوكومبر

أعتقد أن للشاعر موقعاً هامشياً في المجتمع لأن الشعر لا يحظى بوجود فعلي في المجتمعات الصناعية ، على غرار اي نوع من الممارسات المجانية . ولن تتغير هذه الوضعية ما دام الشعر خارج مجال الضرورة لدى جميع الناس . . لا أرى مثلا أية فائدة في تخفيض ثمن الدواوين الشعرية إلى فرنكين أو فرنك واحد ، لأن الذين يشترونها سيظلون دوما منتمين إلى نفس الأقلية التي تتحمل كل الأثمان من أجل أن يكون الشعر في بيوتها .

إن وضعية الشاعر لم تتغير منذ VERLAINE وأولئك الناشرون الذين يدعون الثورية بتخفيضهم أثمان الكتب إنما يكرسون « شرف أن تنشد عندهم » بالمجان ، ويسعون من أجل مزيد من الأرباح . أما علة ذلك ، فجاهزة وهي : « لا تأمل ضمان حياتك بقلمك » (كذا !) لاقتناعهم بضرورة أن تفقد حياتك نهائيا ، وبأنه لا يعقل أن يتعيش المرء من ممارسة تخصه وحده .

لامكان إذن للشاعر في المجتمعات الراهنة . إن المجتمع لا يتعاطى مع صانعي الخيال ، اعتباراً لكونهم خاملين وأغوالا خطيرين . ما هو عدد الشعراء المعتقلين حالياً في سجون العالم ؟ هل تعرفون عددهم ؟

جاي بلهانس

يتحدد موقع الشاعر حالياً بين تدبير شؤون البيت أو البطالة وإلا فلا موقع له .

شارل أوطران

إذا وافقنا على عدم مناقشة معنى كلمة « مجتمع » أو إذا قبلنا ها بالأحرى في معناها الأرحب « المجتمع : مجموعة أفراد يرتبطون فيما بينهم بصلات دائمة ومنظمة تحددها في الغالب مؤسسات وتضمنها قوانين » قاموس ROBERT هذا هذا المعنى الذي يسمح قبليا باحتواء كل الأنظمة ، بما فيه « الآخر » والمحلوم به والمرفوض ـ فمن البديهي ألا يكون للشاعر فيه موقع ما إلا بشكل عرضي أو طارىء . ففي الاحتمال الأول ، تتوج حياته مثلا بمنصب في وزارة ذات بلخ وهيبة ، لا وزارة الشغل ، بل وزارة الشؤون الخارجية . أما في الاحتمال الثاني ، فإن المجتمع يخضع لتجربة تحرمه من عاداته الترفيهية التي لا يمثل فيها الكتاب عامة سوى قيمة جزئية ، والشعر خاصة أية قيمة . والشعر يعبر بعنف عن أصل ومسؤولية هذا النقص الباهت وذلك في لغة اللعنة أولا ، وفي لغة الغضب المكبوت ثانياً والمجتمع الذي يتعرف في هذا الشعر على نفسه ، أو على استيهاماته الخاصة أي على همومه المباشرة والعادية ـ يتقبل حينئذ شكلاً تعبيرياً سرعان ماسينساه بعد انتهاء التجربة .

هل تنخدع هنا ونقول إن الشاعر غير المعترف به هو ، مع ذلك معترف به كما هو في ذاته من لدن مجتمعه المعاصر حتى ولو تم هذا الاعتراف بالسخرية ؟ أن في التعبير عن هذه العلاقة السخرية وهي علاقة حكم ورفض وإدانة نسبة ما من الصحة . إن المجتمع لايحتاج إلى الشاعر لكنه خلافاً لافلاطون ، وبصفة عامة ، لا يطرده من الجمهورية بل يتجاهله بأبهة أو بلا حياء .

لذلك ، فإن « مجتمع » الشاعر ، ذلك الذي يوجد من أجله ولا يستغني عنه ، ينحصر في ألف أو ألفي وربما ثلاثة آلاف قارىء ومستمع ومشاهد للخطاب الشعري ، أيا كان شكله . فأية سلطة تمنح لهذه المجموعة الصغيرة جداً ، هذه الأقلية التي ترن وسط أكثرية واهنة ، إذا لم تكن سلطة معرفة واستطاعة تأييد حرارتها وحيتها في عالم بارد ؟ أليست هذه الأقلية هي ما ينبغي اعتباره المجتمع الحقيقي للشاعر ؟

قد يقال : أليس الشاعر ، بسخريته وغموضه المفترى وشقلباته وهلوساته وأساليبه المزعومة في إثارة مشكلات مزعومة يستخف بها المجتمع أيما استخفاف ـ مسؤولاً عن هذا الطلاق ؟ هذا هراء فبين جمهور الفاسقين الذين اختارهم Villon وسيدات القصور

المترجهات المعجبات به LAMARTINE ورفاق RIMBAUD المولعين بالأدب ـ ليس الفرق في الطبيعة أو في الدرجة . إنه بالكاد فرق في الأحوال : ففي كل حالة يتموقع الشاعر ضمن مجتمعه هو ، مجتمعه الحميمي . من هذا المجتمع يولد الشاعر ومن الشاعر يولد هذا المجتمع . لماذا إذن ننتظر من الأخر أحسن من حياد موار أحسن من اعتراف قاتل ؟

على كل حال ، لايتحدد موقع الشاعر في المجتمع بأي مستوى من تلك المستويات التي يتقن هذا المجتمع في تقريرها وترتيبها . وحين نرى أن الرواية تتعيش فقط من جوائز نهاية السنة ، يحق القول إن موقع الشاعر الدائم الحضور والنشاط ، هو بقوة الممارسة ، حيث قرر له أن يكون : موقع مستقل ومع ذلك مقيد مادياً ، بعيد عن وسط المدينة رغم أنه قلبها النابض .

ميشيل مانول

أتساءل : هل سبق أن حظي شاعر ما باعتراف في مجتمعه ؟ من منا يجرؤ على كتابة «شاعر» في بطاقة هويته أو ورقة الضرائب ؟ من منا يدعي أن ممارسته للشعر تضمن له لوازم حياته اليومية ؟ إن الشاعر نظراً لعدم اعتراف السلطات به ولاحتقار من يرتبط بهم مادياً لشخصه ، ولاحتراس الآخرين منه ـ لايسعه سوى أن يشيد عالماً خاصاً على هامش هذا العالم المقنن الذي يرفضه .

هوبير جوان

لا مكان للشاعر في المجتمع . الشاعر متقدم على المجتمع إنه CASSANDRE .

روبير ـ لوسيان جيرارت

يعرف شعراء هذا الزمن أن الشعر ، خلافاً لحلم RIMBAUD لا يغير العالم . فموقع الشاعر في مجتمعات اليوم ليس موقع كاهن أو رجل سياسة ، بل موقع شاهد يحكم بأعلى صوت على ما يراه ومايعيشه .

بيير بوجوت

موقع الشاعر ؟ موقع كائن أسمى مجهول ، لكن بمنتهى التواضع ، ومن غير أن يمنحه ذلك أي امتياز اجتماعي سوى امتياز التأثير في ما لايرى وما سيأتي .

إنسان أنا فوق البشر
لكن هذا لايقال
لكن هذا لايعرف
لكن هذا لايرى
إذا كانت لي عيوب
فلاتفتن تمويه كهالي الرائع .
تافه أنا حقير عليل كذاب لص
لئلا يفطن أحد لشخصي
وسط الحشود النكرة
لأشبه المتوسط المعيب .
جذوتي ستكون أقوى
ونوري أسطع
لولا النقائص التي تدثرني .
أنا الإنسان الأسمى المجهول

الإله الخفي :
من يكشفُ عني
تحت الألوان الشائعة
يصبح خالداً .

جان - بيير لوسيور

ليست للشاعر أية وظيفة اجتماعية ، فهو غير موجود بالنسبة للمجتمع .

جاك - ماري لافون

موقع الشاعر أساسي في المجتمع لأن له قدرة على استجلاء الأشياء وتوحيد المتنافرات في جو من الثقة فبدونه لايستطيع الانسان أن يعثر على بعده الحقيقي ، أي وجوده .

سطليوس كاسطا نوس دوميديسيس

إن الاعتقاد بضرورة طرد الشاعر من المدينة كما فعل أفلاطون ، أو بأنه كسائر الفنانين ، « مرشد الإنسانية » إلى طريق الحقيقة ، كما تصور FRED ADLER - يوقع في شرك الفكر الثنوي أو المنطق السكوني (هذا أبيض أو أسود) الذي يحتاج إلى التقسيم من أجل الفهم ذلك أن قانون البداهة يقضي بعدم « وجود » الشاعر وبأن « كل » الشعراء ليسوا حصراً لاهذا ولاذاك ، وبأنه إذا كانت هناك إمكانية وجود « تعريف » رحب للشاعر بحسب الحقب أو الأنواع الشعرية ، فإن كل شاعر وبشكل فردي ، يمكنه أو لايمكنه أن يقتنع بالدخول ضمن هذا « التعريف » الزمكاني ولو كان رحباً . ومع ذلك يستحيل معرفة شيء دون تحديده، أي دون تعريفه . ومن هذه الاستحالة المزدوجة يولد الشاعر واقعنا . مما يعني ضرورة معرفة « من هو الشاعر اليوم » قبل تعيين موقعه في المجتمع لذلك نقترح هذا التعريف المضاد : الشاعر من يستعمل لغة خاصة ليشحن اليومي المألوف بدلالات وأفكار وأحاسيس كانت بدونه ، ستبقى متوارية باسم البداهة. فالشاعر إذن يساعد على ترقية أبعاد الكينونة . إذا قبل هذا التعريف يصبح واضحاً أن مكانة الشاعر في المجتمع هي مكانة من يبحث في مجال الوجود الخالص أي الكينونة الأصلية قبل امتدادها الى عندية . إن امتداد الكينونة إلى عندية يؤكد النتائج المحصل عليها من لدن الشاعر في شكل رؤية « نبوئية » .

أندري بيراكايو

ليس الشاعر وحيداً ، لكنه ملاح يرود البحار منفرداً . إنه مرغم في مجتمع يحكمه سلطان المال ، على الحياة في نوع من السرية المقلقة .

جاك لوباج

الشاعر صلة وصل بين من يسمون « منتجي الدلالات » ، رسامون ، موسيقيون الخ . بهذه الصفة فمهمته مزدوجة : فهو يعبر عن معاصرته ، مدمجاً إياها في حركة الزمن وهو في نفس الوقت يعطل هذه الحركة (ذات الطبيعة القهرية) ويقول المستقبل . هنا تمكن ازدواجيته .

أندري ماريسيل

موقع الشاعر في المجتمع ؟ إنه موقع أي إنسان ! يجب أن نكف عن اعتبار الشاعر مخلوقاً استثنائياً .

بيريط ميشلود

لكن من هو الشاعر أولاً ؟ إننا نعد بالآلاف ، نحن الذين نحمل هذا الاسم ؟ بيد أن الشاعر يبدو نادراً ندرة النبي - علماً بأن لا وجود لهذا دون ذاك . هذا الشاعر (الشاعر - النبي) يرفضه المجتمع بالفطرة ، مثلما يرفض كل ما يعكر رغده ، وكل ما يعرض عينيه لسهام الضوء .

برنار نويل

كل إنسان يحتل نفس الموقع في العالم . فهو في آن واحد متعذر استبداله وغير ضروري . إن الوعي بهذا التناقض والقدرة على التآلف معه كهوية يمكن اعتبارهما بمثابة الفعل الذي يخلقنا ـ ولم لا ؟ يخلقنا كشعر .

جان ـ دوني فيليب

الانسان يصبح شاعراً حين يطلق حياة المدنية ، إن موقع الشاعر هنا ، هنا حيث التقاتل من أجل الكلام والكلام من أجل التقاتل. فلا مكان للخطابات البتولية ، من نوع الكلام الشعري مثلاً ، بين الخطابات السياسية والتقنية والجامعية والإشهارية . إنه لعجيب أن نلاحظ أن الشعر ، بعد أن تحول النشاط الثقافي إلى حركة مناهضة لهذه الخطابات المناورة ، قد بقي على حقيقته ، وفياً لجوهره . إن الشاعر هو العلامة الوحيدة على ممار فردية بالأساس ضمن حركة رفض ، حركة رفض ومعارضة .

دومينيك سيلا

على الشاعر أن يستعيد موقعه الحقيقي في المجتمع المعاصر . عليه ، أكثر من ذي قبل ، أن يكافح ليثبت للمجتمع أنه ضروري . قديماً كان الشاعر شاعراً أما اليوم فهو غالباً شاعرٌ ـ عالمٌ ، شاعرٌ ـ أستاذٌ ، شاعرٌ ـ مترجمٌ ، الخ مما يعني أن الشعر يظهر أو ينزع إلى الظهور بمثابة عنصر أكثر مرونة ، أو بمعنى ما ذي حضور كلي من هنا ، يحظى الشاعر بإمكانية إثباته ذات يوم أهميته في مجتمع يعامله غالباً كعنصر طفيلي أو ، في أحسن الحالات، كبضاعة يتاجر بها .

السؤال الثاني

« ماهي واجبات المجتمع نحو الشعر » ؟

بيير داليو

لست مديناً للمجتمع بأدنى شيء ولا أنتظر منه أي شيء .

هوبير جوان

لا واجب للمجتمع نحو الشاعر أو الشعر ، ولقد أدرك ذلك أفلاطون على نحو رائع حين طرد الشاعر من مدينته . فالشاعر مثير للفتن ، ناشر للأكاذيب يحرض على الفعل ، في الوقت الذي يحرمه على نفسه . إن الفعل يقتضي إلغاء وإنكار الكلمات الجوفاء المهيبة .

شارل أوطران

قد يوحي هذا السؤال الثاني بأن بينه وبين السؤال الأول توافقاً تاماً والحق أنه توافقٌ ناقصٌ . فالأول يتعلق بموقع الشاعر في المجتمع ، ومن ثم تحديد موقف الشاعر من المجتمع . أما الثاني فيتعلق بالشعر ، الذي يدين له الشاعر بكل شيء ، لكنه لايدين للشاعر إلا بجزء من ألقه ـ لأن الشعر كل شيء وليس فقط في قصيدة الشاعر .

يجوز القول إذن الشعر والمجتمع يتواجدان من غير أن تنتج عن هذا التواجد واجبات وقوانين ، وإلا ينبغي التساؤل عن مسؤولية المجتمع في قتل الشعر ، بل وقتل الحياة ، وفي هذه الحالة ستتجاوز الدعوى حدود السؤال .

الحقيقة أن بناء المجتمع قد تم دون تصور لوجود الشاعر . والذين خططوا لهذا البناء هم رجال القانون

الملعون بالمعونات والأحكام التي تنكر أو تتجاهل هذا الوجود . فالمجتمع يقوم على تعاقدات ، مطاوعة الجور والتعسف ، لا حضور فيها للشعر . ويحق للبعض أن يدافع عن تجليات هذه التعاقدات أيا كانت ، طبيعية أو غير طبيعية . ومن بين هذه الأخيرة ، لايشكل الشعر المكتوب أو الشفهي ، سوى عنصر من المجموع الذي يسعى إلى جعل المجتمع أقل بلادة ، على الاقل بالنسبة للذين يعانون من ذلك .

ج . ب . يسالب

لا واجب للمجتمع نحو الشاعر سوى واجب إبادته ، ونظراً لعجزه عن تحقيق ذلك كليا لفرط ما يبكته ضميره ، فإنه يختار تعقيمه فتكون النتيجة أن السرطان لا يتراجع ، بل تتم فقط محاصرته ومراقبته بعناية ، وخير شاهد على ذلك قلة الامكانات الموضوعة رهن إشارته ، وكذا تلك الصورة التي تروجها وسائل الاعلام عن الشاعر ، وهي أنه صاحب رؤى وعجوز وشاذ وهامشي . . ولن ينتهي هذا الوضع إلا اذا قلب المجتمع قيمه وتغير تغييراً جذرياً حينئذ « سيكون الشعر من إبداع جميع الناس لا من إبداع شخص واحد » .

هونري روجي

ما يتلقاه المجتمع لايبدو دائما كظاهرة عرضية . إنه بالنسبة اليه حالة مادية طبيعية . فكيف يمكنه أن يكون ذا واجبات نحو الشعر الذي يعتبره موزعو الثقافة أنفسهم عديم الجدوى مطلقا ؟

ليس المجتمع في جملته إذن من يتقيد بواجبات ما ، بل أولئك الذين عليهم :

أ ـ أن يقضوا بجدية على ذلك التصور الغريب والشائع الذي يجعل من الشاعر نوعاً من VERLAINE أي نوعاً من الفشل الصارخ للفشل الاجتماعي والامتثالية غير المتبصرة بالعواقب .

ب ـ أن يلغوا صفة القداسة التي تلحقها برامج التعليم بالشاعر ، وذلك بالكف عن اعتباره مخلوقاً أسطورياً ، وبدعوته إلى محاورة التلاميذ وإلى مساعدتهم لا بـ « تفسير » عالم سعيد ، بل بـ « التصدي » لهذا العالم .

ج ـ أن يحاربوا بلا هوادة مثل هذه العبارات الخاسئة : « إن GEORGES BRASSENS هو أكبر شاعر فرنسي معاصر » التي تنم عن جهل كبير ، والتي تعمق خاصة الهوة بين الشعب والمجتمع .

ميشيل بيلوك

واجبات المجتمع نحو الشعر ؟ كل الواجبات حتى يزول الفرق نهائيا بين المجتمع والشعر . ولا أقصد بالشعر القصيدة بل الشعر ممتداً الى كل أشكال الكتابة ، شعر المعماريين منشوراً على المدن ، شعر المهندسين مخيماً على المنازل ، شعر البشر منشوراً على ذواتهم ومتحكماً في علاقاتهم (شعر السلوك والحركة والكلام) .

على المجتمع أن يكون امتداداً للقصيدة ، تطبيقاً لها بحيث يتلاشى تماماً التنافر بين عالم الكلمات وعالم البشر . بهذه الطريقة ، يتغير العالم وتتغير الحياة أي تُحيا حياة حيةً .

فلورونس فمودسومير

واجب واحد : ألاّ يقتل الشعراء .

برنار نويل

من الممكن أن يوجد الشعراء دون مجتمع ، لكن الشعر لا يمكنه ذلك بالتأكيد . فالمجتمع يخلد الشعر مثلما يخلد التاريخ . لكن سيقولون : وما هي واجبات المجتمع نحو التاريخ ؟

بيريط ميشلود

إذا كانت للشاعر أهمية البضاعة في رأي المجتمع ، فليس الأمر كذلك بالنسبة للشعراء الذين يخدمون مصالحه (أليس المجتمع هو الذي يعلمنا منذ المهد قانون أَنْطِ نُعْطَ ؟) زد على ذلك أن المجتمع لا يضطلع بأية واجبات نحو أي عضو من أعضائه . فهو الأمر الحاكم والمكافىء ، بل هو الذي لا يخشى ، حين يتعلق الأمر بأعمال تمجده ، أن يؤديها أكثر من الثمن .

هكذا إذن تنقلب الأدوار ، فيخلق المجتمع ، تحت غطاء البر والإحسان أعضاء يدينون له بالفضل والحال أن عمل الشاعر مجاني كلياً إنه مثل عرق معدن ثمين ، يشق طريقه عبر الكتلة الرسوبية .

جيرار بوشولي

هل أقول إن واجب المجتمع نحو الشعر مساعدته ورعايته ؟ لنقل إن عليه اليوم وبكل إلحاح اعتباره وإجلاله . فحين يسترد المجتمع بعضاً من روحه سيعترف بالشعر ، والعكس بالعكس .

جورج طيميليس

لقد ولى ذلك الوقت الذي كانت فيه للمجتمع واجبات نحو الشعر . فالجمهور ، الذي يهتم أكثر فأكثر بالمصالح النفعية ويطمح إلى رفاهية العيش التي تقدمها الحضارة الامريكية ويبحث عن المتع الرخيصة ، لايعرف الشعر . لقد نسي روحه وغذاء روحه الذي هو الشعر .

بير بوجوت

ليس للمجتمع أي واجبات نحو الشعر سوى واجب منحه حرية التعبير عن نفسه تعبيراً كاملاً دون إجلال له أو ولاء .

دومينيك بسيلا

إن « مجتمع الاستهلاك » الأعمى مستعد للإعلان عن استغنائه عن الشعر . قديماً تنبأ البعض عن خطر موت الفن مع تطور المجتمع وثورته . . . لكن ما يجب فهمه هو أن الشعر مثل سائر الفنون أقوى من الإنسان . لذلك على المجتمع الواعي أن يتصرف إزاءه بأكثر ما يمكن من العناية والانفتاح والتوزيع ، وبأقل ما يمكن من الفتور . إن تمكين الشاعر من حياة أفضل يعني تمكين المجتمع نفسه من حياة أفضل أيضاً . وهذا يعتبر واجباً .

برونو دوروشي

على المجتمع أن يولي الشعر اهتماماً وإجلالاً خاصين ، وهذا ما يجدمه بغموض كل الشعوب تقول جملاً شعرية في لغة يومية ، ومع ذلك يبدو أن العالم يحتقر الشعراء ويعاملهم كمخلوقات هامشية وعديمة الجدوى ، بل غالباً ما يعتبرهم نصف مجنونين وغير مؤهلين لتسيير شؤون المدينة .

يالمفارقة المهوية ! هذه الصورة طبعاً زائفة ، فليس الشاعر من يبتعد عن الواقع ، بل رجل الأعمال الخطير والجدي الممسوخ والمتنكر .

لكن الشباب السليم والمتشدد لايمكن أن يقبل هذا الوضع الراهن. لذا يجب على المجتمع أن يوفر مناخاً شعرياً يكون بمثابة بوتقة يتشكل فيها المستقبل، وينبض فيها الروحاني ويحيا رغم مرداس العلو المادي، وإذا حدث أن مات الشاعر جوعاً أو كمم فمه أو غيب في المعتقلات وفي مستشفيات المجانين، فسنكون قد ارتكبنا جريمة لا يمكن التنبؤ بعواقبها.

الكلام الشعري قوي وقادر على تحدي رجال الشرطة والسجون والجلادين. إنه، مثل العنقاء، ينبعث من رماده الخاص حياً خالداً.

جان بول روسي

ليس للمجتمع واجبات أخرى نحو الشعر سوى واجب إرادة إبادته. لقد كانت المجتمعات ذات النمط الفرنكاوي واقعية نحو LORCA وذات النمط السوفياتي واقعية نحو DANIEL وإذا كان المجتمع لايسعى إلى إبادة الشعر، فهذا يعني أن الشعر يحتضر.

جاك ماري لافون

الشاعر يشك دوماً. ولأنه كذلك فرؤيته تنزع تماماً إلى تحقيق ذاته، إلى تحقيق الانسانية جمعاء. ليست لغة الشاعر مجهولة إذن. إنها على العكس سؤال دائم وملح للإنسان يصوغه الشاعر في قصيدته، إذن سؤال دائم وملح يطرحه على المجتمع بأسره وواجب المجتمع نحو الشعر هو أن يجيب عن هذا السؤال.

كارلو سواريس

واجبات المجتمع نحو الشعر؟ أن يكف عن.. أن يكف عن.. أن يكف عن..

ميشيل مانول

لا واجب مطلقاً بما أن دلالة الشعر وقيمته لا واقع ولا تأثير لهما في المجتمع. إن الشاعر والمجتمع جوهران متعارضان.

أندري بوتي بون

كان MIREIO محقاً في قوله: «إن شعباً دون شعراء شعب دون آلهة» غير أن الشاعر الحقيقي لا يوجد إلا حراً في إلهامه وقوة خلقه. لذلك، فتدخل المجتمع الذي يريد أن يفرض تصوراته وقيمه ومبادئه على المجتمع، شيء مخيف للغاية.

جان دوني فيليب

لايمكن الحديث عن الواجب إلا في حالة وجود حلف (وكذا مبادلة في هذا الحلف والحال أنه إذا كان المجتمع يحاول إقامة تعاقد مزعوم بينه وبين شعرائه، فإن الشاعر فيما يخصه يرفض كل علاقة بالمجتمع، الشيء الذي يحرمه من حقوقه وحريته (وذلك) في الوقت ذاته الذي يتحرر فيه كشاعر لأنه لايكون دائماً شاعراً).

أندري مارسيل

ليس للمجتمع واجب نحو الشعر، أما نحو الشعراء، فبإمكانه عند الاقتضاء، أن يحاول الحيلولة دون موت هؤلاء جوعاً.

أندري بيراكايو

بين المجتمع والشعراء طلاق قديم. فثمة أبواب تغلق حين ينبغي أن تفتح، إن الشعر الذي يعبر عن أكبر شريحة من الواقع هو أيضاً أقوى تعبير عن

الانسان . فهو يمارس عليه إغراء حقيقياً . إن على الشعر أن يكون واضحاً وعلى المجتمع أن ينصت اليه ويستجيب له .

السؤال الثالث

«بما أن الإبداع الشعري فعل فردي ، فماذا ينبغي أن يكون موقف الشاعر من النزعة الجماعية (LECOLLECTIVISME) الحديثة ؟ »

جورج طيميليس

هناك قطعا تعارض ، بل قطيعة بين النزعة الجماعية والإبداع الشعري . فالإبداع فعل فرداني بتموقع خارج وضد سلطة «واو الجماعة» الكمية التي تسعى إلى معادلة كل شيء . إن صوت الشعر لاينصت إليه غير عدد من الأشخاص جد محدود . صوت الشعر موافقة شخص لأشخاص آخرين :-

انصتوا إلي :
أنا أتكلم من أجل ذلك النزر الصامت
النزر الأفضل .

PAUL ELUARD

هناك النزر الأفضل حاضر إذن ، محافظ على حضوره . وكل الآخرين غائبون لعدم وجودهم كما لو كان المجتمع أرضا يبابا أو مدينة مهجورة :-

هنا هنا
حاضر
غائب
حاضر
في غياب الجميع .

RITSOS

كارلو سواريس

موقف الشاعر من الجماعية ؟ أن يفهم أن هذه النزعة محاولة لتوسيع ودادية صياد السمك .

دومينيك سيلا

تسعى الجماعية الحديثة الى نهش الشعر ، لكن على الشاعر ، مهما يكن مثله الأعلى . أن يواصل صموده كفردية لا تخضع سوى لقانونها الخاص . فلغته وفكره ملك له وحده ، لذلك يحق له وحده أن يقدمها إلى الجماعة ، ولا يحق للجماعة ان تفرض عليه قيودها .

جاك ماري لوميداني

الإبداع الشعري فعل فردي، مثلما الإنسان ثمرة أمه وحدها .

هوتري دوجي

أظن أنه إذا كان الإبداع (أو بالأحرى إعادة الإبداع) الشعري فعلا فرديا بامتياز ، فان الشعر جرم مشع وسط هالة جماعية تتسم فيها طرائق السلوك والتفكير والتعبير والتصرف بالتشابه . هكذا ، فالشعراء رغم اختلافهم فيما بينهم ، يشكلون لوحدهم جماعة حريصة على الا تحتويها الجماعية .

لكن الدفاع ، أو بالأحرى الحذر لا يستتبع قطيعة نهائية للشعر مع ما يحيط به . العكس هو الصحيح ، لأن الشعر ، المحاط أولا بنفسه ، ملزم بالبحث عن بركة جهة والعدل المحكوم به للجماهير . هذا ، فيما يبدو لي ، هو حظه ، وربما الأخير ، الذي عليه أن يجربه حتى ولو كانت المغامرة ، المشطة بحق ، مضنية . قد يصادفه الإخفاق في النهاية . لكن ، ليست هناك طريق من غير أشواك . بأن المجازات المزروعة رجالا

ترسم حديقة قاسية . غير أنها الطريق الوحيد الذي يفضي بالشاعر إلى القصر المقفر الذي لا يمتلىء سوى بالكد والمثابرة .

أندري بيراكيو

يدعو الإنسان للرثاء حين لا يحس بحضور « الآخرين » . الشعر مرصود للجميع في هذا العالم المجهول ، وعليه أن يظل حرا مثلما على الشاعر أن يرعى شعره .

جان بيير روك

ليس هناك موقف يجب اتخاذه أو تصوره أو ابتكاره إزاء الجماعية الحديثة ، كما إزاء الرأسمالية . إن الصراع داخلي ، والشاعر الخالص والشريف والنزيه يسبر دوما أغوار ذاته وآرائه . ورغباته وهواجسه ، إذن أغوار إبداعه ، حتى ولو كان سيخطىء حتما ، لكنه لن يخطىء دائما . فلا فن دون انفتاح .

ميشيل بلوك

يرتهن الجواب عن هذا السؤال بمدلول كلمة «الجماعية» . فإذا كانت الجماعية تعني قانون الأغلبية المفروض على كل فرد ، وتكديس البشر بعضهم فوق بعض ، وتلصيقهم الواحد خلف الآخر ، وتعبئتهم كالسلع - فلا يمكن لموقف الشاعر منها سوى أن يكون تهميشا واعيا واختياريا للذاته الشخصية فالشاعر ملزم بالتميز وبعدم الامتثال للأفكار الجاهزة وبإعادة النظر في المسلمات . أما إذا كانت الجماعية تعني (ولم لا) الوحدة والتبادل والاستقلال ، فالشاعر مدعو إلى المساهمة الريادية في تشييدها .

جان دوني فيليب

ماذا تعني هذه الجماعية الحديثة ؟ إذا كان لها وجود ، فينبغي تحويلها إلى ممارسة جماعية محصورة تتأسس فيها أرضية التفاهم على ماض معيش ، وفي علاقة وثيقة مع ما يمكن تسميته الطبيعة أو ، في حالة عدم توافر الأفضل ، مع ذلك الخيال الذي يخلق خارج السياسة والتاريخ .

موريس بورك

خلافا لاعتقاد LAUTREAMENT بأن «الشعر الشخصي قد مات» ، فإن الشعر المنتج جماعيا قد مات أيضا . فليس هناك أي تآزر مثمر ممكن بين مسيرة الشاعر السيرة وبحثه عن تعبير جوهري وبين النزعة الجماعية الحديثة ، وأقصد بالجماعية ركام البشر الذين أبهاهم وأصمهم الكائن لدرجة الكف عن إدراك الكينونة الماثلة أمامهم ، بشر يؤرقهم هاجس الأصل ولا يستجيبون لنداء اللامتناهي . نعم ، ما الذي يقدمه للشعر هؤلاء البشر ؟ في هذا الزمان ، زمان الضيق ، من الحمق أن تبحث عن إبداع شعري جماعي .

برنار نويل

الإبداع الشعري فعل فردي لكنه ليس فعلا منعزلا ، أما النزعة الجماعية فهي تجميع لأفعال فردية ، مما يعني أنها تحتاج إلى صيانة الفرد وتفرده . إن أخطاء نوع من الجماعية لاتلغي بالضرورة على فكرة الجماعية في حد ذاتها ، وإلا يجب أن نقبل بأن كل شاعر رديء يقضي على الشعر .

أندري ماربسيل

ينبغي معرفة المقصود بالجماعية الحديثة ، فبإمكانها أن تتخذ عدة مظاهر ، حيث إن هناك نزعات جماعية

مثالية وعاوية وهيبية واشتراكية ـ ذات منحى ـ إنساني ، بل وفاشية . . .

جاك فوزينا

هناك الفعل الشعري ، انكفاء/ انفتاح على الذات ، استيحاء متوحد/ متعدد ، تعبير جواني/ كوني عن الفرد . لكن هذا الاستيحاء يرتهن بالمجتمع السياقي ويمتد باستيحاء جماعي . أليس الاثنان موحدي الجوهر ؟ لا أحد يجهل دور الحماس ونقل الأفكار الذي لعبه الشعر في لحظات خاصة من التاريخ (قمع ، حرب ، مقاومة وكلنا نعرف أيضا أن تصورنا للشعر والشاعر هو ما وافق عليه مجتمعنا . إن صفحة من الشعر في الصحف اليومية ، وجمهورا للشعراء مثل جمهور المغنين ، ومكانا لائقا في المكتبات لديوان الشعر . . . إن كل هذا أصبح ، هنا والآن ، من قبيل الوهم . كيف أجيب إذن ؟

جاك لوباج

هذا السؤال مغرض ، إن فردية الشاعر تتعلق بالسياق الذي يعيش وينتج فيه أما المجتمع الجماعي ، فليس «في ذاته» عائقا أمام الإبداع الشعري . بخلاف مجتمع القهر ، الذي نجد له نماذج في كل الأنظمة السياسية ، فهو عائق أمامه .

أندري بوتيون

كلما كانت نسبة الجماعية مرتفعة في العالم ، أصبحت حقيقية تلك اللعنة التي تلاحق الشاعر ، تلك التي وصفها BAUDELAIRE بروعة في قصيدته «MALEDICTION» .

ميشيل مانول

الغرغرة أسوأ أشكال الاستحالة . إن كل واحد ، وخاصة الشاعر ، مدعو إلى تحقيق ذاته بوسائله الخاصة ، وباستمداده جوهره من معين ذاته الذي لا يجوز التصرف فيه . وكل عمل هو إثبات لشخصية يلعب فيها الذكاء العملي والحساسية دورا حاسما ، إن الإنسان لا يمكنه أن يكون نفسه وغيره . والشاعر لا يخاطب العموم ، الذي هو أغلبية مشكلة من ركام ذري ـ بل ذاتا مستقلة ومسئولة أما نفسها .

جان بيير لو سيور

التسليم بأن الابداع الشعري فعل فردي موقف يجيب عن السؤال . لماذا طرحه إذن ؟

جاك ماري لافون

لست أدري من قال هذه الجملة : «الشاعر فرد جماعي» ـ على كل حال فهي جملة مهيبة ومطابقة للحقيقة .

فرديا يجب أن يكون كل شاعر ، وهذا مانحن فعلا ، فالقوى الموجهة للخيال الفني تتطلب عملا فرديا ، عملاً مدركا للضياء المنبثق من ليل كثيف غير شفاف ، عملا منزويا ، لكن للشاعر خاصة مشروعا إبداعيا هو استجابة لاقتضاء الوجود ، مشروعا منفتحا على العالم الخارجي ، مسبوقا باستكشاف عالمه الباطني الخاص من أجل الكشف عن بعده الكوني .

برونو دوروشي

الإبداع الشعري في حاجة إلى حرية ، والحال أن الجماعية الحديثة تقيد الحرية الأصيلة ، لا حرية الفكر

والتنقل فقط، بل حرية الإحساس أيضا. إن الشوارع تتشابه، والعمارات تتشابه، ونفس التلفاز في كل البيوت يطرق الأذهان بنفس الإيقاع الرتيب والمنتظم، والعيون ترى نفس الصور، والعقول تتلقى نفس الإشارة. فقريبا ستقتل الإنسان حاسةُ التمييز والإدراك المخنوقة تماما.

إن الماركسية ـ التي تؤمن بأن الفرد ثمرة لشروط جهوده المادية ـ تتيح كل التجاوزات والانتهاكات، حيث إن على الفرد أن يكيف وجوده مع مقتضيات مجتمع الإنتاج. يالسخف الشعار الذي أدى في البلدان الشيوعية إلى المآسي الإنسانية التي يعرفها الجميع!!

لكن قوة مضغوطة لا تكف أبدا عن كونها قوة، فسرعان ماتدمر الأسوار التي تحبسها ستزول الجدوع، وسيجد الفرد نفسه وحيدا من جديد، مرتبطا مع الآخرين لغرض واحد هو حماية حياته، وضمان نموه الفكري.

إن على الجماعة أن تحمي الفرد، لا أن تقمعه، وعلى الفرد من جهته أن يدفع بحرية ضريبة اجتماعية، لا أن يضيع في المجتمع. ومع ذلك، فصحيح أن جميع الحريات ليست مفيدة لا للفرد ولا لمحيطه، بل ولا لتنمية إحساسه الروحي.

روبير لوسيان جيرارت

باعتبار فردانيته المفرطة، لا يمكن للشاعر سوى أن يجهر بالريبة والعداء، أليست أنبل طموحاته عرضة كل يوم للإحباط بسبب ضرورات مجتمع فوق ـ استهلاكي؟ ليكن الشاعر ـ وسط قطيع البشر السادر والحقير، وبتعبيره المؤلم عن شرفه المهدد، الضمير السوي والصحيح لعصر مجنون.

السؤال الرابع

«هل ينبغي للشعر أن يكون في خدمة السياسة أم مستقلا عنها؟»

شارل أوطران

لا يطرح هذا السؤال إلا حين يرفض الشعر، لأن الشعر استقلال والسياسة استعباد (وليس هنا مجال مناقشة ضرورتها أو مناقشة تلك الأسطورة التي تقول إن السياسة في كل شيء، حتى في طريقة تعري المرأة).

الشعر يتجاوز السياسة. وإذا شئنا فهو سياسة تمرس على السياسة. إنه يعبر بشكل مغاير وأحسن عن الأزمة والمأساة اللتين يقوم عليهما العمل السياسي، لكنه يعبر دوما عما هو دون وفوق الأزمة والمأساة، لأنه يستبدل خطاب السياسة المفتقرة للأصالة بأزمة ومأساة إنسان غريب.

فيليب بارو

الشعر يساعد الآخرين على الإفلات من الاختناق. إنه يقلق الأسوار، وينبثق حين / حيث لا ينتظره أحد. يستحيل عليه إذن أن يتقيد بالتزامات حزبية، فقدره أن يناضل من أجل استقلاله.

جاك بلهاس

على الشعر أن يقي نفسه من الأوساخ، ومن ثم يلزمه أن يكون في خدمة أحد أو شيء، وخاصة السياسة.

بيير بوجوت

يمكن للشعر أن يخدم السياسة بما هو صرخة ثائرة

ضد الظلم والطغيان ، لكن عليه ألا يخضع لها بأي حال من الأحوال وأن يبتعد عن الرسميات .

نزه نفسك عن العالم الرسمي
عن الذين يمثلون
السلطة على الأرض
حق قتل الآخرين
الحقد ومدفن العظام .
كل رسمي يجر معه
رائحة الثكنات
لون المعتقلات
مكافآت منفذ الإعدام .

أنت أيها الشاعر
يامن سيعيش بعد موتهم
يامن سيظل صوته مدويا
في صدى الأزمنة
أعط إشارة الاعتزال
انسحب من السخف
لكن لا تعتقد أنني أعلمك حيادا جديدا
فلا يمكن أن أظل باردا
متكبرا
شارد النظرة
في قمة برج عاجي
بينما القتل على أشده في السفح .
إذا رفضت تحية التاريخ وأتباعه
العلم وأصحابه
الجيش وأعضاءه
فلا أفوت فرصة تقيؤ- لعن- إحراق كل ذلك .
لذلك أعلمك النار
وسط برج لامرئي
ينثر ليلا الكلمات الصافية .

ميشيل بلوك

الشعر كان سياسي لايدافع عن هذا الحزب أو ذاك ، بل يعمل في العمق من أجل سلطة الإنسان ، سلطة جديدة للإنسان .

جيرار بوشولي

ماهي السياسة ؟ ضجيج خادع في الغالب . لكن الشعر ربما عاصفة أبدا لاتكذب . تقول ريح التاريخ ، لاريح السياسة .

موريس بورك

كيف يمكن للشعر ، المرصود أصلا لتسمية المقدس ، أن يتمهر لفائدة قضية سياسية ؟ إن التزامه يعني نسيان رسالته الحقيقية ، ألا وهي البحث عن جوهره الخاص . والشعراء الذين تغريهم دواع تاريخية معينة باستبدال طريق الشعر بطريق السياسة سرعان ماتموت أشعارهم الظرفية تحت أعينهم ، ما الذي تحمله للقراء اليوم قصائد HUGO و DEROULEDE و ARAGON السياسية ؟ لاشيء البتة . أما أشعار HOLDERLIN و RILKE و RIMBAUD (وأنا أذكر الأموات تجنبا لنسيان أي حي) ، فما تزال بالنسبة لقرائها تنتزع الحجب والأقنعة .

شارلوط كالمس

لايمكن للشعر أن «يكون» دون صيرورة . إن التاريخ ، الذي هو في عداد المسؤولية الشعرية ، سياسة ، والشاعر حتما يواجه التاريخ .

كاسطون كريل

يجدر بالشعر أن يستقل عن السياسة . لكن بإمكانه أن يكون في خدمتها ، لم لا ؟ المهم أن يكون هذا

الشعر جيدا ، والحال أن القصائد السياسية الجيدة نادرة .

ريمون داطيل

كفى سخفا وهذرا . لنرتفع فوق السياسة وباقي بخارات المجتمع . ذات مرة ، كان العالم وكان الإنسان . ومن تلاقيهما كان كل شيء .

بير دابتو

لايمكن للشعر أن يخضع للسياسة ، مهما تكن سخية . ومع ذلك ، فدلالته سياسة ، أو بالأحرى ثورية . فإذا لم يكن الشعر ثورة في الثورة ذاتها ، فإنه يموت .

نيكول كداليا

الشعر في جوهره مستقل وسياسي في آن واحد ! فهو ككل تعبير فني ، ينشق من السياق الاقتصادي الاجتماعي الذي يكتنف الفرد المبدع ، ويتحول بعبوره لـ «نفس ـ مصفاة» الفنان الذي يصوغ جوابه عن معاناته . إن الشعر والفن عموما ينتميان بدرجات مختلفة إلى المدينة التي تتحملهما . فهما يرتبطان بظاهرة التفاعل ، وهذا مايبرر مسؤولية الفنان بخصوص إبداعه وتأثيره .

روبير ـ لوسيان جيرارت

يسعى الشعر إلى التعبير عن الإنسان الباطني . لكن هذا الإنسان يكيفه الخارج حتما . فليس أهم كل من يريد ذلك . وأن يقاوم الإنسان عصره يعني أن يسبح ضد التيار ، الشيء الذي لا يتم دون معاناة التيار . إن الشعر تعبير عن انفعال ، عن تأمل ، والسياسة تؤثر في الشعر ، تشهد على ذلك قصائد شعراء مثل Agrippa D'aubigne و Eluard . . . لكن ، هل استطاع هؤلاء تغيير مجرى الأحداث ؟ إن الشعر لايخدم السياسة .

هوبير جوان

كل شيء سياسة : كل كلمة ، كل نفس ، كل نغم . . . وعلى الشعر أن يكون من إبداع جميع الناس ، لامن إبداع شخص واحد» LAUTREAMONT . كذلك السياسة . سيكون ذلك حقا تحولا للعالم ـ وتحولا للأموات .

جان ـ ماري لافون

أكيد أن على الشعر أن يتخذ مواقف . لكنه بذلك يخاطر بألا يخضع سوى لما هو عرضي وطارىء في الحاضر . هل يمكن أن نتصور شاعراً شيوعيا أو مسيحيا ؟ هل يمكن بالأحرى أن يقول الشاعر إنه شيوعي ، أي عضو في الحزب الشيوعي ، وشاعر ، أو مسيحي وشاعر ؟ شخصيا ، أختار الصيغة الثانية ، وهذا لن يمنعني مطلقا من اتخاذ مواقف إذا فرض علي ذلك حدث طارىء .

الدري ماريسيل

لا ينبغي للشعر أن يكون في خدمة السياسة . لكنه ـ وهذه مفارقة يعيشها يوميا كل واحد ـ لا يستقل عنها . لقد كتبت شخصيا قصائد عن أحداث فارسوفيا وعن مناهضة التمييز العنصري وعن أحداث ماي ١٩٦٨ وعن MARTIN LUTHER KING وعن SALVADOR ALLENDE . . . إن الشاعر معني بالسياسة . بل إن السياسة بالنسبة إليه مسألة حياة أو موت .

سطليوس كاسطانوس دوميديسيس

إذا تبنينا تعريف أرسطو للسياسة ، يكون على الشعر لا أن يخدمها فقط ، بل أن يساهم في خلقها أيضا . أما إذا فهمنا منها لعبة التناور الراهنة يلعبها محترفو السياسة ، فإن على الشعر لا أن يستقل عنها فحسب ، بل أن يندد بها ويحتقرها .

بيريط ميشلود

لا يمكن للشعر أن يخدم السياسة . إنه مصنوع من الأرض وبلور النجوم والجهاد والنسغ والدم . ولأنه كذلك ، فهو كوني ، ومن ثم لا يتكيف مع ما تفترضه السياسة من قيود وحدود .

برنار نويل

يمكن للشاعر أن يكون «مستقلا» وسياسيا . لقد أدركنا منذ مدة أن الالتزام ليس في الموضوع (ليس في إنتاج خطاب سياسي) ، بل في إرادة الشاعر أن يكون كاملا . أقصد أن النص الذي يخلص الشاعر في كتابته هو نص ملتزم ـ إذن سياسي ، بمعنى أنه يسعى الى تغيير كاتبه وسياقه . ثم إنني الاحظ أن كلمة «استقلال» لا تعني هنا أي شيء . فهل يكون الإنسان مستقلا عن الحياة ، عن الموت ؟

اندري بيراكايو

الشاعر قبل كل شيء إنسان . إنه يخاطب عواطف البشر ، يكلمهم ، فهم أساسا من يخدم . إنه يرى . يسمع ، يتخذ مواقف ، يسمي ، يفضح . إن أفدح الخيانات ، في هذا القرن الطافح بالظلم والعنف ، هي الصمت .

جان ـ دوني فيليب

لاينبغي للشعر أن يكون تابعا إلا للشاعر . هذا أمر واضح . لكن الشاعر تابع لعدة أشياء . بل يحدث له أحيانا أن يتعلق بتجربة أصيلة ومعيشة . حينئذ يتعقد الأمر . . . أود أن الاحظ أن الشعر ليس مايخدم السياسة ، بل يمكن أحيانا أن تخدم السياسة الشعر .

كارلو سواريس

هل ينبغي للشعر أن يكون في خدمة السياسة ؟ أكيد أنكم تمزحون !

دومينيك سيلا

يمكن للشعر أن يتطوع لخدمة قضية سياسية أو اجتماعية ، فله حرية التصرف المطلقة ، إذ من العبث محاولة منعه من ذلك . بيد أن عليه أن يظل مستقلا كل الاستقلال عن الأحزاب أو التنظيمات إذا كان يريد أن يبقى وفيا لجوهره ، وألا يتحول إلى أداة مسخرة . هل الشعر في حاجة إلى أن يرتبط بإيديولوجية ما حتى يؤثر في الناس ويغيرهم ، إذا كان قادرا على ذلك ؟ هل هو عاجز أن يتحمل وحده رسالته ؟ إن استقلاله وحده يحول دون تفسخه في حمأة الحقيقة المحنطة . ذلك أن الحقيقة ليست ثابتة . إنها تتسع اتساع الكون . أما السياسة فهي حتما مرادفة للقيود والحدود .

السؤال الخامس

«هل يبحث الشاعر عن جواب للغز الوجود؟»

جورج طيميليس

من المؤكد أن الشاعر الحقيقي ، ذاك الذي يكتب شعرا جوهريا ، يبحث عن جواب للغز الوجود ، فهو

يتساءل عما تكونه وتجهله ، يكشف عن البعد الآخر في ذواتنا ، ذلك البعد الوجودي أو الميتافيزيقي الذي لا يني يبهت . إن الإنسان حيوان ميتافيزيقي مبتقهقر إلى مستوى مجرد حيوان أو أدنى من ذلك . لذلك ، يكافح الشاعر من أجل أن يستعيد الإنسان ، المجرد من اكتهاله ، جوهره . وهذا بالذات هو «الضوء الذي يقدمه للحياة» ضوء الوجود .

كارلو سواريس

أجيب بنعم ولا . فأن تبحث يعني ألا تجد ، وأن تجد يعني أن تنخدع . هذا السؤال يفتقر إلى الدقة . فإذا لم يكن الشاعر مسكونا ومهووسا وممسوسا اختر ماتشاء من الصفات - إذا لم يمزق الحجب والاقنعة ، فلينظم أبياتا في الحب والورد وقت الربيع . اقرأوا Joe Bousquet ، أعظم الشعراء .

دومينيك سيلا

أفضل تشبيه الشاعر بالعالم ، خاصة العالم الفيزيائي أو البيولوجي . فالشعر له معادلاته ومجاهره الخاصة . وهو طبعا يعكف ، وبالصدفة أحيانا ، على ألغاز الحياة والكون والمادة . لكن المؤسف أنه ليس هناك لغز واحد ، بل ألغاز شتى . فالشاعر يجرب ، يتلمس ، يكتشف أحيانا ، يوسع الدائرة ، ويلاحظ ، كما فعل أشهر الفيزيائيين . إن الواقع يزداد تعقدا ، وإن كل نظرية جديدة ، من غير أن تلغي النظريات السابقة ، تكملها وتدفعها إلى الامام .

سيحيا الشاعر إذن ، مثل العالم ، مادام اللغز حيا .

جان - بول رومي

لايمكن للشاعر سوى أن يحاول - ودون جدوى في الغالب - البحث عن جواب للغز وجوده الخاص .

هونري روجي

يوحي الشعر المعاصر (أقصد الشعر الحي) بأنه قلب ضخم يدوي أكثر مما يخفق . إن تعدد اتجاهاته وتشابكها ، وتحولاته الفوضوية ، وقطيعته مع القديم وحضوره الدائم في برامج تثوير بنيات التعليم والنقابات والأحزاب والكنائس والمجتمع عامة ، وحلمه بنظريات بيئية جديدة ، ورفضه التقاليد الأدبية ، وسعيه الدؤوب لخدمة الإنسان ، وامتلاكه لحس العدالة والكونية الحاد ، وإعادة اكتشافه للعقل الأول الاصلي ، باختصار إن غمراته التي تقوده إلى أكثر الأشكال الفنية غرابة وأصالة تدهش وتحير . طبيعي أن يبحث الشعراء لكن ، ألا يتعلق الأمر ببحث يعلق مشكلاته ، حين يسائل كوكبة النجوم ، يحتية الجذور ؟ نعرف أن كيمياء اللغة موجودة فعلا ، لذلك نجعلها مثل البيخ مقابل خدمتها لنا . لكن موسيقاها تحرف في أعماقها ذوات الرخي بالنفس ، حذار ! فأخواتنا بشر ، وظهور الكيان بالنسبة إليهم لايتحقق في فرن التعطير !

ليس هناك إذن لغز يتطلب حلا ، تكفي ملامسة اللغز وحدها . يكفي أن تسقط نجمة في راحة يدنا ، يكفي أن يعذبنا رمز ليختنق الطائر المائي في غمرة تحليقه .

جان - دوني فيليب

ليس الشاعر لاعالما ولا راهبا ولا متصوفا ولا مجنونا . يمكن للفلاسفة أن يبحثوا عن سر اللغز إذا حلا لهم ذلك . أما الشعراء ، فيشهدون على جلاله وعلى وجوده (فليس هناك بعد لغز بالنسبة إليهم منذ اللحظة التي أدركوا فيها أن الوجود ملغز) .

اندري ماريسيل

نعم إن الشاعر، ضمن آخرين (علماء، رجال دين، فلاسفة . . .) يبحث عن جواب للغز الوجود. لكن، هل هناك جواب واحد؟ وحدها العقول المتعصبة في كل مكان وزمان مايزعم أن ثمة جوابا واحدا.

ج . ب . بالب

الشاعر من يريد أن يكون ويجهر بذلك . . . هل هذا جواب عن سؤال الوجود (إذا كان هناك سؤال)؟

اندري بيراكايو

يعترف الشاعر بأنه يبحث عن سر اللغز. لكن، ما أكثف الظلال بينه وبين الحقيقة!

جاك بلهانس

يتطلب الشعر الجيد عدم البحث عن أي شيء، وفوق ذلك عدم الجدية.

ميشيل مانول

علينا ألا نخلط الميتافيزيقا والفلسفة بالشعر. إن الشاعر يعبر في الأكثر عن غموض الحياة وقلقها، مع هامش الغرابة التي تكتنفها. وبإمكانه أن يستوحي بوضوح أو غموض واقعا فوقيا دون أن يعني ذلك أنه قد اكتشف سرا أو حل لغزا.

شارلوط كاليس

الشاعر لا يبحث عن حل للغز الوجود، لأنه إذا كان شاعرا حقا، فسيكون هو لغز هذا الوجود وربما حله أيضا.

جان - بيير لوسيور

ولأي شيء إذن يصلح الفلاسفة والصوفيون والأنبياء عموما؟ لعلهم جميعا شعراء. في هذه الحالة، لماذا التمييز بين الأنواع؟

جاك - ماري لافون

التماهي بين الإنسان والله يتم على مستوى اللغة، على مستوى الكلمة. هنا تكف الكلمة عن كونها علامة اصطلاحية، تكف عن كونها جزءا من أداة هي اللغة. ذلك لأن اللغة ليست أداة، بل هي مايعرف الكينونة بالذات، لأن الكينونة ذاتها . . . تعريف الله لأن الله ذاته (الكلمة الإلهية) . . .

أن تفكر يعني فعلا أن تكلم ذاتك. فلا تفكير بدون لغة، ولا تكلم مع الذات دون كينونة. أن تكون حيث القلق القاهر هو لغز الوجود، حيث لغز الوجود يمر بالضرورة عبر الله، شئنا ذلك أم أبيناه.

كاسطون كريل

لاشك في ذلك.

- الحقيقة في الأشياء، في الإنسان. وعلى الشاعر أن يكشف عنها ويجعلها تتكلم (Paul Eluard).

- الشعر: رغبة في تعميق الواقع، توعية دوما أصدق وأقوى بالعالم المحسوس (Andre Breton).

هوبير جوان

لعل هناك لغزا واحدا فقط، وهو عدم وجود أي لغز. وعلى حاشية هذا العدم، هذا الفراغ، هذا الغياب (القافز مثل شخص مشنوق) يطرز الشاعر: يختفي البئر الذي بدون قاع.

جاك فوزينا

الشاعر باحث مجهول عن الكلمات : هو ذا اللغز . كل شيء يكمن إذن في هذا اللغز ، وكل لغز في اللغة التي تحويه . وسواء أكان الجواب تعزيما أم كشفا أم دراسة أم نظاما أم كتابة أم كلاما ، فإنه يمر حتما من السلطة الغريبة للكلمات . لنترك الباقي إذن للعلم والفلسفة والدين بما أننا نملك الجوهري .

روبير - لوسيان جيرارت

عم يبحث الشاعر ؟ عن مواساة لكآبته ، عن تعويض لعوزه ، عن السعادة بالكلمات ، عن التطلق بالفن . هي يحق اعتبار الشعر بمثابة علم حدسي ، ملكة تنبؤية بواسطتها تسبق رؤيا الشاعر فرضية العالم أو تثبت عقيدة ما أم هل يحق حصره ضمن تصور مادي ، مثل «الفن للفن» ؟ إن القصيدة مثل الإنسان ، جسد وروح ، دال ومدلول . إنها معاينة وشهادة . من العبث إذن أن ننتظر منها أن تكون أكثر مما هي .

السؤال السادس

«ماذا تقترحون لتخفيض من أزمة الثقة المستفحلة اليوم بين الشاعر والقارىء ؟»

كارلو سواريس

تقولون : أزمة ثقة بين الشاعر والقارىء ؟ ولماذا التخفيف منها ؟ ليست هناك أزمة ثقة بين الشعر الشعبي والشعب ، لأن هذا الشعر يتغذى من الشعب . هناك أزمة بين الشاعر الذي يبلغ منتصف الطريق وأولئك الذين يريدون منه إما أن يتقدم وإما أن يتقهقر .

جورج طيميليس

هل مايزال هناك قراء للشعر ، أقصد قراء يبحثون عن الشعر ليتوحدوا معه ؟ لاشك في أن عددهم جد محدود . إن الأمر لايتعلق بأزمة ثقة بين القارىء والشاعر بقدر ما يتعلق بلامبالاة إزاء الشعر . لماذا ؟ لأن الشاعر موجود من أجل لا شيء . «وإنه لا يمثل شيئا» بتعبير SEFERIS كيف نقلص هذه المسافة ؟ لعل تلاوة الشاعر نفسه لقصائده أمام الجمهور سيكون مفيدا ، وهذا ماكان يفعله MAIAKOVSKI وبعض الشعراء الروس . أعتقد أن كل إنسان ، في عمقه ، يحب الشعر دون وعي منه . وبإمكان صوت الشاعر الحي أن يوقظ هذا الحب المخبوء . ثم إن الشعر علاقة . فالإنسان لايذهب إلى مكتبة ليشتري كتابا شعريا لايصلح لشيء . من الأفضل إذن حضور حفل شعري وتقبل القصيدة مباشرة بالسمع ، مثلما تتقبل الموسيقى شخصيا ، وجربت ذلك بنجاح .

كاسطون كريل

أزمة الثقة هذه ليست وليدة اليوم ، فهي ملازمة للشعر . ليس عندي إذن ما أقترحه . فالخنزير لا تقدم لها الدرر والجواهر .

شارل اوطران

قبل الإجابة ، الاحظ أن أزمة الثقة هذه ليست وليدة العصر الراهن ، وأن قراء الشعر - إلا بعض الاستثناءات الممكن تفسيرها بسهولة (شعر PREVERT مثلا) - قليلو العدد ، وأن للجمهور الواسع ، كما يقال ، «شهوات» أخرى . لنكف إذن عن اتهام العصر والشعر والجمهور . فالواقع هكذا وليس أي شيء آخر .

ومع ذلك ، يمكن الادعاء بمكر بأنه لو كانت دواوين الشعر (المكتوب) في متناول الجمهور لهانت هذه الأزمة الدائمة . لكن الملاحظ هو إما أن الناشرين والكتبيين يتواطؤون ضد الشعر ، وإما أن الشاعر والجمهور يتلذذان بطلاقهم .

لنبدأ بالاحتمال الثاني . إذا استثنينا الهواة الألف أو الألفين أو الثلاثة آلاف الذين لهم خبرة ومواكبة ، ينبغي الاعتراف بأن الشعر لا يقدم للقارئ في أطباق من ذهب . فإذا لم يكن مطلعاً وعضواً في حلقة المولعين بالشعر شبه السرية ، فلن يجد الدواوين في أي مكان أو يكاد . ذلك لأن الكتبي (إلا بعض الاستثناءات النادرة) ، الذي تحوّل إلى بقال كتب مثلما أصبح الصيدلي بقال أدوية ، لا يرهق رفوفه بهذه السلعة التي لا تباع إلا قليلاً وببطء وبالصدفة. لذلك ، يحاول هذا القارئ المستحيل . وبما أن الناشرين - إلا استثناءات نادرة - قد فشلوا في إحداث مشروع توزيعي فعال ، فإن هذا المستحيل بدوره يصبح نادراً .

من هذه الاعتبارات ، يبرز أن المسؤوليات مشتركة : فالجمهور كسول ، والمكتبات تحولت إلى بقالات ، وناشرو الشعر قليلون . ليس الواقع إذن أزمة ثقة ، بل أزمة بنية لا نرى لها حلاً عاجلاً ، لأن ممارسة الشعر تشبه في الغالب رسم أيام الأحد ، مما يؤدي إلى تضخم مفجع .

لنحلم بعدد قليل من الناشرين ، يتعهدون بنشر قصائد عدد قليل من الشعراء وبتوزيعها جيداً على عدد قليل من المكتبات ، مع مساندتها بدعاية ذكية وسليمة ! لنحلم أيضاً بعدد قليل من النقاد « المتفتحين » و « وغير المتخلفين » على مواقف قبلية ، وبعدد قليل من المجلات المتفتحة على هؤلاء النقاد والقابلة لنشر قصيدة واحدة على الأقل في كل عدد من أعدادها ، إلامَ تقودني أيها الحلم ؟ إلى الملاحظة التالية : وهي أن الشاعر سيتعهد بالباقي ، أي بالشعر - حينئذ ، سترى أن أزمة الثقة بين الشاعر والقارئ أزمة مزعومة .

ج - ب - بالب

ليست هناك أزمة ثقة ، بل صراع . فإما إن يصبح القارئ شاعراً ، وإما إن يتخلى عن الشعر الشاعر . ولا يكمن الحل إلا في تغيير شامل : أي إبداع مجتمع « شعري » يعطي الأسبقية للرغبة في الوجود والتلذذ بها لا للإنتاج والاستنساخ أو عدم شطر الإنسان إلى شاعر ومواطن .

جيرار باشولي

ينبغي رد الاعتبار للشعر كجنس أدبي له ما للمسرح أو للرواية من امتيازات وحقوق وواجبات . وهذا يتطلب من رجال الصحافة والإذاعة والتلفزيون والكتبيين والمدرسين ثقافة ورعاية خاصتين . يبدو لي ذاتياً أنه من العبث أن نقرأ ونقرئ الشعر في المدرسة وفي الجامعة وألّا يكون الأمر كذلك في الحياة .

موريس يورك

هل بين الشاعر والقارئ أزمة ثقة ؟ أليس من الأنسب لطبيعة هذه الأزمة بالذات الحديث عن أزمة قراءة ؟ أليس من الأنسب لطبيعة هذه الأزمة بالذات الحديث عن أزمة قراءة ؟ فمنذ BAUDELAIRE و RIMBAUD و MALLARME ، اتجه الشعر الفرنسي إلى ما يفصله عن النثر ، وتَبَيّن أنه لغة داخل اللغة ، وتعلم الشعراء أن يخلوا من القصيدة ما يمكن أن يكون نثراً فترتب عن ذلك أن القصيدة أصبحت ،

بسلطة الإيحاء والاستعارة والصورة الشعرية والإيقاع، ذات قدر كبير من القوة والشفافية، مما يفترض القدرة على القراءة شعرياً. لكن المؤسف أن الأغلبية الساحقة من الفرنسيين عاجزة عن ذلك، لعدم تلقيها في المدرسة تعليماً يساعد على ذلك. إذن، فحل هذه الأزمة يمر من المدرسة والجامعة. وقد شرع بالفعل في إجراء تجارب تربوية منذ سنوات، حيث أدرك المعلمون الشباب أهمية المسألة. لذلك، ليس من قبيل الوهم أن يتم في المستقبل اعتراف القراء بالشعراء.

فلورونس فوكومير

ليس عندي ما أقترحه. علينا أن ننتظر. فلا يمكن للعقل أن يظل حبيس أجساد آلية. سينفجر في شرائقه.

جاك فوزينا

إذا كانت هناك أزمة ثقة، فلأن هناك سوء التفاهم. فلا أحد يستحسن ظاهرة النشر على نفقة المؤلف التي استفحلت، لأنها تتم على حساب الجودة. أما الجمهور، فهو في حاجة إلى ما يعوّده على الشعر، أي المدرسة، التي تصلح أكثر من غيرها لتلقينه الشعر بشكل منهجي وذكي.

روبير ـ لوسيان جيرارت

اقتراحي؟ الكف عن التدمير دون إعادة البناء، بدعوى البحث. استعادة اللغة الشعرية لقدرها الأصلي، وهو أن تكون مقولة، لا معروضة. صيانة ميل الطفل الغريزي إلى الشعر الذي يغني، يفاجيء، يدهش. ربما بذلك سيكف بورجوازي الغد عن اعتبار الشعراء أشخاصاً مهرجين.

جاك ماري لافون

لنعترف بأن كِتَابَ الشعر يتطلب من القارىء جهداً تأملياً، إعادة قراءة تدقيقاً للنظر، إما للتمتع بالإحساس الذي يثيره، وإما لنقده. لكن القارىء في عالمنا المتسم بطغيان حضارة السمعيات ـ البصريات، أصبح يفتقر إلى الوقت.

جاك لوباج

أقترح تغيير التعليم لإنهاء أزمة الثقة هذه.

جان ـ ماري لوسيداتي

المسألة سياسية بالأساس. يبدو لي أن التقنيات الجديدة لتوزيع الشعر ـ وأنا لا أستهين بها ـ تعتمد على تأويل خاطىء لما يُبقي طلاق الشاعر والقارىء. ويمكن القول، دون تدقيق النظر في المسألة، إنه من الممكن فهمها على مستويات عديدة. لعل أهمها مستوى «مقروئية» النص الذي لا يخضع لمقاييس موضوعية ثابتة، بل يتعلق بالطريقة التي «يستتبع» بها القارىء. مما يقتضي على الأقل إعادة النظر في مقولة «الفهم» التقليدية، بحيث يكف القارىء عن كونه من يتلقى النص سلبياً، ليصبح من يتورط فيه ويفعل فيه.

لكن سيرورة «المقروئية» هذه لا يمكن أن تأخذ معناها الحقيقي إلا بـ «التفاعل مع النضالات السياسية التي تخوضها البروليتاريا (وهو تفاعل ما يزال إشكالا داخل البرجوازية المثقفة الصغرى التي فيها تتشكل القصيدة غالباً، باعتبار تاريخ ممارستها النوعي).

اندري ماريسيل

سبق لي أن قمت بأبحاث وتحقيقات حول علاقة الجمهور بالشعر ، ولم أتوصل إلى جواب حقيقي . غير أن لي بعض المقترحات :

ـ تعويد الأطفال على الشعر في المدارس .

ـ تمكين النقاد من فرص الحديث عن الشعر في الصحافة والمجلات بشكل أفضل وأطول مما هو عليه .

ـ إتقان استعمال الوسائل السمعية ـ البصرية لفائدة الشعر .

هل يكفي ذلك (إذا افترضنا تحققه) ؟ أليس هناك طلاق يستفحل باستمرار بين المبدع (وليس الشاعر فقط) والجمهور الذي يخاطبه ، في مجتمع مفرط في المادية والاستهلاكية ؟

سطليوس كاسطانوسس دوميديسيس

إذا كانت هناك « أزمة » ، فلأن الشاعر لا يتحمل مسؤوليته كباحث عن الواقع المطلق ، ولأنه ينسى التحدث إلى الشعب ، وفق قواعد فنه ، عن هذا الواقع المطلق ، الذي هو فردي وجماعي في آن . لم تكن هناك « أزمة » ثقة مع قصائد PINDARE ومآسي SOPHOCLE والنثر غير المنثور عند ERACLITE وأناشيد PINDARE ، فهل فكرنا في سبب ذلك ؟ هل يمكننا أن نعود بالتقدم إلى شعر متعدد وواحد ، إلى لوغوس إبداعي (الشعر في اليونانية يعني الإبداع) يتحدث إلى الشعب عن همومه وعظمته وتطوره بواسطة الخارق ، أي الفردية الملهمة ؟

دومينيك سيلا

إن لأزمة الثقة بين القارىء والشاعر سبباً رئيسياً ، وهو جهالة الأول . أحياناً ، يحب الناس الفن في مختلف تجلياته ، فلا يترددون أمام المتاحف والمسارح ، ويكرسون برغبة بعض الساعات للإنصات إلى الموسيقى ، ولقراءة الأدب الذي نادراً ما يدرجون الشعر ضمنه ، لأنهم بكل بساطة لا يعرفونه . لعلهم يتصورونه مملا ومستعصياً على الفهم . ولتدارك هذا الوضع ، لابد من تعبئة وسائل التثقيف والإعلام ، لابد من إثارة فضول القراء ، حتى يتبدد سوء الفهم هذا الذي يرعاه المجتمع .

بيير ميلشود

لا أقترح شيئاً . إذا كان الشعر قد انحرف بالشكل الذي نعرفه ، فإن ذلك لم يقع دون تواطؤ المجتمع . فلو أن المجتمع كان يضم متحمسين أكثر لابداع الشاعر لما رأينا مضطهديه اليوم يمثلون مثل البهلوانيين على أعلى درجة من السلم المقلوب .

إن الشاعر لا يكتب للقارىء ، فنشيده ثمرة عمل مضن وأناة طويلة . إنه يغني للإنسان الذي يفتح له قلباً مرهف الإنصات . أما القارىء ، الذي له مطالعاته التي يستحق ، فلا شأن له به . على كل حال ، سيوجد دوماً شاعر على الأرض لينقذ الشعر .

برنار نويل

شخصياً ، يفاجئني قرائي دوماً بإصغائهم ، إذن بثقتهم . إذا كانت هناك أزمة ، لماذا تحمّل القراء مسؤوليتها ؟ ألا يليق عكس السؤال ـ وعكسه ضد

الشعراء والناشرين في آن واحد؟ إن القارىء، تعريفاً، شخص وَثُوقٌ. فلماذا تمت مخاتلته، فمن المسؤول عن ذلك؟ يبدو لي دائماً أن القراء هم من «يصنعون» الكتب، ينشرونها، بفضل عملية حفر وإعادة كتابة هي عملية القراءة بالذات.

ليست هناك أزمة. هناك فقط انتظار ـ انتظار حقيقي، بدون نهم وبدون استعجال.

اندري بوثيون

إن أزمة الثقة بين القارىء والشاعر ناتجة عن تسييس الشعر أو عن الرغبة في الإبهار بأي ثمن.

جان ـ دوني فيليب

ما على القارىء إلا أن يصبح شاعراً والشاعر قارئاً. هذه معضلة كبيرة. من المحتمل أن يكون الحل في ما يسمى «النشر الهامشي» (الذي يكف عن كونه هامشياً مادمنا نتحدث عنه)، شريطة أن تستهدف الإتلاف التدريجي والشامل للمجتمع الإنتاجوي. هناك أزمة لأن هناك متاجرة. لعلني طوباوي. لكن، ألستم أكثر طوباوية مني بانتظاركم لمثل هذه الأسئلة أجوبة غير طوباوية؟

السؤال السابع

«ما رأيكم في أهمية اسم الناشر الذي أصبح، في حياتنا الأدبية، يكتسي بشكل مزعج أهمية تفوق أهمية اسم المؤلف؟»

دومينيك سيلا

إن الناشر والشاعر لا يمكن لأحدهما أن يستغني عن الآخر، وهذه البداهة تفرض أن يكون قانون المساواة ما ينظم شركتهما لكن الناشر غالباً ما يهيمن على الشاعر، لاعتياده على مجتمع يعاني من تفسخ القيم ومن داء الربح بأي ثمن، مَنْ فصلحته الخاصة إذن أن يرد التوازي إلى نصابه حرصاً على تماسك الشركة.

أندري ماريسيل

مهما يكن نفوذ الناشر، فإن توقيعه أقل قيمة من موهبة المؤلف وكل ناقد شعر رصين ومطلع لا يتعلق بالأمور الخارجية: فكم من ناشر «صغير» هو في الحقيقة ناشر كبير مثلما أن المجلات الصغيرة تلعب دوراً اكتشافياً كبيراً.

أعرف أن بعض النقاد يمارسون نوعاً من الإرهاب باقتصارهم في مقالاتهم على ذكر نفس الناشرين الذين لا يتجاوزون الأربعة أو الخمسة، والنتيجة هي أنهم، بإنكارهم للتنوع الشعري الهائل يصبحون عقولاً أكاديمية وعتيقة.

روبير ـ لوسيان جيرارت

في العصور القديمة لم يكن الشعراء المنشدون يهتمون بتوقيع قصائدهم مكتفين بكل تواضع بكتابتها وإشاعتها. فليس الناشر الذي يفرض سلطته كأي رجل صناعة هو الذي يجب إدانته، بل مجتمعنا الاستهلاكي. لكن هذه قصة أخرى. على كل حال فقراءة قصيدة أو نثر دون تسمية صاحبها أفضل، شعرياً، من تسمية الشاعر ونسيان قصائده.

بيير دابنو

أعرف بالتجربة أن اسم ناشري لم يعوض اسمي أبداً. وأظن أن إنجاز تحقيق في الموضوع سيكون مفيداً. لكن المتوقع أن يُجْهَض هذا التحقيق في بدايته، نظراً لكثرة المصاعب والحساسيات التي قد ينبغي مراعاتها.

جيلبر طروليي

لم أفهم معنى السؤال... لكنني أسألكم: هل ما يزال هناك شعراء ذو ناشرين؟

جورج طيليس

أظن أن هذا الوضع ناتج عن تسويق الكتاب. فقد استطاع بعض الناشرين في سائر البلدان وخاصة في فرنسا أن يتحولوا إلى شركات تجارية بكل معنى الكلمة، حيث أصبح توقيعهم بمثابة علامة تجارية على الجودة النوعية. وهكذا، لا يمكن للشاعر أن يُعرف بدون رخصة «الشركة» لكن جودة العمل الأدبي وتوقيع «الناشر ـ الشركة» لا يتطابقان دائماً. فقد استطاع بعض الكتاب اليونانيين مثلاً أن يحصلوا في فرنسا على علامة النشر التجارية باعتبارهم معارضين للديكتاتورية العسكرية، لا باعتبار جودة أعمالهم. ولا شك في أن للنقد أيضاً مسؤولية عن هذا الوضع، فهو لا يبحث عن الشاعر بل عن ناشر الشاعر. ما العمل إذن؟ كل شيء أصبح سلعة تجارية، بما في ذلك الشعر والإنسان!

كارلو سواريس

اسم الناشر؟ ألاحظ أنكم، إنكم تمزحون!

جيرار بوشولي

لا ينبغي أن يكون الناشر «سيداً» بل «خادماً»، مثل أولئك المحامين الذين تُنسي شهرتهم للأسف اسم المتهم.

نيكول كداليا

ما يزال توقيع الشاعر يخدع الجمهور الواسع، لكننا نعرف جميعاً أنه كلما كانت دار النشر ذات شهرة وهيبة، كان نشرها للشعراء الشباب قليلاً. إن صورة نشر الشعر هي صورة الثعبان الذي يعض ذيله.

جان ماري لوسيداتيي

لسوء الحظ أن وضعية نشر الشعر تتضح باستمرار، فهناك من جهة الناشرون الكبار الذين تتناقض اختياراتهم (لا ينشرون على أي حال الا قليلا من الشعر) ويتلاءون برفضهم المنهاجي لمنجزات الطليعة الأدبية الحقيقية الراهنة، وهناك من جهة ثانية كوكبة «الناشرون الصغار» والمجلات التي ينبغي التمييز فيها بين: ١ ـ مؤسسات النشر «على نفقة المؤلف» وهي أجهزة للاختلاس المكشوف بكل معاني الكلمة ٢ ـ المبادرات الجريئة التي تتخذها بعض الجماعات ذات التأثير الحقيقي والأصيل في مجالات الكتابة والفن عموماً. وضمن هذه الجماعات ينبغي البحث عن المنجزات الحقيقية للشعر الراهن. لكنها غالباً ما تتعرض في النهاية لاحتواءات الناشرين الكبار.

إن توقيع الناشر لا يزال يؤثر على بعض «النقاد» بشكل فيتيشي. لكن هذا دليلٌ على غيابهم الفعلي عن المواقع والرهانات الحقة للشعر المعاصر.

جان بول روسي

ليست لاسم الناشر على غلاف ديوان شعري أهمية أكثر من أهمية اسم الطابع على بطاقة دعوة لحضور حفلة زفاف .

هونري روجيي

ليست بدهية مسألة معرفة ما إذا كانت لاسم الناشر أهمية أكثر من أهمية اسم الشاعر . فدواوين RENE CHAR مثلاً ، المنشورة عند السيد GALLIMARD ، لن تباع أكثر من نفس الدواوين التي قد تصدر بتوقيع أحقر الطابعين . إن الشعر يشكل لوحده ممارسة أدبية هامشية وجد خصوصية ، ومقاييس نشره وتوزيعه لم تحدد بعد .

يكفينا عزاء أنه حتى في حالة عدم عثوره على ناشر أو طابع ، يستمر مع ذلك ، مثل الفراشات السرية في إخصاب مستقبل الإنسان ، إن أجمل المعابد لا تحمل أي توقيع ، بل علينا ان نكتشفه . فلا تهم هوية مشيديها (الجثث على الأقل) ، بله هوية ممولي تشييدها ، يكفي أن تحمر الزجاجية البلاطة ليدفع الزوجان بلطف خيال الأمس نحو ضياء تاج العمود الطقسي .

جان بيير روك

بئس الناشرون إذا أصبحوا أهم من المؤلفين ، إنهم بذلك لا يفضحون سوى بؤسهم ، لأنهم ابداً لن يدركوا أهمية ورقة BAUDELAIRE أو RON-SARD أو PROUST أو FLAUBERT أو PEGUY . . .

سطيليوس كاسطانوس دوميدسيس

المؤلف يبدع عملاً والناشر ينتج سلعة . أليس طبيعياً في مجتمعنا البرجوازي والمادي والجشع أن تكون الخسة أسمى من الرفعة ؟

جاك لوباج

هذه الظاهرة عارضة لا أهمية لها فقد قمعت دار GALLIMARD الحركة الدادائية والكتابات المنتمية إليها . ومع ذلك فما زلنا دادائيين !

جاك قوزيتا

كيف الحصول على الشهرة اليوم ؟ لا شك في أن ما يفعله الإنسان يساعده على ذلك أكثر مما يكسبه ، مثل الدعاية ونظام الحياة والقيم ومختلف أشكال النضال والصحافة المصورة ذات الانتشار الواسع وغير ذلك . نعرف أن أحسن آلات النفير ما جهر صوتها . فلا أحد ، أقصد لا شاعر يدّعي البحث عن الشهرة . ومن البديهي أن اسم ناشر كبير يُكَبِّرُ الشاعر ، مثلما أن اسم قمة أدبية يُكَبِّرُ الناشر دون شك .

كاسطون كريل

من السخف إيلاء الأهمية إلى اسم الناشر فالذي يهم هو العمل ، وليس اسم الناشر بل ولا اسم المؤلف نفسه .

بروتو دوروشي

لقد ذوت حياتنا الأدبية وتعفنت بسبب حسدنا المتبادل وخستنا اليومية . فالبعض يحتقر البعض الآخر

كما لو كان مظهره لا يشبه مظهر كل إنسان . في هذا النتاج ، يكون توقيع الناشر من وجهة النظر الاجتماعية أهم من توقيع المؤلف ، فهو يشتري كعب الناشر الذي يثق فيه ، كما أنه يثق في المؤلف الذي تتحدث عنه الصحافة ، ذلك الذي يملك من المال ما يشتري به النقد والدعاية .

ميشيل بلوك

هذه عادة جد مؤسفة ، خاصة وأن اسم الشاعر نفسه ينبغي أن يختفي من الغلاف .

السؤال الثامن

« هل يجب على الشعر أن يدمر اللغة المبتذلة ؟ »

برنار نويل

ما معنى اللغة المبتذلة ؟ كل لغة ، إذا كانت بعد حية ، تبحث عن بنيتها . وهذا يصدق على اللغة الشعرية أكثر مما يصدق على اللغات الأخرى . « تغيير الحياة » قال أحد رواد الحداثة . نعم ، تغيير الحياة !! لكن ، وبكل تواضع ، تغيير لغة الحياة أولاً ، التي هو وسيلة تغيير إنسان الحاضر إلى إنسان المستقبل الآتي - الذي لن يكف عن الإتيان - وسيلة عدم التبين أي عدم الموت !

هونري روجي

لا أعتقد أن الشعر الراهن ينوي الاعتراض على المبادىء الكبرى للسانيات التي وضعها منذ أكثر من سبعين سنة النابغة السويسري FERDINAND DE SAUSSURE . فلا يمكن دحضها بسهولة . وقد يمكن أن نتكافأ رؤية جديدة للتواصل اللغوي مع وظيفة التواصل ذاتها الخاصة بالشعر ، لكن الشاعر ، بالمقابل ، لا يصدق التهديد حينما لا تخالف كثير من الرياضيات والبراهين السخيفة أو الباطلة مسألة نشر الشعر وتحبيبه إلى الناس ، ذلك أن الصياغة الشعرية تختلف ، بطردها الشديد ، عن اللغة التداولية وإلى حد ما عن اللغة الميتافيزيقية أو الباطنية التي يفهمها عشراء الأسرار وحدهم . هي ذي معجزة « كيمياء اللغة » التي تتحقق في كل شعر أصيل ، في كل شعر مثالي ، ونتيجة هذه المعجزة هي أن هذا الشعر يخاطب الجميع ويسمح للجميع بواسطة التعاقد الوثيق بين مستويين متباعدين ، بالانتقال دون ما تعود ، من اللغة المتدنية والنثرية والتداولية إلى اللغة الشعرية والكونية ، بالانتقال اليسير من « القصيدة - الخطاب » إلى « القصيدة - اللحظة » ، ثم بالعودة إلى « القصيدة - الخطاب » ، دون أن يوحي بقطيعة ما بل إنه يفجر اللحظة في الخطاب ! بذلك يصبح الشعر أسلم أداة وأسهلها نسبياً لمقاربة « المعرفة » ، بما أنه يظهر كتركيب للغة « ما - قبل - السقوط » واللغة المنحطة والمخالفة والمنحلة التي يستعملها أصحاب « بابل » ، ضحايا السيكولوجيا المخططة التي ينتجها التقدم الراهن للتقنية .

ما الذي نخشاه إذن من هذه البحوث الجافة التي تدعي تفكيك « ميكانزمات » الإبداع الشعري للتحليل الشكلاني ؟

جورج طيميليس

لا ينبغي للشعر أن يدمر اللغة المبتذلة ، بل أن

يغنيها ما أمكنه ذلك ، بتعنيفها لتتحول إلى لغة شعرية ، تعنيف اللغة غير تدميرها ، ثم إن اللغة الشعرية لغة خاصة ، لغة داخل اللغة ، غير مرصودة للحديث اليومي . إنها قصيدة ، في موضوعيتها المتماسكة ، مثل المرمر المحوّل إلى تمثال . إنها موجودة لتوجد ، شيء مجاوز لكل شيء ، هنا وغيره .

كارلو سوليريس

تدمير اللغة المبينة ؟ أن نتوخى ذلك يعني قبليّاً أن نهدم منزلاً دون أن نعرف ما نصنعه بأنقاضه ، إن بنية اللغة ذات طابع زمني ، والتحام اللازمني للذهن الشعر يفعل ما يستطيع .

دومينيك سيلا

مشكلة اللغة أصبحت حادة . يبدو أن ما عرفه الفن منذ بداية القرن العشرين ، من اتجاهات عامة ومن تأثير اللسانيات . . . يسعى إلى تفجير الحدود ، لا المنطقية فحسب بل أيضاً حدود اللغة ذاتها . ولا شك في أن المستقبل كفيل وحده بالحكم على كل التجارب الشعرية التي تسعى إلى تخريب اللغة المبينة . ومع ذلك فهذه التجارب تبلغ مداها بشكل أو بآخر ، فتتحول اللغة شيئاً فشيئاً إلى صمت إلى صفحات بيضاء تحفرها من حين لآخر جملة ، كلمة ، تمتمة ، إلى لغة لا تنتمي لأي وطن ، ثم لا شيء . ذروة الصمت والفراغ . لا يحق لي أن أدين ، فهناك بالتأكيد أعمال ذات قيمة ضمن هذه التجارب . أسأل فقط بنوع من القلق : ما هذه المفارقة الحقيقية ؟ علينا أن لا نبتهج بسرعة بموت إله جديد ، فروس الأفعوان لا تني تولد في كل مكان .

جان بول روسي

اللغة المبينة تدمر نفسها بنفسها ثم تنبعث مختلفة من رمادها ، حتى ولو لم يتدخل الشعر في ذلك ! على الشعر أن يستهدف شيئاً أسمى ، وهو تدمير كل ثبات وجمود .

جان بيير روك

اللغة لا نهائية : فهناك ملايين الإمكانات ، كما في التشكيل وفي الموسيقى . . . وهذه الإمكانات تولد مع الفنان الذي يعمل منها بحسب عصره ومقتضيات هذا العصر .

اللغة لا تُجرَّب بل تُكتشف باستمرار .

اندري بوشيرد

ينحرف الشعر حين يدمر اللغة المبينة لأن قدره أن يجسد اللغة .

سطيليوس كاسطانوس دوميس

يستعمل الشاعر لغة غير عادية ، من ثم ، يدمر الشعر اللغة العادية ، وكل قصيدة تعيد بناء لغة تتجاوز هذه اللغة .

اندري ماريسيل

على الشعر ألا يعارض أي بحث .

ميشيل مانول

إذا كانت نية الشعر أن يدمر اللغة المبينة ، فإنه يقضي قرار موته بنفسه .

جان بيير لوسيور

سبق للسريالية أن دمرت هذه اللغة : فهل هناك بعد شيء في حاجة إلى تدمير؟

جاك ماري لافون

لا يهم أن تكون اللغة مبنية أو غير مبنية . إنها مسألة شخصية بين الشاعر ولغته أعني بينه وبين نفسه ، لاعتبارنا الكائن والكلام هوية واحدة . أعني محاولة الكشف عن تذاوت الإنسان والله .

هوبير جوان

طبيعي أن يخرب الشعر اللغة المبنية ، فبنيات اللغة تستعبدنا ، ينبغي إذن هدمها لنتنسم بعض الهواء ونرى بعض الضوء في هذه المتاهة التي تكتنفنا .

روبير لوسيان جيرارت

على الشاعر الذي يحس بالعجز أمام اللغة المبنية أن يدمرها إذا كان سيفعل ذلك من أجل بناء قصيدة ذات قيمة ودوام ، قصيدة تنتظرها ، بعد كل حساب ، بارتياب وفضول .

نيكول كداليا

هل ينبغي للشعر أن يدمر اللغة المبنية ؟ نعم ولا . لا ، إذا كان الهدف تشريحاً لغوياً يبتعد عن القصيدة ابتعاد لوحة التشريح عن الانسان . نعم ، إذا كان الهدف إعادة شحن للكلمة بمداها الحقيقي الذي استنفدته نظرة كل الأيام المنهكة . إن الشعر انفجار للكينونة ، صخب الابد وصمته في آن . وكل الإبداع يمر من « المسمّى » فنحن باللغة نعرف . كان القدماء محقين باستعمالهم لسحر الكلمة والصوت ، إدراكا للكينونة . وحين يصاب الهدف ، تكف الكلمات عن الوجود وتصبح اللغة صمتاً : لقد أدركت الكينونة .

جاك فوزينا

الشعر لغة ، لغة مبنية (ألم يقل عنه ALAIN إنه صراخ منتظم) وما ينتهكه هو تقاليد لغة موجودة . ما يستتبعه هو إبداع متجدد انطلاقاً من لغة جاهزة ، إنه اشتغال على اللغة ، اندهاش باللغة ، تلاعب باللغة ، ارتياد لمناطق مبدعة يتتابع مراحل اكتشافها ... فكيف يمكنه أن يقتنع بحدود شكل أو جنس أو أسلوب أو حتى بنية لغة ما؟

شارلوط كالفس

لا يمكن للشعر أن يهدم اللغة المبنية ، لأن الشعر هو بالذات والأساس بنية اللغة .

فلورانس فوكومير

يكون الشعر مستبداً ومنحرفاً إذا أراد تدمير اللغة وقتل المعنى . فهذه مهمة علماء اللغة الجامعيين الذين يخلطون بين معنى الكلمات وتقطيعها إلى وحدات صوتية . إن للشعر « الواقعي » وأنا أتكلم بشكل واقعي ، رائحة التعفن (لم أقل رائحة الدمال ، حيث يمكن للورد أن ينبت !) .

بيير دابنو

القصيدة فضح لزيف اللغة الرسمية التي أصبحت يومية . بهذا المعنى ، تكون مدمرة ، نعم إن الشعر

يدمر مباشرة اللغة المبنية ، لغة عاداتنا الذهنية البئيسة التي علا شأنها هذه الأيام ، فتحولت إلى مبادىء وقيم تحرص أعلى السلطات على رعايتها ، بل فرضها . . . أنا أقبل كل مسعى يستهدف هدم النظام القائم ، أي اللغة حيث يحبسوننا .

بيير بوجوت

ليس دور الشاعر أن يدمر بنية اللغة ، بل أن يغنيها كما فعل دائماً . إن اللغة ليست نتاجاً اجتماعيا لطبقة معينة ، مثلما تدعي ذلك نظرية خاطئة شائعة حالياً ، فالشاعر هو محرك تطور اللغة وارتقائها إلى مستوى التواصل الكامل .

جيرار بوشولي

للشعر لغته الخاصة ، كذلك الشاعر والقصيدة . ولكل قصيدة حقة نظام ، بنية خاصة ، مثلها مثل الذرة والخلية والكوكبة . ويلزم الشاعر أحيانا ، تثبيتاً لهذا النظام ، أن يدمر (دمر بالتوالي التشبيهات والبلاغة والمستويات المعجمية ، الخ .) لكن عليه أيضا أن يتكلم ، لا أن يتغرغر بمقاطع صوتية أو حروف مفككة . أتساءل : هل يريد الشاعر قراء أم لا ؟

ميشيل بلوك

يبدو لي أن صياغة هذا السؤال تفتقر إلى الدقة لا ينبغي للشعر أن يدمر اللغة المبنية . الشعر يكون (أو لا يكون) . ولا يمكن التأكد من تدميره (أو عدم تدميره) للغة المبنية إلاّ « بعدياً » . أما الذين يسعون « قبلياً » إلى تدميرها ، معتمدين تجارب لغوية ، غريبة قوانهم يحصلون على نتائج متكلفة لا تدهش أحداً . ذلك أن تجاربهم هذه تؤدي غالباً إلى تعقيد القراءة وتعطيل مقروئية القصيدة . إن سمو الكلمات وبؤسها في أن تكون دوماً نفس الكلمات وغيرها .

جاك بلهاس

لا ينبغي للشعر أن يسعى إلى هدف مفكر فيه سلفاً .

السؤال التاسع

« هل ينبغي للشعر أن يحاول توسيع الإمكانات الروحية للغة » ؟

جاك لوباج

تقولون : « الإمكانات الروحية » ؟ هل تومئون إلى الصوفية ؟ عودوا إذن إلى SAINT — JEAN — DE — LO — CROIX وإلى كتاب BARUZI . وإلا فما المقصود ؟ وكيف ؟ يجب ألا ننسى أن MILOSZ ، حين يفكر في ملاقاة الله ، يصمت ، هل تعنون تلقيح الكلمة بدلالات جديدة ؟ ربما . هل يتعلق الأمر بـ « تفجير » اللغة بـ « التكلم » عبر اللغة ؟ لكنه لن يبقى لغة ، أي شفرة مبنية ، هذا الذي نتحدث عنه اذن ! اعتقد أن في هذا السؤال التباساً كبيراً . لكن ، ماذا أقول ؟ أليس الالتباس ما يعرّف الشعر بالذات .

برتار نويل

الشعر . لكن ما هو الشعر ؟ إنه محاولة التحول عبر لغته . لرجو أن تكون الثنائية المفترضة في الروحية

القديمة قد انتهت . أن أفكر (أن أكتب) يعني أن أبذل جهداً ماديا لا روحيّاً . وإذا كنتم متشبثين بكلمة « روح » ، سأقول لكم إن اللغة هي الروح . إنها في انخلاقها تخلق الروح، تعيد اكتشافه . هذه اللغة التي تصنع الأساطير والآلهة ، هي القدسي كله اذا شئتم التأكد من سلطان اللغة ، حسبكم التفكير في اسمكم : في الطريقة التي يمكنه بها أن يلغي وجودكم ويحولكم إلى كلمة . لكن ، من يواجه السلب والالغاء ؟

جان بيير روك

الشعر لا يحاول ، إنه كائن وفاعل ، إنه لا يتوسع ، بل يكتشف ذاته في نفس الوقت الذي يتخلق فيه . إنه يخلق الحياة بعد كل حياة .

ميشيل مانول

توسيع الإمكانات الروحية للغة : هو ذا دور الشعر وشرفه ومستقبله الوحيد .

جان دوني فيليب

ما الذي تقصدونه بروحية اللغة ؟ ليس الشاعر القس الإنجيلي SAINT — JEAN ، لأنها فضيحة بالنسبة إليه أن تتحول اللغة إلى كرسي رسولي . الشاعر لا يكون إلا باللغة . لكنه يمقت هذه اللغة الاجتماعية المفروضة ، الخائنة ، الكاذبة . . .

جان بول روسي

لكل لغة حدودها مهما يكن ثراؤها . وهذا ما يحسه الشاعر بمرارة أحياناً . لكنها حدود وهمية ما دامت الكلمات مجرد ركائز ، والفكرة التي تدعمها رحبة رحابة الكون . فلا أحد يمكنه اليوم ادعاء محدوديتها . لذلك ، فمحاولة الشعر توسيع الإمكانات الروحية للغة هي بالذات محاولة للخروج من شرنقة هذه الحدود . إن اللغة كمين ، ربما ضيق ، لكنه يخفي لجة لا يمكن لأحد أن يزعم استكشافه لها تماماً .

كارلو سواريس

« محاولة » توسيع إمكانات اللغة ؟ لا جواب . الجواب هو القصيدة .

جورج طمبليس

الشعر لغة . هي في كينونته . من ثم ، ينبغي له أن يوسع إمكانات اللغة الروحية وبتوسيعه لها ، يتسع بنفسه ، ويشرع قطاعه اللامتنهي . لذلك ، غالباً ما يواجه الشاعر عقبات اللغة المنيعة ، محاولا التعبير عما يتعذر التعبير عنه . لكن ، وبما أن الشعر قول ، قول اللامقول ، فيجب عليه أن يقوله ، وأن ينمي كلغة وباللغة مناطق نفوذه بحثاً عن المستحيل .

جاك ماري لافون

على القصيدة أن تتسع لتكون بحثاً منفتحاً على إلحاح الوجود ، حتى ولو كانت معرفة هذا النفَس تمر حتماً بالرحلة إلى أعماق الهاوية ، والشعر يدرك بوضوح هذا الالحاح ، ويقاربه بلغته الخاصة ، خارج كل جدلية ، لغة هي بمثابة « زبور وجودي » ، لكنه « روحي » خاصة ، على الشعراء والناشرين أن يبادروا من الآن إلى إعطائه قيمته السابقة .

هوبير جوان

روحية ؟ ردوا إلينا الكلمات الخادعة الجميلة التي تلمع كالحصى في شفافية الجداول. ثقيلة هي وخفيفة ، حارة وباردة ، مظلمة ومضيئة : إنها أجرام متحركة ، وهذا كاف .

روبير- لوسيان جيرارت

ليس شاعراً من لا يوسع ، ولو قليلاً ، الإمكانات الروحية للغة . إن على الشعر أن ينفخ في الكلمات « نفحات روح إضافية » ، أن يرتاد اللامعقول وراء حدود النثر ، أن يفاجيء البرق ويكشف عن الجهالة . . .

جاك فوزينا

الشعر ، جوهراً ، يوسع هذه الإمكانات ، إنه ، مثل الأدب ، « سراب اللغة » ، بتعبير Roland Barthes . فهو يندرج ضمن حركة المغامرة والانفتاح والتجدد المتعدد الأبعاد الطبيعية ، ويختص بمجالات مختلفة ومتحركة . لذلك ، لا شيء يكون غريباً عليه في « زمنه التجريبي والصوري في آن واحد » ، كما قال Michel Foucault .

فلورونس فوكومبر

ليست اللغة سوى تجسيد مؤقت للروح ، ومن ثم ، يمكن للشعر أن يتوقف عند اللغة . إنه الإنسان بكامله ما ينبغي « توسيعه » اليوم . إن الإنسان يقرأ قصيدة حين يرغب في ذلك وبإمكان الشعر أن يساعده على التغير ، لأنه روح وعاطفة (وإلاّ يكون متكلفاً) ، وأن يهبه لحظة استثنائية تلتحم فيها العاطفة والعقل .

شارلوط كالمس

اذا تجسد الشعر ، وتطابق مع الكون معبّراً عنه ، كان حتماً شعراً روحياً .

شارل اوطران

يمكن لـ « تفكيك » اللغة المبتذلة (التي لا ينبغي « تدميرها ») أن يصلح لاقامة علاقات جديدة بين الشعر واللغة . ومع ذلك يجب ان نظل مقتنعين بأن اللغة هي أولاً أداة للتواصل قبل أن تكون أداة للبحث . والحال أن الشعر بالذات بحث قبل أن يكون ، بالمعنى الدقيق والمحدود للكلمة ، تواصلاً . ينبغي إذن تعيين حدود هذا البحث حتى تموقع العتبة التي بعدها ، يؤدي البحث منطقياً إلى التواصل (بما ان الشعر ، مهما تكن « حالاته » و « هلوساته » لا يخون اللغة أبداً ، بل هي وحدها التي قد تخونه) .

لعل الحديث هنا عن « الإمكانات الروحية » للغة يشير الى تجارب تربح فيها الميتافيزيقا ما يخسره الشعر . والواقع أن اللغة ، مثل الشعر ، تغور بجذورها في أعماق الانسان . بل تبدو ، في لحظات ما ، أنها نتيجة وعلامة للتحولات الشكلية التي تقتضيها أو تعانيها . إنها تنمو ، تخفف صرخة الفرح أو الغضب ، تدبر النوح ، تبث السم المدعو فكراً ، وتتحول إلى مؤيد للفلسفة والعلم والسياسة بعد أن كانت سنداً للشعر . من سم « قدور الشعر محدد بدقة سلفاً ، على الأقل في إطار المغامرة الشخصية للشاعر . إن الأمر يتعلق بالغوص إلى أعماق التلفظ لتخفيف الصراع أو تدبير النواح أو الزخرفة ، لكن دون أن تكون الزخرفة من أجل الزخرف ، دون أن يكون التدبير من أجل الإيهام بالتفكير ، دون أن يكون

التخفيف من أجل تقليد وتعزيم الانحلال والتفج . بهذه الصفة ، لا تكون ممارسة الشعر سوى محاولة لتوسيع ثروات اللغة . أما « الروحية » ، فهي ، مادياً ، أمر بدهي .

بير دابنو

كل هدم للنظام فرصة مؤاتية لا لـ « توسيع » الإمكانات الروحية للغة كما قلتم ـ لأن صفة الروحية تعيدنا إلى تلك الثنائية التي يريد البعض بواسطتها خنق جزء من كياننا ـ بل مؤاتية لاكتشاف وإغناء كل ملكاتنا . إن على لغتنا أن تبادر إلى الإنصات إلى الجسد المقموع . لكن أندر الشعراء الذين يفعلون !

برونو دوروشي

لعل أحد أهم واجبات الشعر أن يوسع ، من حقبة إلى أخرى ، الإمكانات الروحية للغة ، ونظراً لتخليه عن هذا الواجب ، آل إلى الانهيار ، وانحبس في الزخرف ، حيث أصبحت للقافية ولمحسنات أخرى أهمية أكثر من أهمية اتحاد الشكل والمضمون . والناتج هو شكل خالص بدون موضوع ، شكل يشهد على آخر حدود الحقارة التي أدركها الإنسان بعد اغتيال الروح. على الشعر أن يمزق الحجب ، أن ينفض الغبار العريق ، أن يحوّل الحدس إلى أهم وسائل الروح ، أن يجدد اللغة وأن يعيد لها كافة إمكاناتها ، حيث يصبح الاستلهام الشعري سلطة والسلطة معرفة .

جيرار بوشولي

الكلمة مقدسة أصلاً . إن الشاعر اليوم يهذر أكثر مما ينظم الشعر ، عليه إذن أن يصمت وأن يستغل ، في صمته الشامل مثل الهواء الطلق ، إمكانات اللغة الروحية . حينئذ ، تكون كل كلمة مرصودة ـ للحفر أكثر مما هي مرصودة للتوسيع .

السؤال العاشر

« هل تعتقدون أن السريالية أكبر حركة شعرية في القرن العشرين ؟ وما موقفكم منها » ؟

بيير دالبو

ترى هل أحنّ إلى السريالية ؟ يؤلمني أن أتحدث بصيغة الماضي عن هذه الحركة التي انتميت إليها . أعتقد أنني ما زلت وفياً لها ، رغم ـ بل وخاصة ـ أنني أجادل في أهميتها أحياناً فالأسئلة التي طرحتها هي أسئلتنا بالذات ، هنا والآن . لكننا ، كما قال ذلك BRETON بحق ، في غنى عن النهاذج التي تتخذ قدوة . لسنا في حاجة إلى نقط الاستدلال ، إلى الآباء الأوصياء ، وهذا لن أكلّ من ترديده إلى أولئك الذين يتخذون الآن من MARX و REUD أنصاف آلهة . لقد أصبحت السريالية دوغمائية بالنسبة لعدد كبير من الشعراء ، غير أن لها تأثيراً سرياً دائماً . التسمية لا تهم إذا كانت الروح مستمرة . والحال أن روح السريالية مستمرة ، بعيداً عن أشكال التقليد . لن أستشهد أي شاعر : فكل واحد حر في التقاط الحركات الجديدة . أرفض إذن سؤالكم العاشر لأنه يفترض ترتيباً فليس هناك بعد أي ترتيب ، ولا يجب أن يكون هناك ترتيب : « أجمع متاعي في شقوق الصخر » .

ايدمون هومو

هل نحن سرياليون ؟ بمعنى ما ، هذا أمر بدهي . لكن الامتنان الذي أحس به نحو السريالية ينصرف إلى

أهواء وتولعات أخرى كثيرة ، بحيث لا أظن أنني أنتمي إلى الحركة التي تلت الدادائية وطبعتها بتوجه مخالف للشخصانية ، التي أعتبرها أساسية بالنسبة لحياتي ولإشراق رمزية باروكية جدودية . إن المدارس الأدبية لا تعني شيئاً بالقياس إلى الطالع في الشعر . . . لا أصدق أن سريالية BRETON . أكبر حركة شعرية في القرن العشرين ، « لكن الظاهر أنها أعطت الرمزية دلالة جديدةً ، وأن رعشات الرومانسية في القرن الماضي تجد نفسها في تعارض حي مع المستقبلية والتكعيبية والبنائية ضمن ما أسميه «ثورة اللامجازي » .

جان بيير لوسيور

حفرت السريالية القبر لنوع من الشعر ، وربما للشعر عامة ، الذي لم يستطع بعد أن ينهض وما دامت السريالية قد خربت كل شيء ، فلا أكون أنا أي حقد . يلزمنا إذن أن نعاود الانطلاق من العدم وأن نبحث عن آفاق أخرى ، وإلا فلنمت بدورنا .

ج . ب . ياك

تاريخياً ، نشأت السريالية في وقت بلغ فيه سحق المجتمع للإنسان ذروته (مجازر ١٩١٤ ـ ١٩١٨ الطفرة الصناعية والأزمة الاقتصادية ، ظهور المجتمعات الفاشية ، ظفر المجتمع البرجوازي الخ) . بهذا المعنى ، فهي إذن ذات دور تاريخي ، حيث أثبتت حضور الشعر في وجه القمع وجسدت أحد أشكال يقظة الإنسان المتمرد . أما أن تكون السريالية أكبر حركة شعرية في القرن العشرين ، فهذه مسألة زائفة . يكفيها أنها « كانت » ، وأثبتت كينونتها كبرهان إضافي على استمرار الصراع من أجل الحياة .

شارل اوطران

لا ينبغي التقليل من أهمية « التعبيرية » ، حتى ولو بدا أن أثرها ضعيف ومتأخر . كما ينبغي الإقرار بأن السريالية وجدت مرتعها المفضل في الفن التشكيلي ، حيث إن الرسامين عبروا أكثر من غيرهم عن أحسن ما في هذه الحركة . ويتعين الاعتراف أخيراً بأن الدادائية قد ذللت أهم الصعاب في طريق السريالية .

لكن السريالية ، ورغم بعض مواقف التشهير الأخيرة ، تبقى أكبر حركة شعرية في القرن العشرين ، لا بأعمالها المنجزة أساساً ، بل ربما بالفضول الذي أثارته ، والخبايا التي كشفت عنها ، والأمزجة التي شحذتها ، مع احتمال التلف بكل ذلك خارج مدارها أو قبول الطلاق . حتى أولئك الشعراء الذين أفاقوا مؤخراً ، أو لم يعيشوا مغامرة هذه الحركة العظيمة ، يعرفون ما هم مدينون به الى السريالية .

جاك بلاتس

السريالية حركة يُغالَى في تقديرها ، حشدت حول بعض المواهب الأصيلة ثلاثة آلاف نبّاح وحمّال . ولا شك في أن القرن المقبل سيحسب لكل شيء حسابه ، وسيحمل معه بعض المفاجآت علماً بأن القرن العشرين لم ينته بعد .

ميشيل بلوك

السريالية حركة هامة في القرن العشرين . وكل اتجاه شعري أو أدبي أو فني (هذا الاستفتاء خير دليل على ذلك) يتحدد بالنسبة إلى هذه الحركة . أما موقفي منها ، فموقف التأييد . يليق فقط بأن نتموقع بالنسبة لما كانت السريالية ولما خلفته . فلا يتعلق الأمر

يتخليدها كما كانت بشكل ديني ، أو بالتقيد الدقيق بمبادئها ، أو بالخروج إلى الشارع وإطلاق النار على الناس حتى تكون سرياليين (يجوز ذلك فقط في حالة الرغبة في فعل ذلك . ان كل شاعر ـ كل إنسان ـ جدير به (أخيراً) أن يختار طريقه الخاص بعيداً عن كل

إرهاب ، أياً كان شكله ، حتى ولو كان إرهاب السريالية .

بير بوجوت

أكيد أن السريالية تهيمن على قرننا ، مثلما هيمنت الكلاسيكية والرومانسية على قرون خلت نحن جميعاً سورياليون بقدر ما لم يكن السرياليون قطعاً سرياليين . أقصد أنهم لم يكونوا يخضعون إلا صدفة لقواعد الكتابة التلقائية التي هي بداية كل إلهام ، لا نهايته .

موريس بورج

ستظل السريالية إحدى أهم لحظات التاريخ الأدبي ، ولا يمكن إلا أن نأمل ان يكتشف كل شاعر شاب هذه الحركة في بداية مسيرته الإبداعية ، شريطة أن يتجاوزها ، أن يتحرر منها . إن الإضافة السريالية ، رغم أنها ما زالت ذات أهمية في وقتنا الراهن ، تنتمي مع ذلك إلى الماضي ، شئنا ذلك أم أبيناه .

برنار نويل

لا أعتقد ذلك . لقد استطاعت السريالية أن تحتكر واجهة « المسرح » الشعري . أما الشعر ، فقد استمر

في الكواليس ، جهة GEORGES BATAILLE خاصة و « حقده للشعر » .

شارلوط كالليس

ليست هناك بالنسبة لي ، أنا الشاعرة ، أية حركة شعرية كبرى ، سريالية أو غيرها . هناك فقط أزلية الشعر ، واحداً وغير قابل للتجزئة ، الشعر الذي يتجسد خلال التاريخ في مصائر فردية .

جاك فوزينا

الروح السريالية غريزية في الإنسان منذ غابر الأزمان ، وأشكال الكتابة التي يمكن أن تنتمي إلى السريالية سائدة في كل الآداب : عند القدماء في القرون الوسطى ، عند الرومانسيين في الشرق كما في الغرب . لقد باشر NERVAL التعبير ، وابتكر APOLLINAIRE الكلمة ، واستغلها BRETON فأدرجها في نسق خاص ، مضيفاً إليها بعداً سياسياً ذا قيمة أكيدة ، لكن الروح السريالية تتجاوز بذلك إطار الأدب ، فهي تغوص بجذوره في أعماق معارف ظلت إلى حينئذ مستعصية على العلم ، كالفلسفة وعلم النفس والميتافيزيقا . بل إن الحركة نفسها ، وهي من تدبير عقل محنك ، ستغري الناس والأذهان وتقهر اللامبالاة ، إنها ما تزال تخصب حياتنا الأدبية ، وإذا استنفدت الأشكال والأساليب التي ترتبط بها أو تستوحيها ، فإن الشعلة الأصلية ستدوم أبدا الدهر ، لأن القريحة السريالية جزء من طبيعة الإنسان الجوهرية الخالدة .

روبير ـ لوسيان جيرارت

تعتبر السريالية بحق أكبر حركة في القرن

العشرين ، وإذا كانت سريالية « الكتابة التلقائية » قد أثارت ما أثارته من ضجة ، فإن فضلها الرائع يتمثل في تخليدها لروح « الرمزية » التي كانت قد ابتذلت كحركة ، حيث جددتها بنقلها إلى أغوار ما تحت الشعور ، ومن ثم يتمثل في توسيع آفاق التعبير الشعري .

لنكن سرياليين حين تدرك الريشة جدار العقل!

هوبير جوان

السريالية حررت جملة من الأشياء ، اللغة ، الحلم ، بعض مناطق اللاشعور الخ . سيأتي لا محالة وقت يجدي فيه كثيراً أن نعيد هذه الحيوانات إلى أقفاصها .

جاك ماري لاقون

لا يتعلق الأمر مطلقاً بالاكتفاء بتعريف معين للشعر ، بل بالبحث عن طريقة جديدة للوجود في الكون ، في هذا الكون حيث تنبثق من مناطق الشعور الباطن (اي ما تحت الشعور) إمكانات خارقة وغريبة تخص العقل والغرائز . هذه الإمكانات هي ما تحلله السريالية . وإذا كانت الذات ، يحكم أصلها شبه الواعي ، لا عقلانية ، ومن ثم تهيء للإنسان حياةً ثانية ، فإن تمثيلها يبقى متماسكاً رغم تأثرها بقوانين التلقائية واللاإرادية .

اما موقفنا من السريالية فواضح اننا نريد انطلاقا من شكل مفتوح على اللغز وعلى التناغم السري للاشياء ، ان نستخرج من شعورنا الباطن أصداء لحساسيتنا ، لكننا نرى من العبث الإذعان لتلقائية لا وجود لها لا في الشعور ولا في ماتحت الشعور ، فالانسان ليس آلة

مسيرة ينبغي إذن لاتغالي في تقدير آلية اللغة وتلقائيتها ، اللتين تفتحان الباب على الهذيان اللغوي والغموض والتجريد .

ميشيل مانول

يجب أن يكون الإنسان سرياليا ليجيب عن هذا السؤال. إن حيادة اللاشعور وإعتاق الفكر والانقياد الأعمى وراء سرابات الخيل والبحث عن الغريب ونوعا من الذاتية الفوضوية ـ إن كل هذا يشكل بالنسبة لمن يعتبر نفسه واضعا خليطا معقدا جد عسير .

الدري بوشيود

كان بإمكان السريالية أن تكون فعلا أكبر حركة شعرية في القرن العشرين لو أنها في سعيها إلى مجاوزة الواقع المادي الملموس ، عرفت كيف تعبر عن مثل أعلى ، عن رؤيا ، عن إشراقة داخلية سامية بقدر ماهي محتدلة ومضيئة .

سطليوس كاسطانوس دو ميديسيس

هناك السريالية والسرياليون ثم سليلو السريالية فالمبشرون بها المتقدمون عليها ، مما يعني أن السريالية ، كحركة معينة ضمت أشخاصا معينين (مقبولين أو مطرودين أو معترفا بهم الخ) في مكان وزمان معينين ، هي بدون شك إحدى أكبر الحركات الشعرية والفنية ، لأنها كشفت عن هذه الحقيقة ، وهي أن الشعر دوما سريالي «جزئيا» . وبما أن الشعر يكشف عن وأبعاد الوجود ، وبما أن اللاشعور وما ـ تحت ـ الشعور والحلم جزء من هذه الأبعاد . . . .

أما موقف الشاعر من هذه الحركة ، فهو أن يكون سرياليا أو غير سريالي في آن واحد .

جان دوني فيليب

لا أعتقد ذلك ، ولاتربطني بهذا النوع من الممارسة المدعو سريالية أية رابطة (شريطة ألا نخلط بين السريالية والتلقائية) .

بيريط ميشلود

ليس مدحا دائما أن نقول عن حركة شعرية ما إنها فرضت أو تفرض نفسها كأكبر حركات قرنها ، إن «حركة» تتحول إلى نظام سرعان ماتكف عن الحركة ، وتتحول إلى أجزاء وخلايا ، مما يجعلنا إذن أمام بدعة طائفية ، مع مايفرضه ذلك من تعصب ومحدودية .

وهذه بالذات حالة السريالية فهي أكثر طائفية وتعصبا من الأسرة والوطن والدين ، هذه الأنظمة التي سعت إلى تخريبها بكل ضراوة .

إن حوارييها يمحضون لها الولاء والإخلاص بشكل استبدادي يسمح لهم بأن يطردوا من العشيرة كل عنصر مشوش ومخل بالنظام .

إنها باختصار نزعة جماعية ضمن نزعة جماعية . وكل هذا يتنافى مع مبدئهاالمشهور : «إعتاق الفكر» . إن السريالية ، بتنظيمها لعملية استكشاف اللاشعور (الغريزي في كل شاعر) ، قد فجرت ينابيع السهولة والابتسار ، وهذا مايفسر تدفق قطعان الشعراء المزورين في أنحاء الأرض في إغارات عارمة . إنهم همج الأزمنة الحديثة !

* * *

الأمة والوطن والمواطن عند رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي

عزت قرني

ليس موضوع هذه الدراسة هو نظرية الحكم عند هذين المفكرين ، بل قسما من الاطار العام لهذه النظرية عندهما . ويقوم إطار تصوراتهما النظرية في عدد من المفاهيم التي كانت عندهما ، وعند عدد من غيرهما من معاصريهما ، كانت لاتزال في مرحلة الاقتراح ، ولهذا فلانجد عندهما تعريفات دقيقة ، وانما سيكون علينا أن نبحث عن معانيها التقريبية بوضعها في سياقها وبالاستعانة بدراسة مقارنة لها مع بعضها البعض . لذلك فان تلك « المفاهيم » تستحق على الأدق أن تسمى « اصطلاحات » ، لأن المؤلفين اللذين ندرسهما لم يحددها ، الا فيما قل ، تحديدا كافيا يصل بها الى مرتبة « المفهوم » . ويسري هذا حتى على الاصطلاحات المأخوذة من التراث الاسلامي ، لأنها جميعا ستأخذ في التحول في عصر رفاعه ، وخير الدين قبله ، وعلى أيديهما وأيدي غيرهما .

خير الدين التونسي (١٨٢٥ - ١٨٨٩م)

يمكن أن نقسم المصطلحات السياسية الداخلة في اطار موضوعنا عند خير الدين التونسي في « مقدمة » كتابه « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » (تونس ، ١٨٦٧م) الى نوعين : الأول مصطلحات تخص اطار الحكم في عموميته ، والثاني مصطلحات تخص طبيعة المادة البشرية للحكم ، أي المحكومين .

ونجد في النوع الأول المصطلحات التالية : الدين ، الاسلام ، الأمة ، الأمة الاسلامية ، المملكة ، الدولة ، الملك ، البلاد ، الوطن ، الجنس ، وقد نضيف اليها تعبير « الجماعة » ، واستعمال أداة الجمع للمتكلم : « نحن » ، وهو منتشر الى حد ما عند التونسي .

ومن الطبيعي أن يكون إطار الحكم دينيا عند خير الدين التونسي ، على الأقل من الوجهة الرسمية ، لأنه كان الوزير العثماني ، سواء في تونس قبل صدور كتابه أو في الأستانة من بعد صدور الكتاب ، حيث كان صدرا أعظم عام ١٨٧٩ ، وكان السلطان العثماني يتجه الى التأكيد على صفته الدينية كخليفة .

هنالك ثلاثة مصطلحات دينية هي : الدين ، الاسلام ، الأمة الاسلامية . والمصطلح الأخير هو بالطبع أهمها وأكثرها استعمالا عنده وأكثرها « اصطلاحية » . ومع ذلك فاننا نجد المصطلحين الآخرين يظهران ويعودان عنده فهو يرى مثلا أن التنظيمات السياسية (أي الدستور) والأخذ بالعدل واطلاق الحرية ، كل هذا سيقوم به السلطان العثماني بمعونة رجال دولته وعلمائها « للتعاضدين على انجاح مصالح الدين والوطن » [1] ، كما أن قوة الدين أحد أهداف الدولة [2] . وهو يذكر حديثا نبويا يجعل من العدل وسيلة لعز الدين وصلاح السلطان معا ، [3] وهو يخصص أحيانا ، فيذكر الاسلام على التحديد باعتباره الاطار العام للسياسة والسلوك الاجتماعي ، فيتحدث مثلا عن « حماية بيضة الاسلام » [4] ويسمي عنصري الحكم ، أي الحاكم والمحكوم ، على التوالي : « أمراء الاسلام » [5] و « أهل الاسلام » [6] كما أنه ينسب فكرة « الملك » ، أي السلطة السياسية ، الى الاسلام مباشرة ، فيقول : « ملك الإسلام مؤسس على الشرع الذي من أصوله . . وجوب المشورة وتغيير المنكر . [7] ولكن المصطلح الأهم بين هذه الثلاثة هو من غير شك « الأمة الاسلامية » .

ولاغرو أن يظهر هذا التعبير منذ الصفحة الأولى في فاتحة الكتاب [8] فان هدف المؤلف ، كما يقول في أول المقدمة ، هو الحديث عن « الوسائل الموصلة الى حسن حال الأمة الاسلامية وتنمية أسباب تمدنها بمثل توسيع دوائر العلوم والعرفان ، وتمهيد طرق الثروة من الزراعة والتجارة وترويج سائر الصناعات ، ونفي أسباب البطالة . وأساس جميع ذلك حسن الامارة [9] » وخير الدين التونسي يضع أمام هذه الأمة الاسلامية ، التي لايعرفها بعد في هذه الصفحات ، كيانا يعين على تمييزها ، هو الأمة الافريقية » . [10] وقد يدلنا استخدام هذا التعبير الأخير ، وهو بحد ذاته عائم الى درجة السذاجة ، على أن مصطلح « الأمة » كان يستخدم عند خير الدين في مثل هذه الاستعمالات استخداما عاما جدا ، وفيه يدل على قوم يجمعهم شيء ما ، قد يكون الدين الواحد ، وقد يكون محض أنهم « الأخر » بازاء قوم آخرين . ويعود هذا الاستخدام

(١) « المقدمة » ص ٣٧ (وستكون الاشارة الى طبعة ١٨٦٧م) .
(٢) المقدمة ، ص ١٥
(٣) المقدمة ، ص ١٠ .
(٤) المقدمة ، ص ٤ .
(٥) المقدمة ، ص ٥ .
(٦) المقدمة ، ص ٤٤ .
(٧) المقدمة ، ص ٣٢ .
(٨) المقدمة ، ص ٣ .
(٩) ص ٥ .
(١٠) ص ٦ ، وقارن ص ٤٤ .

الى معنى تقليدي . فيرى بعض القدماء أن « الأمة : كل جماعة يجمعهم أمر ما : دين واحد ، أو زمان واحد ، أو مكان واحد ، سواء أكان ذلك الأمر الجامع تسخيرا أم اختيارا » . [11]

ولكن التونسي يبدو مستخدما اصطلاح « الأمة » في معان أقوى وأكثر تحديدا . فهو يستخدمها أحيانا لتكون دالة على وحدة جنسية ، حين يقول مثلا : « أمة الفرس » [12] ، أو « النبي الذي جمع قبائل العرب أمة واحدة » [13] ، وان كان في هذا القول الأخير يترجم عن الفرنسية (ولايأتي ذكر العرب عنده في العادة الا في ترجمات مباشرة عن مؤلفين فرنسيين يذكرهم) . وهو يستخدمها أحيانا أخرى لتدل على مجموعة سياسية واضحة المعالم ، حين يتحدث عن « الأمة الفرنساوية » [14] أو عن « الأمة الرومانية » [15] وان كان هذا التعبير الأخير يصعب أن يكون أخذه عن المصادر الفرنسية حيث المستخدم عادة هو « الشعب الروماني » . وهو أحيانا أخرى يقصد بها مجموع السكان في اطار نظام ما للحكم ، وفي هذه الحالة قد تكون الأمة مرادفة « للرعية » [16] كما قد تكون مرادفة للمملكة » [17] ، حيث نراه يستخدم الاصطلاح الثاني في مكان الأول . وأخيراً فاننا نجد التونسي وقد خلع على « الأمة » ، معنى الجماعة [18] التي تسير على أسس الاسلام والتي « ظهرت للعيان (على أثر ظهور النبي وجمعه لقبائل العرب أمة واحدة كما يقول) أمة كبيرة مدت جناح ملكها من نهر طاج في أسبانيا الى نهر الغانج في الهند » [19] (وهنا نلاحظ أنه يعتبر أن الأمة الاسلامية أوسع امتدادا وأعم من قبائل العرب بعد تكوينهم أمة واحدة . وعلى أي حال فانه هنا يترجم عن الفرنسية) ، نقول نجده وقد خلع على « الأمة » بهذا المعنى بعض صفات « الذات » فهي وحدة واحدة حيث ان لها ماضيا وحاضرا ومستقبلا [20] ، وهي « نحن » [21] في مقابل « هم » أي الأمة الافرنجية [22] ، وهي ككل ذات تستطيع أولا تستطيع [23] ، وهي تريد استرجاع مجدها [24] ، ولاحرج أن تحتاج الى غيرها [25] ، وهي ذات العمران والثروة

---

(١١) انظر مادة « أمة » في دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ، جزء ٤ .

(١٢) المقدمة ، ص ٨٦ .

(١٣) ص ٢٨٦ .

(١٤) ص ١٩ .

(١٥) ص ٧٣ .

(١٦) ص ٦٧ .

(١٧) ص ٧ .

(١٨) قارن ص ١٧ .

(١٩) ص ٢٨ .

(٢٠) يقول مثلا : « ماكانت عليه وآلت اليه الأمة الاسلامية بما سيؤول اليه أمرها في المستقبل ص ٧ . وانظر أيضا الصفحات ١ ، ٥ ، ٤٤ .

(٢١) ص ٣

(٢٢) ص ٦ ، ١٠ .

(٢٣) يقول مثلا : « عدم قابلية الأمة لمصادمتها » ، ص ٤٣ .

(٢٤) ص ٤ ، ٥ .

(٢٥) ص ٧ .

والقوة في السابق[٢٦] ، والتي تحترم الأصول الشرعية [٢٧] ، بل هي كأنها انسان لها حقوق تخص الحفاظ على النفس والعرض والمال [٢٨] ، كما أنها ذات مصالح ونفع ، وتريد دوام الاستقلال عن الغير[٢٩] . في هذه الذات ، التي يهمها شيئان : مصالحها وتدبير سياستها[٣٠] ، « يكون الجميع كالشخص الواحد كما قال عليه الصلاة والسلام : المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وكما قال ﷺ ، المؤمنون كالجسد الواحد[٣١] .

وننتقل الآن الى النصف الثاني من النوع الأول للمصطلحات ، وهو الذي يضم : المملكة ، الدولة ، الملك ، البلاد ، الوطن . وقد ضممنا هذه الكلمات معا إما لانها ذات طابع سياسي بالمعنى الدقيق (المملكة ، الدولة ، الملك) ، وإما لأنها ذات كيان مادي يمكن تعيينه (البلاد ، الوطن) ويبدو أن « المملكة » تدل على مجموع الكيان السياسي الذي يضم الحاكم والمحكوم معا [٣٢] ، وان كان التأكيد هو على العنصر المحكوم أو « المملوك » ، سواء أكان الأهالي (أو الرعايا أو السكان) أم الأرض ذاتها . [٣٣]

ويستخدم خير الدين اصطلاح « المملكة » معظم الوقت للدلالة على أجزاء محددة هي « ممالك » الدولة [٣٤] ، ومع ذلك فانه أحيانا مايستخدمه للدلالة على الدولة ذاتها [٣٥] وعلى الأمة ايضا [٣٦] .

أما « الدولة » فانها تدل عند خير الدين على مانسميه باسم « الهيئة الحاكمة » كما يظهر من النص الجامع التالي : تصرف بعضهم بحسب الفوائد الشخصية لاباعتبار مصلحة الدولة والرعية . . واغتنم ولاة الممالك البعيدة الفرصة في الامتناع عن الانقياد لأوامر الدولة . . والتجأ كثير من أهل الذمة الى الاحتماء بالأجانب لأن الانسان اذا انقطع أمله من حماية شريعة الوطن لنفسه وعرضه وماله يسهل عليه الاحتماء بمن يراه قادرا على حمايته . . خصوصا من لم يكن بينه وبين الدولة اتحاد في الجنس والديانة » [٣٧] . وتشير النصوص الى أنه يستخدم تعبير « الملك » للدلالة على السلطة السياسية من الناحية المجردة [٣٨] ، حيث يقول صراحة : « الملك نظام يعضده الجند » [٣٩] . وقد لايكون تعبير « البلاد » اصطلاحا على الدقة ، ولكن ظهوره يتكرر عند خير الدين [٤٠] .

---

(٢٦) ص ٢٢ .
(٢٧) ص ٢١ .
(٢٨) انظر الصفحتين ٣٤ ، ٨٦ .
(٢٩) ص ٤٩ .
(٣٠) ص ١٧ .
(٣١) ص ٤٠ - ٤١ .
(٣٢) مثلا ، ص ١٨ ، ٤٨ ، ٧٥ .
(٣٣) ص ٣٤ .
(٣٤) ص ٣٣ .
(٣٥) ص ٣٣ .
(٣٦) ص ٧ .
(٣٧) ص ٣٣ .
(٣٨) ص ١٣ ، ٣٢ .
(٣٩) ص ٢١ .
(٤٠) مثلا ص ٢ .

ونتوقف قليلا عند تعبير « الوطن » على قلم خير الدين التونسي . وهنا أيضا لانجد تحديدا صريحا من جانب المؤلف لمغزى ذلك التعبير ، وعلينا أن نحاول التوصل الى معنى أو معاني الاصطلاح بطريق غير مباشر . ويبدو أن « الوطن » في « المقدمة » يدل على هذا الكيان الموضوعي المتين الذي هو « مجال الاجتماع المشترك »[41] ، ثم هو كذلك هذا الكائن الجمعي الذي يجمع الكائنات الفردية « لأبناء الوطن »[42] ، وهو على كل حال ، وعلى الأقل ، مكان السكن . وهناك شيء مؤكد بشأن تعبير « الوطن » ، انه يختلف عن الدين ، من حيث أن الدين ذو طبيعة معنوية ، بينما « الوطن » ذو طبيعة مادية[43] . ومن جهة أخرى ، فان « الوطن » يختلف عن الدولة ، من حيث أنه الكيان الذي تقوم بعملها من اطاره ، ومن هذا المنظور فان لفظ « الوطن » يمكن أن يعني عند خير الدين التونسي مجموع السكان[44] ، بل هو يحل أحيانا محل مكان لفظ « المملكة »[45] . ومن الصعب أن نضع أيدينا على ما يميز ما بين « الأمة » و « الوطن » في « المقدمة » ، الا أنه يبدو أن « الوطن » كيان ذو طابع سلبي وقابل للخضوع ، بينما يشير اصطلاح « الأمة » الى كيان قادر على الفعل ، وقد رأينا أن الأول ذو طبيعة مادية ، ويشكل السكان فيه عنصرا جوهريا ، بينما « الأمة » كيان معنوي .

إن الجديد حقا في « المقدمة » هو تلك اللهجة التي لا تخلو من مسحة عاطفية ، والتي يحيط بها خير الدين التونسي استعماله لكلمة « الوطن » ، مرتين أو ثلاثا . إنه يتحدث ، ومنذ بداية « المقدمة » ، عن « المحبة لخير الوطن »[46] ، ويشير الى طاعة الملك ومحبة الوطن[47] ، ثم تعلو النبرة عاطفيا حين يشير خير الدين التونسي الى خطر المدنية الغربية على العالم الاسلامي ، حيث يشبه هذا الخطر بسيل جامع يهدد بترطيم كل ما يحيط به ، ثم يضيف بأن هذه صورة محزنة « لمحب الوطن »[48] . أخيرا ، فان كلمة « الوطن » تظهر مرتين في الصفحة الأخيرة من « المقدمة » ، حيث يظهر واضحا أن تعبير « النصوح المحب لخير الوطن » يشير الى خير الدين نفسه ، وهو الذي كان يؤمل أن يكون بكتابته « للمقدمة » قد أدى واجبه باعطاء النصح والمشورة « لدولته ووطنه »[49] (ولنلاحظ أن « الوطن » في هذا التعبير ينبغي أن يمتد ليشمل مجموع الأقاليم العثمانية ، بل وما وراءها من كل مكان يعيش فيه مسلمون)[50] .

أما النوع الثاني من مصطلحات خير الدين التونسي فهو يخص العنصر البشري ، أو ما يمكن تسميته في إطار تصوراته السياسية بالبنية التحتية للنظام السياسي ، وهي مصطلحات : الرعية ، الرعايا ،

---

(٤١) ص ٣٣ ، ٨٨ .
(٤٢) ص ٨٨ ، ٨٩ .
(٤٣) ص ٣٧ .
(٤٤) ص ١٤ ، ٨٩ .
(٤٥) ص ٢٠ ، ٦٨ .
(٤٦) ص ٥٣ .
(٤٧) ص ١٥ .
(٤٨) ص ٥٠ .
(٤٩) ص ٨٩ .
(٥٠) لاحظ في التعبير المشار اليه ازدواجية الولاء ما بين سياسي وديني ، لأن الوطن هنا قد يعني كل أرض المسلمين .

رعايا الدولة ، الأهالي ، أهل المملكة ، السكان ، العامة ، العباد ، والعبد وعبيد الله ، والمؤمنون .

ويمكن تقسيم هذه المصطلحات الى ثلاثة أقسام : قسم ذي طابع ديني واضح ، وقسم مأخوذ عن التراث ولكنه يبدأ في اكتساب مضمون مدني محايد بعض الشيء ، وقسم مأخوذ فيما يبدو عن المصطلح الفرنسي في القرن التاسع عشر الميلادي . أما القسم الأول فانه يضم كلمات : العباد والعبد وعبيد الله ، والمؤمن والمؤمنون . والكلمتان الأخيرتان تأتيان معا وفي موضع وحيد في كل « مقدمة » كتاب خير الدين [٣١] ، وهو لايوردهما الا بمناسبة الاستشهاد بحديث نبوي . وعلى ذلك فان اصطلاح « المؤمنين » يختفي تماما من المصطلح السياسي عنده . أما « عبيد الله » فلا يذكر هو الأخر الا مرة واحدة [٣٢] ، وفي اطار من السخرية بمن يريدون استعباد من لاسيد لهم الا الله . أما كلمات « العباد » و « العبيد » و « العبد » ، فان الثالثة منها لاتذكر الا مرة واحدة [٣٣] ، ونادرا ماتستخدم الأولى [٣٤] . ويأتي عدم استخدام « العباد » كثيرا من أن المقابل لها ، وهو « الرعية » و « الرعايا » اللذان يأتيان من المصطلح التقليدي ، يغطيان معناها ، ويزيدان في طابعهما المحايد الى حد ما . وهاتان الكلمتان هما بالفعل أكثر الاصطلاحات المذكورة استعمالا على قلم خير الدين التونسي ، وربما كان « للرعية » أسبقية على « الرعايا » ، لأنه اذا كانت صفحات المقدمة تجعلهما متساويتين في المعنى في كثير من المواضع [٣٥] ، الا أن « الرعية » تمتاز بأنها تساوي « العبيد » [٣٦] ، وتساوي « الأمة » [٣٧] « الأهالي » وتساوي [٣٨] ، « العامة » [٣٩] .

وفيما يخص المصطلحات التي يبدو أن خير الدين أخذها عن المصطلح الفرنسي أو عن مصطلح « تخليص الابريز » لرفاعة الطهطاوي والذي يعرفه التونسي [٤٠] ، فربما كان أكثرها استحقاقا بالاهتمام هو « العامة » ، الذي يدل على معنى « الجمهور » ، بل قد يؤدي معنى « الشعب » حين يأخذه المؤلف من مصادر فرنسية [٤١] ، ولكن كلمة « العامة » قد تؤخذ بمعناها العادي [٤٢] ، وهو محتقر الى درجة ما ، أو هو سيء صراحة . فهو يقول مثلا عن التنظيمات السياسية الجديدة في الدولة العثمانية ان « العامة في مبدأ الأمر أنكرت تلك التنظيمات انكارا كليا حتى ظهر في بعض جهات المملكة مبادىء الاضطراب » ، والسبب هو أن

---

(٣١) ص ٤١ .
(٣٢) ص ١٠ .
(٣٣) ص ١٠ .
(٣٤) ص ١٠ .
(٣٥) مثلا ص ٨٨ .
(٣٦) ص ٢١ .
(٣٧) ص ١٧ .
(٣٨) ص ٨٨ .
(٣٩) ص ٣٤ .
(٤٠) ص ٦٩ ، وهو يسمي الطهطاوي « بالشاب البارع » .
(٤١) يقول « الاهالي بتشويد طائفة من أهل المعرفة والمروءة ، تسمى عند الاوروباويين نواب العامة ، وعندنا بأهل الحل والعقد » ، ص ٧٥ .
(٤٢) ص ٣٤ ، ٨٨ .

بعض الولاة « دسوا للعامة من قول الزور والغش مايغرهم منها »[٦٣] . كما أنه يعود في نص آخر ليستخدم تعبيري « العامة » و « جفاة الأهالي » في سطرين متتاليين[٦٤] .

ويظهر من كل ماسبق أن خير الدين التونسي يجدد في المصطلح السياسي ، اما باستخدام اصطلاحات جديدة واما باعادة تقويم مصطلحات قديمة ، وذلك في نفس الوقت الذي نشهد فيه عنده استمرارا للتراث الاصطلاحي الرئيسي في نظرية الامامة الاسلامية .

والسؤال الآن هو : هل يوجد في مصطلح خير الدين التونسي وفي نظام فكره ، إن أمكن استخدام هذا التعبير ، مكان لما يقابل مصطلحنا الحالي « المواطن » ؟

يظهر من استعراضنا لأهم مصطلحات خير الدين التونسي أن أقربها ظاهريا الى كلمة « مواطن » هو تعبير « محب الوطن » ، ولكننا رأينا مدى خصوصية هذا التعبير الى حد لايجعل منه اصطلاحا بالمعنى المعتاد ، كما أشرنا الى أنه يدل في الواقع على خير الدين التونسي نفسه . فالنتيجة الأولى اذن هي أنه لايوجد في مصطلح التونسي مقابل لاصطلاح « المواطن » . ولكن النتيجة الثانية أهم بكثير ، ويمكن وضعها على النحو التالي : لم يكن من الممكن أن يظهر عند خير الدين التونسي مقابل لمصطلح « المواطن » . ذلك أن هذا المفهوم هو مفهوم فردي في المحل الأول ، ومكانه نظرية سياسية تأخذ بتقديم الفرد ، وبأن الشعب هو مصدر السلطات ، وأن هدف التنظيم السياسي هو خدمة أعضاء المجتمع ، بحيث أن « الدولة » مفهوم تابع لمفهوم المجتمع الذي يتكون في النهاية من أفراد ، هم المواطنون ، وبهذانكاد نقترب بالفعل من القول بأن الدولة هي التي في خدمة المواطن ، وانه أساس ، وهي فرع . ولكن كل هذا لم يكن موقف التونسي ، ولم يكن يمكن أن يكون موقفه ، كما لم يكن يمكن أن يكون موقف النظرية السياسية التي تدور كلها حول الإمامة ، وبالتالي حول الحاكم ، وتدور حول الدولة وليس حول المحكومين ، الذين هم مجرد رعية ورعايا ، والذين كانت ترى فيهم إما مؤمنين وإما أهل ذمة فالرعايا في المحل الأول ينتمون الى دين ما ويعاملون على أساس انتسابهم الديني ، فالاصل هو الانتماء الديني ، وليس الانتماء السياسي أو الوطني كما سيظهر شيئا فشيئا مع رفاعة الطهطاوي .

وقد سبق أن أشرنا الى أن التونسي لايفكر الا للدولة العثمانية ، وبالتالي فانه لايفكر لما نسميه « الشعب » ، وحتى حين يذكر الرعايا والأهالي والسكان ، فانه يذكرهم من أجل التنبيه على بعض حقوقهم ، نعم ، ولكن على الأخص من أجل التنبيه على واجباتهم في العمل وتعضيد الدولة بشتى السبل ، فالدولة هي الاساس وهي بؤرة الاهتمام . لقد كان من الطبيعي أن يكون خير الدين التونسي جمعي النظرة وليس فرديا ، « وجمعيته » هي من وجهة نظر الدولة وليس من وجهة نظر المجتمع ذاته؛ فهو يتكلم عن الأمة وعن العباد ، ولكن لامكان عنده للأفراد من حيث هم كائنات مستقلة الارادة من مجموعهم تتكون الجماعات الأمة ، انما الأمة عنده هي ذلك الكائن الجمعي القاهر والسابق في وجوده وجوهره على الافراد والمستقل عنهم ، بل هو منتجهم وموجههم . وقد سبق أن ألمحنا الى أن مفهوم « الدولة » يسيطر على مفهوم الأمة ،

---

(٦٣) ص ٧٤ .

(٦٤) ص ٨٨ .

وكأن الأمة الحقة هي ماتُعبر به سلطة الملك عن ذاتها . وهكذا فلا مكان عند التونسي للنظرة الفردية ولامكان لمفهوم الفرد ولالمفهوم المواطن .

صحيح أنه يهتم أحيانا بالرعايا في « مفردهم وجمهورهم » [٦٥] ، وبالانسان بعامة أي مايقرب من « الشخص » [٦٦] ، ولكن ذلك الانسان ليس المواطن على أي حال . ان ذلك الأنسان الذي يتحدث عنه خير الدين انما هو بالكلية « رعية » ، ولن نقول عبدا وعبيدا [٦٧] ، وليس مواطنا ، أي أن التونسي ينظر اليه من وجهة نظر الحاكم ، وليس في ذاته ، ولاحتى من وجهة علاقته مع زملائه الآخرين (وهو مايميز بالضرورة مفهوم المواطنة ، فالمواطن مواطن بالقياس الى آخرين ، أما الرعية فانها كذلك بالقياس الى الحاكم) . ان من أساسيات النظرة الدينية أن تكون جمعية لافردية ، ولهذا فان خير الدين يتمنى أن « يكون الجميع كالشخص الواحد » [٦٨] ، أي أن تمحق الفروق الفردية الى أقصى حد ، بحيث لايبقى الا الكائن الجمعي . ان فكرة المواطنة تتضمن فكرة المبادرة الفردية وتتضمن النظرة ابتداء من أسفل التكوين السياسي الى أعلاه . ولكن ما أبعد المبادرة الفردية عن جوهر النظرية السياسية التقليدية ، فحتى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سيكون في النهاية ، ليس في يد أول مار في الطرقات ، بل في يد أهل الحل والعقد ، وهم قلة تابعة للحاكم في واقع الأمر ، الا من ندر ، وستكون وظيفتهم فرض كفاية لافرض عين ، حيث يقول التونسي ، وهو بصدد الحديث عن النظم الأوربية : « الاهالي ينتخبون طائفة من أهل المعرفة والمروءة تسمى عند الأوروباويين بمجلس نواب العامة ، وعندنا بأهل الحل والعقد ، وان لم يكونوا منتخبين من الاهالي . ذلك أن تغيير المنكر في شريعتنا من فروض الكفاية ، وفرض الكفاية اذا قام به البعض سقط الطلب به عن الباقين . واذا تعينت للقيام به جماعة صار فرض عين عليهم بالخصوص » [٦٩] .

ومن جهة أخرى ، فان النظرية التقليدية لاتبدأ من أسفل السلم السياسي ، أي من القاعدة السياسية التي هي البشر أعضاء المجموعة ، بل من أعلاه ، أي من الأمة ومن الدولة ومن الامام أو الوالي الحاكم ، بل هي تبدأ في الواقع من أعلى من ذلك : من الألوهية ذاتها التي وضعت الشريعة المقدسة ، بحيث أن القول « بالأمة » في اطار النظرية التقليدية يفقد كثيرا من مضمونه ، لأن تلك « الأمة » ليست مصدر السلطات ، بل هي الجسد الذي تنفذ عليه وفيه أفعال السلطة .

رفاعة رافع الطهطاوي
(١٨٠١ - ١٨٧٢م)

١ - ماهي المشكلة ؟

يمكن أن نقول ان المشكلة الكبرى التي أراد رفاعة الطهطاوي معالجتها هي مشكلة التنظيم الاجتماعي الجديد الذي يريد اقتراحه على « أهل وطنه » بما يتناسب احتياجات العصر ، التي لاتتمثل في ضرورة

(٦٥) ص ٤٣ .
(٦٦) مثلا : « حفظ حقوق الانسان في نفسه وعرضه وماله » .
(٦٧) ص ١٠ ، ٢١ .
(٦٨) ص ٤٠ .
(٦٩) ص ٧٥ .

محاكاة أوربا وحسب ، بل وكذلك في ضرورة الوقوف في وجهها . ويناسب تصورات الطهطاوي الشخصية ، التي توصل اليها بما شاهد وقرأ عن فرنسا ، وبتأمله في كل ذلك وفي تاريخ مصر وبلاد الاسلام وفي حال الانسان بصفة عامة ومكانه في الكون[٧٠] .

والفكر السياسي جزء من الفكر الاجتماعي ، ولهذا كان تناول الطهطاوي لأفكار مثل الأمة والوطن ذا طبيعة سياسية واجتماعية ، خاصة وأن المنتشر في التقليد النظري الاسلامي ، والذي قبله الطهطاوي واعيا ومجددا في مضمونه ، هو أن الغاية من السياسة (وان كانوا قد يقولون « الولاية » أو «الحكم» أو «التدبير») هي رعاية أعضاء المجتمع (وكانوا يقولون «الرعية» و «الرعايا» ، وسيقول هو « الأهالي » و « الهيئة الاجتماعية » و « الجمعية » ...) . ولاينحصر الجديد الهام الذي أتى به الطهطاوي في مضمون لم تألفه الأفكار ، وإن غلف بعبارة قد تبدو أحيانا تقليدية ، ولافي أسلوب في التصور والتعبير وترتيب في العرض تبدو من ورائه فطنة تجسد من خلال رفاعة ثاقبة النظرة عند شعب عايش التاريخ كله وبقي فوقه ، بل يظهر التجديد أيضا في أن رفاعة الطهطاوي حدد لنفسه ، وربما منذ « تخليص الابريز » ذاته ، الجمهور الذي يتحدث اليه ، والأمة التي يفكر لها ، والوطن الذي يبغي نفعه : انه أهل مصر والأمة التي تقيم في هذا الوطن . وعلى هذا فلامجال عنده للحديث الى « المؤمنين » عامة ولا الى أهل ديار الاسلام وممالكه ، الا في النادر وقياما بواجبات أقرب الى مراعاة الخواطر منها الى شيء أي آخر .

وقبل أن ندخل في تفصيل الاصطلاح السياسي العام عند الطهطاوي ، ومفهومي الأمة والوطن على الأخص ، نشير الى أن فكر رفاعة ماهو الا لحظة على طريق تكون المصطلح العربي الحديث والفكر المستعرب الحديث . واللحظة الطهطاوية ذاتها لحظة متحركة ، « فالتخليص » يقف وحده وعلى حدة أحيانا كثيرة ، وفي « المناهج » ذاتها لحظات يحس القارىء أن بعضها يشكل تجريبا أو يشكل قفزة بالقياس الى البعض الآخر ، كما أن دراسة المصطلح الطهطاوي لن تكتمل الا بالتنبه الى فحص عدة أشياء معا ، الى جوار كتبه الرئيسية (تخليص الابريز في تلخيص باريز ، ١٨٣٤ ، مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية ، ١٨٦٩ ، المرشد الأمين للبنات والبنين ، ١٨٧١) وهي :

١ ـ ترجماته من الفرنسية وترجمات تلامذته .

٢ ـ الأصول الفرنسية التي يحتمل أن يكون الطهطاوي قد استقى منها مواضيع مؤلفاته .

٣ ـ كتاباته الأخرى في التاريخ والمسائل الدينية وغيرها . ونشير كذلك الى أن دراسة الاصطلاح عند الطهطاوي ينبغي أن تتم بعد التنبه الى أهدافه العامة كمفكر ، والى نوع ثقافته السياسية بعامة ، والى طبيعة حركتي أهل مصر من جهة والولاة العلويين (وخاصة محمد علي واسماعيل) من جهة أخرى ، والى اجتماع أغراض الطرفين في وضوح حول انتزاع مصر شيئا فشيئا من قبضة السيطرة العثمانية ، حتى لو كانت اسمية .

٢ ـ المصطلح السياسي عند الطهطاوي

يمكن أن تقسم التعبيرات ذات الطابع الاصطلاحي عند رفاعة الطهطاوي وفي كتبه الثلاثة المشار اليها الى

(٧٠) أنظر مثلا « تخليص الابريز » ، ١٨٤٩ ، ص ٥-٦ (وسنكون كل إشارتنا الى كتبه الى الطبعات الأخيرة الأصلية في حياة الطهطاوي ذاتها) .

مجموعات ثلاث . المجموعة الأولى تخص أعم الأطر للاجتماع الانساني ، وفيها نجد : الخلق ، الجمعية التأنسية ، التأنس العام ، وقد تضم اليها كلمات : الانسان والشخص والجنسية .

المجموعة الثانية تخص الاطار الفوقي للتنظيم السياسي ، وفيها نجد : الدين ، الاسلام ، يد الاسلام ، أمم الاسلام ، ممالك الاسلام ، ديار الاسلام ، البلاد الاسلامية ، الدولة المصرية ، الحكومة المصرية ، مصر ، القطر المصري ، بلاد مصر ، الديار المصرية ، الأقطار المصرية ، بر مصر ، الدولة ، المملكة ، السلطنة ، الملك ، النظام المدني ، الأمة .

المجموعة الثالثة تخص الاطار التحتي للتنظيم السياسي : الرعية ، أبناء الرعية ، عموم الرعية ، الرعايا ، الملة ، الجمعية ، جمعية المملكة ، أعضاء الجمعية ، أفراد الجمعية ، الهيئة الاجتماعية ، الأهالي ، أهالي المملكة ، أبناء الأهالي ، الأهلية ، الوطنية ، أبناء الوطن ، أهل الوطن ، أهل الاستيطان ، أهل مصر ، الرأي العمومي ، السواد الأعظم ، العامة ، الناس ، الوطن ، البلد ، الشخص من الاهالي ، الوطني ، البلدي ، المستوطن ، المستوطنين ، الأمة ، الأمة الواحدة ، الأمة المصرية .

وأهم مانلاحظه على الفور ، وبالمقارنة مع خير الدين التونسي ، هو وفرة الاصطلاح الطهطاوي من جهة ، وبعده الى حد كبير نسبيا عن التمثل الديني التقليدي للمصطلح ، من جهة أخرى ، فمعظم الكلمات التي ذكرناها هي كلمات « عصرية » . وسنفحص أهم اصطلاحات الطهطاوي ، وعلى الأخص « الأمة » و « الوطن » ، في حينها بالتفصيل ، وسنشير خلال سيرنا الى بعض من المصطلحات الأخرى مما يناسب المقام .

٣ – من تصور ديني عام الى تصور مدني حول طبيعة الاجتماع وأهدافه

قبل أن نأخذ في النظر الى موقف الطهطاوي من الأمة والوطن ، يحسن أن نشير الى الاتجاه العام له ، فهو مرحلة انتقال واعية من التصور الديني الى التصور المدني أو العلماني لطبيعة الاجتماع وأهدافه . والطهطاوي منظم الفكر ، يحاول قدر جهده ادخال الجزء في الكل ، ولذلك فانه يعاود الكلام عن « الخلق » ككل ومن البشر في مجموعهم (٧٠ مكرر) . ومهما يكن من رجوعه الى صياغات وأطر دينيه ، فان المغزى العلماني واضح ومؤكد ومنذ « التخليص » ذاته . ولم يكن من الممكن للطهطاوي أن يبتعد عن النموذج الديني التقليدي مرة واحدة ولاصراحة ، وانما هو يفعل ذلك ضمنا وعمليا ، مع الاعتراف بأساسيات دينية من وقت لآخر (مثل التأكيد على أن الانسان مخلوق للاله وأن الاله هو الذي يأمره وينهاه (٧١) ، أو بأساسيات في الثقافة التقليدية (مثل تقسيم الانسان الى جسم وعقل وتفضيل الثاني على الأول (٧٢)) ، بل هو كثيرا مايستعين بالفكرة الدينية لتأييد مقصد علماني .

(٧٠) مكرر انظر « تخليص الابريز » ، ص ٥ – ٦ ، ١٩ ، « المناهج » ، ص ٦ ، ١٤ ، « المرشد الأمين » ، ص ٦٢ وما بعدها ، وخاصة ص ٦٨ – ٦٩ .
(٧١) المرشد الأمين ، ١٨٦٩ ، ص ١٥
(٧٢) المرشد الأمين ، ص ٢٣ .

ونشير الآن بايجاز كبير الى أهم مظاهر التجديد العلماني في نظرة الطهطاوي الى طبيعة الاجتماع وأهدافه :

١ ـ يؤكد الطهطاوي ، في داخل الصياغة الدينية لتصور مكان الانسان في الكون ، على أن الاجتماع الانساني ظاهرة « طبيعية » [٧٣] .

٢ ـ يصبح هدف الاجتماع الانساني عند رفاعة هو السعادة التي يرد ذكرها مرارا عنده ، مثلا : « الجمعية التأنسية مائلة الى الحصول على السعادة » [٧٤] .

٣ ـ ويتصل بالتأكيد على السعادة التأكيد على أهمية الثروة ، ولاُتفهم أهمية هذا التجديد الا بالنظر الى اتجاهات الدعاوى التصوفية الى نبذ الاهتمام بالدنيا ، والتي سادت خلال العصر العثماني كله ولمصلحة الطبقات السائدة والمسيطرة .

٤ ـ ويتصل بهذا وذاك هجوم الطهطاوي على الكسل ودعوته العمل .

٥ ـ وهو يؤكد أيضا على فكرة المصلحة وعلى وجوب اتخاذها مرشدا الى جوار أوامر الدين .

٦ ـ وربما كان الطهطاوي أول من وعى فكرة « التقدم » في عالم الكتابة بالعربية ، ويتصل بهذا تأكيده على فكرة « النهضة » ايضا [٧٥] .

وهو لهذا ياخذ جانب فكرة « الحركة » ضد فكرة السكون بصفة عامة .

٨ ـ ويؤكد في ميدان العلاقات الاجتماعية على مايسمى اليوم بالجانب الديناميكي في الحركة الاجتماعية .

٩ ـ ومن أهم مظاهر ذلك تأكيده المتكرر على وجوب توفر عنصر «المبادرة» عند الأهالي في ميدان «المنافع» ، دون انتظار لما تفعله السلطة .

١٠ ـ وهو يدعو الى وجوب إيجابية الحكومة في ميدان المنافع العامة ، وذلك بالنظر الى سلبية الحكم المملوكي في ميدان أداء وظائف الحكومة المركزية

١١ ـ وربما كان الطهطاوي يستحق في القرن التاسع عشر الميلادي لقب «مفكر المستقبل» ، فنظره الأول ينصب على المستقبل لا على الماضي .

١٢ ـ وهو لذلك يرفض صراحة احترام التقليد لمجرد أنه التقليد ، ويدعو الى الاجتهاد ، أي الى التجديد .

١٣ ـ ولذلك فانه يعلي أيضا من شأن الفكر العقلي الى جوار الفكر الديني .

١٤ ـ ونجد عند رفاعة الطهطاوي حسا شديدا بأهمية الجماعة ، وربما كان هذا تجديدا هاما في إطار ثقافة تتحدث كثيرا عن المؤمنين كجماعة ولكنها لا تضع في العمل أي تنظيم فعلي للحركة الاجتماعية للجماعة من حيث هي جماعة .

١٥ ـ وقد تظهر الدراسة الدقيقة للفكر السياسي عند الطهطاوي أنه يقدم المجتمع على الدولة على نحو ما .

١٦ ـ ومن حيث الفرد الانساني ، فان رفاعة هو من اول من أكدوا على أنه عنصر المجتمع الحقيقي .

١٧ ـ وعلى الأقل فانه واضح الاهتمام بكرامة الشخص الانساني [٧٦] .

---

(٧٣) المرشد الامين ، ص ٣٩ ، ٨٨ ، ٦٨ .

(٧٤) المرشد الامين ، ص ٩٩ .

(٧٥) مناهج الألباب المصرية ، ١٨٧٢ ، ص ١٣ .

(٧٦) مثلا «المرشد الامين» ، ص١٢٨ .

١٨ ـ ونشير أخيرا الى وجود إشارات قليلة عند الطهطاوي ، ولكنها واضحة جدا ، وتنبىء باهتمامه بالطبيعة الخارجية ، وبأن علاقة الانسان معها أساسية . وكان إهمال الطبيعة من أهم مميزات الثقافة التقليدية .

٤ ـ وحدة الاجتماع الأساسية

يمكن تلخيص أهم مظاهر التجديد عند الطهطاوي بخصوص هذا الموضوع في النقاط الثلاث التالية :

١ ـ يختفي عنده عمليا ، أو يتوارى على الأقل ، مفهوم «الأمة الاسلامية» .

٢ ـ ويحل محله مايمكن تسميته بمفهوم «الأمة المدنية» .

٣ ـ ولكن مفهوم «الأمة» متصورا على الطريقة المدنية لايحتل المكانة الأولى في نظام الطهطاوي ، بل يأتي أولا «مفهوم الوطن» .

ومما هو ذو دلالة عظيمة أن كلا التعبيرين ، «الأمة» و«الوطن» ، لايظهران على الاطلاق في «تخليص الابريز» ، بل تظهر وحسب تعبيرات مثل «الرعية» و«الملة» و«أهل مصر» و«أهل الاستيطان» . ويستخدم الطهطاوي ، في كتابيه الأخرين ، تعبير «الأمة» أحيانا في أعم معانيه المأخوذة عن التراث ، كما يظهر مثلا في الآية القرآنية : «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة» . ولكن الغالب أنه يستعملها بمعنى المجموعة السكانية التي ترتبط برباط السكن المشترك على الأخص ، فهي تؤدي معنى «النوع الانساني في مصر» الذي يستخدمه حرفيا[77] (وان كان هذا التعبير يأتي في إطار نص مترجم عن الفرنسية يثبته رفاعة ليرد على مجمل قضيته) ، أو هي مساوية «للملة» ، حيث نراه يقول «الأمة المصرية»[78] (وهذه هي المرة الوحيدة على مانعرف التي يأتي فيها هذا التعبير في كتبه الثلاثة الرئيسية) ، بعد أن قال «الملة المصرية»[79] و«أبناء الاوطان»[80] . وربما كان التعريف الصريح الوحيد للأمة عنده هو مايظهر في قوله : «القرية المجتمعة يحق الأمة بتمامها»[81] . ولكن يبدو أن المعنى الأغلب عند الطهطاوي هو هذا المعنى الأخير : «أبناء الوطن» ، حيث يربط بين أهم الاصطلاحات عنده في هذين النصين الجامعين من «المرشد الأمين» : «قد اقتضت حكمة الملك القادر الواحد أن أبناء الوطن دائما متحدون في اللسان وفي الدخول تحت استرعاء ملك واحد والانقياد الى شريعة واحدة وسياسة واحدة . . . . فكأن الوطن انما هو منزل آبائهم وأمهاتهم ومحل مرباهم ، فليكن أيضا محلا للسعادة المشتركة بينهم ، فلا ينبغي أن تتشعب الأمة الواحدة إلى أحزاب متعددة . . . .»[82]

«والملة في عرف السياسة كالجنس : جماعة الناس الساكنة في بلدة واحدة تتكلم بلسان واحد وأخلاقها واحدة وعوائدها متحدة ، ومنقادة غالبا لأحكام واحدة وتسمى بالأهالي والرعية والجنس وأبناء الوطن .

(٧٧) «مناهج الألباب» ، ص١٩٥ .
(٧٨) «مناهج الألباب» ، ص١١٥ .
(٧٩) «مناهج الألباب» ، ص١٦٢ .
(٨٠) «نفس المرجع» ، ص١٦٣ .
(٨١) المرشد الأمين ، ص٦ وراجع أيضا مناهج الألباب ، ص٦ ، ٦٠ ، ٨٢ ، ٢١٥ .
(٨٢) المرشد الأمين ، ص٩٣ .

وينبغي أن تكون الأمة المستحقة لأن تتصف بهذه الصفات وتتلقب بهذه الاسماء ذات شهامة وشجاعة وذكاء ، وميل إلى حب المجد والفخار وشرف العرض ، تحب حريتها وتتولع بقوة رئيس دولتها وتنقاد لقوانين مملكتها وسياستها . ولا جائز أن تستغني الأمة عن رئيس يحسن سياستها وتدبير مصالحها ، فبدونه لا تأمن على التمتع بحقوقها المدنية ومزاياها البلدية» .(٨٣)

والوطن كما يظهر من هذين النصين هو للوطن في المحل الأول ، وقد ظهر في «التخليص» تعبير «أهل الاستيطان»(٨٤) . ويعرف «المرشد الأمين» مفهوم الوطن تعريفا صريحا فيقول : «الوطن هو عش الانسان الذي فيه درج ومنه خرج ومجمع أسرته ومقطع سرته وهو البلد الذي نشأته تربته وغذاه هواؤه ونسيمه»(٨٥) . كما يربط «مناهج الألباب» بين الوطن والمواطن صراحة : «لاسيما اذا كان الوطن منبت العز والسعادة . . . كديار مصر فهي أعز الأوطان لبنيها»(٨٦) . ويدل على معنى الوطن قوله أيضا : «الأمة المقيمة في الوطن»(٨٧) ، ويؤيد هذا تعبيره المتكرر : «أهل الوطن» و «أبناء الوطن» . ولكن رابطة الوطن ليست محض الناتج من إضافة فرد الى فرد ، بل هي تؤدي الى كيان جديد حاول الطهطاوي استكشافه في تعبير مثل «الأخوة الوطنية»(٨٨) ، ومثل «العائلة الواحدة»(٨٩) .

ولكن الطهطاوي يبدو أحيانا وكأنه يريد أن يجعل من الوطن رابطة السكان المرتبطين برباط الجنس . فيقول مثلا في المناهج : «الملة المتمدنة التي تسمى باسم دينها وجنسها لتتميز عن غيرها»(٩٠) ، كما يقول نفس الكتاب صراحة مرتين : «علقة القسم الجنسية» ، وهو بسبيل رفض أن يكون لفرنسا زعم التدخل لإصلاح شئون مصر على ماأراد بونابرت أن يقنع المصريين ، وكما سيقول فرنسيون من بعده .(٩١) وعلى هذا فان رابطة الوطن بصفة عامة هي اما السكن (أو «المولد» كما يقول رفاعة) ، واما الجنس ، وقد يجتمعان معا كما يظهر في هذا النص الهام : «ومايتمسك به أهل الاسلام من محبة الدين والتولع بحمايته مما يفضلون به عن سائر الأمم في القوة والمنعة يسمونه (أي الأوروبيون) محبة الوطن . على أنه عندنا معشر الإسلام «حب الوطن» شعبة من شعب الايمان وحماية الدين بجمع الأركان . فكل مملكة إسلامية وطن لجميع من فيها من الاسلام ، فهي جامعة للدين والوطنية ، فحمايتها واجبة على بنيها من هاتين الحيثيتين ، وانما جرت العادة بالاقتصار على الدين لقوة أهميته مع إرادة الوطن . وقد تكون الغيرة على الوطن الخصوصي محضة

(٨٣) المرشد الأمين ، ص٩٥ - ٩٦ .
(٨٤) تخليص الابريز ، ص٣٢ .
(٨٥) المرشد الأمين ، ص٩٠ .
(٨٦) «مناهج الألباب» ، ص١١ .
(٨٧) المرشد الأمين ، ص١٢٤ .
(٨٨) «مناهج الألباب» ، ص٦٦ .
(٨٩) المرشد الأمين ، ص٩٣ .
(٩٠) «مناهج الألباب» ، ص٦ .
(٩١) «مناهج الألباب» ، ص١٩٦ .
(٩٢) «نفس المرجع» ، ص١٩٥ - ١٩٦ .

لمجرد الجنسية والنزلية ، كالقبسي والبيالي والمصري والشامي ، مع أن الوطن يستوي فيه النوع الانساني»[٩٣] .

وينبغي أن نفهم هذا الموقف على ضوء حركة مصر في عصر اسماعيل حيث ظهرت إرادة الوطنية التي يجمع فيها المصري «الفلاح» والمصري المشترك (أتراك ، شركس ، . . . .) ، والمصري المسلم والقبطي واليهودي .

وفي بعض النصوص النادرة يستخدم الطهطاوي كلمة «الوطن» لتدل على تصور جديد ومختلف يؤدي معنى «الذات القومية» كما قد نقول اليوم ، ومن ذلك مثلا قول الطهطاوي عن المنافع أن «بها يترقى الوطن»[٩٤] ، وكان المعتاد أن يقال «بها يترقى أهل الوطن» . ونشير أخيرا الى وعي الطهطاوي بالصراع العميق ، وان كان نادرا مايظهر على السطح مباشرة تفاديا للمجابهة ، بين الوطن والدين ، وهو ما يظهر من نص «المرشد الأمين» المذكور . ونلاحظ أن الطهطاوي لايختار بين الحدين ، بل يجمع بينهما ، وان كان الحد الذي يدافع عنه هو الوطن ، لأنه هو المفهوم الجديد . يقول : جميع مايجب على المؤمن لأخيه المؤمن منها (من مكارم الأخلاق) يجب على أعضاء الوطن في حقوق بعضهم على بعض ، لما بينهم من الأخوة الوطنية فضلا عن الاخوة الدينية . فيجب أدبا (على) من يجمعهم وطن واحد التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه»[٩٥] .

وكما أشرنا من قبل فان الجديد حقا عند الطهطاوي هو التحول من مفهوم الأمة الدينية الى الأمة المدنية والى مفهوم الوطن ، ولكن ربما كان التجديد الأعظم هو تأكيده العظيم على مفهوم «مصر» . وهو يستخدم تعبيرات «بلاد مصر» و«الاقطار المصرية» و«مملكة مصر» و«القطر المصري» و«البلاد المصرية» ، ولكنه يستخدم كذلك «مصر» بإطلاق وأحيانا مايقول «مصرنا» . ومصر «وطن شريف»[٩٦] ، وهي «أعز الأوطان»[٩٧] ، وهي «أم لساكنيها»[٩٨] و«ديار مصر سبقت جميع الأمم بالمآثر الغريبة» ، وهي «قائمة في المآثر جاهلية وإسلاما ولها أسبقية التمدن قديما وحديثا ، والآن تنافس الممالك الأخرى في الفنون والصنائع»[٩٩] ، حيث اجتمعت لها وسيلتا التمدن ، وهما : «تهذيب الأخلاق بالآداب الدينية والفضائل الانسانية»[١٠٠] و«المنافع العمومية التي تعود بالثروة والغنى وتحسين الحال وتنعيم البال على عموم الجمعية» ، وعلاماته الثلاث التي هي : «حسن الإدارة الملكية والسياسة العسكرية ومعرفة الألوهية»[١٠١] وهي

---

(٩٣) المرشد الأمين ، ص١٢٤ - ١٢٥ .
(٩٤) «مناهج الألباب» ، ص١٦ - ١٧ .
(٩٥) «مناهج الألباب» ، ص٦٦ - ٦٧ . وفي ترجمة الدكتور أنور عبدالملك في كتابه الفرنسي Ideologie et renaissance national ، باريس ، ١٩٦٩ ، ص٢٢٧) لهذا النص مايعطي معنى أن الاخوة الوطنية أعلى وأقوى من الاخوة الدينية ، وواضح أن هذا ليس هو المقصود ، ومصدر اللبس هو ترجمة سريعة غير دقيقة لتعبير «فضلا عن» .
(٩٦) المرشد الأمين ، ص٩١ - ٩٢ .
(٩٧) «مناهج الألباب» ، ص١١ .
(٩٨) المصدر السابق .
(٩٩) «مناهج الألباب المصرية» ، على التوالي : ص٨٣ ، ص١٥ - ١٦ .
(١٠٠) «مناهج الألباب» ، ص٥ - ٦ .
(١٠١) نفس المرجع ، ص١١٨ .

بلد العلم والحكمة»[102] ، وكانت دولتها القديمة دولة فاضلة»[103] ، وعادلة»[104] ، ومحروسة مستنيرة بالمعارف .»[105] وهي «بر البركة»[106] وفيها «خزائن الأرض»[107] وهي مستحقة بر بنيها ، «الذين هم أرباب قرائح ذكية وحافظتهم قوية ، متى قصدوا شيئا تعلموه في أقرب وقت وزمان ، وكم قام على قابليتهم واستعدادهم لعظائم الأمور أعظم برهان» .[108]

ومن المعروف أن رفاعة الطهطاوي هو أول مكتشف مصري حديث لتاريخ مصر القديم ، وذلك منذ كتابه الأول ذاته ، «تخليص الابريز» . ولكن أهم مايميزه في هذا الصدد هو أنه يضيف الى ذلك إحساسا بامتداد مصر المتصل عبر التاريخ ، وفي الماضي والمستقبل ، كما تشهد بذلك كتبه الثلاثة وغيرها . وربما كان قمة مشاركاته في هذا الميدان تصويره لمصر وكأنها ذات ترتفع فوق مفهوم الوطن ومفهوم الأهالي ، وإن كان لايتحدث الا مرة واحدة ، كما أشرنا ، عن «الأمة المصرية» . ومن التعبيرات التي نجدها في «مناهج الألباب المصرية» والتي قد تشهد على وجود تصور لمصر ذاتا عنده : «عاد لمصر عزها القديم» («مناهج الألباب» ، ص ٢) ، «كان [محمد علي] من أعظم الأعوان والأنصار لمصر في رفع التكاليف الشاقة . . . فقصد إعادة فضيلة مصر على سائر الأمصار» (ص ٣٠) ، «والقوة الحاكمة العمومية . . . هي . . . كالوصي على مصر وعلى جميع الرعية» (ص ١٥٥) ، «ضعفت الأمة المصرية . . .» (ص ١٦٥) ، «ومطمح نظر مصر الآن التبصر في تكميل وسائل التمدن» (ص ٢٣٠) ، وغير ذلك من التعبيرات .

٥ ـ العنصر البشري

يختفي تماما عند الطهطاوي ، ومنذ كتابه الأول ، تعبير «المؤمن» و«المؤمنين» ، اللهم الا في نصوص دينية تكاد تنحصر في حديثين للرسول (صلى الله عليه وسلم) «المؤمن أخو المؤمن» ، و«المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص . . .» ، وهذه النصوص الدينية لاتذكر إلا في إطار أخلاقي وليس في إطار سياسي على الإطلاق . وقد سبق أن أشرنا الى أهم اصطلاحات الطهطاوي في هذا الميدان ، وأظهرها عنده : «الرعية» وعلى الأخص «الأهالي» الذي يتصدر اصطلاحات كتابي «المرشد الأمين» و«مناهج الألباب المصرية» في جملتها ومنظورا اليها من هذه الزاوية . ولكن ربما كان الجديد في مصطلح الطهطاوي هو الكلمات المتصلة بمفهوم «الوطن» ، فتجد عنده : «أهل الاستيطان» منذ «تخليص الابريز»[109] ، «أهل الوطن» و«ابناء الوطنية» و«الأهلية» ، واصطلاحا «المتوطن» و«المتوطنين» ، وان لم يذكرا الا نادرا[110] ، ولا يظهر عنده بعدُ لفظ «المواطن» . ويظهر عنده أيضا ، في «مناهج الألباب

(١٠٢) نفسه ، ص١١ .
(١٠٣) نفسه ، ص١٢٣ .
(١٠٤) نفسه ، ص١١٩ .
(١٠٥) نفسه ، ص١٢٠ .
(١٠٦) نفسه ، ص١١ .
(١٠٧) نفسه ، ص١٢ .
(١٠٨) «مناهج الألباب» ، ص١٩٥ .
(١٠٩) تخليص الابريز ، ص١٠٩ .
(١١٠) «مناهج الألباب» ، ص٩ ، ٢٣٢ .

المصرية» ، تعبير جديد هو «الرأي العمومي»[111] . وبصفة عامة فان اصطلاحات الطهطاوي في هذا الميدان تبتعد بشكل واضح عن التأثير الديني التقليدي ، اللهم إلا مع عبارات مثل «الرعية» و «العباد» (وهو تعبير لايذكر الا نادرا[112]) . ويتميز كتاب «المرشد الأمين» بالحديث عن «الوطني» ، فيقول في نص هام : «ابن الوطن المتأصل به أو المتجع اليه الذي توطن به واتخذه موطنا ينسب اليه تارة الى اسمه ، فيقال مصري مثلا ، أو الى الأهل ، فيقال أهلي ، أو الى الوطن ، فيقال وطني ، ومعنى ذلك أنه يتمتع بحقوق بلده» .[113]

ولكن علينا أن نلاحظ أن الطهطاوي كثيرا مايلجأ الى استخدام تعبير «الانسان» بصفة عامة ، كما هو الحال مثلا في الفصل الثاني من الباب الرابع في «المرشد الأمين» ، كما بدأ في استخدام تعبيرات جديدة مثل «كل شخص من الأهالي»[114] أو «كل فرد من أفراد الهيئة الاجتماعية»[115] أو «جميع أعضاء الجمعية»[116] . والطهطاوي في كل هذا هو بحق مستودع لتجريب المصطلحات ، وسيقوم جيل تال بالاختيار بين مقترحاته بعد تعديل عليها وإضافات .

الطهطاوي والتونسي
نظرة مقارنة

لقد جمعنا بين رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي لأكثر من سبب . الأول أنهما يكونان معا الجيل الأول من مفكري الأمة الاسلامية في العصر الحديث ، وهما يشيدان مجال الفكر المكتوب باللغة العربية حتى عام ١٩٧٨ ـ ١٨٧٩ على التقريب ، بغير أن يكون لهما منافس حقيقي في ذلك المجال على الاطلاق .

السبب الثاني والمكمل والمقابل للسبب الأول في نفس الوقت ، هو أنهما ، رغم الصفة الاسلامية التي لايمكن أن تنكر لهما معا (ونشير هنا الى رفاعة على الأخص) ، يمثلان مرحلة أو محاولة من محاولات الانعتاق من إسار التقليد الاسلامي ، إما جزئيا مع خير الدين ، وإما الى حد كبير مع رفاعة) .

السبب الثالث هو أنهما كاتبان مقروءان ومؤثران ، سواء على مستوى توجيه الفكر أو توجيه العمل ، وعلى مستوى الصياغة أو مستوى المضمون . وقد يكون هناك الى جوارهما من المعاصرين ، في الفترة التي أشرنا اليها ، كتاب آخرون ، ولكنهم قد يفتقرون الى طابع الفكر المنظم أو الى الأهمية الفعلية عند القارئين بالعربية في بلاد الاسلام ، فلا يعتد بهم حتى وإن كانت كتبهم قد نقلت إلى لغات أوربية في حينها .

السبب الرابع هو أن خير الدين ورفاعة يجتمعان في أشياء ويختلفان في أشياء أخرى ، وهما يظهران نموذجين للمفكر الكاتب باللغة العربية خلال القرن التاسع عشر الميلادي : نموذج المهتم ببلاد الاسلام أولا وبالدولة الاسلامية ونموذج المهتم بأمة معينة على الطريقة الحديثة وبالوطن الذي تنتمي اليه .

(١١١) «مناهج الألباب» ، ص٣٣٦ .
(١١٢) المرشد الأمين ، ص١٢٨ .
(١١٣) المرشد الأمين ، ص٩٤ .
(١١٤) «مناهج الألباب» ، ص٦١ .
(١١٥) «مناهج الألباب» ، ص٦٢ .
(١١٦) نفس المرجع ، ص٦٠ .
(١١٧) نفسه ، ص٦١ .

وهناك سبب آخر ، وهو أنهما مؤلفان يعرف كل منهما الآخر ككاتب ، فخير الدين يشير الى «تخليص الابريز»[(١٦٨)] والطهطاوي يشير ثلاث مرات على الأقل الى «أقدم المسالك في معرفة أحوال الممالك» ، وظاهر أن كلا منهما يكنُّ كثيرا من الود الفكري والاعجاب للآخر .

ولكن ربما كان الدافع الأساسي وراء اختيارنا لهما هو أنهما يشكلان معا مرحلة من مراحل ثلاث سيمر بها ، ليس الاصطلاح السياسي وحسب ، بل وكذلك اتجاه الأفكار في العالم الاسلامي الحديث بشأن مسائل الأمة والوطن وأعضاء المجتمع ودورهم السياسي . المرحلة الأولى هي التي نحن بصددها مع رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي ، ونسميها مرحلة «الاقتراح» ، حيث تبقى عند المفكر عناصر متعددة من التراث ويقدم هو عديدا غيرها ، متأثرا على الأخص بالتصورات الأوربية ، ولكن الأمور قليلا ما تأخذ في هذه المرحلة شكلا محددا وبيانيا . المرحلة الثانية هي مرحلة «التجريب» ، وهي التي مرت بها الكتابة الفكرية باللغة العربية خلال الأعوام التالية على ١٨٧٨ م ، وخاصة مابين ١٨٧٨ و١٨٨٢ م في مصر ، حيث ظهر عدد وفير من الكتاب ، أهمهم في ميدان الفكر السياسي أديب اسحق وعبدالله النديم ومحمد عبده وحسين المرصفي ، وسيأخذون في انتقاء بعض المصطلحات دون غيرها والتركيز عليها . والمرحلة الثالثة هي مرحلة الاستقرار النسبي للمصطلح السياسي ، وهي التي سيصل اليها قاسم أمين ، وعلى الأخص أحمد لطفي السيد في كتاباته خلال أعوام ١٩٠٧ ـ ١٩١٤ م .

ولكن مرحلة «الاقتراح» لاتعني بالضرورة غموض الهدف . لأن الهدف السياسي والاجتماعي واضح عند رفاعة وعند خير الدين ، وهو عندهما معا : التحديث من القوة (وان كان الاختلاف بينهما سيظهر عند طلب : تحديث ماذا ؟ وقوة من ؟) وهناك ضرورة يتفقان عليها ، وهي : إعادة النظر في مفاهيم التقليد بصفة عامة ، وضرورة الأخذ في الفصل بين ماهو ديني وماهو زمني ، ولن يأخذ هذا عندهما صورة المجابهة ، ولكن يصبح من الواضح أن أصول السياسة الشرعية لاتستمر هي كل شيء ، ويأخذ مفهوم قد يسمى «السياسة المدنية» أو «العقلية» أو «البوليتيقا» أو غير ذلك من الأسماء التي تظهر عند الطهطاوي والتونسي ، يأخذ في الظهور اعتمادا على مفهوم مقبول من ذات التقليد ، وهو مفهوم «المصلحة» . كذلك فان النظر السياسي يتغير أفقه بشكل جوهري بعد إضافة مفهوم السياسة المدنية الى مفهوم السياسة الشرعية ، وارجاع هذا المفهوم الأخير الى مكان الإطار العام جدا لا أكثر ، وكأنه موجه أخلاقي ولا يزيد . يتغير أفق النظر السياسي لأنه يوسع من دائرة نظرية الحكم ليضم اليها المحكومين (على اختلاف تسمياتهم) الى الحاكم ، وليطالب بمشاركتهم الفعلية لا الاسمية في الحكم (على اختلاف في درجة المشاركة وطبيعتها) ، بعد أن كانت النظرية التقليدية لاتنظر عمليا الا الى الحاكم لتصبح وحسب نظرية في «الامامة» .

ومن جهة أخرى يتغير أفق النظر السياسي ليدخل وظائف جديدة على مهام الحاكم أهمها الرعاية الإيجابية لنفع مجموع المحكومين ، والتي تظهر في طلب نشر العمران والمعارف وتشجيع الأهالي على ذلك النشر الى جانب دور السلطة الحاكمة . وليس أدل على ثورية هذا التغير من أن النظرية التقليدية لم تكن ترى من

(١٦٨) «الفذلكة» ، ص٦٩ .

واجبات الحاكم العمل الايجابي على إسعاد أعضاء المجتمع ، بل قصرت مهمته على واجبات ذات طابع سلبي واضح وهو أداء الأمانات الى أهلها والقضاء بين الناس بالعدل ، كما انها لم تكن ترى من دور للرعية الا الطاعة .

ويظهر هذا الموقف على أوضح شكل وأفصحه من أن ابن تيمية يقيم كل رسالته في «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» على آية الأمراء التي تقول : «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . . . يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم» . ويقول ابن تيمية صراحة : واذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات الى أهلها والحكم بالعدل ، فهذان جماع السياسة العادلة والولاية الصالحة[118] . ويرى القارىء لكتابات خير الدين ورفاعة ، على الأخص ، اهتمامها بتحويل «الرعية» من جسد لايتحرك بمبادرة منه الى كيان عضوي فاعل ، على اختلاف بينهما بالطبع في المضمون وفي الدرجة والهدف .

وهناك اتفاق بين الاثنين على أن غاية الاجتماع هو السعادة ، والسعادة في هذه الدنيا ، وهذا مفهوم جديد تماما وثوري بالقياس الى مفاهيم التقليد ،[119] وهو يدل على أن الاطار العام للفكر السياسي والاجتماعي يصبح الانسان في واقع الأمر حتى وان ظهر على مستوى التصريح غير ذلك . وهما يشعران شعورا قويا بفكرة المجموع البشري ، ولكنها لا تأخذ عندهما الا شيئا فشيئا شكل الجماعة المنظمة في حركة الحياة الفعلية والتي هدفها هو «المصلحة العمومية» . ومن المهم أن نلاحظ اختفاء اصطلاح «الجماعة» عمليا عند الاثنين ، بينما كان اصطلاحا تقليديا رئيسيا .

ويرتبط بالانتقال من الإطار الديني الى الإطار المدني ما لاحظنا من اختفاء تعبير «المؤمن» و«المؤمنين» من المصطلح السياسي ، فهذا أمر طبيعي حيث يصبح المجتمع ذا تنظيم يهدف الى مصلحة العموم وإسعاد الأهالي ، فليس عضو الهيئة الاجتماعية عضوا فيها من حيث هو مؤمن يدين بدين الاسلام ، بل من حيث هو مشارك عامل في نشاط الجماعة . ولاختفاء مفهوم «المؤمنين» عند كل من رفاعة وخير الدين أسباب أخرى بعد ذلك متباينة . فرفاعة ، باتجاهه الشخصي كمصري ومتابعةً لاتجاه حاكم مصر في وقته ، لا يهتم الا بأهل المجموعة «الوطنية» التي تعيش في البلاد المصرية ، وهو يدعو دعوة قوية إلى التسامح الديني ، بل وإلى التعايش الديني . أما خير الدين فانه كان يفكر كرجل سياسة ، وكانت المشكلة الكبرى للسياسة العثمانية في عصره هي خطر نزع ممتلكاتها التي يسكنها غير المسلمين من تحت سيطرتها ، فكان من الطبيعي أن يؤكد خير الدين على الرعوية للدولة وليس الانتهاء الديني .

وهذا ينقلنا إلى تفسير غياب مصطلح «المواطن» عند رفاعة وعند خير الدين على السواء . ونشير أولا إلى أنه من الخطأ منهجيا أن نبدأ بوضع مصطلح لنبحث في وجوده أو غيابه ، انما المهم هو البحث في «المفهوم» ، وهذا يغير كثيرا من وجهة النظر . فالواقع أنه اذا كانت لفظة «المواطن» ذاتها لا تظهر عند خير الدين أو

---

(١١٨) ابن تيمية ، «السياسة الشرعية» ، ص١٦ من طبعة دار الشعب ، ١٩٧١ .

(١١٩) صحيح انه كان هناك دائما حديث عن «سعادة الدارين» ، ولكنه كان مجرد كلام ، وانتهى الأمر منذ سيادة العصر العثماني الى الاهتمام بالسعادة في الدار الآخرة وحسب .

الطهطاوي ، فانه تظهر تعبيرات تقرب منها ، مثل «المستوطن» ، «وأهل الاستيطان» ، «فرد من أفراد الجمعية» ، «الوطني» ، «البلدية» ، وهذه كلها تظهر عند رفاعة الطهطاوي ، كما تظهر عند خير الدين بتعبير «محب الوطن» .

ومع ذلك فان المهم ليس ظهور التعبير ، بل مضمونه . وهنا نلاحظ ملاحظتين أساسيتين :

أ ـ اذا كان هناك ما يقابل اصطلاح «المواطن» عند رفاعة الطهطاوي وبصيغة المفرد ، فانه ليس هناك مايقابله عند خير الدين على الاطلاق ، لأن التونسي يستخدم دائما صيغة الجمع عند الحديث عن المحكومين ، فهو لم يتوصل بعد إلى صياغة مفهوم «الفرد» الذي يشارك على نحو ما في حركة الجماعة ، انما هو دائم الحديث عن الأمة والرعية والرعايا وأهل المملكة وما شابه . أما تعبير «محب الوطن» الذي أشرنا اليه فمن الواضح من السياق ، كما أشرنا في مكانه ، إلى أنه يدل على خير الدين التونسي في حديثه عن نفسه ، وليس مصطلحا سياسيا على مايبدو .

كيف نفسر هذا الموقف ؟ من الواضح أن السبب يكمن في طبيعة نظرية الحكم عند خير الدين التونسي ، فهي أساسا نظرية في الدولة ، وهي ثانيا نظرية ترى أن شئون الحكم من اختصاص الإمام في المحل الأول ، وإلى جانبه الوزراء وفئة أهل الرأي أو الشورى في المحل الثاني ، والشورى فرض كفاية لا فرض عين ، فيكفي أن تقوم بها قلة ، وهي في هذا تنوب عن الأمة كلها . وفي هذا الاطار لا مجال لاشتراك كل الرعية وكل فرد . ولذلك كان من الطبيعي أن يختفي مفهوم «المواطن» أو ما يقابله عند خير الدين التونسي .

أما الطهطاوي ، فان اهتمامه يتجه إلى المجتمع ككل ، ومجتمعه كان يهتم بالفعل ، ومنذ الحملة الفرنسية ، بعنصر «الاهالي» ، من حيث هم كيان مستقل عن الحاكم ، سواء أكان بونابرت أم محمد علي نفسه ، حيث إن الذي عينه انما هم ممثلو الأهالي ، أم عند سعيد فيما ذكره عنه عرابي[٦٢٠] ، أو عند اسماعيل الذي أنشأ عام ١٨٦٦ «مجلس شورى النواب» . ومن جهة أخرى ، من جهة الأهالي ذاتهم ، فان كل تاريخ مصر في عمر رفاعة الطهطاوي هو تاريخ تدرج العنصر المصري في الدخول الى الوظائف العامة بأشكالها . ومن جهة ثالثة ، هي جهة رفاعة نفسه ، فانه كان هو ذاته نموذج «الشخص من الاهالي» أو «الوطني» الذي فرض نفسه على الهيئة المديرة لأمور المجتمع ، وكلها كانت من غير المصريين في بداية حكم محمد علي . لهذا كله كان من الطبيعي أن يهتم الطهطاوي ، ليس «بالجمعية» ككل وحسب ، بل وكذلك بأعضاء الجمعية ، ومن هنا بأفرادها ، حتى يصل إلى مفهوم «الوطني» ليحدد له حقوقه وواجباته ، وهذه الأخيرة تنصب على ضرورة إسداء النفع «للأخوة الوطنية» .

ب ـ والملاحظة الثانية هي استدراك مباشر لمضمون هذه السطور الأخيرة فحتى اذا كان هناك عند رفاعة الطهطاوي ما يقابل كلمة «المواطن» ، فان هذه المقابلات لاتدل في الواقع على «مفهوم» تلك الكلمة كما يفهم اليوم ، وفي إطار التنظيمات السياسية المأخوذة عن الغرب . فالمواطن هو العنصر الأول والحقيقي في النظام السياسي الغربي ، وهو مع غيره من المواطنين

(٦٢٠) أحمد عرابي ، «كاشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية» ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، ص ١٥ـ١٨ .

مصدر السلطات السياسية كلها . أما في تصور رفاعة الطهطاوي كما يدل عليه كتاب «المناهج» ، فان وظائف أعضاء* الجمعية تحد بحدود المنافع العامة أى المشروعات الاقتصادية على الأخص . أما الدور الايجابي في الفعل السياسي فان الطهطاوي لايزال يخص به الحاكم وحده . ويكفي هنا أن نشير إلى أوضح نصوص «مناهج الألباب المصرية» حيث يقول الطهطاوي : «الملك كالروح والرعية كالجسد ، ولا قوام للجسد الا بروحه ، ولكن من لطف الله تعالى بعباده أجرى عادته في كل زمان أن ينصب في الأرض من ينصف المظلوم من الظالم ويردع أهل الفساد عن الظلم ، ويصنع للرعية جميع المصالح ، ويقابل كل أحد بما يستحقه من صالح وطالح . فقد استبان من هذا احتياج الانتظام العمراني الى قوتين عظيمتين : إحداهما القوة الحاكمة الجالبة للمصالح الدارئة للمفاسد ، وثانيتهما القوة المحكومة ، وهي القوة الأهلية المحرزة لكمال الحرية المتمتعة بالمنافع العمومية فيما يحتاج اليه الانسان في معاشه ووجود كسبه وتحصيل سعادته دنيا وأخرى» .[١٢١]

ونشير أخيرا إلى أن انسحاب «المؤمن» و«المؤمنين» من الاصطلاح السياسي لا يقابله التأكيد على (اصطلاحات أخرى كتلك التي أشرنا إليها) فحسب بل وكذلك ظهور نغمة جديدة تماما على الثقافة التقليدية ، وهي اهتمام كل من رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي على السواء بـ «الانسان» بصفة عامة ، أي بما يسمى أحيانا مفهوم «البشرية» مجردا عن نسبة دينية محددة .

ونأتي الآن إلى جوهر الفروق بين رفاعة وخير الدين في الميدان الذي يخص هذه الدراسة . وربما تعود الفروق التفصيلية إلى أخرى تخص : الإطار والانتماء والهدف والسبل والبعد التاريخي .

وقد أشرنا من قبل إلى اختلاف إطار فكر كل منهما : فالتونسي رجل دولة ومفكر يهتم بنظرية الحكم ، ويرى أن إصلاح الدولة هو مفتاح إصلاح حال الأمة الإسلامية . أما الطهطاوي فهو رجل من الأهالي المصريين يهتم بوطنه ، وإطاره هو إصلاح المجتمع ككل بما فيه من حاكم ومحكوم . وربما كانت عناوين كتبهما دالة بذاتها على اختلاف الإطار عند كل منهما .

والحق أن أساس كل الاختلافات بين الاثنين يقع في الاختلاف بشأن المسألة الثانية : الانتماء . فليس عجيبا الا يذكر خير الدين اسم تونس في كل مقدمته الا مرتين «الديار التونسية» و«القطر الافريقي»[١٢٢] ، وعلى نحو عرضي لا لذاتها ، بينما تمتلىء كتب رفاعة باسم مصر وفكرة الوطن وتمجيدهما . ان خير الدين ينتمي في الواقع الى ثقافة ، بينما ينتمي رفاعة إلى أرض وقوم . لقد كان خير الدين مملوكا شركسيا ، ولم يصل إلى تونس الا في سن السابعة عشرة وعاش في قصر باي تونس . فارتباطه الأول هو بالثقافة التي تربى عليها في تركيا وفي تونس ، وهي الثقافة الإسلامية ، وبالدولة التي ربته ليكون خادما لها ، وهي الدولة العثمانية . ولهذا سيظل خير الدين التونسي واضعا نصب عينيه طوال «مقدمته» وطوال حياته العملية على السواء مصلحة الدولة العثمانية ، وبالتالي مصالح المجموعة

---

(١٢١) «مناهج الألباب» ، ص ٣٣٤ .
(١٢٢) «المقدمة» ، على التوالي : ص٤٢ ، ٩ .

البشرية التي تحكمها أو ترغب في احتكار تمثيلها ، وهي الأمة الاسلامية . أما رفاعة الطهطاوي ، فانه بالرغم من مديحه لوالي مصر ، الا أنه يظهر في «تخليص الابريز» ممثلا لأهالي مصر وليس لواليها ، وهو يتحدث عن فرنسا وباريز ناظرا اليها بعين ، وعينه الأخرى دوما على مصر ، ولاينسى أن يذكر في تأثير واضح «وطنه الخصوصي» ، وهو مدينة طهطا بجوار سوهاج في صعيد مصر ، ويتألم لنفيه في عهد عباس الأول إلى السودان ، لأن ذلك معناه حرمانه من نفع وطنه[١٢٣] .

واختلاف الانتماء يؤدي إلى اختلاف الهدف . إن هدف خير الدين هو تقوية الدولة العثمانية لتستطيع مجابهة الدول الأوروبية والمحافظة على أملاكها ، أما هدف رفاعة فهو إعادة تنظيم المجتمع المصري دولة ونظاما وناسا ووعيا وفكرا وأخلاقا وعادات ، وهذا كما أشرنا ، هو الموضوع الحقيقي لكافة كتاباته ، وبعد «تخليص الابريز» ذاته .

ونتج عن الاختلاف في الهدف اختلاف في تشخيص الوسيلة : فمن الطبيعي أن يرى خير الدين أن وسيلة إعادة القوة إلى الدولة العثمانية هي إعادة تشكيل التنظيمات السياسية ، بينما يرى رفاعة أن وسيلة «النهوض بالوطن»[١٢٤] وإرجاع مصر إلى سالف مجدها هو قيام أعضاء الهيئة الاجتماعية بواجبات الأخوة الوطنية وقيام الحكومة والأهالي على السواء بتنشيط المنافع العمومية .

ويؤدي هذا بدوره الى اختلاف في الأولوية التي يوليها كل منهما الى الأمة والدولة : فنجد أن هناك عند رفاعة هدفا أساسيا ، وإن يكن ضمنيا غير صريح ، فهو فصل مصر عن الإطار العثماني ، بينما نرى أن من الأهداف الاساسية عند خير الدين هدف تقوية الدولة العثمانية وإبقاء سيطرتها ، ليس على الأقطار الاسلامية الخاضعة لها وحسب ، بل وكذلك على تلك غير الاسلامية . وبينما نجد أن رفاعة يهدف في الواقع ، وإن لم يذكر هذا صراحة ، إلى إيجاد كيان يقابل الدولة بل ويوازنها ، وهو كيان الوطن أو الهيئة الاجتماعية أو كما قال مرة «الرأى العمومي» ، بحيث أننا نستطيع أن نقول إنه يريد وضع «الأمة المصرية»[١٢٥] ، إن لم يكن فوق الدولة (أي التنظيم السياسي الحاكم) ، فعلى الأقل في مواجهتها ، وذلك بطرق شتى ليس أقلها طلبه تعميم التربية السياسية لكل الأهالي[١٢٦] ، وتأكيده الشديد على ضرورة الاهتمام بتنظيم الأهالي في «البلديات» المحلية في «مناهج الألباب المصرية»[١٢٧] ، نقول اننا بينما نجد رفاعة على هذا الموقف ، فان خير الدين كان يرى بالطبع أن الأولوية للدولة على أقطارها ، وهو لا يعترف بنسبة الأمة إلى الجماعة الاسلامية ولا يعقل أن يقول مثلا «الأمة المصرية» . ونقول باختصار : إن الدولة عند خير الدين فوق الأمة ، بينما الأمة والوطن عند رفاعة يقفان في مجابهة الدولة ، إن لم نقل فوقها أو ضدها .

ويؤدي الاختلاف في الانتماء أخيرا إلى اختلاف في

(١٢٣) «مناهج الألباب» ، ص١٧٦ ، ١٨٦ .
(١٢٤) «نفس المرجع» ، ص١٦٥ .
(١٢٥) «مناهج الألباب» ، ص ١٦٥ .
(١٢٦) «مناهج الألباب» ، ص٣٣٤ ، «المرشد الأمين» ، ص٦١ - ٦٢ .
(١٢٧) «مناهج الألباب» ، ص٢٤٠ - ٢٤٥ .

طبيعة والبعد التاريخي» الذي يدور فيه فكر كل من خير الدين ورفاعة . فمن الواضح أن خير الدين لا يستطيع النظر إلى أبعد من الدولة الاسلامية الاولى ، كما أنه ، لإحساسه بمدى الخطر المحدق بالدولة العثمانية ، يركز على الحاضر ونادرا مايجعل المستقبل بؤرة اهتمام رئيسية عنده . أما رفاعة فمن الواضح أنه لا يفكر للحاضر بل للمستقبل ، كما أنه يتعدى ببصره مصر الحديثة إلى كل عصورها السابقة ويمجد عصرها القديم على الأخص تمجيدا شديدا . وهذا أمر طبيعي : لأن مصر ذاتُ تاريخية وحضارية وسكانية يسهل تتبع ماضيها ، وليس الحال كذلك مع الدولة العثمانية .

بعد كل هذا ، وبعد الإشارة إلى الاختلافات القوية بين خير الدين التونسي ، مفكرا إسلاميا للدولة العثمانية ، ورفاعة الطهطاوي ، مفكرا مصريا مسلما للوطن المصري ، وإلى اتفاقهما مع ذلك على ضرورة الفصل بين العنصر الديني والعنصر الزمني في إدارة شئون المجتمع ، وإلى إضافتهما مفهوم السياسة المدنية إلى مفهوم السياسة الشرعية ، وإلى اختفاء مفهوم «المؤمنين» عندهما ، وإلى اتجاه خير الدين نحو إعلاء الدولة على الأمة ، واتجاه رفاعة إلى إعلاء الأمة والوطن على الدولة ، بعد كل هذا ، هل يمكن القول إنهما أرادا إعلاء الدولة من جهة والأمة والوطن من جهة أخرى على الدين ؟

الاجابة الواضحة هي بالنفي ، فسيظل مفهوم «الأمة الاسلامية» مفهوما أساسيا في فكر خير الدين ، وسيظل مفهوم «الاخوة الاسلامية» قائما وفعالا في فكر رفاعة الطهطاوي ، ولن يختفي هذا المفهوم عنده لصالح مفهوم «الاخوة الوطنية» ، بل سيبقى الاثنان جنبا لجنب . ومهما بعد الفكر المصري الحديث ، لدواعي الحاجة الوقتية ، عن الإشارة إلى البعد الاسلامي ، فانه يبقيه دائما في أفقه وهو يعي على نحو ما أن الانتساب الاسلامي قوة له .

* * *

صَدر حَديثاً

تاريخ مختصر لمصر الحديثة *

تأليف : عفاف لطيف السيد مارسوت
عرض وتحليل : عبد المالك التميمي

قسم التاريخ ــ جامعة الكويت

يدور الموضوع الرئيسي للكتاب حول عدم مشاركة الشعب المصري بالقرار السياسي ، وان مصر قد عانت من الاحتلال الأجنبي بكل أنواعه ، ولم تحظ بحكم وطني إلا بعد ثورة عام ١٩٥٢ ، كما لم يسمح بقيام الأحزاب وتعددها الا في فترة الليبرالية ما بين ١٩٢٢ - ١٩٥٢ والفترة الأخيرة .

استعرض الكتاب تاريخ مصر منذ الفتح العربي الاسلامي حتى حكم مبارك ، ويتألف من سبعة فصول ، ويقع في ١٥٠ صفحة من القطع المتوسط .

فتح مصر :

سيطرت الجيوش العربية على مصر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب بقيادة عمرو بن العاص في عام ٦٣٩م ، وكان المواطنون إذ ذاك من المسيحيين الذين أطلق عليهم الأقباط ، وبدأ التحول إلى الإسلام كما هاجرت قبائل عربية إلى مصر أثناء وبعد الفتح .

كان فتح مصر سهلا وتعاون المواطنون مع الفاتحين بسبب معاناتهم من الحكم البيزنطي . لقد استعرض هذا الفصل معلومات تاريخية معروفة كمدخل لتاريخ مصر الحديث . تحدث فيها عن وضع مصر في عصر الخلفاء الراشدين ثم الأمويين وذكرت المؤلفة بأن أقباط مصر اليوم يشكلون ١٠٪ من السكان ، وأشارت الى الصراع حول الخلافة والصراع حول المذهب الشيعي ، كذلك استعرض وضع مصر في العصرين العباسي والعثماني .

المهم في الفصل الأول هو ان المؤلفة قد ذكرت بأن المؤرخين لتاريخ مصر لم يهتموا بعامة الناس وركزوا

* AFAF — LUTIF AL-SAYID MARSOT : A SHORT HISTORY OF MODERN EGYPT ; CAMBRIDGE UNIVERSITY PRESS, CAMBRIDGE, 1985

على الحكام والحكومات فهناك الاحتفالات الخاصة بارتفاع منسوب المياه في النيل ، والتجارة في عهد الاخشيديين وكيف كان المواطنون يدفعون الضرائب العالية للطبقة الغنية . وفي القرن العاشر جاء الفاطميون إلى الحكم في مصر وانقسم العالم الإسلامي الى سنة وشيعة في مصر مدة قرنين من الزمان حتى ١١٧١م .

العصر المملوكي ١٢٥٠م- ١٥١٦م :

لقد واجه المماليك خطر تقدم المغول بقيادة هولاكو الذي دمر بغداد ، وأنهى حكم العباسيين في عام ١٢٥٨م في شرق العالم الاسلامي ، وقد تمكن المماليك بقيادة الظاهر بيبرس من هزيمة المغول في بلاد الشام في عين جالوت ، ويعتبر بيبرس مؤسس الدولة المملوكية وبعده جاء قلاوون الذي أكمل مهمة سابقه في الانتصار على المغول. أما خلفاؤه فقد دب الصراع بينهم وأدى إلى ضعف المماليك .

وفي بداية القرن الرابع عشر انتشر مرض الطاعون في مصر ، وأودى بحياة الكثيرين من السكان ، وساد التخلف والضعف مصر خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر على المستوى الاجتماعي والاقتصادي ، وأصبح وضعها خطيرا لنقص المواد الأساسية وضعف قوة العمل. ويرجع المقريزي سبب ذلك التدهور الى صراع وفساد الحكام الذين قادوا البلاد الى ذلك الوضع وعدم الاستقرار والخراب الاقتصادي . إن هذا الوضع المتردي أتاح للقوى الطامعة الخارجية وبخاصة المغول مهاجمة مصر ولكنهم لم يتمكنوا من احتلالها .

مع نهاية القرن الخامس عشر ظهر العثمانيون كقوة عسكرية كبيرة ، وتوسعوا في أوروبا وآسيا وأصبحت أراضيهم على حدود أراضي المماليك. وكان المماليك في ذلك الوقت قد فقدوا قوتهم عسكريا ، وسيطر العثمانيون على شمال بلاد الشام والعراق وسقط التحالف الفارسي المملوكي لمواجهة العثمانيين فهزم العثمانيون الفرس ومن ثم المماليك في مصر عام ١٥١٧م .

العصر العثماني في مصر :

عين السلطان العثماني محمد علي واليا على مصر عام ١٨٠٥ وهو من أصل ألباني أو كردي ، واستقل بمصر يحكم باسم العثمانيين حتى عام ١٨٤٨ ، وبدأ عملية تحديث وتطوير مصر. ويمكن تقسيم حكمه الى فترتين : ففي الفترة الأولى اهتم بترسيخ حكمه والقضاء على المماليك . والثانية تركزت على البناء والتوسع الاقتصادي والعسكري ، وعمل على إقامة سلطة مركزية ووضعت القوانين فنشطت التجارة في عهده .

بعد استقرار وضع محمد علي في مصر بدأ وضع خططه الاقتصادية والعسكرية ، وما تحقق في عهده في هذين المجالين يدل على أن محمد علي كان عقلية قد سبقت زمانها في مثل هذه المجتمعات. فإنجازاته الأساسية كانت كبيرة ، وأصبح لمصر قوة اقتصادية وعسكرية هامة في المنطقة في عهده . كما اهتم بالزراعة ليس للاكتفاء الذاتي فحسب بل وللتصدير ، وبدأ في إدخال الصناعة الحديثة الى مصر ، كما بدأ في بناء الجيش وتقويته وتسليحه تسليحا حديثا كما قام ببناء القوة البحرية . وكان التصنيع منذ البداية قد تركز على الصناعات الحربية حتى تتمكن مصر من الاعتماد على نفسها عسكريا . كما أقام صناعات النسيج باستعمال القطن المصري المحلي . وعندما بدأ الانتاج الصناعي

كان لابد من إيجاد الاسواق لتصريفه ، ووضع برنامجا للتوسع العسكري على طرق التجارة التقليدية حتى وصل إلى الحجاز في الجزيرة العربية عندما طلب السلطان مساعدة محمد علي للقضاء على ثورة الوهابيين ضد السلطة العثمانية ، وكان السلطان العثماني يأمل إما في القضاء على محمد علي أو القضاء على الوهابيين والأمر في كلتا الحالتين لصالحه . وتمكن محمد علي من هزيمة الوهابيين عام ١٨١٨م ولكن ذلك لايعني انتهاء الحركة الوهابية ، وأقدم محمد علي على احتلال السودان لتأمين وضعه في مصر والاستفادة من تجارتها وأصبح قوة يخشاها السلطان العثماني .

وبدأت محاولات السلطة العثمانية إضعاف محمد علي عن طريق إضعاف جيشه وعدم دعمه بالرجال والمال لكنه تمكن من بنائه على أسس عصرية وبناء قاعدة اقتصادية أصبح معها قادرا على الاعتماد على نفسه . وتحسنت الزراعة لكن التوسع في الأراضي والتطور الصناعي قد خلق مشكلات ذات طابع سياسي واقتصادي في إدارة هذه المناطق وتوفير الجيش اللازم للدفاع عنها ، وكان دخول محمد علي وابنه ابراهيم باشا في حروب عديدة في الحجاز والسودان وكريت وقبرص والشام قد استنزفت طاقات مصر وقد امتدت من ١٨١١ حتى ١٨٤٠ .

وتركز سعي محمد علي على الاستقلال الاقتصادي والعسكري في مصر عن الدولة العثمانية مع الابقاء على الاتصال الثقافي معها . وكان الغرب يتحرك باتجاه استعمار بلدان الشرق ويخطط للتغلغل في الامبراطورية العثمانية كما بدأ باحتلال بعض الاقطار العربية مثل الجزائر وعدن . فعقدت بريطانيا اتفاقية مع الامبراطورية العثمانية في الوقت الذي بدأ فيه الصراع العسكري بين المصريين والعثمانيين . لكن خلفاء محمد علي لم يكونوا في مستواه من حيث المهارة السياسية والقوة ، وأضعف ذلك مصر فالخديوي عباس أراد أن يعود الى الدولة العثمانية كما حاول الخديوي اسماعيل المحافظة على استقلال مصر عن العثمانيين لكنه أتاح الفرصة للتغلغل الغربي في مسألة مشروع حفر قناة السويس والديون التي غرقت فيها مصر ، وأدت إلى احتلالها من قبل بريطانيا عام ١٨٨٢م .

لقد كانت فترة الخديوي اسماعيل مهمة في ١٨٦٣م - ١٨٧٩م رغم عدم امتدادها لأكثر من ست عشرة سنة .

وقد سعى بعض ملاك الأراضي في أواخر أيام الخديوي اسماعيل لتشريع دستور يمنحهم الحماية والضمان ، وتولى الخديوي توفيق السلطة وشجع اولئك الملاك لتحقيق مطالبهم . في ذلك الوقت ظهر جمال الدين الأفغاني وبدأ نشاطه في مصر وخارجها مطالبا بالنهضة والاصلاح الديني ، وكان فكره وتياره سياسيا فقد طالب بحركة دستورية تستفيد من تطور الغرب والاعتماد على الشباب في النشاط الفكري الصحفي لطرح أفكار ليبرالية متنورة ، وكان لنشاطه تأثير حيث أدى إلى تكوين الجماعات والاتجاهات السياسية في مصر التي تطالب بالتحرر والاصلاح .

ولم ترتح كل من بريطانيا وفرنسا لما كان يجري في مصر فقد أرسلتا أسطوليهما إلى الاسكندرية ، وافتعلتا بعض الحوادث الفردية في المدينة لتكون مبررا لتدخل خارجي بحجة حماية الجاليات الأجنبية وحقوق الدول الأوربية في قناة السويس .

الاحتلال البريطاني :

نزلت القوات البريطانية في الاسكندرية وتقدمت

الى القاهرة والسويس والاسماعيلية ، وطلب الخديوي اسماعيل من تلك القوات أن وافق على احتلالها لمصر لتثبيت سلطته ، وتم احتلال مصر عام ١٨٨٢ واستمر حتى عام ١٩٥٤م .

وكانت ثورة أحمد عرابي قد بدأت بعد الاحتلال مباشرة ، وقضى الانجليز عليها ، ولمدة عشر سنوات بعد القضاء على ثورة عرابي لم يكن هناك ما يشير الى تحرك الحركة الوطنية المصرية حتى نهاية القرن التاسع عشر ، وكانت الوعود البريطانية باقامة نظام دستوري ديمقراطي في مصر تثار في تلك الفترة ، وان بريطانيا ستقود البلاد لأن الشعب المصري ، كما ادعت بريطانيا، غير قادر على قيادة نفسه وحفظ حقوق الدول الأخرى في مصر .

وفي نفس الوقت الذي قامت به ثورة عرابي في مصر قامت ثورة المهدي في السودان الذي كان قد احتله محمد علي . وخلق ذلك ضغطا مضاعفا على الاستعمار البريطاني في وادي النيل . اكتشف المصريون ان بريطانيا لم تف بوعدها ، وظهر مصطفى كامل ليقود المقاومة ضد الوجود الاستعماري ، ويحرض الناس على الثورة ، ويحرك الجماهير للنهوض الوطني والتحرر ، وكان قد بدأ نشاطه في فرنسا ثم انتقل الى مصر . ومع بداية القرن العشرين تمكنت بريطانيا من تحويل الاقتصاد المصري الى تابع لاقتصادها بعد أن استقرت أوضاعها وركزت اهتمامها على أن يكون القطن المصدر الأساسي الذي تستفيد منه صناعات النسيج البريطانية ، وقد بدأ الفلاحون يتذمرون من تحويل منتجاتهم للتصدير الخارجي ، وجاءت معركة دنشواي والمذبحة التي ارتكبتها القوات البريطانية في عام ١٩٠٦ بسبب مقتل ضابط بريطاني لتحرك الشعور الوطني وتبلور الوعي الوطني ضد الوجود الاستعماري .

وأثناء الحرب العالمية الأولى كانت معاناة الفلاحين والعاملين في الحكومة كبيرة بسبب ارتفاع الاسعار ، ونقص المواد الغذائية ، ولما وضعت مصر تحت الحماية البريطانية عام ١٩١٤ واستمر الوجود العسكري والسياسي البريطاني في مصر بعد الحرب رغم مبادىء الرئيس الأمريكي ويلسون في حق الشعوب في تقرير المصير ، كان لابد من النضال من أجل تحقيق الاستقلال ، فقامت ثورة سعد زغلول عام ١٩١٩ ، واعتقل ونفي الى مالطة وعاد الى البلاد . ووجدت السلطات البريطانية أنه لابد من بعض التنازلات في عام ١٩٢٢ لتهدئة الشعب وضمان وجود ومصالح بريطانيا في مصر ، جاء ذلك التوجه مواكبا لسياسة الانتداب التي اقرتها عصبة الأمم عام ١٩٢٠ وفرضت على أقطار المشرق العربي .

التجربة الليبرالية ١٩٢٢ ـ ١٩٥٢ :

في بداية العشرينات طرحت السلطات البريطانية مسألة الاستقلال السياسي لمصر وقيدتها في معاهدة عام ١٩٢٢ تضمنت أربعة بنود أساسية هي : الدفاع عن مصر ضد أي عدوان خارجي ، أمن الاتصالات في الامبراطورية البريطانية والمقصود هنا ضرورة السيطرة على قناة السويس لتحقيق هذا الغرض ، ثم حماية المصالح الأجنبية في مصر ، وأخيرا حماية الأقليات فيها . وتقرر اجراء انتخابات في البلاد ، ولعب سعد زغلول وزملاؤه الذين كانوا أعضاء في حزب الأمة دورا سياسيا في دفع الأوضاع لتحقيق مكاسب دستورية في عهد الملك فؤاد . جرت الانتخابات للبرلمان في يناير ١٩٢٤ ، وحصل حزب الوفد على الأغلبية الساحقة من المقاعد ، وأصبح سعد زغلول رئيسا للوزارة ، وهو أول فلاح مصري يصل الى هذا المنصب . وكانت هناك خلافات بينه وبين الملك حول الدستور فكان

زغلول يسعى لتطبيق مواد الدستور وتقييد نفوذ الملك ، وهدد بالعنف إذا لم يلتزم الملك بسلطة البرلمان ، وسعى زغلول لاتفاقية مع بريطانيا تلغى بنود المعاهدة السابق ذكرها وتحرر مصر من تدخل بريطانيا في شئونها . لقد كانت العشرينات سنوات النشاط الوطني وتكوين الأحزاب السياسية ولما لم يستطع سعد زغلول تحقيق برنامجه قدم استقالته بسبب ضغط السلطات البريطانية عليه ، وعلق البرلمان . توفي سعد زغلول عام ١٩٢٧ ، وتولى النحاس زعامة الوفد وأطيح بحكومة الوفد عام ١٩٢٩ ، وأصبحت الحكومة بيد الأقلية البرلمانية وللملك لم تكن شعبية ولم تستمر طويلا . وبعد انتهاء فترة إيقاف البرلمان عادت الانتخابات وعاد الوفد الى الساحة السياسية مرة أخرى ، وحصل على الأغلبية ، وعين النحاس رئيسا للوزارة لمدة عدة اشهر استقال بعدها وعرف المصريون أنه كانت هناك ثلاثة أسس للسياسة البريطانية في بلادهم هي : أن السلطات البريطانية تدعم الملك لأنها هي التي عينته ملكا ، ثم إن الخطوات التي تتخذ في مصر يجب أن تكون مع المسؤولين البريطانيين وليس مع المصريين لضمان مصالح بريطانيا فيها ، والأساس الثالث هو أن الحكومة المصرية تبقى ما دامت متعاونة مع السلطات البريطانية .

ومع نمو الحركة الوطنية المصرية في الثلاثينات نتيجة لتطور الوعي السياسي وللظروف الاقتصادية وللمارسات البريطانية فإن مؤشرات تطور الأوضاع في مصر كانت تشير الى تطور حقيقي لولا الحرب العالمية الثانية وظروف المستعمرات تحت النفوذ الغربي فيها .

لم تحقق وزارة صدقي في الثلاثينات أي تقدم في المجال الاقتصادي لأنه من الطبقة الاقطاعية ، ولم يساعد عامة الناس والطبقات الفقيرة . إن ملاك الأراضي الذين كان لهم نشاط سياسي عملوا من أجل مصالحهم ولم يقفوا الى جانب الفلاحين لأنهم كانوا يخشون على امتيازاتهم إذا خالفوا السياسة البريطانية ، وكانت النتيجة أن افتقدت الحركة الوطنية المصرية آنذاك الدعم الشعبي الواسع ولم تكن الدعوة الى الاستقلال مرتبطة بقضية اجتماعية واقتصادية واضحة . لقد اتهم المثقفون المصريون الاحتلال البريطاني بأمرين أساسيين : الأول ، إبقاء الشعب المصري أميا ، وغير متعلم ، والثاني ، قتل الصناعة المصرية من أجل تطور زراعي محدد بزراعة القطن والحبوب لصالح السوق البريطانية للتصدير . ومنذ ثورة ١٩١٩ حتى الحرب العالمية الثانية كانت المرأة المصرية تلعب دورا في تحرر المرأة وفي الوعي الوطني وأبرز تلك النساء حينها كانت هدى شعراوي .

وعاد الوفد مرة ثانية للسلطة في منتصف الثلاثينات بعد فوزه في الانتخابات وتحالفت الأحزاب لتطلب من السلطات البريطانية التفاوض بشأن المعاهدة المصرية البريطانية واستجابت بريطانيا ولكن معاهدة ١٩٣٦ م لم تغير من جوهر معاهدة ١٩٢٢م .

عندما قامت الحرب العالمية الثانية تعرضت مصر لتدخل عسكري ألماني بريطاني وجرت معركة العلمين الشهيرة في مصر بين الانجليز والألمان ، وانعكست تلك الحرب على الوضع في مصر فشحت المواد الغذائية ، وارتفعت الأسعار لأن تلك المواد كانت توجه للجيش البريطاني في مصر . وبعد توقيع الاتفاق لإنهاء القتال ظهر الجنود الانجليز في شوارع الاسكندرية وأسواقها وسواحلها بصورة استفزازية . وفي عام ١٩٤٢ م عاد الوفد للحكم في ظل معارضة قوية للوجود البريطاني ، واستمر الوفد في الحكم لأن السلطات البريطانية كانت تريد ذلك .

دخلت مصر الأمم المتحدة بعد الحرب الثانية ، ومرة أخرى ظهرت مسألة جلاء القوات البريطانية ، وطالب مجلس الأمن مصر وبريطانيا بالتفاوض بشأن الموضوع . إن المعاهدة البريطانية المصرية تنص على بقاء القوات البريطانية في مصر لمدة عشرين سنة ولم تر بريطانيا مبرراً لتغييرها .

وفيما يتعلق بالسودان ، فالمفترض بموجب الاتفاقية أن يصبح تحت إدارة مصرية ولكنه أصبح تحت ادارة بريطانية . طالب المصريون بوحدة مصر والسودان ، ولكن السودانيين طالبوا باستقلال بلادهم .

بدأت المشكلة بين السلطات البريطانية والوفد مع معاهدة ١٩٣٦م ومع ثورة فلسطين في تلك السنة ضد الهجرة الصهيونية الى فلسطين . لقد تظاهرت حكومة النحاس بحماس للقضية الفلسطينية منادية العرب لعمل يوقف المؤامرة الصهيونية ، ولكن الأوامر البريطانية قد صدرت في مصر بعدم اتخاذ أية خطوات لمساعدة الفلسطينيين ، وأمرت بعدم السماح للقادة الفلسطينيين بالحديث عن قضيتهم شعبيا في مصر . وكانت السلطات البريطانية تلمح بأن أي نشاط ضد السياسة البريطانية سيعرقل الجهود لمراجعة المعاهدة .

وكان قد ظهر في ذلك الوقت حزب الاخوان المسلمين الذي طرح نفسه بديلا للوفد في مصر وتفاعل مع القضية الفلسطينية بسبب ضياع بيت المقدس . وعندما أنهت بريطانيا انتدابها على فلسطين عام ١٩٤٨ قامت الحرب بين العرب واليهود ، وكانت مصر من الدول العربية التي شاركت في تلك الحرب ولم يكن جيشها مهيأ لدخول أية حرب ، وليس لديه أسلحة حديثة لأنه كان تحت قيادة الجيش البريطاني في مصر .

وحول دخول الجيش المصري حرب فلسطين تذكر المؤلفة ان رئيس الوزراء المصري ووزراءه لم يكن لديهم علم بدخول مصر الحرب وقد قرأوا الخبر في الصحف دون علمهم ، ولم تذكر الأدلة على ذلك . فالمعروف أن الدول المؤسسة للجامعة العربية ومصر واحدة منها قد اتخذت قرارا بعد اجتماعها في لبنان بدخول الحرب ضد الحركة الصهيونية في فلسطين بعد رفض الدول العربية لمشروع تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ م .

دخل الجيش المصري حرب فلسطين وكان السلاح قديما والجيش ضعيفا ، وكانت النتيجة كارثة لأن حالة الجيوش العربية الأخرى كانت مماثلة . وكانت حرب فلسطين تجربة خبة للجيش المصري وللأحزاب السياسية التي ارسلت المتطوعين للمشاركة في حرب فلسطين ، وهزمت الجيوش العربية . إن الحرب في فلسطين قد كشفت حقيقة الأوضاع السياسية في مصر ، وفساد الملكية وتصرفاتها بأموال الشعب وقاد ذلك الى تذمر عام .

في عام ١٩٥٠ عاد حزب الوفد للسلطة في الانتخابات ، وكانت مهمته الأساسية إيجاد حل لجلاء القوات البريطانية عن قناة السويس . وجرى في عام ١٩٥١ تعديل المعاهدة المصرية السودانية بجعل الملك ملكا على البلدين . في ذلك الوقت بدأت العمليات الفدائية المصرية ضد القواعد البريطانية في قناة السويس لفرض الجلاء البريطاني بالقوة .

وفي ٢٥ يناير ١٩٥٢ قامت القوات البريطانية بتطويق مركز شرطة الاسماعيلية . ولما رفضت الشرطة الاستسلام ضربت المدفعية المركز وقتلت وجرحت العديد من أفراده ، وبدأ بعدها حريق القاهرة بحرق النوادي والمؤسسات المالية البريطانية و الأجنبية . إن حريق القاهرة كان شبيها بحريق الاسكندرية الذي سبقه بسبعين سنة ، وكان نقطة تحول في التاريخ

المصري المعاصر بأن أنهى الفترة الليبرالية في مصر ، وكان الجيش دائما مؤسسة مساعدة للنظام الملكي ، ولم يكن يتدخل في السياسة لكن اشتراك الجيش المصري في حرب فلسطين ادى الى تغيير ذلك . وفجأة يقع انقلاب عسكري في مساء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وينجح ، وبعد ثلاثة أيام يغادر الملك مصر بصورة نهائية .

عهد عبد الناصر ١٩٥٢ - ١٩٧٠ :

للمرة الأولى منذ أكثر من ألفي سنة تحكم مصر من قبل مصريين عندما قامت الثورة عام ١٩٥٢ . وحصل هذا الحكم على تأييد أغلبية الشعب المصري وعزل الملك دون أن يقف أحد الى جانبه .

إن نهاية الملكية كانت تعني نهاية التدخل البريطاني في سياسة مصر الداخلية ، فقد كان للسلطات البريطانية تأثير على الملك في تغيير الحكومات . أصبح المواطنون يشعرون بعد الثورة بأن الضباط الوطنيين يريدون اصلاح أحوال البلاد .

لقد دخل معظم الضباط الأحرار الكلية العسكرية بعد معاهدة ١٩٣٦ وأغلبهم قد تخرجوا في نفس الوقت ، وخدموا معا في الجيش وهم أصدقاء ، بالاضافة الى أنهم رفاق في الجيش . بدأوا تنظيمهم مبكرا وهم لايزالون صغارا في رتبهم العسكرية ، وكانت لهم علاقات مع التنظيمات السياسية في البلاد للاستفادة من خبرتها وفكرها فالتحق جمال عبد الناصر بحزب الاخوان المسلمين فترة من الزمن ، والتحق آخرون بحزب مصر الفتاة وفريق ثالث التحق بالتنظيمات اليسارية ، وبقي قليل منهم خارج إطار هذه التنظيمات .

تكون مجلس قيادة الثورة من ضباط كانوا ينتمون للطبقة الوسطى والفقيرة ، ورأى المجلس أن مهمته الأساسية هي تحرير مصر من السيطرة البريطانية ، وكان ذلك مطلباً شعبياً منذ ثورة ١٩١٩ ، ولم يكن لدى المجلس أي تصور حول المسائل الأخرى عدا ما حدده في مبادىء الثورة الأساسية خاصة بمسألة السلطة هل تسلم للمدنيين أم تبقى بيد العسكريين . لم يسمح الحكم الجديد بعمل الأحزاب ولم يسلمها أي دور بعد الثورة لاعتقاده بأن بريطانيا والملكية قد استخدمتا هذه الأحزاب في المرحلة السابقة على الثورة . وتولى العسكريون المناصب القيادية ، وبدأوا يتعلمون من خلال التجربة العملية .

وكان هناك اتجاهان في مجلس قيادة الثورة ، اتجاه كان يريد حكومة برلمانية ، تزعمه محمد نجيب ، واتجاه كان يريد حكماً مباشراً بيد العسكريين وتزعمه عبدالناصر . وانتصر اتجاه عبدالناصر وأزيحت الجماعة الأخرى ، وتولى مجلس قيادة الثورة مسئولية الحكم ، وحظر العمل الحزبي لاعتقاده بأن أي انتخابات حرة في تلك المرحلة ستعيد الأحزاب القديمة بأغلبية وتسيطر على السلطة ، وتعود البلاد الى ما كانت عليه قبل الثورة .

جمد نشاط السياسيين القدماء ، وحدد القانون ملكيتهم ، وانتهى تأثير الأغنياء على السلطة ، وحدد قانون ملكية الأرض بـ ٢٠٠ فدان للشخص ، وكسر هذا القانون قوة كبار الملاك ونفوذهم . ولتوسيع قاعدة الملكية للفلاحين صدر قانون جديد فيما بعد حدد الملكية بـ ٥٠ فداناً .

تعرض عبدالناصر في أكتوبر عام ١٩٥٤ لمحاولة اغتيال وهو يلقي خطاباً جماهيرياً في الاسكندرية قيل إن حزب الاخوان المسلمين قام بها . لقد ساعد الاخوان المسلمون الضباط الأحرار في الثورة ، وتوقعوا مشاركة في الحكم ، ولما قرر الضباط عدم مشاركة حزب الاخوان في السلطة لاعتقادهم بأن مشاركة الاخوان في

السلطة تعني السيطرة على الثورة والتخلص من الضباط الأحرار، تقرر إبعادهم عنها. عندها بدأ الحزب عمله السري ضد عبدالناصر، ولكن عبدالناصر أصبح قوة لا يمكن زحزحتها أو التأثير عليها. وبدأت العمليات الفدائية المصرية ضد القاعدة البريطانية في القناة قبل التفاوض بشأن الجلاء، وشكلت ضغطاً على بريطانيا في الوقت الذي كان العداء الشعبي ضد الاستعمار يتصاعد مطالباً بالجلاء، وبدأت المباحثات بين مصر وبريطانيا بشأن الجلاء عن قناة السويس في أبريل عام ١٩٥٣. وتعطلت المحادثات وعادت ثانية حتى تم الاتفاق على الجلاء في اكتوبر ١٩٥٤ على أن يتم في يونيو ١٩٥٦م.

وفي ظل هذه الظروف سمح بإجراء انتخابات عامة في السودان عام ١٩٥٣م، وحددت مدة ثلاث سنوات كمرحلة انتقالية لاختيار ما اذا كان السودان يرغب في الوحدة مع مصر أو الاستقلال. لقد حاولت بريطانيا التأثير على الوضع في السودان للحصول على الاستقلال وليس الوحدة مع مصر، وقرر السودانيون الاستقلال عام ١٩٥٦.

أصبح الحكم في مصر قويا بعد معركته مع بريطانيا من أجل الجلاء والاستقلال، وبدأ في حل المشكلات الاقتصادية في البلاد، واعتقد السياسيون المصريون بأنهم القادة الطبيعيون للأمة العربية والعالم الاسلامي.

كانت الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي قد أدت الى ميلاد أحلاف عسكرية، واعتقدت الولايات المتحدة الأمريكية بأن تلك الأحلاف وسيلة لتطويق الاتحاد السوفيتي. وتتكون تلك الأحلاف من الدول الصديقة للولايات المتحدة. فقام حلف الناتو، وتكون حلف بغداد، ورفضت مصر الالتحاق بهذين الحلفين، وبدأت حملة ضد حلف بغداد والمطالبة بخروج العراق منه، وشنت مصر حملة إعلامية عليه وعلى الاستعمار والرجعية، وكانت الجماهير العربية التي عانت من الاستعمار الغربي طويلا تظهر حماساً شديداً في تأييد عبدالناصر وبخاصة بعد العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م.

لقد وجد عبدالناصر في الرئيس تيتو رئيس يوغسلافيا، وجواهرلال نهرو رئيس وزراء الهند أفضل الاتجاهات والقيادات العالمية التي يمكن الاستفادة من خبرتها وتجربتها السياسية والتعاون معها. وجه هؤلاء القادة مع الرئيس الأندونيسي سوكارنو الدعوة لمؤتمر دول عدم الانحياز الذي عقد في باندونج في ابريل عام ١٩٥٥، وبرز عبدالناصر منذ ذلك الوقت كقائد بارز من قادة العالم الثالث، في الوقت الذي بدأت فيه دول العالم الثالث تأخذ استقلالها، وتتخلص من الاستعمار. واعتبرت الدول الغربية ذلك الاتجاه خروجاً على سياستها وخطراً على مصالحها، ولكن دول العالم الثالث اعتبرت أن اتجاهها المستقل يعني الاستقلال عن سياسة المعسكرين، والتعامل معهم على قدم المساواة. غضبت الولايات المتحدة الأمريكية لمشاركة مصر في مؤتمر عدم الانحياز واعتبرت من لم ينحز لها متحازاً للاتحاد السوفيتي، وأصبح عبدالناصر قائدا خارج حدود بلاده منذ مؤتمر باندونج، ولكن مصر لا تزال غير قادرة على مواجهة اسرائيل.

فرضت القوى الغربية حظراً على تصدير السلاح الى مصر، وأصبحت الكتلة الشرقية هي المصدر الوحيد للحصول على السلاح فاتجه عبدالناصر الى الاتحاد السوفيتي وحصل على السلاح من تشيكوسلوفاكيا.

انزعجت اسرائيل نتيجة استقلال مصر عن بريطانيا، وحاولت القيام بأعمال تخريب عن طريق عملائها في القاهرة لكنها فشلت، ثم قامت في بداية عام ١٩٥٥ بهجوم على قطاع غزة أدى الى استشهاد عدد من المصريين والفلسطينيين. لقد نجحت صفقة الأسلحة

التشيكية الى مصر فزاد غضب الولايات المتحدة وفي نفس الوقت وضعت مصر خطة بناء السد العالي رمز الاستقلال الاقتصادي والذي كان من المنتظر أن يضاعف مساحة الأرض المزروعة ، ويوفر طاقة كهربائية للصناعة . وكان البنك الدولي أكثر من يستطيع تمويل مثل هذا المشروع فرفض تمويله ، فقرر عبدالناصر تأميم قناة السويس بتأييد قوي من الشعب المصري ، انزعجت بريطانيا وفرنسا وازدادت مخاوف اسرائيل من قوة عبدالناصر وسياسته التحررية .

وبدأت بريطانيا تصعيد الموقف باتهامها لعبدالناصر بأنه هتلر آخر يهدد مصالح الغرب ، وبخاصة بعد رفض عبدالناصر حضور مؤتمر دعت له الدول الغربية لمناقشة مسألة قناة السويس . وبسرعة أصبح عبدالناصر بطلاً وطنياً وقومياً ، وبطلاً للعالم الثالث ، وادعى الغرب بأن مصر غير قادرة على إدارة القناة مما سيعرض مصالحه للخطر ، ولكن المصريين نجحوا في إدارتها بعد تأميمها ، وبدأ العدوان الثلاثي على مصر من اسرائيل وفرنسا وبريطانيا في اكتوبر ١٩٥٦م .

واعتقدوا بأن الهجوم سيؤدي الى الاطاحة بعبدالناصر ، والمجيء بشخص آخر يحكم مصر تتفق اتجاهاته مع مصالح الغرب ومعاد للضباط الأحرار ، ولكن تلك الحسابات لم تتحقق وصمد عبدالناصر ، ووقف المصريون والعرب جميعاً معه حتى انتصر وفشل العدوان وافتتحت القناة للملاحة الدولية في مارس ١٩٥٧م .

وكانت إدارة القناة بنجاح تمثل تحدي الشعب المصري للاستعمار الغربي ، وكنتيجة لحرب السويس خرج من مصر عدد من الأجانب الذين عاشوا فيها فترة زمنية طويلة وتركوا استثماراتهم خوفا من التأميم . وأصبح عبدالناصر منذ ذلك التاريخ بطلاً قومياً للعرب ، فوقف الشعب العربي معه وطالب بالوحدة العربية وبخاصة سوريا . تحركت القوى السياسية القومية في سوريا مطالبة بالوحدة لمنع وصول الشيوعيين الى السلطة ، ولتحقيق الهدف القومي الذي طالما تطلع اليه السوريون . وفي يناير ١٩٥٨ ، دعت سوريا عبدالناصر للوحدة ، وكان عبدالناصر لا يريد التعجل في تحقيق الوحدة الفورية إلا أن الشعب السوري كان يضغط ولم يكن يستطيع تأخير قيامها . وقامت الجمهورية العربية المتحدة ، ودخلت اليمن الاتحاد . لقد تم حظر الأحزاب في سوريا بما فيها حزب البعث الذي طالب بالوحدة ، كما حدث في مصر ، ولكن الوحدة فشلت بعد ثلاث سنوات من قيامها . ووضع دستور جديد لدولة الوحدة ، وانتخب عبدالناصر رئيسا للجمهورية العربية المتحدة ، وأصبح هناك تنظيم سياسي واحد في دولة الوحدة هو الاتحاد القومي . ان البناء الاقتصادي والاجتماعي لسوريا كان يختلف عن مصر ، فالذي يرضي بعض قطاعات المجتمع في أحدهما لا يرضي القطاعات الأخرى في البلد الآخر ، وبخاصة الطبقة التجارية السورية والحرفيين .

ولم يعط الوقت الكافي لدراسة المجتمع في دولة الوحدة لوضع السياسات الملائمة لحل مشكلاته إضافة إلى أن المصريين قد اتهموا بأنهم كانوا يقودون سوريا دون مشاركة حقيقية للسوريين في السلطة أو في الجيش .

لقد صدمت الطبقات المستفيدة في سوريا من القرارات الاشتراكية التي صدرت في يونيو ١٩٦١م ، والتي حولت الأعمال الخاصة الى قطاع عام بيد الدولة ، ثم قام انقلاب في سوريا فصلها عن الوحدة ، وأنهى التجربة . وأدى هذا الحادث الى قيام الاتحاد الاشتراكي في مصر عام ١٩٦٢ بعد انتهاء تجربة الاتحاد القومي .

تم انتخاب مجلس الشعب الجديد في مصر عام ١٩٦٤ على أن يكون نصف أعضائه من العمال والفلاحين ، وكان تأثيره في الحياة السياسية في مصر

محدوداً جداً حيث كان معظم أعضائه يوافقون على قرارات الحكومة بدون مناقشة . وشعر عدد كبير من المصريين بأن تلك التغييرات لا تعبر حقيقة عن إرادة الشعب ، وكانت بعض العناصر في السلطة تحارب المشاركة الشعبية الحقيقية لتحتفظ لنفسها بالسلطة . وكان الهدف الأساسي لقيام الاتحاد الاشتراكي العربي هو أن يكون وسيلة للمشاركة الشعبية ، وفشل لسبب بسيط وهو أن السلطة كانت تسعى للسيطرة عليه ، ولم يكن صوت الشعب الحقيقي . وشعر عبدالناصر في منتصف الستينات بأن نفوذ عبدالحكيم عامر أصبح قوياً في الجيش ، وبدأ يتشكك في أمره ، وأصبحت المخابرات مؤسسة قوية لاحداث التوازن مع الجيش ، وبدأت بمحاربة واعتقال الشيوعيين والاخوان المسلمين وكل الذين يشك في أمرهم ، ووضعت الجماعات في مواجهة بعضها البعض لتحقيق التوازن السياسي ، واخفيت كثير من المعلومات عن عبدالناصر . وبدلاً من أن يوجه هذا الوضع لتوحيد الجبهة الداخلية عمل على التفرقة والخوف . وفي عام ١٩٦٦ كان هناك كلام عن اسرائيل بأنها تطور سلاحها النووي ، وفي تلك السنة كونت مصر وسوريا قيادة عسكرية واحدة رغم الخلافات بينها ، وحدثت عدة حوادث على الحدود بين سوريا واسرائيل ، وتحركت القوات المصرية والسورية الى الحدود ، وأبلغ الاتحاد السوفيتي مصر بأن اسرائيل حركت قواتها باتجاه سوريا لاحتلالها ومن ثم احتلال مصر . وكان بعض القادة العرب يريدون التخلص من عبدالناصر ، وكانت اسرائيل تريد الحرب عام ١٩٦٧ لأن وضعها العسكري كان جيداً ، وتقف معها الولايات المتحدة الأمريكية ، وان المستقبل قد لا يكون لصالحها ان لم تخض الآن حرباً تحقق فيها نصراً أهم ما فيه إسقاط عبدالناصر .

وكان مستشارو عبدالناصر من العسكريين قد أشاروا عليه بالمبادرة في الهجوم لكنه رفض وأعلن أنه أبلغ الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي بأنه لن يكون البادىء في الحرب . وفجأة وصل الملك حسين القاهرة في نهاية مايو ١٩٦٧ ووقع اتفاقاً عسكرياً مع مصر ، وأصبح الجو مهيأ لمواجهة عسكرية ، وفي ٥ يونيو هاجمت اسرائيل بصورة مفاجئة المطارات المصرية وشلت الطيران المصري وأصبحت البلاد مفتوحة للجيش الاسرائيلي .

واستطاع الجيش الاسرائيلي أن يهزم الجيش المصري في سيناء ويصل الى قناة السويس ، واحتل مرتفعات الجولان السورية والضفة الغربية للاردن ، وكان ثلاثة أرباع الطيران المصري قد تم تدميره ، وقتل ١٢,٠٠٠ رجل ، واتضح ضعف تدريب الجيش المصري في الميدان . وحدث أن نقل بعض الضباط قبل الحرب الى مواقع مدنية . وعندما قامت الحرب دعوا للالتحاق بالجيش وسلموا قيادة وحدات فيه ، وبصورة سريعة ، كما أن ميزانية الجيش قد خفضت في تلك السنة ، وحدثت الهزيمة .

كانت هزيمة ١٩٦٧ هي بداية النهاية لعبدالناصر ، لقد صدم وشعبه بما حصل فقدم استقالته ، وخلال دقائق بعد الاستقالة خرجت الجماهير الى الشوارع في مصر وفي العواصم العربية تطالبه بالعدول عنها والبقاء في السلطة ، فعدل عنها ، وأصبح موقف عبدالناصر على المستوى المحلي والدولي أضعف مما كان عليه قبل الحرب . تحمل عبدالناصر المسئولية في البداية ، ومن ثم حمل قادة الجيش والطيران المسئولية . فقدم عبدالحكيم عامر استقالته كقائد للجيش وكذلك فعل آخرون احتجاجاً على موقف عبدالناصر ، وكانت احتجاجات عامر تتركز بأن اللوم يقع على عبدالناصر لعدم استدعاء الجيش المصري من اليمن قبل الحرب ، ودعا إلى ضرورة الابتعاد عن الاتحاد السوفيتي الذي لم ينفذ

الموقف الخ . . . وشعر عبدالناصر بخطورة الوضع وكانت هناك مجموعة قد قررت التحرك ضد عبدالناصر ، واستطاعت أن تقنع عامر بذلك . وقبل أن يتحركوا اعتقل عبدالناصر عبدالحكيم عامر وبعد اسبوعين انتحر عامر . وقد أدانت المحكمة بعض الجنرالات وبرأت آخرين ممن كانوا سبباً في الهزيمة ، وكان رد فعل الناس عنيفاً بأن الاحكام كانت ضعيفة ومخيبة للآمال ، وخرجت المظاهرات الطلابية والعمالية في القاهرة . ولامتصاص النقمة ظهرت في الحياة العامة في مصر إشاعات منها ظهور السيدة العذراء فوق إحدى الكنائس ، وكان آلاف الناس يذهبون ليلا الى الكنيسة ويبقون حتى الصباح في انتظار رؤية العذراء . وكانت موجة دينية قد اجتاحت البلاد في الوسط الاسلامي والمسيحي تقول بأنه رغم الهزيمة فان الله مع المصريين وان الاصلاح الديني والصحوة الدينية هما طريق النصر .

وأصبح الاقتصاد المصري منذ عام ١٩٦٧ منهاراً ، وفقد الجيش المصري ٨٠٪ من قوته وتجهيزاته ، كما أصبحت مصر بحاجة الى الدعم ، وأبدت العربية السعودية استعدادها لدفع تكاليف إعادة بناء الجيش المصري مقابل انسحاب الجيش المصري من اليمن .

رفضت اسرائيل الانسحاب من الأراضي العربية التي احتلتها في الحرب وتنفيذ قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢ ، وبدأت حرب الاستنزاف . وقبلت مصر في يوليو ١٩٧٠ وقف حرب الاستنزاف ، وفي نفس الوقت بدأت موجة اختطاف الطائرات الاسرائيلية من قبل إحدى فصائل المقاومة الفلسطينية ، وخاف الملك حسين من أن مثل هذه النشاطات قد تعرض حكمه للخطر ، فوجه جيشه ضد المخيمات الفلسطينية في الأردن ، ودمرها فيما يسمى « بأيلول الأسود » وتحرك عبدالناصر لوقف المذبحة ، ودعا الى مؤتمر للقمة العربية واستطاع وقفها ولكنه دفع حياته حيث أنهكته الأزمات والأمراض فمات في نهاية سبتمبر ١٩٧٠م .

وعمت مصر والأقطار العربية موجة من الحزن . وبدأت مرحلة جديدة بعد وفاته حيث وجه نقد لاذع لأوضاع البلاد . وتولى أنور السادات رئاسة الجمهورية بحكم منصبه ، وباختصار فان الحكم الجديد لم يسمح بمشاركة شعبية حقيقية في الحكم وادعى أنه يحكم باسم الشعب بينما أديرت سياسة البلاد بواسطة مجموعة صغيرة من البيروقراطيين وأصحاب المصالح ، ومنذ ذلك التاريخ لم يغب عبدالناصر كزعيم وطني عن الشعب المصري رغم كل الانتقادات لفترة حكمه . ولم يكن أحد من الذين خلفوا عبدالناصر له نفس قوة الشخصية والتأثير في مصر والعالم العربي والعالم الخارجي . وجاء السادات ليعلن أنه سيطلق الحريات ويبحث عن علاقات متينة مع الغرب ، وبدأت مرحلة العداء للناصرية طوال عهد السادات .

منذ ١٩٧٠ حتى الآن

في عام ١٩٧٣ وبعد اجتماع ثلاثي بين السادات والأسد والملك حسين تقرر الهجوم على اسرائيل لاسترجاع الأراضي العربية التي احتلتها ، وكان السادات قد أعلن عام ١٩٧١ بأنه عام الحسم . ومنذ حرب ١٩٦٧ أعيد بناء الجيش المصري بتدريب وتسليح سوفيتي . وفي أكتوبر ١٩٧٣ ، وفي يوم احتفال اسرائيل الديني (كيبور) بدأ الهجوم المصري السوري على اسرائيل ، وعبرت القوات المصرية قناة السويس الى سيناء ، ولكن الجيش الاسرائيلي اخترق الدفاعات المصرية وأحدث الثغرة وعبر القناة ، وبدأت المفاوضات التي أدت الى مقايضة الأرض بالسلام ، ورعت الولايات المتحدة هذه المفاوضات ، واستعادت مصر سيناء مقابل توقيع اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨ والتي

قيدت مصر فترة زمنية طويلة ، وعزلتها عن الدول العربية بعد زيارة مشهورة قام بها السادات الى اسرائيل .

لقد كان حكم عبدالناصر وحكم السادات أتوقراطياً وقد أدارا البلاد من خلال جماعات صغيرة ، ولكن لكل منها شخصيته وقدراته وأعماله المختلفة . وكانت سياسة الباب المفتوح التي انتهجها السادات قد أدت الى تمكن الاستثمارات الأجنبية من مصر ، والى نمو طبقة ثرية استغلت الاقتصاد المصري ، وتفاقم الأزمة الاقتصادية في مصر .

قتل السادات على يد جماعة دينية أصولية ، وخلفه حسني مبارك الذي ورث تركة سياسية واقتصادية كبيرة ، فكانت أمامه مسألة الحريات العامة في البلاد وسمح للنشاط الحزبي ، ومسألة عودة مصر الى مكانتها في العالم العربي ، ومواجهة المشكلات الاقتصادية التي تعاني منها مصر ، والعلاقات الاسرائيلية المصرية طبقاً لاتفاقية كامب ديفيد التي أصبحت تواجه أزمة منذ الغزو الاسرائيلي للبنان في صيف ١٩٨٢م .

ملاحظات عامة

ان عنوان الكتاب قد حدد بـ « ملخص تاريخ مصر الحديث » والمحتوى يستعرض تاريخ مصر منذ الفتح العربي الاسلامي الى وقتنا الحاضر . صحيح ان معالجة موضوع تاريخ مصر الحديث يتطلب خلفية تاريخية مختصرة ، لكن يتضح من استعراضنا لموضوعات الكتاب أن المؤلفة لم تلتزم بالعنوان الذي حددته للكتاب ، كذلك استمرت في بحثها في التاريخ المعاصر .

ولما كان التاريخ الحديث والمعاصر يعتمد أساساً على الوثائق فإن وثائق تاريخ مصر الحديث والمعاصر متوفرة وكثيرة في مصر ، وفي دور الوثائق العالمية . ومما يؤسف له أن الباحثة اعتمدت على المؤلفات فقط في مصادرها فلمعالجة التاريخ المعاصر يجب أن تعتمد على الوثائق وإلا أصبحت معالجة سياسية وليست تاريخية .

أما مسألة التوثيق للمعلومات في الكتاب ومصادرها فإن المؤلفة قد اعتمدت منهجاً لا يخدم الكتاب والقراء كثيراً ، ذلك أنها ذكرت في نهاية كتابها بعض المصادر المختارة دون أن توثق المعلومات التاريخية التي ناقشتها بذكر مصادرها وذكر المعلومات الكاملة عن كل منها .

وأشارت المؤلفة في الفصل الأول من كتابها بأن المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ مصر قد ركزوا على الحكام بدون كتابة تاريخ الناس ، وكان منهجاً في الكتاب يختلف عن أولئك الكتاب ، لكنها قد صبغت تاريخ مصر الحديث بالصبغة السياسية ، وان معالجة القضايا الاجتماعية والاقتصادية قد جاءت بين الحين والآخر بصورة عابرة ولم يتم التركيز عليها .

مع ذلك فالكتاب يقدم لنا مادة علمية موضوعية هامة ، وان المنهج المتبع في الكتاب منهج التحليل الاستقرائي ، ونادراً ما نجد مثل هذه الكتابات الجادة في زحمة سيادة المدرسة الوصفية والاخبارية في كتابة التاريخ ، وقد كشفت الدراسة الكثير من ملابسات تاريخ مصر الحديث والمعاصر والتي شابها الغموض والتشويه أحياناً .

وكون الكتاب باللغة الانجليزية فانه يقدم صورة جيدة للكتابة التاريخية العلمية في وطننا العربي بالمنهج التحليلي الذي تعاملت معه المؤلفة . وان هذا الكتاب جدير بالترجمة الى اللغة العربية ليكون إضافة علمية إلى قراء العربية الذين أرهقتهم الكتابات المكررة والاخبارية التي تبتعد عن تفسير الأحداث التاريخية .

خيول الصحراء الكبرى
مع تعليقات للأمير عبد القادر

تأليف : الجنرال أوجين دوما
عرض وتحليل : سليمان قطاية

هبت على اوروبا في القرن التاسع عشر ريح شرقية قوية ، فعندما تأكد الاوروبي من قوته وتفوقه قام يفرض نفسه على بقية الأمم لاستعمارها ، تحت ستار تمدينها ، ذلك الستار الذي استعمله كل المستعمرين منذ فجر التاريخ أمثال اسكندر المقدوني .

وقامت فرنسا ، مدفوعة بمشكلاتها الداخلية السياسية والاقتصادية ، بحروب استعمارية كثيرة ، الا أن أهمها كانت الحرب لاستعمار « الجزائر » ، التي قررت تحويلها الى محافظة أو ولاية تابعة لها .

وكانت الرومانسية في صعودها ، وطغيانها : شعريا ، وتصويريا ، بل وسياسيا . فلا غرو أن يلعب شاتوبريان Chateaubriand ولامارتين Lamartine وفيكتورهوجو Victor Hugo دورا أساسيا هاما وكلهم الشعراء مشاهير . ومما زاد الرغبة في استعمار الشرق ، كتابات الرحالة من ماركو بولو Marco polo حتى فولني Volney .

كل هذه الأمور مجتمعه دفعت بالساسة الفرنسيين الى ارسال جيش الى الجزائر عام ١٨٣٢م .

كانت الجزائر تابعة للسلطنة في تركيا العثمانية ، وكان فيها حاكم تركي منذ أن طرد الأتراك الاسبان من وهران . ولكن بسبب بعد العاصمة استانبول ، كانت سلطة الباشا التركي لاتتعدى مدينة الجزائر نفسها (دار السلطان) ، بينما ظلت وهران وقسطنطين وغيرها مستقلة تماما . أما القبائل البدوية في الصحراء فلم يكن عليها سلطان قط ، تعيش كما تعيش القبائل العربية في الصحراء السورية ، أو في نجد بالحجاز .

وكان من بين الجنرالات اللذين ذهبوا اليها الجنرال اوجين دوما E . Daumas الذى ولد عام ١٨٠٣ ، ودخل مدرسة الفروسية العليا العسكرية في مدينة

سومور Saumur ووصل الى الجزائر عام ١٨٣٥ . وكان يحكمها آنذاك الجنرال بيجو Bugeaud الذي عهد اليه بمسؤولية « المشكلات العربية » .

والواقع ان الفرنسيين ، رغم اطلاعهم وعلمهم وقوتهم ، كانوا يجهلون الكثير عن عادات وطباع وأخلاق وتاريخ وجغرافية الجزائر . ولكن ، وكالعادة في مثل هذه الأحوال ، كان هناك خونة لتقديم كل مايلزم المستعمر من معلومات . وهكذا بفضل خيانة الأمير مصطفى [١] (الذي لايزال أكبر مستشفى في الجزائر يحمل اسمه) الذي قتله رجال قبائل القبلات ، والأمير يوسف ، اللذين كانا يكرهان الأمير عبد القادر تمكن الفرنسيون من استعمار البلاد ولكن بعد معارك رهيبة استمرت حتى عام ١٨٤٣ ، وذلك عندما اكتشف الفرنسيون معقل الأمير عبد القادر في سهلا بفضل الخائن يوسف الذي تدبر الجنرال دوق دومال Duc d A'umale قائد الجيش الفرنسي مع رجاله حتى وصلوا الى عين ثاقبه . عندئذ هجم عليها بغتة بثلاثمئة فارس فرنسي مدججين بالسلاح ، فقاتل عبد القادر ورجاله قتال الأشاوس . . . ثم انسحبوا الى المغرب ، فتبعهم يوسف ومن ورائه رجاله والجيش الفرنسي فوقعت معركة ايزلي ISLEY التي انكسر بها جيش عبد القادر ، فذهب متجها نحو سيدي ابراهيم فطارده يوسف وأخذه أسيرا وعاد فقدمه الى الجنرال لاموريسير Lamauriciere ، ولكنه رفض ايقاف القتال الا ضمن شروط احترم الفرنسيون معظمها .

اضطررت ان أبدأ بهذه المقدمه كي أفسر كيف أن كتاب الجنرال دوما مؤلف من كتاباته ومن ملاحظات الأمير عبد القادر الجزائري .

أمضى دوما شطرا كبيرا من حياته العسكرية في الصحراء الكبرى يتعامل مع القبائل العربية فيها ، تارة كعسكري مستعمر ، وتارة أخرى كمنظم اداري ، وخاصة كرجل علم فضولي أعجب بالبدو وحياتهم فدرسها بدقة متناهية وتفاصيل مذهلة فوضعها في كتب عديدة وصف فيها البدو وحياتهم ، وكان آخرها كتاب كرسه للحصان العربي اسماه : « خيول الصحراء الكبرى » .

وبتأثير الرومانسية التي كان الجنرال مشبعا بها ، جذبته حياة الصحراء بمغامراتها ، وغرابتها ، وسحرها ، وصعوبة الحياة فيها ، ورجالها ونسائها . . . فاهتم بها اهتماما كبيرا .

وبعد استسلام الأمير ، تُرك مع عائلته وحاشيته ليعيش كما يريد في قصر أمبواز Ambeise على شاطىء نهر اللوار ، بينما عاد الجنرال دوما الى باريس . ونشر كتابه ، فلاقى استحسانا ونجاحا كبيرين جدا ، لأنه كان يتجاوب مع الشوق الشديد ، والفضول الكبير الذي كان يشعر به كل اوروبي نحو كل ماهو شرقي . عندئذ ، أراد الجنرال أن يستفيد من علم الأمير ، الذي اشتهر كفارس ممتاز ، وكشاعر ومثقف ، بل انه كتب كتابا عن الخيل [٢] . فأرسل نسخة من الكتاب الى القومندان بواسوانيه Boissonnier الذي كان مسؤولا عن قصر أمبواز ، راجيا أن يترجم الكتاب ويقرأ بالعربية على الأمير ، وان تسجل ملاحظاته عليه . وهكذا كان .

وصدر الكتاب في طبعته الثانيه عام ١٨٥٣ أي بعد سنة تقريبا من الطبعة الاولى التي نفدت . وترجمته الى الألمانية والاسبانية دليل على أهميته القصوى .

---

(١) الذي منحه الفرنسيون فيما بعد لقب جنرال مكافأة له .
(٢) « عقد الأجياد في الصافنات الجياد » طبع في القاهرة عام ١٣٣١هـ وفي دمشق ١٩٦٣ .

كل هذا يدلنا على قيمة هذا الكتاب التاريخية والعلمية .

وفي عام ١٩٨٦ أعيد نشره تصويرا على الاوفست ، فنال النجاح نفسه ، ولاتزال بعض الاقلام في فرنسا نفسها تعلق وتشرح وتفند حتى الآن .

والكتاب من القطع المتوسط مؤلف من ٤٨٠ صفحة لاصور ولارسوم فيها ، ماعدا الغلاف حيث نرى لوحة ملونة لفنان فرنسي ثانوي القيمة من الذين يسمون « المستشرقين » Orientalistes وهو الفريد دو درو A. De Dreux وهي تمثل حصان الأمير والى جانبه سائسه ، وكلبه .

ويتألف الكتاب من جزأين ، الأول : ويحتوي على ١٥ فصلا ، مكرسة لعلم الخيل Hippologie وينتهي بترجمات لمقتطفات من آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية وقصائد شعرية منها قصيدة مترجمة للأمير .

والثاني يحتوي على ١٤ فصلا تصف الحياة في الصحراء كالغزو ، والحروب ، والصيد ، والعادات الخ . . .

يقول المؤلف في مقدمة الطبعة الثانية « إن الاستقبال الحماسي الذي لاقته الطبعة الأولى في فرنسا وخارجها ، لكتاب « خيول الصحراء الكبرى » جعلت من الضروري اعادة طبعته ، بعد عام تقريبا . . . »

ثم ينشر بضعة رسائل من بين الكثير مما وصله ، منها رسالة من الجنرال اودينوOudinot ، بل من الجنرال دولا موريسيرDE La Mauriciere نفسه .

يقول الأول : « إن الرجال الذين كرسوا أنفسهم لدراسة علم الخيل يعترفون اليوم أن إدخال الدم الشرقي (يقصد تهجين الخيول الأوروبية بخيول عربية) هو المبدأ الذي يجب ان نلجأ اليه وباسرع مايمكن . . . . ونظرا للفائدة المجنية من أمثال هذه الدراسات ، فلقد أوعزت وزارة الزراعة الى أحد المختصين لترجمة مخطوط عربي قديم قلَّ من عرفه وهو موجود في المكتبة الوطنية بباريس . . . . وأرغب من وزارة الحرب أن تطبعه وتنشره ايضا ، وذلك بهدف دفع عجلة تقدم العلوم الخيلية . . . » .

ويقول الثاني : « . . . . . ان كتابكم يسمح بادراك الأسباب الحقيقية للكمال الذي وصل اليه الحصان بين أيدي اولاد اسماعيل (العرب) . ومن المفضل ان تطبع وزارة الحرب كتابكم وتنشره على جميع مربي الخيول لأنهم سيجدون فيه معلومات مفيدة جدا . . . »

ويقول الجنرال ب . ديكاريير B .De Carriere الذي كان رئيس سلاح الفرسان في وزارة الحرب : « ان للعرب في تربية الخيل وترويضها أفكارا ذات صحة لايمكن انكارها لأنها ثمرة خبرة تقليدية . . وحصانهم هو الجدير بالمعارك والقادر على الجري سريعا لمسافات طويلة . وبما ان هذه الخيول موجودة على امتداد مناطقنا (كذا) في افريقيا لذا يجب ايجادها ولو كلف ذلك البحث عنها في آخر حدود الصحارى . انها خدمة اضافية لجيشنا في افريقيا ، لاننا اذا نقلناه على أرضنا ، تصبح هذه الخيول القيمة ، ذات عرق عالي صاف . . . » .

وتتبعها رسالة من الجنرال ايكسلمانس Exelmans ، ثم رسالة في عشر صفحات طوال للجنرال مونج Monge ، ثم الكونت دو غويون De Guyon ثم من ناظر المرابط الملكية هويل Huel ، وأخيرة وهي أهمها من الكونت دور Le Conte D'Aure قائد مدرسة

الفرسان ، الذي يعد حتى اليوم أفضل استاذ في الفروسية عند الفرنسيين وصاحب مؤلفات تعد أعمدة الفروسية الغربية ، والذي كان يسمى في مدرسة الفرسان « الإله الكبير » . يقول دور : « . . . ان كتابكم أيها الجنرال لايحتوي الا على وثائق قيمة ، وإذا كان التواضع يدفعكم للقول : إنني لاأقول بأن هذا جيد وذاك سيء ، بل أصف ماقاله ومايفعله العرب ، فاسمحوا لي أن أحييكم ، بدون اي خوف من أن أُكذَّب من قبل رجال خيل عمليين فعلا ، الا في بعض الحالات الشاذة ، كل مافي كتابكم جيد ، بل جيد جدا ، وبحق حتى الحقيقة .

وبعد التأمل والتعليق والشرح لهذه الوثائق ، يصبح اعتقادنا كاملا بأنه يجب ان نؤمن بأفكار ومفاهيم ، وتجارب شعب كل حياته ودينه موجودة في الحصان الذي عرف كيف يحتفظ له بنبله وصفاته الأساسي . أما في اوروبا . . فكل الرجال الذين يربون الخيول على أفضل شكل ، والذين يصلون الى درجة عليا في ذلك يطبقون عمليا بل ويحذون حذو المبادىء العربية في كل شيء . . » ويختتم رسالته (٦ صفحات) بقوله : « توجد أحيانا ثورات سعيدة ، منها تلك التي سببها كتابكم . . . » والكونت دور هو القائل : « أنصح كل الفرسان في فرنسا بأن يكونوا التلاميذ المخلصين للفروسية العربية . » .

ويبدأ الجزء الأول بتمهيد يقول فيه « . . . إن أهمية الدراسات المماثلة (لدراستي) تكمن في صحة المعلومات . لذا ، يجب علي أن أعرف بالينابيع التي استقيت منها هذه المعلومات . لقد أمضيت في افريقيا ستة عشر عاما ، حيث نفذت مهمات ، أو شغلت مناصب سمحت لي بأن أكون على علاقة وثيقة مع العرب ، هذا الشعب الذي قلت معرفتنا به قبلا . والذي يجب علينا أن ندرسه كي نتعلم كيف نسيطر عليه(!) كنت من عام ١٨٣٧ حتى عام ١٨٣٩ ، قنصل فرنسا في مسكرة عند الأمير عبد القادر ، ثم مكلفا بالأمور العربية في ولاية وهران ، وأخيرا مديرا مركزيا للأمور العربية في الجزائر تحت امرة حكومة السيد المارشال دوق ديسلي Le Duc D'Isley كل هذه الأمور جعلتني على اتصال وثيق بالرؤساء العرب وبعائلاتهم الكبيرة . تعلمت لغتهم ، وبفضل المعلومات التي أمدوني بها استطعت ان أنشر بشكل متتال : « الصحراء الجزائرية » و « الصحراء الكبرى » و « منطقة القبائل الكبرى » وهي كتب أدت بعض الخدمات لفرنسا ، لأنها ألقت الأضواء على مسائل عسكرية ، وتجارية هامة .

ولقد وجدت أن دراسة الخيول العربية تشكل تتمة لأبحاثي السابقة ، لذا كانت موضع أبحاث دقيقة . . . أردت أن أحقق من كل مايقال عن العرب ، من الناحية الخيلية ، بنفسي ، بعيني ، وليس عن طريق الكتب ، بل عبر الرجال .

فالكتاب اذن عبارة عن مختصر لمشاهداتي الشخصية ، ومحادثاتي مع العرب من كل طبقة ، من أمراء الخيم حتى الخيال البسيط اللبن ، كما يقولون هم أنفسهم ، لاصنعة لهم الا « العيش من الهواء » . . . . والآن ، أحتاط فأقول : لست هنا لأقول : هذا جيد ، وذاك سيء ، أقول ، وبكل بساطة : جيد وسيء ، هذا مايفعله العرب » .

ويعلق الأمير عبد القادر فيقول : لقد ألف كثير من العلماء المسلمين ، عددا ضخما من الكتب يذكرون فيها بشكل مفصل كل مواضيع الخيل : صفاتها ،

ألوانها ، . . وكل ماهو معروف ان كان جيدا أو كان سيئا ، وعن أمراضها وعللها وطريقة معالجتها . منهم أبو عبيدة ، معاصر هارون الرشيد ، الذي وضع لوحده خمسين كتابا عن الخيل . . . »[3]

وبعد المقدمة يبدأ الكتاب فيصف المؤلف حب العرب وتعلقهم بالخيل حتى يقول « . . . لقد مرت محبة الحصان في دم العربي . . . »

ثم يشرح قيمة الحديث الشريف « الخيل معقود في نواصيها الخير حتى يوم القيامة » فيقول : « يحب الشعب العربي : الأمجاد ، والسلطة ، والغنى ، فاذا ماقيل إن كل ذلك معقود في ناصية حصانه ، فمعنى هذا ربطه بحصانه بوشائج وثيقة : جاذبية الحصان ومنفعته الشخصية . لقد ذهبت عبقرية الرسول ﷺ الى أبعد من ذلك أيضا دون شك فلقد عرف أن الرسالة التي تركها لشعبه لايمكن أن تنفذ الا بواسطة فرسان شجعان ، وأنه يجب تنمية حب الخيل لديهم مع الايمان بالدين الاسلامي ، في وقت واحد . »

والنص محشو بأمثال عامية جزائرية منها قوله :

الخيل للبلاء
والابل للغلاء
والبقر ، للفقر

أو : جنة الأرض على ظهور الخيل ، وفي مطالعة الكتب ، أو بين أثداء النساء . ولعلها تحريف لبيت المتنبي :

أعز مكان في الدنى سرج سابح
وخير جليس في الزمـان كتاب

وينهي الفصل بقصيدة لشاعر مجهول مطلعها :

حصاني سيد الخيل
ازرق كالحمام في الظل . . .

وتستمر القصيدة لتملأ ثماني صفحات كاملة . وآخر تعليق للمؤلف عليها قوله : « لايمكن للأعرابي ان يستمر الا في حياة مزدوجة : حصانه وهو نفسه »

بعد هذا المدخل الشاعري ، ينتقل المؤلف الى علم الخيل ، فيبدأ بدراسة أنواع الخيول ويدقق في وصف الحصان العربي الذي يسمى في المغرب : الحر Hor ، وربما كان أصل كلمة Horas الفرنسية والتي تعني المربط ، بينما يسمى في الشرق الأصيل أو العتيق .

ويقول بان الأنواع القيمة في القسم الغربي من الصحراء الكبرى ، ثلاثة : الحيمور ، وأبو الغارب ، والمرازيق .

وان الكثير من القبائل تربيها بشكل طبيعي وجيد مثال : بني حيدان ، وأولاد سيدي الشيخ ، وأولاد يعقوب ، والعموريين . . الخ .

ويستمر في وصف كل جنس بدقة متناهية لملأ ثماني عشرة صفحة ، حتى يصل الى الفصل المسمى « الفحل » وفيه يذكر طريقة النزو ، والحمل ، والوضع ، والفطام بالدقة العلمية المتناهية . ولكن

(٣) أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي (ولد عام ١١٠هـ وتوفي عام ٢٠٩هـ) كتابه : كتاب الخيل في خمسين بابا . طبع عام ١٣٥٨هـ في الهند في حيدر أباد الدكن . ويقع في ١٦٣ صفحة من القطع المتوسط

(٤) طبيب فرنسي استدعاه كلوت بك مؤسس ابي زعبل الطبية في القاهرة ليساعده في التدريس فعمل ، وظل ١٦ سنة في القاهرة . ترجم هذا الكتاب وكتاب القاموس « الطب النبوي » .

لايذكر التلقيح الاصطناعي ، الذي كان العرب أول من زاوله في الخيل ، ولعل هذه الطريقة لم تكن مستعملة عند قبائل الصحراء الكبرى . الا ان بيرون Peron[1] في مقدمات ترجمته لكتاب « الويل في أمراض الخيل » لأبي المنذر البيطار ، الكتاب المشهور باسم الناصري ، لكونه مهدى الى السلطان الناصري قلاوون ، يذكر ذلك ويقص حادثة طريفة للبرهنة عليها .

وبعد ذلك ينتقل بنا المؤلف ليصف « رياضة » المهر ، اي تعليمه وتعويده على السرج والخيّال . الا انني أجد مايذكره مختصرا ، كما قاله هو ، لأن المعلومات المذكورة جزيلة اذا ماقورنت ، كما قال الأمير عبد القادر ، بما جاء في كتب البياطرة امثال : تاج الدين الصاحب مثلا (*) .

والغريب انه يشرح طويلا طريقة استعمال المهماز (أو الكلاب) الذي يسميه عرب الجزائر « شبير » ، والذي نعلمه انه كان قليل الاستعمال عند العرب ، كما يقول الملك المجاهد علي بن داود الرسولي الغساني . في كتابه ، الأقوال الكافية والفصول الشافية (في الخيل) : « ولاتستعمله العرب الا للفرس الشموس » .

ويبدو أن بعض الأعراب بلغت بهم البراعة في استعمال المهماز ، انهم يكتبون به على جلد الحصان ، وهو منطلق جريا ، كلمة « بسم » أي بداية البسملة ، دون أن يجرح الجلد ، بل بحلاقة الشعر . ذكر ذلك بيرون في مقدمة كتابه بينما يقول دوما : ان استعماله يجعل الحصان الشموس « يبول خوفا من الفارس ، ويصبح هادئا كخروف ، وكالكلب يلحق بصاحبه أينما توجه »

ويذكر المثل المعروف : « الفرس من الفارس ، والمرأة من الرجل »

وبالطبع يصف المؤلف بضعة تدريبات خاصة بالعرب ، نظرا لحياتهم القاسية وتدريباتهم الحربية . من هذه التدريبات : القيّامة : ينطلق الفارس بحصانه بأقصى سرعة ثم يجبره على الوقوف مسمرا في الأرض . يبدأ بتوجيهه نحو نهر ، او واد ليخاف الحصان فيقف . ثم يوجهه نحو شجرة او جدار .

- اللطمة : في هذا التمرين ينطلق الفارس بأقصى سرعة ثم يميل بالحصان يمنة او يسرة على زاوية قائمة (٩٠ درجة) ويلطم بيده عنق الفرس بخفة ليوجهه يمنة او يسرة ، شريطة ألا يتوقف عن الجري .

- الثالثة : يدرب الحصان بحيث يقفز بقائمتيه الأماميتين على حصان العدو فيعض الفارس العدو ويلقيه أرضا ، أو يعض الحصان فيجبره على الهرب . ويقول الجنرال انه رأى في آخر بعض القوافل خيولا عربية تركض وراء البعير المتخلف عن القافلة فتعضه لتجبره على اللحاق بها .

والمعروف أن أفضل حصان سباق في العالم وفي تاريخ الفروسية هو : خسوف Clipse الذي لم يخسر رهانا قط ، وكان عربيا مولودا في انجلترا ، فكان اذا ماحاول حصان سبقه عضه وأجبره على التراجع !

ومن التدريبات : القطاعة ، والسيركه ، والفزعة . . . الخ . . .

(*) كتاب البيطرة للصاحب تاج الدين أبي عبدالله محمد بن محمد بن علي (ت ٧٠٧هـ) جزآن - طبع أوفست - معهد تاريخ العلوم العربية الاسلامية ، فرانكفورت ، ألمانيا الغربية ، ١٩٨٤ .

ويصف المؤلف بعض الالعاب : كلعبة الحزام التي يجب على الفارس فيها أن يلتقط ـ والحصان يعدو بأقصى سرعة ـ ثلاثة أحزمة قماشية ملقاة على الأرض على أبعاد مختلفة . ويصف كذلك لعبة النيشان . . الخ . .

وهناك قصة يرويها الجنرال عن شجاعة البدو الأعراب فيقول :

في عام ١٨٤١ كان المارشال بيجو Bugeaud ذاهبا مع فرقته من الخيالة الى « تاقدامت » كي يهدم حصنا بناه الأمير عبدالقادر ، وكان دوما برفقته ، فضربوا خيامهم في وادي الحزوق ، وهو نهر صغير من روافد مينا .

أيقظتهم في الليل طلقة عيار ناري . فقال الجندي الحارس لدى استجوابه للاستطلاع عن ماهية الأمر : إنه رأى كتلة من الأعشاب المتحركة تمشي ثم تقف فخاف أن تكون خدعة . وعندما توقفت الكتلة على بعد عشرة أمتار من مربط الخيل ، أطلق النار ، وكان في الكتلة أعرابي يحاول سرقة الخيل فجرح وتقبل لاستماته . وخطرت للمارشال فكرة ، فترك الجريح في مكانه مع رسالة الى قبائل فليتا Fleittas[٦] يقول فيها ان محاولة التخلص من الجيش الفرنسي بنوع من حرب العصابات لايجدي ، لأن فرنسا دولة قوية وغنية ، وان عبدالقادر لايستطيع شيئا ضدها ، والاستمرار في التحالف معه سيجلب على القبائل مصائب لا حصر لها ، وانه من الأفضل لها ان تنفصل عن هذا الرجل اذا ما أرادت الا ترى ، ومنذ الآن ، كل محصولاتها محروقة ! وما إن ذهبت الفرقة قليلا ، حتى جاء بعض الفرسان العرب فترجلوا وحملوا الجريح . وفي اليوم التالي جاءتنا رسالة من القبلية حملها الينا فارس ألقاها في وجهنا ومضى . وفيها « الى الجنرال بيجو ، قائد مرفأ الجزائر . . . تقول بانكم أمة قوية وقادرة وانه ليس باستطاعتنا مقاتلتكم وأن الأقوياء هم المحقون . ولكنكم ، رغم هذا ، تريدون سلب بلد لاتمتلكونه . ثم بما أنكم أغنياء ، ماذا تريدون أن تفعلوا بشعب ليس لديه سوى الرصاص ليعطيكم اياه ؟ بالاضافة الى أن الله اذا أراد ، فبإمكانه أن يغلب الأقوياء وينصر الضعفاء . تهددونا أيضا بإحراق محاصيلنا أو إطعامها لخيولكم وبغالكم ، كم من مرة أصبنا بهذه المصيبة قبلا ! فلقد جاءتنا سنون محل ، فعرفنا الجوع والمسغبة ، والجراد ، ولكن الله لم يخذلنا ، لأننا مؤمنون ، والضنك لايقتل العربي . لن نخضع لكم أبدا . أنتم أعداء ديننا ، لذا فهذا مستحيل . ولكن ، إذا أراد العلي القدير ، عقابا لنا على خطايانا ، وخطايا آبائنا ، أن يصيبنا بهذا البلاء الأعظم ، عندئذ سنخرج اخراجا كاملا ، ونحن نعترف بذلك ، اذ علينا حينئذ أن نقدم لكم خيولنا (علامة الاستسلام عند البدو) رغم علمنا بأنكم لا تحبون إلا الخيول ذات الأذناب القصيرة ، وأفراسنا لاتلدها . »

ولقد اضطر رجال هذه القبيلة بعد ذلك الى الاستسلام ، كما يقول المؤلف ، إنما بعد عراك عنيف وعنيد . « ظلوا منذ ذلك الحين أول من كان يطلق صيحات الحرب والثورة . وهم الذين قتلوا الجنرال الشجاع (!) مصطفى بن إسماعيل [٧] ، وهم الذين قتلوا بوملزا (أو معزة ؟) وكانوا آخر من استسلم . »

ويقدم المؤلف خلال سبع صفحات أوصاف الفارس العربي ، أولها الصبر على الجوع والعطش . فاذا لم يتمكن فلا يكون فارسا في حياته قط . وآخرها : دراسة

(٦) أظن انه يعني قبائل الفلاليين .
(٧) يقصد الخائن الأمير مصطفى الذي قتله رجال عبدالقادر في معركة سنة ... .

طباع وعادات فرسه ، بدقة وعمق . . . فلا تغيب عنه لمحة أو فكرة .

وفي التعليق الذي يورده الأمير عبدالقادر بعد هذا الفصل يصف تقنية « التضمير » وهي عملية كانت تحضّر بها الأفراس مدة أربعين يوما من أجل السباق ، وهدفها إذابة الشحم وشد الألياف العضلية فيكون الحيوان على أشد مايكون ، والفرس المضمرة قادرة على الانطلاق جريا حتى ٢٥ كم .

ثم يصف السباق وأحواله وشروطه . . .

ويستمر المؤلف في استعراض مختلف وجوه علم الخيل : من تغذية الى نظافة جسم الحصان ومعلفه ومحبسه ، والاصطبل ، ثم ألوان الحصان والتحجيلات ، والشيات وتفسيرها فيذكر مثلا عربيا :

محجل الأربعة جلاب النفعة
محجل الشمال مركوب الرجال
محجل اليمين مركوب السلاطين

ثم يفصل كيفية شراء الحصان وانتقائه وامتحانه ، بل ويترجم المحاورة التي تجري بين البائع والمشتري ثم صفقة اليدين علامة عقد البيع . ويؤكد أن العربي لايزوّر البيع ، كما يفعل الغربي ، بإعطاء الحصان بعض الأدوية ، بل يعتمد على وصفه الجميل ، ولسانه الطلق لاقناع المشتري . وينهي الفصل بمعلقة أمرىء القيس .

وبعد ذلك فصل خاص بالانعال أو تحديد حوافر الخيل . فيصفها بدقة ويصف البيطار ودكانه وآلته وأدواته ، ثم مكانته الاجتماعية ، إذ كان هو أيضا ، الحداد صانع الاسلحة ، لذا فلا يدفع ضرائب ولايساهم في الحرب وتظل حصته من المغنم محفوظة ، ولايقتل في الحرب الا إذا كان مسلحا يقاتل ، لأن له حصانة . . .

ثم فصل التسريج : فيذكر أقسام السرج العربي واصفا الكلمة العربية أمام الفرنسية بدقة تدهش الأصمعي ، وعلم غاب حتى عن كثير من أساتذة الفروسية والبياطرة العرب اليوم الذي يسمون الرسن بشليق ، والقربوس قنطرة ، ويخلطون بين المقود والرسن واللجام والشكيمة . . . الخ . . . ويمتدح الجنرال السرج العربي ويفضله على السرج المنغاري الذي كان يستعمله سلاح الفرسان في الجيش الفرنسي ويعدد له فضائل كثيرة لايجدها فيه الفرسان العرب اليوم الذين يفضلون السرج الانجليزي ، وهو في رأيي أسوأ السروج [٨] . وينهي الفصل بقوله : « يصل العرب إلى الثقة بالنفس وجودة الركوب على ظهور الخيل بسرعة ، بينما علينا أن نظل أعواما طويلة حتى نحصل في بلادنا على فارس رديء . ويتساءل : « ما السبب رغم أن شبابنا (شباب فرنسا) أقوياء و أصحاء ؟ » ويقول المؤلف إن السبب عائد الى التسريج السيء .

ثم يكرس فصلا طويلا جدا يقع في حوالي ستين صفحة « للبيطرة » فيصف الأمراض مع المصطلحات العربية ، والأدوية مع أسماء الأعشاب بالعربية والفرنسية والوصفات بأقصى مايمكن من الدقة .

ما هو مضاد الحكمة ؟ الغضب

ويعلق الأمير عبدالقادر على ذلك بحكمة تقول :

وضد العلم ؟ النسيان

ومضاد الاحسان ؟ امتداح النفس . . . .

---

(٨) استطعت ان أعد ثمانية أنواع من السروج كان العرب يستعملونها .

حتى يصل الى : ما ضد الحصان ، وسبب خالية امراضه ؟ الراحة والبدانة . ثم يتحدث المؤلف عن كيفية الاستفادة من الحصان العربي بالنسبة للحصان الموجود في فرنسا .

وهنا ينتهي القسم الأول ويبدأ الثاني بغناء أو بالأحرى حداء يغنيه بدوي ولد يعقوب :

إلى الخارج ، أيها الأجانب ، الى الخارج

اتركوا زهور مراعينا

لنحلات بلادنا

الى الخارج ، أيها الأجانب ، الى الخارج *

ويبدأ بالحديث عن الحياة البدوية فيذكر قول البدو :

« الجمال لمن يدافع عنها ، وقلوب الفتيات لمن يتقن ركوب الخيل » ويصف الغزوات Razzia كما كان يقوم بها العرب قديما ، فيصنفها الى ثلاثة أنواع : منها الطاحة (من فعل طاح أي سقط) ، لأن الفرسان يسقطون على العدو فجأة في الفجر (المغيرات صبحا) بحيث تكون « المرأة بلا حزام ، والفرس بلا رسن » وتكون بخمسمائة او ستمائة فارس . ويترجم أنشودة طويلة يقول إنها شعبية تصف حدة القتال الدموي بين القبائل بسبب الحب والغيرة (على العِرْض) .

بل إنه يصف الغارات التي لا هدف لها سوى السرقة ، وبخاصة « سرقة الخيول » ويقول إن اللصوص من الأعراب يقولون بانه « في الشتاء ، تسرق الحيوانات لأن الكلب تحت الخيمة ، وفي الصيف السرقة مما في الخيمة لأن الكلب خارجها » ، ويدعي أن الولي سيدي عبدالقادر الجلالي هو شفيع اللصوص ، وذلك لأن معظم اللصوص فقراء والولي هذا يتشفع بهم لأنهم بحاجة ولأنهم يسرقون الأغنياء !

ويكرس لسرقة كل نوع من الماشية صفحة أو اثنتين يصف « التقنية » فيها . ثم يبدأ بفصول هامة حيث يصف « الصيد » ويقسمه إلى أقسام كثيرة :

صيد النعامة ، والأسد ، والغزال ، وتيس الجبال ، وغيرها . . . مع وصف مذهل من حيث الدقة . ونضرب مثلا بصيد الأسود :

يُصطاد العرب الأسد إما لأنه يتسلط على قرية أو مضرب خيام ، فيلاحظ القوم اختفاء شاة أو حصان أو طفل !! ويسمعون زئيره .

عندئذ يتنادون فيجتمع الرجال من قرى أو قبائل مختلفة .

فيذهب القيافة أولا للتعرف على العرين ، ثم يذهب الجميع سوية . منهم مشاة مسلحون بالبندقية (ذات الطلقة الواحدة) يتقدمون في ثلاثة صفوف منسقة . الخلفي منها لمهرة الرماة . وحولهم الفرسان المسلحون أيضا . يقوم رجال النسق الأول بالزعاق والصريخ لحمل الأسد على الخروج ، فاذا لم يفعل أطلقوا بضع رصاصات عليه فاذا جرح جن جنونه واندفع نحوهم بوحشية وشجاعة لامثيل لها ، فيطلقون النار عليه ، ولكنه لا يموت الا اذا أصيب في رأسه ، فإن لم يقع أطلق النسق الثاني نيرانه ، ثم الثالث ، وهذا نادر جدا . أما إذا جنح وذهب يسرة أو يمنة فينطلق نحوه الفرسان الواحد بعد الآخر ومتى وصل الفارس قربه أطلق على رأسه النار . كذلك إذا خرج عدة أسود في آن واحد . وتدوم المعركة دقائق قليلة ، ويندر أن تقع حوادث كرصاصة طائشة ، أو أن يقع الفارس عن فرسه فيجرحه الأسد[٩] .

* (ترجمها من النص الفرنسي لا ليس في الفصل النص العربي)

(٩) زار الفنان الفرنسي أوجين دولاكروا Delacroi المغرب عام ١٨٣٢ فذهل بمهارة العرب في صيد الأسود ، فصور لوحات كثيرة عن هذا الموضوع .

وثمة طرائق أخرى : فإذا كان العرين مليئا بالأشبال ، وصعب اعتراض الأسد ، يذهب بضعة فرسان إلى العرين إذ أن من عادة الأسد ولبوته أن يخرجا بعد الظهر للتجوال فيقفان على رأس تل مطل على مضرب القبيلة ويطلقان زئيرا ترج له الأرض . وخلال غيابها يدخل الفرسان العرين ويكممون أفواه الأشبال ، لئلا يسمع صراخها الأبوان ، ويهربون بها . وبالطبع فهم يعلنون عن عملهم لكل العرب في مضاربهم وقراهم ممن هم بجوار العرين . عندئذ ينطلق الأسد ولبوته يجنون في كل اتجاه ، ويكون الرجال المسلحون في انتظارهما .

وثمة من يقتل الأسد للدلالة على شجاعته وعلو همته ، فيضع جثة حيوان في طريق الأسد ، ويبني كوخا صغيرا قبالتها يختفي فيه (يسمى قترة) مادا سبطانة البارودة فقط ، فيأتي الأسد ويتوقف أمام الجثة ، وعلى الصياد أن يطلق رصاصته الوحيدة بين عيني الأسد وإلا صار طعمة له .

ويقول الجنرال ، مؤلف الكتاب ، إنه تعرف على شيخ عجوز يدعى محمد الموسوي قتل ما ينوف على مئة أسد بطريقة غريبة : كان يذهب إلى العرين ليلا والقمر بدر . فيقف على ركابي السرج ، وكفل حصانه متوجه نحو العرين ، ويستدير حتى يصبح وجهه مقابل مدخل العرين ، ويصرخ محرضا . فإذا خرج له أسد رماه بطلقته الوحيدة بين عينيه ، فإن أخطأه نكز الفرس فانطلقت به في سرعة بحيث لا يمكن للأسد أن يدركه . فإذا خرج له عدة أسود ، وحتى لو كان أحدهم خلفه ، ضرب الأقرب وهرب .

ثم يتحدث المؤلف عن صيد الضبع ، وصيد الأرنب بالكلب السلوقي ، ويكرس لوصف الكلب واعتناء وجهاء البدو به فصلا طويلا مدهشا .

ويتعرض ايضا للبيزرة على الحصان .

وفي فصل خاص يصف الحروب بين القبائل - ويعني بذلك حروبا عنيفة دموية بين عدة قبائل متحالفة بعضها ضد بعض - وليس غارة بسيطة أو غزوة . ويعدد أسبابها وهي : نهب قافلة ، أو شتم نساء القبيلة ، أو رفض السماح بسقاية الماشية ورعيها .

وعند الانطلاقة نحو العدو ، وبينما يكون الشيوخ في هم وغم ، ينطلق الشباب فرحين بالمغامرة ، وطلب الأمجاد ، منشدين الشعر الحماسي والغرامي . وهنا يترجم الجنرال قصيدة طويلة في ست صفحات لشاعر مجهول مطلعها :

قلبي يلتهب شوقا الى امرأة من حوريات الجنة . . .

ويحتل الوصف حوالي مئة وخمسين صفحة .

ولاعجب لأن ذلك كان يساعد الفرنسيين المستعمرين على تفهم التكتيك الحربي للقبائل العربية ، وكيفية مكافحتها . ثم لاننسى أن المؤلف جنرال عسكري تهمه هذه الأمور في الدرجة الأولى ، بل يصل الأمر به في الصفحة ٤١٤ أن يعدد ما يملكه العربي الميسور من عبيد ونساء ومال وخيل ، كذلك ما تحتويه خيمته وقيمته المالية . ويحتل هذا التعداد الهائل الدقة عشر صفحات كاملة .

اما الفصلان الأخيران ، فالأول مكرس « لرأي عبدالقادر » يقول فيه « عرفت الأمير عبدالقادر عندما كنت قنصلا لفرنسا في مسكرة (من عام ١٨٣٧ حتى عام ١٨٣٩) ثم عرفته ايضا في طولون عام ١٨٤٧ ، عندما أرسلت في مهمة حين وصوله أرض فرنسا ، واستطعت خلال محادثاتي الكثيرة معه أن أتعرف على معلوماته الغزيرة عن كل ما يتعلق بتاريخ بلاده وبطوبها . لذا لم

أتردد في أن أطلب اليه رأيه في مادة علمية محضة ، مع أنها ذات أهمية كبرى ، ليس بالنسبة لمستقبل مستوطنيتنا فحسب ، بل ولمستقبل فرنسا كذلك . »

ويترجم الرسالة التي أرسلها له الأمير بتاريخ ٨ نوفمبر (تشرين الثاني) من عام ١٨٥١م الموافق ٢٣ محرم عام ١٢٦٨هـ بكاملها ، وفيها يجيب عن عدة أسئلة طرحها عليه الجنرال حول مقاومة الحصان العربي للعطش والجوع ، ولماذا يركب العرب خيولهم في أصغر سن ممكنة ، بينما لايركبها الفرنسيون الا بعد الرابعة . . . . الخ

أما الفصل الأخير فهو مكرس لشخصية غريبة هو « الشميع »[١٠] Chambi وهو بدوي من قبيلة شمباس (؟) Chambas .

يبدأ المؤلف هذا الفصل بقوله : « إذا كان الشعر عندنا موهبة عدد قليل من الناس ، وميزة بعض العقول النيرة ، وزهرة عطرة ونادرة لا تنبت إلا في أرض معينة ، فهو عند العرب في كل مكان . . . . إنه كنز يرتاده الجميع من راعي القطعان الذي يقاتل من أجل قبضة من العشب الذابل ، إلى السيد صاحب الخيمة الكبيرة الذي يجري على حصانه المطهم بين أفراد قبيلته . . . يعتقد الكثيرون (من الفرنسيين) الذين لم يتعودوا على العادات الافريقية أو يطلعوا عليها ، أنني كثيرا ما أبالغ فيما أقوله . . . . منهم الضابط السيد موليين Molliene الذي كان ، ذات صباح ، في مكتبي في باريس ، يحاججني في مسألة موهبة الشعب العربي الشاعرية ، عندما قطعت محادثتنا زيارة غير مرتقبة . كان الشخص الزائر يرتدي البرنس والجبة ، إنه بدوي شامبي . . . من أولئك العتاة : لصوص البادية وقطاع الطريق . . . . جاء البدوي الى باريس هذه المرة والى حديقة النباتات فيها مرافقا زوجا من الجمال ، حسب امر من الجنرال بيليسيه . . . ورغبت في أن أبرهن على ادعائي . . . . رغم أن الشامبي لم يكن من أولئك « الطلاب الذين يستقون علمهم من الزوايا » . . . وليس محاربا شهيا . . . كان رجلا من أبسط الناس ، كما لوكان بائعا متجولا في قرانيا . حسنا ! قلت لمحاوري : أراهن على أنني إذا استجوبت ، بالصدفة ، ساكن الصحراء المجهول هذا ، استطيع أن أسحب من دماغه أغاني تسكر أفضل شعرائنا حتى الثمالة . فقبل الرهان . بدأت الاستجواب . . . . بدأ بأغان دينية . . . ثم بعد أن دندن قليلا ، كي يكون الايقاع ، بدأ بأغنية طويلة ورتيبة مثل آفاق الصحارى .

ويلي ذلك ترجمة لقصيدة تقع في ٢٦ بيتا . ثم يضيف الجنرال قائلا :

« لست أدري ما إذا كنت أبالغ في إظهار جمال هذه الأبيات ، ولكن يبدو لي أن في هذه القطعة من السحر ومن العظمة ما قل أن يوجد ما يماثلها حتى عند شعراء الدول الأكثر تقدما . . . . »

ويقول بعد قليل : « يستوحي الشعراء العرب كل وحيهم من الينابيع نفسها : الدين ، والحرب ، والحب ، والخيل ، وهي تشكل كل المواضيع التي يتغنون بها . . . . ياله من فرق بين هذا الشعر القوي ، الغني في تفاصيله وتطوره ، ولكنه الجدي في طرائقه ، وبين شعرنا المضطرب ، المعذب ، القلق ، المهووس ، الذي يقلب كل السماوات والأرض كي يجد مواضيع يعالجها بلغتنا المحمومة والمصطنعة ! »

(١٠) ربما كان أصل الكلمة : شامي .

وبعد بضعة أشعار لشامبي ، يقول :

« إنه خطأ كبير ، الاعتقاد بأن الاسلام يحبس المرأة في حالة اضطهاد وانه لايمكن تحريرها الا بمعجزات الإيمان المسيحي . فعلى العكس ، احتفظت المرأة المسلمة في قلوب الرجال بتلك المكانة التي كانت للملكات خلال المبارزات العسكرية للفرسان العشاق ، ومحاربي العصور الوسطى »

ويضيف : « استطاع شامبي ان ينشد لنا قصيدة تامة ، حيث نجد فيها المرأة موصوفة بشعور عميق من الحنان العاطفي ، والعشق الجنسي مع ذلك الصخب من الصور الحارة التي تتفجر في الشرق في كل أغاني الحب منذ نشيد الأناشيد » .

ويترجم قصيدة في ٢١ بيتا ، مطلعها :

لايمكن لأحد أن يشبه أختي الا بالفرس المحرية .

ويقول المؤلف : ان كلمة أخت عند عرب الصحراء الكبرى تعني : الخليلة . ويقول أيضا : « لايمكن لأحد أن ينازع مكانة المرأة في قلب المسلم الا الفرس » وينتهي بقوله : « فكرت ، عندما ذهب شامبي ، أن هذا الانسان التائه يحمل في طيات ردائه أكبر كنزين في العالم : الشعر والحكمة » .

وفي آخر مقطع من الكتاب يقول : « أرغب في أن أعرف عادات بلد أصبح اليوم وإلى الأبد ، مشاركا لبلدنا ، بكل تفاصيله » .

وهنا خان الجنرال التنبؤ بأن ذلك مستحيل ، وأنه كان يحلم . ألم أقل في بداية عرضي إنه كان رومانسيا ؟

ويضيف : « سأحبه لمئات الأسباب » و « إن اكثر ما يبعث الحماسة في النفوس عندنا هو المصلحة ، فهي التي تتحدث وتحاور المخيلة . . . »

ويزيد المؤلف فيقول : « في الشعوب الافريقية ، نجد الرشاقة ، والذكاء ، وبريق الحضارات القديمة ، ممزوجة مع قوة الحياة البدائية . هؤلاء الرجال الذين يمضون الوقت تحت الخيم ، ويعيشون مع المهماز والبندقية ، تعودوا العيش مع شاعرية القرآن الخالد ، وهم بالنسبة لكل الأمور الإنسانية لقطات مليئة بالنعومة » .

ويقول المؤلف إنه عاد فصادف شامبي هذا فحاوره وسأله عن رأيه في باريس وفي الحضارة الفرنسية ومعطياتها ، فمدح البدوي ذلك ولكنه راح يصف صحراءه بلغة شاعرية جميلة ، جعلت منها ، على ما يقول الجنرال ، جنة خلابة . وعندما أراد البدوي الذهاب ، ودعه الجنرال ودس في يده قطعة نقدية أخذها البدوي ضاحكا وخرج قائلا :

« ها هو أبوك أنت » مشيرا للقطعة النقدية « أما أبي فهو ابو الجميع ● . » واشار الى السماء ومضى .

وهكذا ينتهي الكتاب .

وددت لو ترجمت الكثير منه لأقدم للقارىء صورة حية دقيقة عن الحياة العربية البدوية في الصحراء الكبرى ، في أواخر القرن التاسع عشر . . . ولكن الذي أوده أكثر ترجمة الكتاب كاملا . . . ذات يوم .

● أظن أن الجنرال دوما أساء فهم ما قاله الشامبي ، إذ التبس عليه فهم كلمة : بالله ، وربك ، فالأولى تعني أبوك ، والثانية ربك . وأعتقد ان شامبي قال له : هذا ربك وهذا ربي . فاذا كان المسيحيون يسمون إلههم : الأب (والابن والروح القدس) ، فالأمر مختلف عند المسلمين . ولقد وجدت أخطاء أخرى في الكتاب كقوله بان الميل العربي يساوي كيلومتراً واحداً ، والحقيقة انه يساوي الضعف . . الخ . .